على حافة الهاوية

العراق ١٩٦٨ - ٢٠٠٢

الكتاب: على حافة الهاوية

المؤلف: جعفر الحسيني

الطبعة الاولى: كانون الأول ٢٠٠٢ / لندن

الطبعة الثانية: ٢٠١٥/ بغداد

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: الروسم

للصحافة والنشر والتوزيع

بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي التجاري

هاتف: ٠٧٧١٤٢٤٧٥٩٢

E - Mail: zaeemalnassar@yahoo.com

www.alrawsam.com

الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح

Copy Right © AlRawsam Publishing

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه

إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the publisher

جعفر الحسيني

على حافة الهاوية

العراق ١٩٦٨ - ٢٠٠٢

AL-RAWSAM
الرّوسم
للصحافة والنشر والتوزيع

الإهداء

إلى نعمة الحسيني..

ابن الأربع والثلاثين ربيعاً، والذي اختفت آثاره عندما كان يـزور إحـدى المدارس بمدينة كربلاء كمشرف تربوي لمادة الجغرافية، يـوم ١٩٨١/١٠/١١، وقد ترك بنتاً وحيدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

(سورة الشعراء - آية ٢٢٧)

المقدمة

ربما لا يعتقد إلا القليلون بأن انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ في العراق، أخطر حدث في تاريخ المنطقة بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، ذلك رغم كل النتائج الخطيرة التي ترتبت عليه، والتي يبدو أي حدث آخر وكأنه بعض نتائجه.

ولا يحتاج المرء أن يتحدث عن مقدمات ما جرى، والتي ليس لدينا سوى معلومات قليلة عنها، هي أقرب إلى الشائعات، ولكن أمامنا تلك النتائج الخطيرة، والتي لم تعد تحتاج - لكثرتها ولقوة مدلولاتها - إلى جهد لتفسيرها أو تحليلها.

ولا يغير العدوان الأميركي القادم على العراق، من طبيعة تلك النتائج ولا من قوة مدلولاتها. حتى وإن وجد البعض فيه مدخلاً لنسيان الماضي، ولترتيب نتائج جديدة، إنهم لا يرون - بذلك - إلا نهايات المشهد، ويهملون أحداثاً خطيرة استمرت أكثر من ثلاثين عاماً وقادت المنطقة - بالتالي - إلى هذه النهايات.

ويبدو أننا لم نفق بعد من دروب الوهم التي تهنا فيها.. وهم القوة رغم هزائمنا المنكرة والمتكررة.. ووهم الزعامات (المخلّصة والملهمة) والتي تكرر نفسها، وتكرر أخطاءها وخطاياها، ورغم ذلك تدعي تميزها وريادتها، ولا نتردد في إضفاء القدسية عليها.. والوهم المتضخم بتفرد الذات وعظمتها (الذات المتضخمة).

ثم ذلك (الوعي المتخلف) الذي قال عنه أحد سياسيي تلك الأيام: (المصيبة لا تكمن في تخلف ما كنا نكتب بل في أن آلاف الناس كانت على استعداد للموت تحت تأثير هذا الوعي المتخلف).

إن بلادنا تعاني من خلل ذاتي (مزمن) متمثل في أنظمة تعيش خارج التأريخ، والتي تساهم بتخلفها وقمعها - أرادت أو لم ترد - في المؤامرة على شعوبنا. والمرير، أن البدائل

التي قاتلت الجموع تحت راياتها، لم تكن أرقى من تلك الأنظمة الكارثية، بل كانت صورة مقلوبة عنها.

وبعيداً عن الاستخدام الفج والمفتعل لنظرية المؤامرة، والذي أسرفت الأنظمة العربية فيه، وهي تجهز على معارضاتها، وتتهرب من مسؤولياتها، فان (التاريخ ليس كله مؤامرة، إنما المؤامرة جزء من التاريخ).

ومن الغفلة استبعاد دور المؤامرة في منطقة صراع وجود دامٍ، يحاول فيه العدو أن يستغل كل تناقضاتنا وثغراتنا وأخطائنا. ويبذل الكثير من الوقت والجهد والمال ضدنا، ويرصد كل حركة وسكنة في بلادنا، ولا يضيع فرصة دون أن ينفذ منها، سواء جاءت هذه الفرصة من صديق أو عدو.

وإذا كانت الحشود بما تتصف به من إدراك ضعيف وذاكرة سيئة، هي بنت (اللحظة)، فإن على النخبة أن ترى الحاضر برؤية مستقبلية مسؤولة، وبقراءة واعية للتاريخ.

وإحدى النتائج الخطيرة لكارثة العراق، ان يتشكل من ردود الأفعال، وعياً عراقياً مأزوماً، ينحو باتجاه الانعزال عن محيطه العربي والإسلامي، وينقلب على كل الحقائق الجغرافية والتاريخية، محاولاً أن يخلق لنفسه (حقائق) مشحونة بالانفعال والمرارة.

فقد كتب سعد البزاز الصحفي القادم من عباءة النظام إلى منافي المعارضة: (لا يوجد شعب يشعر أنه معرض للمخاطر ومحاط بالأعداء مثل شعب العراق.. وهي مشاعر متأتية من ارث تاريخي متراكم عمره ستة آلاف سنة)[1].

ومن صور هذا الوعي المأزوم، بل أكثرها نشازاً، أن يُبرر العدوان الأميركي على العراق.. ويقابل ذلك ويساويه نشازاً، موقف الذين يبررون -عن وعي أو غير وعي- أعمال القتل والتعذيب، حتى عندما تكون بحجم كارثة العراق.

والجدير بالذكر ان القليل من الناس خارج العراق، وحتى من داخله، هم الذين يعرفون حجم الكارثة ويدركون آثارها. فأوسع الناس خيالاً لن يستطيع أن يتصور

١- سعد البزاز. حرب تلد أخرى. ص١٣.

مأساوية ما حدث ولا معقوليته. ولن يستطيع - أيضا - أن يتصور أن تلك الشعارات الرنانة، والتي يخالها المرء من بعيد، كما لو أنها جاءت لتغير الكون، كانت غطاء لأكثر الأنظمة تخلفاً ووحشية.

حقا (ان الذين لا يفهمون تاريخهم، محكوم عليهم إعادته). وهذا الكتاب محاولة لفهم ما جرى، من خلال البحث في أسبابه وظروفه ونتائجه، وقد تتبع الكتاب جذور بعض القضايا عبر مراحل زمنية مختلفة -خارج الزمن المحدد لموضوع الكتاب- للوصول إلى فهم أدق لها.

وثمة مسألة لابد من الإشارة إليها، فقد أخذني البحث - والبحث وحده - إلى الخوض في أمور لا تتفق مع قناعاتي، أو بتعبير أدق إنها لا تتفق مع مزاجي وطريقة تفكيري، كالمسألة الطائفية مثلا، ولو أنني - الآن - أكثر اقتناعاً بأننا يجب أن نناقش بوضوح وصراحة كل قضايانا، وأننا بذلك سنكون أقوى وأكثر تماسكاً.

ومن الضروري القول أيضا، ان مهمة هذا الكتاب ليست التشهير بحزب البعث، والذي أنجب الكثير من الكتاب والسياسيين. ولكنه أنجب أيضا - وهنا المشكلة - مدرسة في العراق، أسرفت ومنذ عام ١٩٥٩ في العنف والدماء، وجرها ضباط مشبوهون كالبكر وعماش وغيرهم، إلى زوايا الصراعات الدولية، فذبحت الشيوعيين عام ١٩٦٣، وحاربت الناصرية بلا هوادة، وذبحت الإسلاميين بدون رحمة.

ولابد أن أشكر الأصدقاء الذين مدوا يد العون لي لإنجاز هذا الكتاب، وهم كثر وأخص منهم، الصديق العزيز الأستاذ (فوزي الراوي) الذي وضع مكتبته العامرة بالكثير من المراجع المهمة تحت تصرفي، والأستاذ (طالب الحسن) الذي أنجدني مراراً وأنا أبحث عن هذا المصدر أو ذاك وقد تفضل أيضاً بتصحيح ملازم الكتاب أثناء صفه، والأستاذ (محمد الخزاعي) الذي تفرغ لتصحيح ملازم الكتاب أثناء صفه. وكذلك أخي (محمد الحسيني)، الذي زودني بالكثير من المصورات والمطبوعات الصادرة في لندن.

جعفر الحسيني

دمشق، ٢٣ أيلول ٢٠٠٢

الفصل الأول

الانقلاب المشبوه

(الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها
أمرها وتآمر عليها بغير رضا منها)
من رسالة لأهل العراق إلى الإمام الحسين
في القرن الأول الهجري

معظم الثورات والانقلابات في تاريخ العراق الحديث نُسبت لأسماء لم يكن لها الدور الحاسم فيها. فثورة العشرين (١٩٢٠) يربطها كثيرون بحادثة تخليص شيخ قبيلة معروف من السجن. وكانت الثورة ستنفجر - وقد نضجت ظروفها - بجهود علماء الدين والوطنيين وبعض شيوخ القبائل. ولا يعني هذا - البتة - التقليل من دور هذا الشيخ البطولي والأساسي في الثورة. وقد ظلت قبيلته تقاتل قوات الاحتلال البريطاني، حتى بعد أن ألقى الآخرون السلاح.

واشتهرت حركة مايس (١٩٤١) بثورة رشيد عالي الكيلاني والذي جاء به العقداء الأربعة رئيساً للوزراء، بعد أن رفض العميد طه الهاشمي التعاون معهم.

وسميت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بثورة عبد الكريم قاسم، والتي (لولا إقدام عبد السلام عارف على تنفيذ الثورة لما تجرأ أحد من أعضاء اللجنة العليا على تنفيذها)[٢].

أو كما قال كاتب آخر (فان الزعيم عبد الكريم قاسم وكذلك العقيد عبد السلام

٢- ليث عبد الحسن الزبيدي. ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق. الطبعة الثانية. ص٣٤٥.

عارف لعب كلاهما دوراً مماثلاً في الأهمية من حيث تنفيذ ثورة تموز. فالثاني هو الذي زحف على بغداد واحتلها، لكن رتبة الأول العسكرية وأقدميته في الجيش مكنت له تزعم حركة الضباط الأحرار وتولي السلطة كرئيس للنظام الثوري الجديد)[٣].

وانقلاب ١٤ رمضان (٨ شباط ١٩٦٣) الذي قام به حزب البعث، وجاء بعبد السلام عارف رئيساً للجمهورية، نسبه الأخير لنفسه وتلقب بأبي الثورات الثلاث (١٤ تموز، ١٤ رمضان، ١٨ تشرين).

أما انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ – وهو موضوع هذا الفصل أو بالأحرى هذا الكتاب – والذي ما كان لولا العميد الركن إبراهيم الداود قائد الحرس الجمهوري، والمقدم عبد الرزاق النايف معاون مدير الاستخبارات العسكرية. فقد نسبه حزب البعث لنفسه تماماً، وادعى بأن الداود والنايف طارئان عليه، وان الأخير إنضم إليهم في اليوم السابق للانقلاب.. أي أنهم قلبوا الحقيقة تماماً، رغم اعترافهم فيما بعد بأن (الاعتماد على الإمكانات الذاتية للحزب.. في الإطاحة بحكم الردة التشرينية، يعني حتماً تأجيل عملية الثورة، لفترة طويلة جداً..)[٤].

وقد وجد كل منهما في الآخر – أي البعث ومجموعة النايف الداود – شريكاً مناسباً للإطاحة بحكم عبد الرحمن عارف. (ولو عمل كلٌ منهما على حدة لفشل كل من البعث وعصبة القصر في تحقيق هدفهما. أما متحدين فقد أنجزوا انتصاراً سهلاً)[٥]. كان حردان التكريتي، العائد لتوه من أوروبا، بعد أن أبعده عبد السلام عارف إليها عام ١٩٦٤، صلة الوصل بينهما. ويبدو أن كل ذلك قد حدث عام ١٩٦٨[٦].

٣- مجيد خدوري. العراق الجمهوري. بيروت ١٩٧٤. ص١٠١.

٤- حزب البعث العربي الاشتراكي. التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن. بغداد ١٩٧٤. ص٣١.

٥- حنا بطاطو. العراق. الكتاب الثالث. ص٣٩٠.

٦- د. أمير اسكندر. (صدام حسين...). ص١٠٣ – ١٠٤.

(وسهل ظرف عابر عمل الطرفين، إذ كان رجل النظام العسكري، سعيد صليبي، مريضاً صحياً فذهب إلى لندن لإجراء فحوص طبية)[٧]. وسافر أيضاً لغرض مماثل، ضابط مهم آخر، هو العميد فاضل محمد علي المرافق الأقدم للرئيس عارف، وأحد رجالات ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨[٨] ويقال أنه هو الذي قتل صباح النجل الوحيد لنوري السعيد، في تلك الثورة[٩]. وكان النايف والداود (قد عرضا عليه العمل معهما للقيام بانقلاب ضد عبد الرحمن عارف، فلجأ إلى إخبار عبد الرحمن عارف، ولكنه لم يبد أية ردود فعل ضدهما)[١٠].

كان النايف والداود يسيطران، ليلة ١٧ تموز١٩٦٨ أي ليلة الانقلاب، على الوضع في بغداد تماماً. أما الرئيس عبد الرحمن عارف، ففي كل مرة يُحذر فيها منهما، كان يردد (إن هؤلاء مخلصون وقفوا إلى جانبي في المحنة.. أشك في زوجي ولا أشك فيهم)[١١]. وذهب جلال الطالباني، المتحالف مع الحكومة آنذاك، بعد أن أبلغه البعثيون بانقلابهم القادم، وأبلغ الرئيس عبد الرحمن عارف، فرد عليه: (أصحابك الناصريون أخبروك بذلك) ثم أضاف (استدعيت إبراهيم الداود آمر الحرس الجمهوري وعبد الرزاق النايف نائب رئيس المخابرات العسكرية وحلفوا لي بالقرآن أنهم لن يتآمروا علي)[١٢].

ومما له صلة - كما يبدو - بترتيبات الانقلاب، وبعد أن جرت لقاءات بين البعث اليساري في العراق، والحزب الشيوعي العراقي، والحركة الاشتراكية العربية (جناح

٧- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٠.

٨- المرجع السابق. ص١١٠.

٩- مذكرات العميد الركن المتقاعد جاسم كاظم العزاوي. ثورة ١٤ تموز. ص١٢٨-١٢٩.

١٠- برزان التكريتي. محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين. الطبعة الثانية. ص١٣.

١١- عبد الكريم فرحان. حصاد ثورة. ص٢٢٢.

١٢- مجلة الوسط. العدد (٣٥٥)، ١٩٩٨/١١/١٦. نقلاً عن صلاح الخرسان. التيارات السياسية في كردستان العراق. ص١٧٠.

فؤاد الركابي)[١٣]. (وفي أواخر حزيران ١٩٦٨، وضعت السلطات العراقية يدها على دار سرية.. تبين فيما بعد أنها المقر الرئيسي لتنظيم البعث اليساري. وتردد أن مصدر الإخبارية هو حزب البعث العفلقي)[١٤].

(واعتقلت سلطات الأمن جميع الأشخاص الواردة أسماؤهم في القائمة)[١٥] التي وجدت بالمقر. وكان (بعض الضباط الشباب الذين جمعهم الجناح اليميني لحزب البعث ذهبوا إلى الرئيس عارف قبل الانقلاب بنحو شهر وقالوا له «إننا متأكدون أنك تتعرض لخطر شديد، من مؤامرة شيوعية وبعثية يسارية...»)[١٦].

كان النايف - وطيلة عهد الرئيس عبد الرحمن عارف - الرئيس الحقيقي للاستخبارات العسكرية. إذ كان مديرها (العقيد شفيق الدراجي)[١٧]، ضعيفاً ومشغولاً بحياة اللهو. وتعيين ضابط بهذه المواصفات، مديراً للاستخبارات العسكرية أو بأي منصب رفيع آخر في الجيش، حالة شائعة في العالم الثالث، ليكون مجرد واجهة لضابط صغير من أقرباء الرئيس كالنايف، ومَن يُسيطر على الاستخبارات العسكرية، في مثل ظروف العراق آنذاك، كان هو الذي يسيطر على القوات المسلحة.

وامتد نفوذ النايف إلى خارج القوات المسلحة. فكان يراقب رئيس الوزراء والوزراء وأوضاع البلد السياسية، وكان يُفترض أن كل ذلك يتم لمصلحة رئيس الجمهورية، بل وامتد نفوذه إلى كل نشاطات الدولة، والى الشؤون التجارية أيضاً. وصار هو وضباطه

١٣- جريدة الأنوار اللبنانية. العدد: (٢٦٣٥)، في ١٩٦٨/٢/٢٧. نقلاً عن حسن السعيد، نواطير الغرب. ص٣٢١-٣٢٢.

١٤- جريدة الأنوار، عدد (٢٧٥٥) في ١٩٦٨/٦/٢٩، نقلاً عن المرجع السابق. ص٣٤٦.

١٥- جريدة الحياة اللبنانية، عدد (٨٦٢٢)، في ١٩٦٨/٧/٥. نقلاً عن نفس المرجع ص٢٦٩.

١٦- جريدة التايمز البريطانية. في ٢٣ تموز ١٩٦٨. نقلاً عن نفس المرجع. ص٢٤٧.

١٧- من عائلة ذات أصول كردية. وقد انضم إلى الانقلاب بعد نجاحه يوم ١٧ تموز، فعين أميناً لسر مجلس قيادة الثورة حتى عام ١٩٧١ إذ عين سفيرا.

يتدخلون في كل شيء ويتحكمون بكل شيء، وكان مكتبه يغص يومياً بمختلف الشخصيات.

يقول الوزير آنذاك فرحان: (لقد تحولت مديرية الاستخبارات العسكرية إلى أداة بطش وتخويف وابتزاز بعد تولي السيد عبد الرحمن عارف رئاسة الجمهورية وبخاصة بعد فشل حركة عارف عبد الرزاق الثانية لضعفه وثقته المفرطة بأبناء الرمادي من الضباط، واستغل عبد الرزاق النايف هذه الثقة أبشع استغلال.. كما سبق له استدعاء فؤاد الركابي وضربه بأخمص المسدس في حكومة ناجي طالب.. ثم استدعى الشكرجي للتحقيق معه ولم يعرف مصيره ودخل في عداد المفقودين..)[١٨].

وأنشأ النايف لنفسه تنظيماً سياسياً سماه (منظمة الثوريين العرب)، ومن أبرز وجوه هذه المنظمة، تحسين السوز، سامي فرج علي، نزار بكر،الوزير شكري صالح زكي، إبراهيم الشلال رئيس الجمعيات الفلاحية. وكان للمنظمة صحيفة يومية اسمها (الثورة) يتصدرها الشعار الناصري (حرية، اشتراكية، وحدة). وكان رئيس ديوان رئاسة الجمهورية، الدكتور بديع شريف، على صلة جيدة بالتنظيم. ويُتهم الأخير، بعلاقة مشبوهة بالسعودية، وأنه كان يبعث برقيات سرية من القصر الجمهوري إلى السعودية[١٩].

من جانب آخر فإن الحركة الوطنية في العراق، تتهم النايف بالعمل مع المخابرات الأميركية، وهي تهمة تسندها الكثير من القرائن، ولكنها كمعظم التهم في العالم الثالث، تظل بلا دليل.

ويرى الرئيس عبد الرحمن عارف – وليس لهذا الرأي بعد الذي جرى من قيمة – بأنهم اشتروا النايف (من خلال العربية السعودية وبواسطة الوسيط بشير الطالب، الملحق العسكري في بيروت والقائد السابق للحرس الجمهوري، وناصر الحاني، السفير العراقي

١٨- عبد الكريم فرحان، المرجع السابق. ص٢١٩.

١٩- المرجع السابق. ص٢٠٦.

في لبنان)[٢٠]. وهو يعتقد أن سياساته النفطية المستقلة، وحجبه لامتياز الكبريت عن شركة (بان - اميركان)، هي التي كانت وراء سعيهم لتدمير حكمه[٢١].

ولكن انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، وكما جرت الأحداث فيما بعد، كان أكبر من ذلك، وكان (أكبر من العراق، وأكبر من أن يكون نهاية عشر سنين بدأت بـ (١٤ تموز ١٩٥٨) وانتهت بـ «١٧ تموز ١٩٦٨»)[٢٢]. إذ إن الاتفاق بين النايف وحزب البعث، وأيا كان تصورنا له، سيقلب مستقبل المنطقة كلها. ومن الجدير بالذكر هنا، وحيثما يرد اسم البعث في هذا الكتاب، فالمقصود به جماعة عفلق، أما الجناح الآخر فسنشير له باليساري.

المفارقة أن كل هذه التهم لا ينفيها البعثيون عن النايف، بل أنهم يرددونها أيضاً. وهكذا (يبدو أن انقلاب ١٧ تموز كان شأناً متعدد الأطراف وكان أقرب إلى الغموض في بعض جوانبه)[٢٣]. وعلى أي حال، سيبدو دور النايف، دوراً عابراً لرجل ساذج، وضعته ظروف استثنائية في قلب تلك الأحداث، وستكون مهمته الوحيدة، نقل السلطة من عبد الرحمن عارف إلى (يد) حزب البعث.

يقول قائد بعثي سابق، كان قريباً من اللعبة الدولية في المنطقة، أو هكذا يُتهم، ما نصه: (وأنا، طالب حسين شبيب، أعلم علم اليقين أن الاتصالات السرية الخاصة، التي حصلت حول العراق قبل ١٧ تموز ١٩٦٨، كان هدفها جلب الضد النوعي القومي، فوقع الاختيار على كتلة البكر عماش صدام بهدف معاكسة عبد الناصر ونظام البعث في سوريا.. بل وستعمد إلى عرقلة جهود الحركة القومية وامتصاص زخمها بإدخالها في مناظرات ومواقف خلافية لا نهاية لها)[٢٤].

٢٠- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٠.

٢١- المرجع السابق. ص٣٩٠.

٢٢- جريدة العمل اللبنانية. العدد (٤٨٤٦) في ١٩٦٨/٧/١٩ نقلاً عن السعيد، المرجع السابق، ص٣٩٧.

٢٣- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٨٩.

٢٤- د.علي كريم سعيد. عراق ٨ شباط (مراجعات في ذاكرة طالب شبيب). ص٢١٨.

وقد جاءت الأحداث لتتطابق كثيراً مع هذه المقولة.. الأحداث القريبة.. والأحداث البعيدة، حتى وإن تغيرت، فيما بعد، الأسماء والشعارات والتفاصيل..

لقد كان انقلاب ١٧ تموز، انقلاباً على جمال عبد الناصر، والذي كان يخوض - آنذاك - صراعاً مريراً ضد العدو الصهيوني. وكان يجد في العراق بلداً مسانداً.. ولكنه الآن - بعد ١٧ تموز - أصبح بلداً معادياً.. رغم أن عبد الناصر، قد قرر نسيان الماضي، بكل جراحه، فمد يده إلى الجميع، وصالّح الملك فيصل، وكان سيعيد بعد فترة وجيزة علاقاته الدبلوماسية مع شاه إيران.. كان أمامه موضوع واحد، وصراع واحد، وعدو واحد، هو (إسرائيل).

ولكن القادمين الجدد إلى الحكم ببغداد، ومنذ الأيام الأولى، أسفروا عن عدائهم له.. وإذا كان خلافهم الحزبي مع سوريا، يصلح عندهم أن يكون سبباً للفراق بين البلدين.. فقد بدا غريباً من الذين جاؤوا للحكم بشعار واحد هو (كل شيء من أجل المعركة)، أن يفتعلوا ويصعّدوا الخلاف مع عبد الناصر. ثم إذا كانوا لا يريدون أن يقاتلوا إسرائيل مع سوريا وعبد الناصر، فهل سيقاتلونها مع الملك حسين؟

إن العداء المستحكم بين حزب البعث (العفلقي) من جهة، وعبد الناصر والنظام اليساري في سوريا من جهة أخرى كان يعني استحالة قيام أي تعاون أو تنسيق بين العراق وسوريا ومصر. وبالتالي انفراط (الجبهة الشرقية) الهشة أصلاً، والتي كانت قائمة ضد إسرائيل آنذاك. باختصار شديد، إن ذلك كان يعني خروج قدرات العراق من المعركة، وبقاء سوريا وحيدة، في خط المواجهة الشرقية، والتي صار اسمها (الجبهة الشمالية). وازدياد العبء على مصر، والتي كانت تسمى بالجبهة الغربية، أما وقد انفرطت شقيقتها الشرقية، فصار اسمها الآن (الجبهة الجنوبية).

يقول الفريق سعد الدين الشاذلي، عن رحلته إلى العراق في ٢٦ مايس ١٩٧٢، أي قبل حرب تشرين: (كانت رحلتي إلى العراق محدودة النجاح. كانت هناك وعود عراقية بدعم الجبهة الشرقية «جبهة سوريا» ولكن هذا الدعم كان مشروطاً بالموقف على الجبهة الإيرانية وموقف الأكراد في الشمال كما أنه كان مشروطاً بقيام حرب فعلية، وبالتالي فإن

الجبهة الشرقية لا تستطيع أن تدخل في حساباتها القوات العراقية أو جزءاً منها كعنصر أساسي عند التخطيط للمعركة)[٢٥].

وبعد أن أشاد بمساهمة القوات العراقية في حرب تشرين - أكتوبر ١٩٧٣، يقول الشاذلي: (لو أن تلك القوات العراقية كانت متمركزة في سوريا قبل بدء القتال لتغيرت نتائج القتال على الجبهة الشرقية،وهذا درس يجب أن نستفيد منه في المستقبل)[٢٦].

ان الذين رفضوا إرسال الجيش إلى الجبهة، كانوا - وقبل استلامهم الحكم - لا يكفون عن الحديث عن تقصير الحكومة، في الحرب على إسرائيل[٢٧]. أي تماماً، كما ثاروا على عبد الكريم قاسم، باسم (الوحدة العربية) ولما جرت مناقشتها، تحفظوا عليها متذرعين (بالمشكلة الكردية والخطر الإيراني والمشاكل الاقتصادية وغيرها)[٢٨]. بل وصرحوا (بأنهم ما كانوا يريدون وحدة أو اتحاداً حيث أن للعراق مشاكله الكبرى التي يريدون التفرغ لها..)[٢٩].

❖ ❖ ❖

كان نظام الرئيس عبد الرحمن عارف، ضعيفاً وفاسداً. وكانت الأوضاع تزداد سوء في جميع المجالات. والرئيس عارف (لم يكن سيئاً أبداً بل على العكس طيباً.. ولكن قد يؤخذ عليه أنه لم يكن حازماً بما فيه الكفاية مما أتاح للكثيرين استغلال الظروف[٣٠]. وعلى

٢٥- الفريق سعد الدين الشاذلي. حرب أكتوبر. الطبعة الثالثة ١٩٨٤. ص٢٨٩.

٢٦- نفس المرجع. ص٢٩٠.

٢٧- الدكتور مجيد خدوري. العراق الاشتراكي. ص٣٤.

٢٨- هاني الفكيكي. أوكار الهزيمة. ص٢٨٩.

٢٩- أمين هويدي. كنت سفيراً في العراق. ص٥٥.

٣٠- مجلة (الجمهور الجديد) اللبنانية. العدد (٧٣٦)، في ١٩٦٨/٧/٢٥ نقلاً عن السعيد. المرجع السابق. ص٢٦٤ (حاشية).

رأس هؤلاء الكثيرين، رئيس الوزراء طاهر يحيى، وبعض الوزراء، وكبار ضباط القصر.

من جانب آخر فإن وصول أي من المجموعات الناصرية إلى الحكم في العراق، كان يعني انقلاباً خطيراً في موازين القوى في المشرق العربي، ودعما قوياً لعبد الناصر وللجبهة الشرقية ضد العدو آنذاك، ويبدو أن قوى متعددة، محلية وخارجية، كانت تتحسب كثيراً لذلك[٣١] وتفكر بقطع الطريق على محاولة كهذه.

وفي حديث لـ (بن غوريون)، في مجلس الوزراء الإسرائيلي، في ٢٩ مايو ١٩٤٩، نُشر مؤخراً، يقول فيه: (يجب منع مصر من إقامة أي تحالفات مع بقية العالم العربي قفزاً فوق إسرائيل خصوصاً مع سوريا بالذات ثم مع السعودية والعراق وهذه مسألة مهمة[٣٢]. ومن الواضح الآن، أن هذه الخطط الإسرائيلية، وجدت سبيلها إلى التنفيذ مراراً بواسطة المخابرات الأميركية.

ان التعاون بين حزب البعث والمخابرات الأميركية ليس غريباً. إذ (من المؤكد أن بعض قادة البعث كانوا على اتصال بشبكات المخابرات الأميركية)[٣٣]. وقد أكد عبد الستار الدوري، عضو قيادة حزب البعث في العراق عام ١٩٦٣، بأنه سمع من الزعيم البعثي المعروف (علي صالح السعدي) بأنهم جاؤوا بقطار أميركي إلى الحكم في العراق عام ١٩٦٣[٣٤]. ولعل السعدي كان يقصد بذلك علاقة البكر وعماش بـ (ليكلاند) الملحق العسكري الأميركي ببغداد، والتي سنتحدث عنها لاحقاً.

٣١- انظر بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٠.

٣٢- محمد حسنين هيكل، سياحة صيف في الوثائق الإسرائيلية، جريدة السفير. العدد(٨٧١٨) في ٢٠٠٠/٩/١٣، ص١٤.

٣٣- ماريون وبيتر سلجيت. العراق منذ عام ١٩٥٨ - ١٩٨٧. نقلاً عن باتريك سيل. أبو نضال بندقية للايجار.ص١٦٢.

٣٤- عبد الستار الدوري. تلفزيون أبو ظبي. برنامج (بين زمنين) في ٢٠٠٢/٢/١.

وقد كانت العلاقة مع الولايات المتحدة تجد مبرراتها، في أجواء ما اعتبره عفلق بأن (الشيوعية الخطر الرئيس على القومية العربية) [٣٥]. فعفلق وآخرون كانوا يريدون حزباً قومياً (لمكافحة الشيوعية) لا لتحقيق الوحدة العربية، أو هكذا انتهى البعث على يدهم.

فوجد الغرب فيه أداة مفيدة، لضرب جمال عبد الناصر، ومحاصرة النظام اليساري في سوريا، وتوريط المقاومة الفلسطينية في القتال مع الملك حسين المتربص بها، وإسقاط الجبهة الشرقية، وإخراج العراق من الصراع العربي الصهيوني من الناحية العملية، وإبقائه بعيداً عن أي مشروع وحدوي حقيقي، وزجه في الحرب العراقية الإيرانية، ثم في صحراء الكويت، وكل ذلك جرى تحت أكثر الشعارات قومية وثورية.

على أي حال، (منذ زمن بعيد، توجد شبهات بأن الولايات المتحدة وبريطانيا أيدتا أول انقلاب بعثي في العام ١٩٦٣، وانقلاب العام ١٩٦٨، بسبب عداء البعثيين الشديد آنذاك، للشيوعيين والناصريين الساعين إلى الاستيلاء على السلطة في العراق) [٣٦].

وللغرب تجربة مماثلة في المنطقة، فعند جلاء بريطانيا عن جنوب اليمن، في ٢/ تشرين الثاني عام ١٩٦٧، سلمت عدن للجبهة القومية، الأكثر يسارية وعداء للاستعمار، وكان ذلك إجراء مفاجئاً وغريباً، ويبدو أن وراء ذلك رفض الجبهة القومية - الوحيدة بين فصائل الثورة - للوحدة مع ما تسميه (النظام الرجعي) في شمال اليمن. لقد أدى ذلك إلى تأخير وحدة اليمن حوالي ربع قرن، الامر الذي كلف اليمن سلسلة من الحروب الأهلية البشعة، تحت أكثر الشعارات ثورية. وقد ذهب أصحاب تلك الشعارات فيما بعد، ليقضّوا بقية حياتهم مع ملايين الدولارات التي سرقوها، في أكثر البلدان العربية رجعية،والتي سبق أن أعدموا الكثيرين بتهمة العلاقة معها.

لقد عاد حزب البعث - بعد هزيمة حزيران - بقوة إلى الحياة السياسية، وقد أعطته

٣٥- زكي خيري وسعاد خيري. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. ص٤٩٦.

٣٦- جوناثان راندل. أمة في شقاق (دروب كردستان كما سلكتها) ص٤٣١ (حاشية رقم ٤٤).

الهزيمة مادة تشهيرية واسعة بالرئيس عبد الناصر، وبنظام البعث اليساري في سوريا. وكان لا يفوّت مناسبة، دون التذكير بموقفه المعارض لهما، والادعاء بصحة خطه في مواجهتهما.

وكان غياب الرئيس القوي عبد السلام عارف، ومجيء أخيه الضعيف عبد الرحمن عارف محله، فرصة لا تُقدر بثمن، لجماعة عفلق في العراق، كي يعيدوا تنظيم أنفسهم، بعد الضربة التي تلقوها في سوريا في حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦، إذ انضمت أغلب تنظيمات البعث في العراق إلى صفوف البعث اليساري، وكذلك كان الأمر في الأردن ولبنان واليمن والسودان والسعودية والخليج (والتنظيم الفلسطيني الموحد) ومنظمات الحزب في أوروبا.

ولكن هنا في العراق، الذين آثروا البقاء مع عفلق، أو بالأحرى مع البكر، كانوا أقلية فاعلة، وذات وزن في العالم السري للحياة السياسية في العراق. إذ كان بينهم ضباط من مختلف الرتب، وعناصر مدنية اعتادت على القسوة والانتقام، ولها سجل حافل بالاغتيالات والتعذيب والاعتداء على الآخرين عام ١٩٦٣. وكان على رأس هذه المجموعة،والتي تدين له بولاء مطلق، أحمد حسن البكر، أخطر رجل من بين كل تلك الوجوه السياسية في عراق الستينات، رغم قدراته الفكرية المحدودة.

وعقدوا مؤتمرهم القطري الاستثنائي، والتي تشكلت منه القيادة القطرية التالية: أحمد حسن البكر (أميناً للسر)، صدام حسين (نائباً لأمين السر) ومسؤولاً أيضاً عن فرع بغداد، وعن التنظيم النسائي والفلاحي، وعُين البكر وصالح مهدي عماش وطه الجزراوي لقيادة التنظيم العسكري، وصلاح عمر العلي مسؤولاً لمكتب العمال، وعبد الخالق السامرائي لمكتب الاتصال الخارجي، وعزت مصطفى للمكتب المهني. أما (الجهاز الخاص) والذي كان يُطلق عليه اسم حركي هو(حنين) وقد شُكل ليكون جهازاً قتالياً للحزب، فتولى مسؤوليته صدام حسين أيضاً[٣٧]. وقد عُين كلٌ من عبد الكريم

٣٧- د. أمير اسكندر. المرجع السابق. ص١٠١.

الشيخلي وعبد الله سلوم السامرائي أعضاء في (القيادة القطرية) أيضاً.

وعقدت مجموعة عفلق - بكل فروعها العربية - مؤتمرها القومي (التاسع)، في ١٨-٢٥ شباط ١٩٦٨ ببيروت. وقد عانى المؤتمر من صعوبات جمة، ولم يحضره سوى ٢٧ من ٥٤ مندوباً، وغابت عنه كل قيادات البعث المعروفة[٣٨]. وتشكلت منه قيادة قومية، عين فيها من العراق كل من البكر وعماش وعبد الله سلوم وشفيق الكمالي.

وكان الرئيس عبد الرحمن عارف قد استقبل البكر أكثر من مرة في القصر الجمهوري، كجزء من لقاءاته مع مختلف القوى السياسية بعد هزيمة حزيران، وفي اجتماع سياسي عقد في القصر الجمهوري برئاسة رئيس الجمهورية.. (كانت كلمة أحمد حسن البكر أقسى الكلمات إذ قال ما معناه: أنت رجل طيب، حسن الظن نواياك خيرة، لكنك تجهل ما يدور ويقع في البلد وليس بوسعك إصلاح الوضع وإيقاف التدهور لأنك تفتقر إلى الحـزم)[٣٩]. الملفت للانتباه، إن البكر الذي يبدو جريئاً وهو يخاطب عبد الرحمن عارف، كان مذعوراً لا ينبس ببنت شفة، في عهد أخيه عبد السلام عارف.

وتدخل البعثيون بقوة السلاح، لكسر إضراب جامعة بغداد الشهير، في كانون الثاني ١٩٦٨، والذي قادته القوى اليسارية، ومن جانب آخر، فقد فاز ممثلهم الدكتور كامل مولود عبد، في انتخابات (نقابة المهندسين الزراعيين). وهكذا أطلوا من جديد.

الجدير بالذكر هنا، أن عفلق كان لا ينفك عن التبشير داخل صفوف حزبه بأن البعث حركة انقلابية شعبية، وبغض النظر عن تهويمات عفلق وهو يشرح فكرته الانقلابية ويعطيها أبعاداً فلسفية وروحية وتاريخية، ويقسمها إلى مرحلة ذاتية (الانقلاب على الذات) وأخرى موضوعية (الانقلاب على الواقع). فان الانقلاب على السلطة محور

٣٨- مصطفى عامر. مؤتمر البعث من بغداد إلى دمشق عبر بيروت. مجلة الجديد اللبنانية، العدد (٥٨) في ١٩٦٨/٣/١ نقلاً عن السعيد، المرجع السابق. ص٣٤٠-٣٤٢.

٣٩- عبد الكريم فرحان، المرجع السابق. ص٢٢٧.

تفكير البعث دائماً. من الجانب الآخر، كانت معظم الحركات السياسية في العراق، مشغولة عشية انقلاب ١٧ تموز، بانقساماتها وخلافاتها[٤٠].

فقد انشق الحزب الشيوعي، في ١٧ أيلول ١٩٦٧، إلى جناحين متصارعين. الأول، (جماعة اللجنة المركزية) الموالية لموسكو، والثاني، جماعة (القيادة المركزية) الذين رفعوا شعار (الكفاح المسلح) واستقطبوا الكثير من الشباب.

وانقسمت الحركة الاشتراكية العربية إلى جناح ناصري بقيادة فؤاد الركابي، وآخر ماركسي، رفع شعار (نحو جمهورية عراقية ديمقراطية يتحقق فيها الحكم الذاتي لكردستان) وكان أبرز قياداته عبد الإله النصراوي.

وعانى (حزب البعث اليساري) من أزمة عميقة، وانشطرت قواعده بين الموالين لقيادته القطرية وبين مجموعة أخرى أطلقت على نفسها (مكتب التنسيق) ويقودها أحمد العزاوي، وقد شلت هذه الأزمة قدرة التنظيم وأدت إلى تجميد وفصل الكثير من عناصره، والى حل القيادة القطرية أكثر من مرة.

وانشق حزب الوحدة الاشتراكي، الذي نشأ للتو إلى جناحين، الأول بقيادة عارف عبد الرزاق وصبحي عبد الحميد، وآخر بقيادة خالد علي الصالح وخير الدين حسيب وهاشم علي محسن، وقد تبنى الأخير - بعد قليل من ذلك - الماركسية، وأصبح أحد قادة حزب العمل الاشتراكي العربي. وقد تأسس حزب العمل، من كوادر من حركة القوميين العرب، بعد المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في آب ١٩٦٨، والذي تبنى الماركسية - اللينينية، وحدد أهدافه بالتحرير والديمقراطية والاشتراكية والوحدة.

كان هاشم علي محسن - وهو عامل تبغ يقطن الأكواخ الطينية[٤١] - من مؤسسي

٤٠- للمؤلف دراسة مخطوطة عن الحركات السياسية العراقية في الستينات.

٤١- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٤٤.

فرع حركة القوميين العرب في العراق. وتولى رئاسة اتحاد نقابات عمال العراق بين عامي ١٩٦٣-١٩٦٨، ورئاسة نقابات العمال العرب لعام ١٩٦٤، وقد أصدر انقلاب ١٧ تموز، بياناً بمصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة لمسؤولي العهد السابق وكان بينهم اسم هاشم علي محسن، الذي لم يمتلك أموالاً منقولة أو غير منقولة في حياته أصلاً. وقد قضى سنواته الأخيرة في العمل مع حركة فتح - الانتفاضة، إذ اختلف مع (الجبهة الشعبية) منذ بداية الثمانينات. وتوفي في دمشق عام ١٩٨٩ ودفن في مقبرة السيدة زينب. أما حزبه في العراق، فلم يصدر سوى عدد من صحيفته السرية (طريق الثورة)، وبعد اعتقال عدد من قياداته وكوادره، تلاشى الحزب في منتصف السبعينات نهائياً.

وانشق حزب العمال العربي الثوري إلى جناح علي صالح السعدي وجناح أصغر على رأسه حمدي عبد المجيد. وكانت المجموعة البعثية التي ظلت موالية لخط علي صالح السعدي، قد انفصلت عن البعث نهائياً عام ١٩٦٤، وتنكرت لماضيها البعثي وانتقدت دورها في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، وأصبحت تشكل الفرع العراقي لحزب العمال العربي الثوري، وكانت فروع الحزب في الاقطار العربيةالأخرى تتشكل أيضاً من بعثيين انشقوا على عفلق، وقد تبنى الحزب الماركسية ودعا إلى تعريبها، متبنياً أفكار أمينه العام الدكتور ياسين الحافظ الواردة في كتابه الشهير (حول بعض قضايا الثورة العربية).

وكان مؤتمر القوميين الاشتراكيين قد انشق إلى جناح أياد سعيد ثابت وجناح نظمي أوجي، أما الحزب العربي الاشتراكي فكان قد انقسم إلى جناح مالك دوهان الحسن وجناح أحمد الحبوبي. وخرج من الرابطة القومية التي يقودها هشام الشاوي، جناح أصبح اسمه (المؤتمر القومي) بقيادة المحامي رمزي العمري.

والى جانب هذه الأحزاب، كانت هناك عدة كتل عسكرية، يغلب عليها الاتجاه الناصري. ولكننا سنتحدث هنا عن كتل اخرى تمثل الاتجاه الإقليمي بين الضباط،إذ (دعا العقيلي تؤيده زمرة صغيرة من الضباط بينهم رشيد مصلح وإسماعيل مصطفى إلى دور عراقي مستقل في السياسات العربية وأعرب عن رغبته في إقامة حكومة تمثل

الشعب وإقامة نظام حزبي في البلاد)[٤٢].

أما الكتلة الأخرى فقد (شدد بعضهم وبينهم عبد الوهاب الأمين وعبد الغني الراوي على المصالح الإقليمية للعراق)[٤٣]. (وكانت هناك فئة ثالثة بزعامة طاهر يحيى.. ولم يكن عقائدياً في قرارة نفسه.. وأظهر مقدرة على كسب تأييد الضباط الذين كانوا على استعداد للاتفاق على برنامج عملي)[٤٤].

ان القاسم المشترك، بين الكتل الثلاث، هو عداؤها للناصريين، وقد ظلت صغيرة ومعزولة وغير قادرة على التأثير. إذ أن كلا منها عبارة عن تجمع لأبناء المدن التي كانت تتبادل الهيمنة على العراق بعد عام ١٩٦٣.

❖ ❖ ❖

في الساعة الثالثة (الرابعة بالتوقيت الصيفي الذي بدأ العمل به منذ عام ١٩٨٢) من فجر ١٧ تموز ١٩٦٨، (أدخل سعدون غيدان، بسيارته الخاصة، إلى مقر كتيبة دبابات الحرس الجمهوري، التي كان يقودها، كلا من أحمد حسن البكر، وحردان عبد الغفار التكريتي، وصالح مهدي عماش، وأنور عبد القادر الحديثي)[٤٥].

وكانت تتبعهم شاحنة مغطاة فيها صدام وأخوه برزان، وجعفر الجعفري، وذياب العلكاوي وعزت الدوري، وطه الجزراوي، وسعدون شاكر، وآخرون[٤٦]. كان عدد من في

٤٢- مجيد خدوري. العراق الجمهوري. بيروت ١٩٧٤. ص٣٧٥.

٤٣- المرجع السابق. ص٣٧٥.

٤٤- المرجع السابق. ص٣٧٥.

٤٥- حنا بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٠-٣٩١.

٤٦- إذا لم يذكر ما يخالف ذلك، فإن رواية انقلاب ١٧ تموز، تعتمد على، بطاطو. المرجع السابق. ص٣٨٩ وما بعدها. ود. أمير اسكندر، المرجع السابق، ومجلة ألف باء، العدد ٥١٢ في ١٢ تموز ١٩٧٩ (سعدون شاكر يروي قصة الثورة). وأيضاً رواية (عبد الأمير الناجي) للمؤلف عن أحداث ذلك اليوم.

(الشاحنة) لا يتجاوز الثلاثة عشر. ومن الطريف أن عزت الدوري ادعى (أنه خبير في قيادة الدبابات، حتى لا تفوته المشاركة في الهجوم على القصر)[٤٧]. وهناك في القصر الجمهوري (كانت لحظات حرجة حين أجاب الرفيق عزت بأنه لا يجيد قيادة الدبابة، وأنه لم يجد طريقاً للحضور لاقتحام القصر غير ذلك)[٤٨].

كان الجميع يرتدون ملابساً عسكرية وقد وضع كل من صدام وأخيه لأمه برزان، على أكتافهم رتبة ملازم. أما الضباط المتقاعدون فحملوا رتبهم العسكرية السابقة، وكان البكر حاملاً رتبة عميد، ولكن المقدم أنور عبد القادر الحديثي، كان الوحيد من بينهم الذي جاء بملابسه المدنية. ان الحديثي هذا - وقبل أكثر من خمس سنوات، وفي صباح ٨ شباط ١٩٦٣- قد قام بعمل مرعب، إذ دعا أحد الذين كانوا يهتفون لعبد الكريم قاسم، عند بوابة معسكر الرشيد، وأطلق النار على رأسه فسقط ميتاً، وفر الآخرون مذعورون[٤٩].

كان البعثيون قد تجمعوا ليلة الانقلاب في أربع أماكن هي بيت أديب المفتي، وبيت كريم الندا[٥٠]. وفي بيت سعد الراوي وكانت المجموعة الأخرى في حدائق (كازينو) ١٤ تموز بالكرخ. كان عدد الذين اشتركوا فعلا في الانقلاب والذين تجمعوا في الأماكن الأربعة مائتي شخص، ومعظمهم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ - ٣٠ سنة.

ومما له دلالته، يقول سعدون شاكر أحد المشاركين البعثيين بالانقلاب والذي أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات العامة: (وحين وصلنا القصر كان الرفيق سعدون غيدان

٤٧- د. أمير اسكندر. المرجع السابق. ص١١١.

٤٨- مجلة ألف باء. العدد (٥١٢) ١٢ تموز ١٩٧٨. (سعدون شاكر يروي قصة الثورة). ص٢٣.

٤٩- د. علي كريم سعيد. المرجع السابق. ص٨٢.

٥٠- شقيق زوجة البكر، وكان مستخدماً في الخطوط الجوية العراقية، وأصبح بعد الانقلاب رئيساً للمؤسسة العامة للطيران المدني حتى عام ١٩٧٩.

ينتظر في باب الكتيبة وفتح الباب وسهل عملية استلام الدبابات)[٥١]. (وفي الوقت نفسه، احتل الداود مبنى الإذاعة بعدد من الدبابات وسرية من الحرس الجمهوري، وسيطر النايف، من جهته، على وزارة الدفاع)[٥٢]. وهكذا استلم حزب البعث السلطة، وهكذا انتقل الحكم من يد إلى أخرى.

في الوقت نفسه، انطلق اللواء المدرع العاشر من مركزه في الورار (١٢٠ كم غربي بغداد) وهو من أفضل وحدات الجيش المدرعة، وكان احتياطياً للحرس الجمهوري، ويقوده العقيد حماد شهاب التكريتي (فعسكر في مشارف أبو غريب ليكون على استعداد لدخول بغداد في الوقت المناسب)[٥٣] وبذلك رجحت كفة (مجموعة تكريت) نهائياً، اذ سيؤمن هذا اللواء بعد اسبوعين نجاح الانقلاب الثاني، في ٣٠ تموز، والذي أطاح بمجموعة الرمادي.

كان الرئيس عبد الرحمن عارف يغط في نومه، عندما رن جرس الهاتف في غرفته. وكان المتكلم حردان التكريتي، والذي طلب منه الاستسلام مقابل حفظ حياته، فرد عارف عليه بأنه سيقلب بغداد على رؤوسهم. فهدده حردان اذاك بالقتل إذا لم يستسلم، وأغلق التلفون في وجهه.

(وحاول عبثاً الاتصال بالضباط ممن يمكن أن يساعدوه فاستدعى داود وغيدان اللذين أبلغاه أن المقاومة لا تجدي نفعاً فالجيش في ثورة)[٥٤].

وكان الانقلابيون قد قطعوا جميع الاتصالات عن القصر، ما عدا الهاتف الذي يصل بين غرفة نوم الرئيس وقيادة كتيبة الدبابات، وأخذوا يطلقون النيران في الهواء، ثم

٥١- مجلة ألف باء. المرجع السابق. ص٢٢.

٥٢- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩١.

٥٣- مجلة ألف باء. المرجع السابق. ص٢٣.

٥٤- الدكتور مجيد خدوري. العراق الاشتراكي. ص٤٢.

أطلقوا بضعة قنابل من الدبابات على القصر.

بعد نصف ساعة تماماً من المكالمة الأولى، رن ذلك الهاتف ليبلغهم الرئيس عارف أنه قرر الاستسلام. (استسلم.. عبد الرحمن عارف بعد أن تبين له أن لواء الحرس الجمهوري هو القائم بالانقلاب، وأنى له أن يقاوم وبمن يستعين إذا غدر به وخانه حراسه)[٥٥].

خرج الرجل إليهم بملابس النوم. صافح البكر قائلاً: (أهنئكم على نجاح ثورتكم). كان يرتجف.. والحقيقة أن الرجل لم يكن جباناً.. وفي أكثر من مناسبة، كان عسكرياً شجاعاً ولكن صدمته من خيانة الضباط المحيطين به كانت - كما يبدو - عنيفة إلى حد الرعب.

وفي الطرف الآخر، كان البكر قائد الانقلاب، ورغم سيطرتهم السهلة على الأوضاع، ورغم عدم مواجهتهم لأية مقاومة، الا (أنه أصيب بداء السكري وأحس بعطش شديد جراء لحظات الانتظار القلقة التي سبقت استسلام عبد الرحمن عارف)[٥٦].

واخذوا الرئيس عارف بملابس النوم من القصر الجمهوري إلى بيت حردان التكريتي ثم نقلوا إليه ملابسه وأغراضه الشخصية، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر، توجهوا به إلى مطار بغداد (مطار المثنى حالياً) ونقلته طائرة خاصة إلى لندن. وقيل أن ذلك تم بعد مضي ست ساعات على استسلامه[٥٧]. وفي رواية أخرى (جرى تسفيره في أول طائرة إلى اسطنبول.. برفقة أربعة أشخاص منعوه من مغادرة الطائرة، والتحدث إلى الصحفيين.. وقد بدا متعباً وكان يبتسم بصعوبة.. وان السلطات التركية أخرت الاقلاع

٥٥- فرحان. المرجع السابق. ص٢٣٦.

٥٦- د. علي كريم.المرجع السابق. ص٣٤٩.

٥٧- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩١.

بعض الوقت (للتأكد) من أن عارفاً يذهب إلى لندن دون إكراه أو ضغط)[٥٨].

كانت زوجته (فائقة عبد المجيد فارس) تتعالج هناك، من مرض خبيث منذ شهر، ومعها أفراد العائلة. وقد توفيت بعد شهرين من الانقلاب على زوجها، ودفنت ببغداد في جنازة محدودة. (وبعدها بمدة قصيرة ذهب إلى استانبول، ومنح حق اللجوء السياسي فعاش متقاعداً بعيداً عن معترك السياسة)[٥٩]. وفي نيسان ١٩٨٠ عاد إلى العراق.

سيطر الانقلابيون بهدوء على الوضع، ولكنهم اعتقلوا العشرات من رجال النظام، وكبار الضباط، وقادة الناصريين والبعث اليساري وغيرهم. كان طاهر يحيى رئيس الوزراء أول المعتقلين وقد أهانوه وضربوه.

٥٨- السعيد. المرجع السابق. ص٤١٨ وكانت مصادره صحيفتا الحياة عدد ١٩٦٨/٧/١٨ و النهار عدد ١٩٦٨/٧/٢١.

٥٩- د. خدوري. المرجع السابق. ص٤٣.

الفصل الثاني

رؤوس الانقلاب

(واستقبل الناس تغير الحكم بلا مبالاة مطلقة)

حنا بطاطو

في تاريخ الانقلابات العراقية[٦٠]، قرأ العقيد الركن عبد السلام محمد عارف، في حوالي الساعة السادسة والنصف صباحاً، البيان الأول لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، معلناً قيام النظام الجمهوري في العراق. وبعد أشهر من ذلك، أذاع الرائد المتقاعد محمود الدرة، من محطة إذاعة محلية، البيان الأول لحركة الشواف في الساعة السابعة صباحاً في ٨ آذار ١٩٥٩.

وأذاع حازم جواد عضو القيادة القطرية لحزب البعث، بعد الساعة التاسعة صباحاً بقليل، البيان الأول لانقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الذي أطاح الزعيم عبد الكريم قاسم. وبعد تسعة أشهر وعشرة أيام من انقلاب شباط، أعلن المشير الركن عبد السلام عارف رئيس الجمهورية، في الساعة السادسة صباحاً أو بعد ذلك بقليل، البيان الأول لانقلاب ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ والذي أطاح بحكم البعث الاول.

وقام العقيد المتقاعد هادي خماس مدير الاستخبارات العسكرية السابق، في الساعة

٦٠- جعفر الحسيني. من تاريخ العراق المعاصر، الذين أذاعوا البيان الأول في الانقلابات، جريدة الموقف، العدد ٨١ في ١٢/أيار/١٩٩٤. والعدد ٨٢ في ٢/حزيران/١٩٩٤.

الثالثة والنصف بعد الظهر، يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٦، بإذاعة البيان الأول للمحاولة الانقلابية التي عُرفت بمحاولة عارف عبد الرزاق الثانية.

أما يوم ١٧ تموز ١٩٦٨، فقد افتتحت إذاعة الجمهورية العراقية، وهذا اسمها الرسمي، بثها الاعتيادي بتلاوة القرآن الكريم في الساعة السابعة صباحاً. وبعد أن انتهت النصف ساعة المعتادة لبث القرآن الكريم، بدأ العميد حردان التكريتي بإذاعة البيان الأول.

وباستثناء الغياب الملحوظ لأية إشارة إلى ثورة ١٤ تموز، شدد البيان الأول للانقلاب على العزم على تحقيق الوحدة الوطنية، وتأمين سيادة القانون، وتكافؤ الفرص، وإنهاء المشكلة الكردية بحكمة ودراية، وإقامة مجتمع تسوده الأخوة والمحبة والتآلف الوطني، عن طريق توفير الحياة الديمقراطية للمواطنين. كما شجب البيان النعرات الطائفية والعنصرية والقبلية.. وأعلن المضي في المعركة بلا هوادة ضد العدو الصهيوني الاستعماري، كما أعلن دعمه للعمل الفدائي في الأرض المحتلة، ودعا إلى تحديد المسؤولية عن الكارثة العربية عام ١٩٦٧. وأدان رجال العهد السابق بأنهم (عصبة من الجهلة والأميين والساعين إلى الكسب واللصوص والجواسيس والصهاينة والمشبوهين والعملاء[٦١].

ورغم أن الانقلابيين أعلنوا منع التجول ووقف الرحلات وإغلاق الحدود، الا أن التجول ظل عادياً. وكانت الإذاعة بما تبثه من موسيقى وبنبرة مذيعيها، أهدأ من أية مرة كان قد وقع فيها انقلاب بالعراق. كان كل شيء ينبئ بأن انقلاباً سهلاً وسلمياً قد حدث. ولتسليط الضوء على ما جرى وما سيجري، ولكي نفهم الخلفية السياسية للانقلاب،بل العقلية السياسية التي حكمت العراق، منذ عام ١٩٦٣ على الأقل. سنتحدث بتطويل عن رؤوس الانقلاب، والذين تشكل منهم (مجلس قيادة الثورة):

٦١- بطاطو، المرجع السابق، ص٣٩١. والسعيد، المرجع السابق، ص٤٢٤-٤٢٥.

١ - اللواء أحمد حسن البكر:

تمثل حياة البكر مرآة لتاريخ العراق المعاصر. وأظنه أخطر صناع هذا التاريخ، وقد لا يشاركني في هذه الرؤية كثيرون، ربما (لأن انطباعاً عنه لا يقنع أحداً بأنه سيقوم بدور خطير كالدور الذي قام به في انقلاب ٨ شباط)[٦٢].

ولد البكر في ريف تكريت (١٨٠ كم شمال بغداد) عام ١٩١٤، وستلعب هذه البلدة فيما بعد، ومن خلاله أساساً، دوراً خطيراً في تاريخ العراق المعاصر، ابتداء من عام ١٩٦٣، وتوميء الكثير من الدلائل، أن تداعيات الأحداث في الثمانينات والتسعينات، هي التي حالت دون نقل العاصمة إليها. وقد أعاد نظام البكر - صدام إلى الدستور، في المادة المخصصة لعاصمة العراق، عبارة (ويجوز نقلها بقانون)[٦٣]. وكانت هذه الفقرة في القانون الأساسي العراقي لعام ١٩٢٥، تنص بأنه (يجوز عند الضرورة اتخاذ غيرها عاصمة بقانون)[٦٤]. أي أن الدستور الحالي في العراق قد استبعد شرط الضرورة لنقل العاصمة.

تحولت تكريت من ناحية تابعة لقضاء سامراء (عاصمة العراق في العصر العباسي الثاني) إلى قضاء عام ١٩٥٣، وأصبحت في عهد البكر - صدام - عام ١٩٧٦ - محافظة. وألحقت بها مدينة سامراء، مما أثار غضب أهل سامراء، وهم يرون مدينتهم عريقة، وقد أصبحت ملحقة بتكريت بعد أن كانت الأخيرة تابعة لها إدارياً. وبهذا القرار وأمور أخرى تفجرت الأحقاد القديمة بين المدينتين[٦٥].

٦٢- حسن العلوي. العراق دولة المنظمة السرية. ص١٦٥.

٦٣- د. خدوري. العراق الاشتراكي. ص٢٩٦.

٦٤- عبد الرزاق الحسني. تاريخ الوزارات العراقية. الجزء الأول. الطبعة السادسة. ص٣٣٩.

٦٥- راجع اللواء وفيق السامرائي. حطام البوابة الشرقية. ص١٨٤-١٨٥، ١٨٧-١٨٨، ٣٥٥، ٤٧١ وغيرها.

ينتمي كل من البكر وصدام إلى عشيرة (آلبو ناصر) التي تسكن ريف تكريت، ورغم أصله المتواضع، إلا أنه ينتمي إلى فرع أرفع شأناً من الفرع الذي ينتمي له صدام. أو أن تردي سلوك الحكام الجدد في مرحلة صدام، خلق انطباعاً كهذا.

تخرج البكر في مدرسة المعلمين الريفية سنة ١٩٣٢، (وعمل معلماً طوال ست سنوات في عدة مدارس ابتدائية)[٦٦]. ولكن - فجأة - حدث بالنسبة له ما لم يكن بالحسبان.

يقول الشهيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته: (إن تسعين في المائة من القادة القابضين على زمام الجيش كانوا من غير العرب حتى أواخر عام ١٩٣٧، وأما نسبتهم خارج مقرات الجيش والمعاهد الفكرية فكان خمسين في المائة.. هذه النسبة الساحقة المجحفة كانت بازدياد مطرد حتى قيض الله لي ولأخواني أن نقبض على زمام الجيش.. عندما حددت النسبة بالعدل وعالجت الموضوع بصراحة)[٦٧].

وقد استثمر هذا الظرف الجديد، سياسي من تكريت، كان يستخدم نفوذه باستمرار لصالح التكارتة، هو (مولود مخلص)[٦٨]. فأدخل الكثيرين منهم إلى الكلية العسكرية، الأمر الذي لم يتوفر - مثلاً - لمحافظة كبيرة كالعمارة. أي أن العدل الذي تحدث عنه الشهيد الصباغ، في القبول بالكليات العسكرية، شوهته العصبيات المحلية، فصار حكراً على مناطق وحرمته مناطق أخرى.

دخل البكر إلى الكلية العسكرية والتي كانت فرصته الوحيدة للصعود في سلم الحياة. إذ (لم يكن ليستطيع تغيير عمله الا إذا أتم التعليم العالي كخطوة لمواصلة الدراسة على مستوى الكلية)[٦٩]. وقد جمعت الكلية العسكرية، في سنة ١٩٣٨ أي سنة قبول البكر

٦٦- د. خدوري. المرجع السابق. ص١١٧.

٦٧- مذكرات الشهيد صلاح الدين الصباغ. فرسان العروبة في العراق. ص٧٢.

٦٨- راجع بطاطو. المرجع السابق. ص٤٠١ و ٤٠٥ وأيضاً هاني الفكيكي. أوكار الهزيمة. ص٢١٨.

٦٩- د.خدوري. المرجع السابق. ص١١٧.

فيها، أسماء ربطت بينها فيما بعد، أحداث مشتركة أو دامية، غيرت وجه التاريخ العراقي.

ففي نفس السنة، قُبل كل من عبد السلام عارف، الذي أنهى للتو دراسته الثانوية. والمعلم طاهر يحيى التكريتي الذي دخل الكلية العسكرية بظروف مشابهة لدخول البكر. وكان عبد الرحمن عارف قد تخرج من الكلية في نفس السنة أيضا. أما مدرسهم في الكلية آنذاك فكان عبد الكريم قاسم، الذي ثاروا عليه جميعاً عام ١٩٦٣ وقتلوه.

لم يكن البكر ضابطاً مبرزاً في أي يوم من الأيام. ولعل صنعة التعليم الابتدائي كانت ملائمة لقابلياته أكثر من الخدمة العسكرية. ولم يدخل كلية الأركان، التي تعتبر أول خطوة لأي ضابط يرغب في تطوير قدراته العسكرية، وفي الوصول إلى مراكز أكثر أهمية في الجيش. وربما كان السبب، عدم إتمامه الدراسة الثانوية، خلاف ما فعله ضباط آخرون بعد تخرجهم من الكلية العسكرية.

رغم أن (أحمد حسن البكر من مجموعة عبد السلام ومن أصدقائه بحيث أن كلا منهما سمى أحد أبنائه باسم صديقه)[٧٠]. ورغم أن للبكر علاقة بالكثيرين من الضباط الأحرار، إلا أن اسم البكر لا يرد ابداً، في تجمعات الضباط الأحرار ولقاءاتهم ومحاولاتهم الانقلابية، وفي المرتين التي نجد له فيها ذكراً، يكون دوره هامشياً وملتبساً. فالرواية الأولى تقول (ان عبد السلام.. أخذ يفاتح الضباط بسرعة حتى استطاع ضم عدد كبير من الضباط من ذوي الرتب العالية، أمثال عبد اللطيف الدراجي وناظم الطبقجلي وأحمد حسن البكر، إلى الحركة دون أن يعلموا عن تنظيمها الشيء الكثير. كانوا مؤازرين وليس أعضاء عاملين)[٧١] وتبدو هذه الرواية ركيكة وملتبسة ، فالعقيد الركن عبد اللطيف الدراجي لعب دوراً أساسياً في الثورة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨، وكان ثالث ثلاثة خططوا للثورة ونفذوها، في ذلك اليوم. أما الرواية الثانية فتقول عن البكر (كان

٧٠- العميد خليل إبراهيم حسين، ثورة الشواف في الموصل ١٩٥٩. الجزء الأول. ص٧٢ (حاشية).

٧١- مذكرات العميد جاسم كاظم العزاوي. المرجع السابق. ص٧٦.

رسول عبد السلام إلى المسيب للاتصال بالضباط الأحرار وتدبير عرقلة حركة اللواء الأول ضد الثورة كما هو معروف ليلة ١٣-٧/١٤)[٧٢]. ولم يرد أي تأكيد لهذه الرواية في أي مصدر آخر، بل أن مؤرخاً أكاديمياً لثورة ١٤ تموز كان قد وثق رواياته وتفحصها يقول: (أما باقي تشكيلات الضباط الأحرار فعلموا بالثورة عن طريق الإذاعة)[٧٣]. ذلك إذا افترضنا أن البكر من تشكيلات الضباط الأحرار فعلاً.

وقد رشح عبد السلام عارف العقيد أحمد حسن البكر لقيادة اللواء العشرين، ولكن الزعيم عبد الكريم قاسم رفض ذلك لوجود من هم أقدم من البكر[٧٤]. واعتقل البكر بتاريخ ١٩٥٨/١٠/٢٠ بتهمة التآمر. إذ (كان عبد السلام يعتمد على العقيد أحمد حسن البكر لاحتلال وزارة الدفاع واعتقال عبد الكريم قاسم. كان المرحوم البكر آمراً للفوج الأول للواء العشرين الذي يعسكر في بغداد، الا أن السلطة كشفت المحاولة فأبعدت الفوج عن بغداد واعتقلت البكر وعدداً من الضباط)[٧٥]. وفي ١٩٥٩/٤/١٩ أحيل على التقاعد برتبة عقيد، وقد جمعه السجن مع عبد السلام عارف وعلي صالح السعدي وصالح مهدي عماش وذياب العلكاوي ورشيد مصلح وطاهر يحيى.

وقد فتح لقاء السجن هذا، طريق الصعود السياسي أمام البكر فيما بعد وتحديداً عام ١٩٦١، إذ طلب عفلق الأمين العام لحزب البعث، من تنظيم العراق، العمل على كسب كبار الضباط المعادين لنظام قاسم. فضمه علي صالح السعدي أو شخص آخر، إلى الحزب. وقد أصبح البعث في عهد عبد الكريم قاسم، مجرد تجمع لأعداء الشيوعية، أقله بالنسبة لأغلب أعضائه العسكريين، والذين وجدوا في الحزب آلة قوية تعينهم في

٧٢- العميد خليل إبراهيم حسين. المرجع السابق. ص٧٢ (حاشية).

٧٣- ليث عبد الحسن الزبيدي. المرجع السابق. ص١٨١.

٧٤- مذكرات العميد العزاوي. ص١٧٣.

٧٥- المرجع السابق. ص١٨٠.

صراعهم ضد نظام عبد الكريم قاسم. يقول العميد عبد الكريم فرحان: (لم يكن البكر ضابطاً لامعاً، فهو من درجة عسكرية أدنى، لكنه اعتقل ورفعته صلته بحزب البعث وعلي السعدي)[٧٦].

عُين البكر عضواً في المكتب العسكري عام ١٩٦٢. وعضواً في القيادة القطرية عام ١٩٦٣. وأصبح عضواً في القيادة القومية في تشرين الأول من العام نفسه. أي انه جاء إلى الحزب من فوق، ولم يعش التدرج الحزبي. وكان أكبر الضباط البعثيين، في انقلاب ٨ شباط، سناً ورتبة. فعُين رئيساً للوزراء وعضواً في المجلس الوطني لقيادة الثورة، ومنح رتبة عميد.

وعندما انقلب الرئيس عبد السلام عارف، في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، على حزب البعث، بدعم من كبار الضباط البعثيين، عُين البكر نائباً لرئيس الجمهورية شكلياً ومؤقتاً، وربما بالرغم من إرادته[٧٧]، ومُنح رتبة لواء. وفي ١٩٦٤/١/٤ ألغي هذا المنصب ومنح البكر مرتبة سفير في وزارة الخارجية[٧٨]. واعتقل البكر قبل (بدء مؤامرة بعثية كانت مقررة في ١٩٦٤/٩/٥)[٧٩].

أطلق سراح البكر بعد أن ثبت أن لا علاقة له بالمؤامرة. وأنه بالكاد يصح أن يُسمى ما كان يحاوله البعثيون بمؤامرة. وقد أطلق سراحه بعد أن كتب (تعهداً خطياً إلى عبد السلام عارف بعدم ممارسة السياسة والتفرغ لشؤونه العائلية)[٨٠].

وأخذت الناس تتندر عليه بأنه قرر اعتزال السياسة والتفرغ لتربية أبقاره. حتى أن

٧٦- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٣٥١ (حاشية).

٧٧- المرجع السابق. ص٣٤٧.

٧٨- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٤٥.

٧٩- فرحان. المصدر السابق. ص١٦٤.

٨٠- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٤٧.

الوزير الناصري السابق، صبحي عبد الحميد، اتصل به مرة دون أن يفصح عن اسمه، وبادره قائلاً: (كيف حال أبو البقر؟)[٨١].

وظل هذا التعهد (عقدة) في حياة البكر، زادته قسوة وغدراً. واستعار البكر فيما بعد مع رفاقه في الحكم، الكثير من أساليب عبد السلام عارف، وهو يبعد حلفاءه في الحكم واحداً بعد الآخر، بما فيهم البكر نفسه. إلا أن أساليب البكر كانت أكثر دموية وأكثر قسوة.

على الداوم، كانت شخصية (عبد السلام عارف) رغم غرابتها وسذاجتها ومزاجها العدواني[٨٢]، العامل الأكثر تأثيراً في حياة البكر، منذ أن تعارفا في الكلية العسكرية. فقد كان البكر ضابطاً عادياً، يتهيب القيام بأي دور في النظام الملكي. ولكن عبد السلام عارف، استطاع خلال صراعه مع عبد الكريم قاسم - كما مر بنا - أن يفتح شهية البكر للانقلابات، والذي - وبعد انقلاب تشرين الثاني ١٩٦٣- نأى بنفسه عن أي نشاط سياسي. إذ كان يخشى عبد السلام ويرهبه، وظل ينظر له، نظرة التلميذ الرعديد لمعلم قاس.

بعد وفاة عبد السلام عارف في ١٣ نيسان ١٩٦٦ مباشرة، عاد البكر إلى النشاط السياسي. وكانت تقود حزب البعث، آنذاك، (لجنة قيادة التنظيم) التي تألفت من (عبد الخالق السامرائي، وحسن الذهب، وحسين السامرائي، وسمير النجم، وجعفر قاسم حمودي)[٨٣]. فجرى حلها وتشكيل قيادة قطرية جديدة من (أحمد حسن البكر، عبد الخالق السامرائي، صدام حسين، عبد الكريم الشيخلي)[٨٤].

٨١- فرحان، المرجع السابق. ص١٧٨.

٨٢- راجع الزبيدي. المرجع السابق. ص٣٤٤-٣٤٧.

٨٣- د. أمير اسكندر. المرجع السابق. ص٩٧.

٨٤- المرجع السابق. ص٩٧.

نظرت الكثير من قواعد البعث وقياداته، في تلك الأيام الحافلة بالانشقاقات والتكتلات والتراجعات، وبطريقة تفكير تلك الأيام، إلى البكر بحكم سنه وخبرته، ولأنه أعلى الضباط البعثيين رتبة، باعتباره (المخلص) الذي سيقود قطار البعث إلى السلطة.

وقد عُين البكر، في انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ رئيساً للجمهورية برتبة لواء. وفي ٣٠ منه، عُين أيضاً رئيساً للوزراء وقائداً عاماً للقوات المسلحة. ومُنح بعد ذلك بأشهر رتبة (مهيب) التي استحدثها الحكم الجديد بدل رتبة (مشير)، ربما لأنها ارتبطت في أذهان العراقيين بالمشير عبد السلام عارف.

وفي ١٧ تموز ١٩٧٩ أعلن استقالته واعتزاله الحياة العامة لأسباب صحية، وبقي جليس بيته، لا يزور ولا يُزار، حتى وفاته عام ١٩٨٢. وقد أجمعت عدة مصادر بأن البكر مات مسموماً[٨٥]. أو زرق بحقنة ضاعفت من نسبة السكر في دمه، فمات في الحال على يد نقيب الأطباء، الذي كوفئ بتعيينه وزيراً للصحة[٨٦]. وهذا الوزير، أو هذا الطبيب، واسمه صادق علوش، كان قد شارك في أعمال القتل والتعذيب، في مكتب التحقيق الخاص عام ١٩٦٣[٨٧].

وعن البكر، يقول طالب شبيب: (كان يقظاً في مجال المناورة فقط، في حين يتمتع بذكاء وقدرات وثقافة محدودة وشخصية ضعيفة. لكنه يتميز مقابل ذلك بخصال يحتاج إليها كل قائد سياسي مثل إمكانياته على كسب الأصدقاء المفيدين وترتيب التحالفات[٨٨].

ويقول هاني الفكيكي: (والبكر شخصية موهوبة القدرة على توظيف مظهره البسيط وقدراته الفكرية والسياسية المحدودة،وكثيرون هم أولئك الذين خُدعوا به ووسموه

٨٥- من بين عدة مصادر، راجع، طالب الحسن، حكومة القرية، ص٢٣٧. ود. علي كريم، المرجع السابق، ص٣٩١. واللواء وفيق السامرائي، المرجع السابق، ص٤٧٠.

٨٦- حسن العلوي. المرجع السابق. ص١٧٢.

٨٧- راجع عنه أيضا، د. علي كريم. المرجع السابق. ص١٩٩ و ٣٩٤.

٨٨- المرجع السابق. ص٣٤٤.

بالسذاجة، لكنه يستبطن مكراً لا حدود له، وقدرة على خداع الخصم والغدر به)[٨٩].

ويصفه صديقه عبد الأمير ناجي، بقوله: (أنه متدين على الطريقة الريفية.. فهو لا يصلي ولا يصوم ولكنه يؤمن بمراقد الأولياء ويخافهم). ويصفه عبد الكريم فرحان قائلاً: (لم أشاهده ينفعل أو يغضب لكنه لا ينسى وعندما تحين الفرصة ينتقم بقسوة. كان محدود الثقافة لكن الحياة علمته الكثير. كان صبوراً يتحكم في أعصابه وعواطفه، بارعاً في اختيار الوسيلة وإرضاء النفوس)[٩٠].

جاء إلى رئاسة الجمهورية وهو يردد: (لن أترك هذا الكرسي إلا محمولاً على النعش، ولو كان ابني هيثم متآمراً سأقضي عليه بكل سهولة، لأن التجربة السابقة علمتني أن لا أعيدها ثانية)[٩١]. وخلافاً لما يعتقده كثيرون، فإن البكر لا يقل قسوة أو غدراً عن صدام، ولكن الأخير يفوقه (جسارة وقوة إرادة وتوقداً ذهنياً)[٩٢].

فعندما كان رئيساً للوزراء عام ١٩٦٣ (استدعى عبد الغني الراوي.. وطلب منه أن يذهب إلى نقرة السلمان وهناك يجري تنفيذ إعدام بعض الضباط، بعيداً عن بغداد[٩٣] ولكن (عبد الغني الراوي.. رفض التنفيذ لأن عدد المطلوب قتلهم قليل جداً بالنسبة له!! وطالب بإعدام المئات في حين أُبلغ بتنفيذ الإعدام بحق ثلاثين فقط.. وبعد جدال طويل أقنعنا البكر أن لا ينفذ حكم الإعدام سوى بثلاثين اسماً يحددون بالاسم ويتم التنفيذ في نقرة السلمان)[٩٤] والكلام لطالب شبيب عضو مجلس الثورة آنذاك.

وقد أثارت هذه الحادثة سخرية العقيد محمد عمران، العضو السوري في القيادة

٨٩- هاني الفكيكي. المرجع السابق. ص٣٤٤.

٩٠- فرحان. المرجع السابق. ص٢٦٣.

٩١- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٣٥٠.

٩٢- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٩.

٩٣- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٣٠٣-٣٠٤.

٩٤- المرجع السابق. ص٣٠٣-٣٠٤.

القومية للبعث، وزير الدفاع فيما بعد، فقال أمام مؤتمر للحزب في سورية عام ١٩٦٤: (طُلب من أحد ضباط الجيش (العراقي) إعدام اثني عشر شيوعياً ولكنه أعلن أمام عدد كبير من الحاضرين أنه لن يتحرك الا لإعدام خمسمائة شيوعي ولن يزعج نفسه من أجل اثني عشر فقط) [٩٥].

وارتبط البكر وعماش بعلاقة تنسيق عميقة ببيل ليكلاند مساعد الملحق العسكري الأميركي ومسؤول المخابرات الأميركية في العراق، والذي لعب، من خلالهما، دوراً ما في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣. (ان البكر كان قد استدعى جميل صبري وكلفه بحضور عماش استقبال (وليم ليكلاند) مساعد الملحق العسكري الأميركي في بغداد آنذاك، بدلاً من عماش الذي كان يجتمع به صباح كل سبت) [٩٦].

وقد حاول البكر السماح للخبراء الأميركيان الاطلاع على الدبابة السوفييتية (ت٦٢)، وهي أحدث دبابة كان الغرب يتطلع لمعرفة أسرارها، وذلك حسب رواية طالب شبيب[٩٧]. أو الاطلاع على الدبابة السوفييتية (ت٥٤)، وطائرة الميغ (٢١) ودراسة خصائصها الفنية، حسب رواية هاني الفكيكي[٩٨].

ولا نعلم ماذا جرى بعد ذلك! إذ أن بعثيي ذلك الزمان، الذين كتبوا مذكراتهم، وكانوا على علاقة أو معرفة بتلك الأحداث، ذكروا قصصاً غريبة، وتبريرات واهية، للتغطية على علاقة البكر - عماش بليكلاند أو لتبريرها، وسنعود لذلك عند الحديث عن صالح مهدي عماش.

ان سؤالاً يطرح نفسه الآن، فما الفرق بين ما فعله البكر أو حاول القيام به، وما قام

٩٥- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٠٤.

٩٦- هاني الفكيكي. المرجع السابق. ص٢٨٣.

٩٧- د.علي عبد الكريم. المرجع السابق. ص٢٧٢-٢٧٤.

٩٨- الفكيكي. المرجع السابق. ص٢٩٨-٢٩٩.

به جاسوس آخر، هو منير روفا، الذي هرب بطائرة ميغ (٢١) إلى إسرائيل؟ الغريب أن أي عضو من قيادة البعث لم يستقل أو يقدم استقالته، احتجاجاً على ذلك. ان المعلومات التي بين أيدينا ظهرت بعد أن اختلف الرفاق فيما بينهم. ولا أريد أن أردد ما يقال في مثل هذه الحالات عادة، ولكنني اعتقد أن ما ظهر هو جزء من الحقيقة فقط.

ان قصة (ليكلاند) من بين أشياء أخرى، تؤكد الشبهات التي تحوم حول ١٧ تموز وأطرافها وأهدافها. على أي حال، بعد انقلاب ١٧ تموز، اعدم البكر العشرات متهماً إياهم بالجاسوسية لأميركا وإسرائيل، ولم يسلم أغلب سياسيي العهد السابق ورجالات الأحزاب، من هذه التهمة. ومنهم اللواء مدحت الحاج سري، الذي كان إعدام شقيقه رفعت الحاج سري، إحدى ذرائع البكر ومن معه، لانقلابهم على عبد الكريم قاسم.

ومن المفيد التكرار هنا، أن البكر ثار على عبد الكريم قاسم، في ٨ شباط ١٩٦٣ باسم الوحدة العربية، ولما جرت مناقشة الوحدة، تحفظ مع آخرين عليها متذرعاً (بالمشكلة الكردية والخطر الإيراني والمشاكل الاقتصادية وغيرها)[٩٩]. وهو ما تحجج به أيضاً، بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، لعدم حشد القوات العراقية على الجبهة الشرقية. رغم أن انقلاب ١٧ تموز، جاء حاملاً شعار (كل شيء من أجل المعركة).

لقد كان الرد الذي سمعه الفريق الشاذلي رئيس أركان القوات المسلحة المصرية من البكر وغيره من المسؤولين، عندما ذهب إلى العراق في ٢٦ مايس ١٩٧٢، ليطلب منهم إرسال (الجيش العراقي) إلى سوريا: (ان العراق تمثل الجناح الأيمن للأمة العربية وهي لذلك يجب أن تكون قوية في تلك المنطقة حتى تستطيع أن تحمي المصالح العربية من أي هجوم إمبريالي)[١٠٠].

وكان الرئيس جمال عبد الناصر، عندما سمع نفس الكلام من البكر - في حزيران

٩٩- الفكيكي. المرجع السابق. ص٢٨٩.

١٠٠- مذكرات الشاذلي. المرجع السابق. ص٢٨٨.

١٩٧٠ – في قاعدة (عقبة بن نافع) في ليبيا، قد رد عليه وهو الذي له تجربة سابقة معه عام ١٩٦٣ قائلاً: (أنت كذاب)، فما كان من البكر الا أن نهض مغادراً إلى الجزائر على الفور.

ثمة سؤال يطرح نفسه، بل وعدة أسئلة، فلماذا تم توقيع اتفاقية الصلح مع شاه إيران، بعد أن سكتت المدافع في جبهات الحرب مع اسرائيل، وبعد أن قال السادات: (ان حرب أكتوبر هي آخر الحروب بين العرب وإسرائيل)؟ ولماذا استقبلوا السادات في بغداد، وأغدقوا عليه الهبات والقروض، بعد توقيع اتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء، بينما كانوا ينتقدونه، ويرفعون أقوى الشعارات في وجهه، ولم يستقبلوه في بغداد قبل حرب تشرين؟

وقبل هذا، والحديث هنا عن النصف الأول من السبعينات، لماذا يتم تصعيد الموقف مع إيران؟ (وقد ازدادت الخلافات بعد أن تسلم حزب البعث الحكم في العراق سنة ١٩٦٨، لأن حكام العراق الجدد أظهروا خلافات أعمق مع إيران في الشؤون الإقليمية والدولية على السواء)[١٠١]. لماذا كل ذلك كلما كان يجب أن تتوجه كل البنادق باتجاه إسرائيل؟ دون أن ننسى دور الشاه المتربص بالعراق والطامع بأراضيه، وكأنما كان كل من الشاه وانقلابيي ١٧ تموز، يتبادلان الأدوار، لأخذ العراق في دوامة بعيداً عن الجبهة الشرقية، والمعركة مع إسرائيل.

جاء البكر إلى القصر الجمهوري بأبناء عشيرته، وأبناء مدينته، ليسيطروا على الحزب والدولة والجيش. وفي مقدمتهم صدام حسين، أحد رجال البكر منذ عام ١٩٦٣، وقد وضعه على رأس (جهاز سري) لم يمضِ وقت طويل حتى كان أقوى مراكز القوة في البلد، ثم أصبح مركز القوة الوحيد. وهكذا بدأ زمن (الفاشية الريفية) وقاعدتها المدينية (البروليتاريا الرثة) وسنعود لهذه النقطة، أكثر من مرة في الفصول القادمة.

١٠١– د. خدوري، العراق الاشتراكي. ص٢٤٣.

وابتداء من النصف الثاني من السبعينات، أصبح البكر أسيرا لصدام حسين، فقد استغل صدام - وبدهاء كبير - ما عُرف عن البكر من ضعف. و(يكمن ضعف البكر في خضوعه لكل ما يخيفه، أكثر مما يندفع نحو مصلحته، وأفضل طريقة للتعامل معه هي تخويفه) [١٠٢]. وأخذ صدام يجّمع كل السلطات في يد البكر ليمارسها هو فعلياً.

ان البكر بجبنه المعهود، إذ تخاذل أمام عبد السلام عارف، يوم ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، ثم كتب تعهداً له بالا يمارس السياسة. وهو الذي أصيب بالسكري من فرط خوفه، ليلة انقلابهم، رغم أن الأمور بدت محسومة ومنتهية، استسلم تماماً لصدام وحاول الانسحاب - مبكراً - من المسرح السياسي.

فقد قدم البكر استقالته، أمام مؤتمر قطري استثنائي عام ١٩٧٦ متذرعاً بأحواله الصحية، فما كان من صدام الا وقدم استقالته، واشترط لعودته عنها، أمام مؤتمر من الموالين له والخائفين منه، بعودة البكر. وضغطوا على البكر حتى عاد عن استقالته.

وبعدها فقد البكر السلطة تماماً، حتى أن مدير مكتبه أصبح يُعين من قبل صدام، فعُزل البعثي القديم وصديق البكر (يحيى ياسين) من رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية، وعُين محله جاسوساً لصدام، هو طارق حمد العبد الله، الذي كان ملازماً في الحرس الجمهوري، يوم الانقلاب. وقد انتهى نفسه، أي الجاسوس، مقتولاً أو منتحراً عام ١٩٨٦.

وضيق صدام الخناق على البكر، وقام بتصفية بعض أسرته، ممن كانوا يبادلونه العداء. إذ قُتل زوج ابنة البكر، وابن البكر الأوسط، في حادثتي سيارة. وقتل مع الأخير زوجته وأطفاله. وفي هذه الأثناء كانت زوجة البكر قد توفيت، وسماها الإعلام الرسمي بأم المناضلين، وربما كان صدام نفسه وراء هذه التسمية، كواحدة من ألاعيبه، وهو يمسك بقوة بأزمّة الحكم. لقد عاش البكر، أواخر حكمه، وحيداً بين أحزانه، حتى سكرتيره العميد حميد التكريتي، (عثرت عليه زوجته متكئاً على طاولة الطعام وقد اخترقت ثلاثة

١٠٢- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٣٤٤.

رصاصات جسده والتي جاءت من النافذة المفتوحة)[١٠٣].

ومع صعود صدام، ازداد نفوذ فرع العشيرة الذي ينتمي إليه صدام، على حساب فرع البكر. وبرز في هذه الأثناء المقدم عدنان خير الله، شقيق زوجة صدام وابن خاله، وزوج ابنة البكر في الوقت نفسه. ورغم أن خبرته العسكرية لا تتجاوز خبرة ملازم أول في الجيش، وهي رتبته يوم الانقلاب، قبل أن يصبح أحد أبناء العشيرة الحاكمة، حيث يقضون جل أوقاتهم في أماكن اللهو، وحيث تتناقل الناس فضائحهم، عُين وزيراً للدفاع برتبة فريق أول طيار ركن.

لقد أصبح صدام في النهاية، قادراً على إبعاد البكر عن الرئاسة متى شاء. وأصبح البكر - نفسه - زاهداً في الحكم ومستعداً أن يغادره متى طلب منه ذلك.

٢- المقدم عبد الرزاق سعيد النايف:

ولد عام ١٩٣٤ في مدينة الفلوجة بمحافظة الرمادي. درس بكلية الاستخبارت بلندن وعاد إلى العراق عام ١٩٦٤[١٠٤]. وقد بدأ صعود نجمه، بعد المحاولة الانقلابية الفاشلة الأولى لعارف عبد الرزاق، في ١٥ أيلول ١٩٦٥، والتي شارك فيها كبار ضباط الاستخبارات العسكرية، وعلى رأسهم العقيد هادي خماس مدير الاستخبارات، ومعاونه المقدم فاروق صبري عبد القادر. فعهد إليه الرئيس عبد السلام عارف، لكونه من عشيرته، بالسيطرة على مديرية الاستخبارات وتطهيرها من مؤيدي الانقلاب.

في تلك المرحلة اتجه عبد السلام عارف إلى (الاعتماد على العشيرة والقرابة والبلدة في إسناد المناصب المهمة بصرف النظر عن الكفاءة والقابلية)[١٠٥]. و(أصبح عارف

١٠٣- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٣٩٣.

١٠٤- مجلة الجديد، العدد (١٠٦) ١٩٦٨/٧/٢٦، نقلاً عن السعيد. المرجع السابق. ص٤٠٣.

١٠٥- فرحان. المرجع السابق. ص١٣٤-١٣٥.

والضباط من أفراد قبيلته، الجُميلة، هم الحكام الأخيرين والوحيدين في الدولة)[١٠٦].
و(فتح باب التطوع بصورة استثنائية على وحدات الحرس الجمهوري، ووحدات موقع بغداد، واقتصر التطوع على أبناء لواء الدليم (محافظة الأنبار) فقط)[١٠٧].

عُين النايف بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ رئيساً للوزراء، وبعد أقل من اسبوعين، وفي يوم ٣٠ تموز، استدرج إلى مأدبة غداء في القصر الجمهوري، بالاتفاق مع البكر والآخرين، كان الغداء غزالاً مشوياً، قد اصطاده حماد شهاب، وهذا ما برر به حماد شهاب دعوته للنايف، الذي قدم ومعه اثنا عشر حارساً مسلحاً ظلوا في فناء القصر الجمهوري.

(ولكي يُترك انطباع بأنه ليس هناك أي شيء غير عادي ينتظر حدوثه، دُعي صالح كبة وزير المالية إلى الاجتماع، في نفس اليوم، بالرئيس البكر للبحث في الميزانية وفي أمور مالية أخرى، وعند خروجه من مقابلة الرئيس التقى النايف رئيس الوزارة قبل دخوله القصر الجمهوري وتحدث إليه بارتياح كبير عن محادثته مع الرئيس)[١٠٨]. وكان صالح كبة من جماعة النايف.

وعند دخول النايف استقبله البكر بحرارة، وأجرى معه محادثات طويلة أثناء تناولهما الطعام،وجلس على المائدة بالإضافة لهما، حردان التكريتي، وصدام التكريتي، وحماد شهاب التكريتي، وسعدون غيدان، وصالح مهدي عماش. وكان حماد شهاب يضحك وهو يقول (طعام اليوم غزال كله)[١٠٩].

وفي غرفة مجاورة، جلس عدد من رجال الجهاز السري الجديد لحزب البعث، والذي سيحمل اسم (مكتب العلاقات العامة) ومنهم، صلاح عمر العلي التكريتي، ذياب

١٠٦- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٤٨.
١٠٧- فرحان. المرجع السابق. ص١٣٤-١٣٥.
١٠٨- د. خدوري. المرجع السابق. ص٥٠.
١٠٩- د. اسكندر. المرجع السابق. ص١١٦ (وهو مصدر معظم التفاصيل التالية عن ٣٠تموز).

العلكاوي التكريتي، سعدون شاكر، جعفر الجعفري التكريتي، كامل ياسين التكريتي، عجاج أحمد هزاع التكريتي، صلاح صالح، برزان التكريتي. وحسب الخطة المتفق عليها، وبعد الانتهاء من الطعام، سيأتي صدام ويلحق به صلاح عمر العلي، وذياب العلكاوي، وبرزان. ويدخلون الغرفة على النايف، ويشهرون عليه في وقت واحد مسدساتهم. وكان النايف قد جلس (أو أُجلس) وظهره إلى باب الغرفة.

فدخلوا عليه، صارخين بصوت واحد لا يسمعه من في الخارج.. ارفع يدك.. فلما رأى مسدساتهم، وضع يديه على عينيه وقال (عندي أربعة أطفال) وهذه رواية صدام للحادثة[١١٠]. أما رواية خدوري فإن (مشادة كلامية تبودلت بينه وبين قادة البعث[١١١]. وفي رواية أخرى، يبدو أنها أدق، فإنه التفت إلى البكر قائلاً (أبا هيثم، أين العهد الذي بيننا؟)[١١٢]. فنهض البكر وخرج، ولم يبق سوى صدام وجماعته وأسيرهم النايف. وعلى الفور، اتجه صالح مهدي عماش ومعه سعدون غيدان - الذي أهمله النايف والداود فكسبه حزب البعث إلى جانبه[١١٣] - إلى كتيبة دبابات الحرس الجمهوري، واتجه حردان التكريتي إلى مقر قيادة القوة الجوية، وطه الجزاوي إلى وزارة الدفاع للسيطرة عليها. واتجه حماد شهاب، إلى اللواء المدرع العاشر، والذي كان يعسكر على مشارف بغداد، منذ يوم ١٧ تموز وقاده إلى داخل بغداد، ليحيط بالقصر الجمهوري.

واستدعي مرافق النايف وكان يجلس في الخارج، إلى مكتب البكر، حيث هجم عليه صدام وأخذ مسدسه. وأيضاً تم اعتقال حرس النايف وتجريدهم من سلاحهم، من قبل رجال (مكتب العلاقات العامة) الآخرين.

١١٠- د. أمير اسكندر. المرجع السابق. ص١١٧.

١١١- د. خدوري. المرجع السابق. ص٥١.

١١٢- مصدر الرواية، عبد الأمير الناجي.

١١٣- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٣.

وبعد ثلاث أو أربع ساعات، أُبلغ النايف من قبل محتجزيه، بأنه سيخرج من القصر الجمهوري، وسيخرجون معه بصورة طبيعية لا تلفت الأنظار. ويركبون السيارة ويتجهون إلى معسكر الرشيد حيث أُعدت طائرة خاصة لنقله إلى المغرب مقر عمله الجديد كسفير. وهددوه إن لم ينفذ الأوامر بدقة فسيقتلوه.

ورافق النايف في الطائرة إلى المغرب، ومعهم أسلحتهم، سعدون شاكر، وجعفر الجعفري، وعدنان شريف التكريتي، وبرزان، وأنزلوه في المغرب، وقفلوا راجعين إلى بغداد.

إن أحد هؤلاء المرافقين، وهو سعدون شاكر، وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات العامة، استدرج عام ١٩٧٦ النايف إلى لندن، من منفاه في الأردن، بحجة التفاوض معه - وهو أمر يدل على سذاجة النايف وبساطته - حيث اغتيل على باب الفندق الذي كان يفترض أن تُعقد فيه جلسة مفاوضات ثانية.

٣- العميد الركن إبراهيم عبد الرحمن الداود:

ولد عام ١٩٢٩ في مدينة هيت بمحافظة الرمادي، ابناً لرجل دين. لعب دوراً فعالاً وشجاعاً في التصدي للمحاولة الانقلابية في ٣٠ حزيران ١٩٦٦، وكان قائداً للفوج الثاني في الحرس الجمهوري برتبة مقدم. ورقاه الرئيس عبد الرحمن عارف عام ١٩٦٧ إلى قائد الحرس الجمهوري والى رتبة عميد. وربما كان دوره هذا في قمع انقلاب ٣٠ حزيران هو سبب اشتراكه في انقلاب ١٧ تموز فقد كان خائفاً من الناصريين وكان يقول لرئيسه عبد الرحمن عارف (ذات يوم سيستولون على السلطة ويرسلوننا إلى المشانق)[١١٤].

عُين بعد انقلاب ١٧ تموز، وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للقوات المسلحة، ومنح رتبة فريق. وذهب إلى الأردن في ٢٩ تموز ليتفقد القوات العراقية هناك. وليفسح المجال -

---

١١٤- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٠.

دون أن يدري – في اليوم التالي لحزب البعث ليطيح به وبعبد الرزاق النايف وبمرحلة حكم الضباط القادمين من الرمادي، لتبدأ مرحلة حكم أبناء تكريت[١١٥].

وذهب الداود، ولما يتمتع وصاحبه النايف بانقلابهم على رئيسهم عبد الرحمن عارف، لاجئاً إلى السعودية، وقد أعدم حزب البعث شقيقه النقيب عبد الوهاب، أحد المشاركين في انقلاب ١٧ تموز، في المؤامرة المزعومة عام ١٩٧٠.

لم يُسمع للداود صوتا، منذ انقلاب ٣٠ تموز ١٩٦٨، إلا في أحداث الكويت. إذ أطلق سلسلة من التصريحات البلهاء، واجتمع وقتها وحسن النقيب وعبد الغني الراوي، في السعودية لينسقوا لمرحلة ما بعد صدام. ولكنهم اختلفوا فيما بينهم على الرئاسة، إذ ادعى كل واحد منهم بأنه أحق بها. فقال عبد الغني الراوي، أنه كان نائباً لرئيس الوزراء، واحتج الداود بأنه أعلاهم رتبة فهو فريق، وادعى النقيب بأن له فضلاً على الداود إذ كان قائداً للقوات العراقية في الأردن، ولم يقبض عليه يوم ٣٠ تموز. والحقيقة، لم تكن هناك نية للقبض عليه وكان الهدف يومئذ إبعاده والنايف عن السلطة في بغداد إلى أي بلد في الخارج.

٤- صالح مهدي عماش:

ولد في عام ١٩٢٥، في قرية المجمع (ناحية يثرب) القريبة من مدينة بلد بمحافظة تكريت. ابناً لفلاح، ما لبث أن انتقل إلى بغداد، والطفل صالح في سنيه الأولى. وقد سُجل فيما بعد أنه ولد ببغداد.

من حسن حظ عماش، أن العراقيين يتذكرون – دائماً – البكر وصدام ونسوه، رغم أن دوره لا يقل خطورة وغموضاً ودموية عن دورهما.

١١٥- المرجع السابق. ص٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٠٥.

عمل ضابطاً للاستخبارات في العهد الملكي. وكان من المعروفين بولائهم للنظام الملكي. وقد نشرت له مجلة (الإذاعة) العراقية، قصيدة بعنوان يوم الجيش، يمدح فيها الملك فيصل وعبد الإله الوصي على العرش[١١٦]:

يـا شـبـل غـــازي والمـنـيـة مـنـهـل — من أجل عرشك في الوغى تستعذب
مـولاي جيشك مـن أردت لمعركٍ — ولـكـربـة حـاشـا لـعـزك تـقـرب
فمن القلوب بنيت عرشك ثابتاً — والعرش تحتك من قلوب أهيب
يحميه خالك ساهراً متجشماً — شتى المصاعب في سبيلك ينصب
عبد الالـه وكـم سعدت مكرما — مـن أجـل جيشك والبرية ترقب

وبينما هو ينتمي إلى حزب البعث في منتصف الخمسينيات، لعب دوراً كبيراً كضابط استخبارات، في مؤامرة حلف بغداد الشهيرة على استقلال سوريا عام ١٩٥٦[١١٧]. وإذا كان لأحد أن يدعي بأنه ضابط نفذ الأوامر الصادرة إليه من رئيس وجبت عليه طاعته[١١٨]، فإن هذا لا يقبل من ضابط انتمى لحزب سياسي مؤمن بالقومية العربية، التي استهدفتها المؤامرة. وقد حاكمت ثورة ١٤ تموز جميع الضباط الذين شاركوا في المؤامرة وسجنتهم ومنهم عماش، ثم أعاده عبد الكريم قاسم، في واحد من قراراته غير المنطقية، للخدمة العسكرية كضابط ركن في القوة الجوية.

وارتبط عماش بعلاقة غامضة في أوائل الستينات مع (بيل ليكلاند)، مسؤول المخابرات الأميركية في العراق، حتى أنه سلمه كلمة سر حزبية، (أبو هدى يسلم) ليبلغ مجموعة من الضباط العراقيين البعثيين، الذين كانوا في دورة تدريبية في الولايات المتحدة ليأخروا

١١٦- هويدي. المرجع السابق. ص١٥٤.
١١٧- راجع مثلا. محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة. الجزء الثاني. ص٣٨١ و ٦١٧.
١١٨-المرجع السابق. ص٦١١.

قدومهم إلى بغداد، خوفاً من اعتقالهم، وذلك أوائل عام ١٩٦٢[١١٩].

وبعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، وكما مر بنا، كان صالح مهدي عماش وبالتنسيق مع البكر، وربما بدون علم الآخرين، يلتقي ليكلاند اسبوعياً، كل يوم سبت. وقد حاول نقل أسلحة سوفييتية يملكها الجيش العراقي - كان الغرب يتطلع لمعرفة أسرارها - إلى أميركا. (ويبدو أن عماش حاول تحقيق ذلك سراً.. بالاتفاق مع البكر وطاهر يحيى وعبد الستار عبد اللطيف.. الا ان محاولته فشلت في اللحظة الأخيرة)[١٢٠].

ويبدو أن علاقة عماش بالمخابرات الأميركية بدأت عندما كان معاوناً للملحق العسكري بسفارة العراق في واشنطن، قبل ثورة تموز ١٩٥٨. ويحاول رفاق عماش القدامى، تبرير كل ذلك التاريخ المشبوه. فطالب شبيب عضو مجلس قيادة الثورة عام ١٩٦٣ يقول: (وقد نظرنا للأمر مجرد مبادرة فردية غير موفقة)[١٢١] فعماش (غالباً ما يقوم بأعمال وتصرفات فردية في كل اتجاه)[١٢٢].

ويقول شبيب في حديثه عن جاسوس آخر (ايليا زغيب): (ليس صحيحاً ما قيل بأن القيادة القطرية للبعث في العراق قد استخدمته كصلة ارتباط بينها وبين القيادة القومية أو ميشيل عفلق في بيروت. ومثل هذا غير ممكن حزبياً اطلاقاً وتمنعه اللوائح والأعراف الداخلية الحزبية)[١٢٣]. وللمرء أن يتساءل هنا، هل أن اللوائح الداخلية لحزب البعث تسمح لمسؤول المخابرات الأميركية في العراق أن يكون صلة الوصل بين عماش ورفاقه في أميركا؟

١١٩(- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٧٦ وأيضا هاني الفكيكي. المرجع السابق. ص١٨٣.
١٢٠- الفكيكي. المرجع السابق. ص٢٩٩.
١٢١- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٧٦.
١٢٢- المرجع السابق. ص٢٧٦.
١٢٣- المرجع السابق. ص٢٧١.

ان شبيب يتهم (كتلة البكر عماش صدام) بصلات مشبوهة جاءت بهم إلى السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٣[١٢٤]، وذلك بعد أن افترق عنهم، ولكنه يحاول أن يدافع عن سلوك عماش، خلال الفترة التي كانت تجمعهما معاً قيادة واحدة. أما هاني الفكيكي، رفيق عماش الآخر، في قيادة عام ١٩٦٣، فيدعي أنهم علموا فيما بعد باستخدام ليكلاند كصلة وصل بين عماش ورفاقه في أميركا. ولكنه يحاول تبرير أعمال عماش (بالحرب الكردية التي أسقطت كل المحرمات)[١٢٥] مرة، وببغض عماش (للقرارات المعقدة[١٢٦] مرة أخرى.

عُين عماش عام ١٩٦٠ عضواً في المكتب العسكري لحزب البعث، وعُين بعد انقلاب ٨ شباط والذي لعب دوراً رئيسياً في التخطيط له، وزيراً للدفاع وعضوا في المجلس الوطني لقيادة الثورة. ورُقي من رتبة مقدم إلى فريق. وعين في أيلول ١٩٦٣ عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث، وفي تشرين الأول عضواً في القيادة القومية.

كان عماش قبل انقلاب ٨ شباط (يقود حملة التهويل من خطر الشيوعيين على أية محاولة سيقوم بها حزب البعث للوصول إلى السلطة)[١٢٧]. وعندما يكون الهدف الأول للنشاطات السرية الأميركية في العالم الثالث آنذاك، هو التحريض على الشيوعيين وإبادتهم، فهمنا (حوادث الإعدام الفوضوية وبشكل خاص مجزرة معسكر الرشيد ضد ضباط لم تكن سمعتهم سيئة (والتي) تمت بأمر من صالح مهدي عماش وبحضور السعدي، إذ جيء بهؤلاء في الليلة الثانية للثورة وجرى ضربهم واهانتهم وادانتهم بأعمال مختلفة ثم قتلهم)[١٢٨].

١٢٤- المرجع السابق. ص٢١٨-٢١٩.

١٢٥- الفكيكي. المرجع السابق. ص٢٩٩.

١٢٦- المرجع السابق. ص١٨٣.

١٢٧- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٧٧.

١٢٨- المرجع السابق. ص١٩٣.

(كان صالح مهدي عماش وزير الدفاع يستغل الفرصة في كل مرة.. فيقوم بإعدام مجموعة جديدة من الشيوعيين، ولم يسلم منه حتى النادمون والمعترفون والمتعاونون مع أجهزة التحقيق)[١٢٩]. وذهب مرة (إلى قصر النهاية ومعتقل أبو غريب ومعتقلات التحقيق الأخرى وطلب تسليمه حوالي عشرين شيوعياً معتقلاً.. وأمر بإعدامهم)[١٣٠].

وقد عارض وآخرون الوحدة التي قتلوا عبد الكريم قاسم باسمها، والتي كانوا يذبحون الشيوعيين بحجتها. وفي انقلاب عبد السلام عارف على حزب البعث يوم ١٨ تشرين الثاني، (تم اعتقال صالح مهدي عماش وزير الدفاع في مكتبه بالوزارة حيث كان ينام وقام باعتقاله كل من سعيد صليبي وعلي عريم سكرتير وزير الدفاع الخاص)[١٣١]. وفي نفس الليلة رُحل إلى القاهرة. ولكن مصر رفضت تعيينه سفيراً لديها حتى لا يتمكن من (تخريب العلاقة بين القاهرة وبغداد). فرد عبد السلام عارف ضاحكاً: (أنه أرسله إلى القاهرة ليقدم مزيداً من قصائده إلى الرئيس لا كسفير لهم هناك (وهو يشير بذلك إلى قصيدة عماش التي هاجم فيها الرئيس))[١٣٢] أي الرئيس جمال عبد الناصر. وقد ظل في القاهرة مُبعداً حتى عام ١٩٦٦ حيث سُمح له بالعودة إلى العراق.

ولعماش، بالإضافة لعلاقته بليكلاند، سلسلة علاقات غامضة مع شخصيات دارت حولها شائعات كثيرة. ولعل هذه العلاقات تفسر أو بالأحرى تكمل أدوار عماش الأخرى. وأهمها علاقته بالدكتور ناصر الحاني، والذي رشحه عماش لوزارة الخارجية عام ١٩٦٣، وقد عُين اخيراً وكيلاً لوزير الخارجية. ولعب الحاني دوراً خطيراً في انقلاب البعث الثاني في ١٧ تموز ١٩٦٨.

١٢٩- المرجع السابق. ص١٩٢.

١٣٠- المرجع السابق. ص١٧٦.

١٣١- هويدي. المرجع السابق. ص١٦٦.

١٣٢- المرجع السابق. ص١٦٨ (حاشية).

لقد عُرف القليل عن (الاجتماعات التي عقدت في دار الحاني في بيروت وفي داري الملحقين الثقافيين الأميركي والبريطاني في بيروت أيضا وبرفقة عبد الرزاق النايف رئيس وزراء حكومة ١٧ تموز ١٩٦٨ ولطفي العبيدي، وربما اجتمع معهم أحد الأشخاص الثلاثة عماش أو حردان أو صدام. وقد نشر لطفي العبيدي في الصحافة اللبنانية في نهاية الستينات صور شيكات سُلمت إلى قيادة سلطة ١٧ تموز ١٩٦٨. مما أدى بالمخابرات العراقية إلى شن حملة اغتيالات وملاحقات شملت كتلة العبيدي - الحاني - النايف، في كل مكان داخل وخارج العراق) [١٣٣] حسب رواية بعثي سابق مطلع.

الا ان جريمة عماش الكبرى، كانت بتقديمه المبرر لشاه إيران المتربص بالعراق و(قطع أول خطوة باتجاه جحيم الصراع العراقي -الإيراني المدمر القادم، والذي كان يمكن تجنبه.. عام ١٩٦٨ فإثر حادث حدودي بسيط يمكن حصوله باستمرار بين دولتين جارتين، استدعى صالح عماش إلى مكتبه السفير الإيراني في بغداد، وكان نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية،وقال له: (ماذا سيكون رد فعل إيران إذا قصفنا مصفاة خرمشهر ومطار عبادان) (...) وبعد تلك المقابلة التهديدية العماشية الفارغة، أقدمت إيران كرد فعل من جانبها إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٧ التي تعترف بعراقية شط العرب[١٣٤].

ولا أظن أن هذه الخطوة العماشية هي إحدى الشواهد على تهور صالح مهدي عماش[١٣٥] إنما تجد تفسيرها بأن كتلة البكر عماش صدام (أعطت عبر قنوات مختلفة ضمانات بأن تبقى بعيدة عن كتلة المواجهة العربية الممثلة بمصر وسوريا والمقاومة[١٣٦]..

١٣٣- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٨٩.

١٣٤- المرجع السابق. ص٢٧٨.

١٣٥- المرجع السابق. ص٢٧٨.

١٣٦- المرجع السابق. ص٢١٨.

وإلا لماذا أقامة أعلى درجات التنسيق مع إيران وتركيا عام ١٩٦٣؟ والتصعيد مع إيران عام ١٩٦٨، في ذروة الصراع العربي - الصهيوني؟ ولماذا الصلح معها عام ١٩٧٥ بعد أن صمتت مدافع الصراع العربي - الإسرائيلي؟

يقول طالب شبيب، وهو يتحدث عن الحرب مع الأكراد عام ١٩٦٣: (وأشك بشدة بسلوك صالح مهدي عماش، رغم تصويته معنا ضد بدء العمليات فقد علمت أنه بدأ وقبل حضوره الاجتماع بالاتصالات مع الملحقين العسكريين الإيراني والتركي وبحث الأمر معهما)[١٣٧].

ولعماش أدوار غامضة كثيرة، فقبل انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، قام بالكثير من المناورات والعمليات لقطع الطريق على القوى القومية، حتى لا تقوم بانقلاب، أو لمنع مشاركتها في انقلاب البعث العتيد[١٣٨]. وركز هجومه على ناجي طالب، الذي كان مرشحاً لرئاسة وزارة الانقلاب[١٣٩]. وقد (التقى عبد المجيد جليل، مدير الأمن العام.. فأوحى إليه بأسماء بعض الضباط القوميين وضلوعهم في التآمر، فما كان من الأخير الا أن نقل الخبر إلى قاسم.. فلم يتردد قاسم في اعتقال بعضهم وإحالة البعض الآخر إلى التقاعد أو إلى مناصب إدارية، وكان لعمل صالح أن أضر بالعلاقة بين الحزب وباقي الأطراف القومية، مخلفاً عند البعثيين شعوراً كبيراً بالحرج، من دون أن يقود إلى اتخاذ إجراء حزبي بحق المسبب)[١٤٠]. وكان أول عمل لعماش بعد انقلاب ٨ شباط، ليخفي آثار وشاياته المتكررة للأمن إعدام (العقيد عبد المجيد جليل الذي ما كان يجب أن يعدم، لأنه أرحم مدير أمن في تاريخ العراق كله، ولم يظهر أية عداوة للقوميين أو البعثيين)[١٤١]

١٣٧- المرجع السابق. ص٢٥٧-٢٥٨.

١٣٨- راجع فرحان. المرجع السابق. ص٦٠-٦١.

١٣٩- هويدي. المرجع السابق. ص٢٧.

١٤٠- الفكيكي. المرجع السابق. ص١٨٣.

١٤١- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٨١.

حسب رواية طالب شبيب.

وليغطي عماش على أدواره المشبوهة، ادعى بعد نجاح انقلاب شباط العثور على مذكرة صادرة عن السفارة البريطانية، تحذر الزعيم عبد الكريم قاسم من انقلاب سيقوم به عماش(١٤٢).

عُين عماش يوم ١٧ تموز ١٩٦٨ وزيراً للداخلية، وفي عام ١٩٧٠ وكخطوة أولى لتجميده، مُنح رتبة فريق أول ركن وعُين نائباً لرئيس الجمهورية حيث لا تكون لديه مهام محددة. (وعندما أصبح غير راضٍ في مركزه الذي أصبح فيه صورة، راح يتذمر ويطلق انتقادات لا مبرر لها يوجهها إلى أعضاء الحزب الآخرين، فأثار خصومتهم)(١٤٣). و(لما كان عماش يقطن منزلاً غالياً نسبياً، ترددت شائعات أن المال لا يأتي كله من دخله الخاص.. فإن محاولته الاستيلاء على عقار من جار له بالقوة يضيفه إلى عقاره حفزت نقاده على تقويض مركزه)(١٤٤). ولقصة عماش جانب آخر سنتطرق له عند الحديث عن حردان التكريتي. وأعفي عماش من جميع مناصبه الحزبية والرسمية، في عام ١٩٧١ ،وعُين سفيراً في أوروبا حتى وفاته عام ١٩٨٥.

أخذ في سنواته الأخيرة برفع رسائل تأييد إلى صدام حسين، تُشم منها رائحة الذعر والتذلل. وقد نشرت جريدة الثورة شبه الرسمية بعضاً منها، بعد وفاته.

ويبدو أن علي صالح السعدي يفهمه جيداً، إذ كان يقول له سنة ١٩٦٣: (أنت جبان ومتقاعس وإن الثورة أنعمت عليك بمنصب وزير الدفاع ورتبة فريق بعد أن كنت مقدماً وأنت لا تستحق ذلك)(١٤٥).

١٤٢- احمد فوزي. عبد الكريم قاسم وساعاته الأخيرة. الطبعة الثانية. ص١٠٥.

١٤٣- د. خدوري. المرجع السابق. ص١٠٣.

١٤٤- المرجع السابق. ص١٠٣ (حاشية).

١٤٥- د. علي كريم. المرجع السابق. ص١٤١.

٥- العميد حردان عبد الغفار التكريتي:

ولد عام ١٩٢٥ بتكريت أبناً لشرطي. وسهل له كونه (تكريتياً) الدخول كضابط في القوة الجوية، التي كانت حكراً على بلدات معينة. الامر الذي فسح له بالتالي الدخول الى الحياة العسكرية والسياسية من بابها الواسع.

انضم مع مجموعة الضباط التكارتة (البكر، رشيد مصلح، طاهر يحيى وغيرهم)، في أواخر عهد الزعيم عبد الكريم قاسم إلى حزب البعث. وساهم معهم وكان آمراً لقاعدة كركوك الجوية في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، وبعد عشرة أيام، وإثر استقالة عارف عبد الرزاق قائد القوة الجوية، عُين بدلاً عنه.

وفي ١٨ تشرين الثاني، كان من مجموعة الضباط التكارتة (رشيد مصلح، طاهر يحيى، البكر.. وغيرهم)، والذين استخدمهم الرئيس عبد السلام عارف في الانقلاب على حزب البعث إذ (قاد بنفسه الطائرات التي قصفت الحرس القومي وأخضعته[١٤٦].

وعينه عبد السلام عارف يومها نائباً للقائد العام للقوات المسلحة، ووزيراً للدفاع بالإضافة إلى منصبه كقائد للقوة الجوية.

وأخذ الرئيس عارف، بعد ذلك مباشرة، بتجريده تدريجياً من سلطاته. ففي ١٩٦٣/١٢/١٦ أُعفي من قيادة القوة الجوية. و(أقيل من منصبه كوزير للدفاع بعد أسابيع وهو في زيارة لأوروبا وعين سفيراً في السويد دون أن يُسمح له بالعودة إلى بغداد[١٤٧]. وسيستخدم فيما بعد رفاقه في انقلاب ١٧ تموز الأسلوب نفسه لتجريده من مناصبه.

عُين بعد انقلاب ١٧ تموز رئيساً للأركان وقائداً للقوة الجوية. وبعد اسبوعين من ذلك، أي بعد انقلاب ٣٠ تموز، أعفي من هذين المنصبين، وعين وزيراً للدفاع. وقد نشب تنافس شديد بينه وبين صالح مهدي عماش الذي (شُجع على ذلك لمواجهة نفوذ

١٤٦- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٤٢.

١٤٧- هويدي. المرجع السابق.ص١٧٠.

حردان). وتصاعد التنافس بينهما بعد أن أشيع بان عماش سيتولى رئاسة الوزارة حيث اعترض حردان على ذلك، ويبدو أن كل ذلك[١٤٨]، كان لعبة من البكر - صدام لإضعاف الرجلين معاً.

وفي سنة ١٩٧٠ أُعفي من منصبه كوزير دفاع، وعُين نائباً لرئيس الجمهورية. وفي ١٥ تشرين الأول ١٩٧٠ أُعفي من جميع مناصبه، وهو في زيارة لأسبانيا، وعُين سفيراً في المغرب. إذ (وجِد من المناسب أن يكون كبش المحرقة، كفارة عن إخفاق الجيش في تأييد منظمة التحرير الفلسطينية في كفاحها ضد الملك حسين في (أيلول) سنة ١٩٧٠)[١٤٩]. أو هكذا كان مبرر النظام للتخلص من حردان.

وتوجه حردان للإقامة في الجزائر وبعد أشهر غادرها إلى الكويت، حيث لقي مصرعه يوم ٣٠ آذار ١٩٧١. وقد سرت شائعات قبل اغتياله بأنه يعد لانقلاب في بغداد، بالتعاون مع شخصيات كثيرة، منها السيد مهدي الحكيم، والذي قدم وقتها إلى الكويت أيضا. وعرضت الحكومة العراقية اذاك،أحد الضباط الطيارين، على شاشة التلفزيون ليعترف بأنه من مجموعة حردان الانقلابية.

٦- العقيد حماد شهاب التكريتي:

ولد في تكريت عام ١٩٢٥. كان مرافقاً للواء غازي الداغستاني أحد كبار الضباط في العهد الملكي، واعتقل معه يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ولعدة ساعات[١٥٠] ويبدو أن هذا سبب كاف جعله ينضم إلى انقلابيي ٨ شباط فيما بعد.

كان ضابطاً مغموراً ولكنه محظوظاً إذ رفعته صلته السابقة بالرئيس عبد الرحمن

١٤٨- د. خدوري. المرجع السابق. ص٩٧-١٠١ (حردان التكريتي ضد صالح مهدي عماش).
١٤٩- راجع المرجع السابق. ص٩٩-١٠٠.
١٥٠- مذكرات العزاوي. المرجع السابق. ص١٢٢.

عارف، فعينه وهو الضابط غير المبرز آمراً للواء المدرع العاشر، أفضل قوات العراق المدرعة واحتياطي الحرس الجمهوري في الوقت نفسه، وقد أوصى الرئيس عارف الدكتور شامل السامرائي وزير الداخلية أن يستعين بحماد شهاب إذا ما حدث شيء[١٥١].

ان العلاقة مع الرئيس عارف والتي كان محظوظاً بها وقد كان الوحيد من ضباط الرئيس المعتمدين الذي لم يكن من أبناء الرمادي، هي نفسها نقطة العار في حياته، إذ خان عهده للرجل عندما شارك في انقلاب ١٧ تموز.

ولا قيمة لاشتراطه ألا يُقتل الرئيس عارف[١٥٢]، فلم يكن في العراق من يفكر في قتل الرئيس عارف، الوطني والطيب والمتسامح، والذي لم يوقع في حياته على إعدام أي إنسان. وكان الانقلابيون - أنفسهم - حريصين، إذا لم تكن هنا ضرورة قصوى، ألا يلطخوا انقلابهم في أيامه الأولى وقبل أن يثبتوا أقدامهم بجريمة كهذه ستثير اشمئزاز العراقيين والعرب والعالم على حد سواء.

مُنح رتبة عميد يوم ١٧ تموز وعين قائداً لقوات العاصمة. وبعد اسبوعين من ذلك، منح رتبة لواء وعُين خلافا لقوانين الجيش رئيساً لأركان الجيش. فهو لم يتخرج من كلية الأركان. ولم يكن ذلك التعيين هو السابقة الأولى في تاريخ انقلابات العراق. فقد عين البعثيون - في انقلابهم الاول عام ١٩٦٣- طاهر يحيى رئيساً للأركان. وفي ١٨ تشرين عين الرئيس عارف شقيقه عبد الرحمن رئيساً للأركان وكالة. وعين عبد الرحمن، اللواء مهدي حمودي، رئيساً للأركان، وجميعهم لم يتخرجوا من كلية الأركان.

وفي عام ١٩٧٠، عُيّن وزيراً للدفاع ومنح رتبة فريق أول. واستدرجه ناظم كزار مدير الأمن العام في ٣٠ حزيران ١٩٧٣ وألقى القبض عليه ثم قتله في منطقة زرباطية بمحافظة الكوت، قريباً من الحدود الإيرانية.

١٥١- فرحان. المرجع السابق. ص٢٦٢-٢٦٣.

١٥٢- د. اسكندر. المرجع السابق. ص١٠٨.

٧- الرائد سعدون غيدان:

ولد في الرمادي سنة ١٩٣٠، ابنا لشرطي. وتخرج من الكلية العسكرية عام ١٩٥٣. برز لأول مرة حين قاد إحدى سرايا المدرعات في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، وقضى على مقاومة الشيوعيين في باب الشيخ[١٥٣]، ويبدو أنه كان بعثياً، فعين عضواً في هيئة التحقيق الخاصة[١٥٤] والتي قامت بأعمال قتل وتعذيب كثيرة.

ساند عبد السلام عارف في انقلابه على حزب البعث، وجيء به ضابطاً في الحرس الجمهوري. ثم عين عام ١٩٦٧ آمراً لكتيبة دبابات الحرس الجمهوري. وبعد انقلاب ١٧ تموز، الذي لعب فيه دوراً كبيراً، عُين قائداً للحرس الجهوري ومنح رتبة عميد. وفي ٣٠ تموز أي يوم إطاحة (النايف - الداود)، عُين قائداً لقوات العاصمة بغداد. وأضحى العضو الوحيد في مجلس قيادة الثورة، الذي لا ينتمي لمحافظة تكريت. وفي عام ١٩٧٠ عين وزيراً للداخلية ومنح رتبة فريق أول.

لولا تظاهره بالموت لما نجا بأعجوبة، في مؤامرة ناظم كزار الشهيرة، الذي أطلق النار عليه بعد أن قتل حماد شهاب وزير الدفاع. وكان ناظم كزار مدير الأمن العام التابع لوزارة الداخلية، مسؤولهما الحزبي، وحسب المراتبية الحزبية يتوجب عليهما تنفيذ ما يطلبه منهما، فاستدرج كلاً منهما، بحجة تفقد أجهزة على درجة عالية من السرية كانت قد وصلت للتو، وكان يجب الاحتراس وعدم إخبار أو اصطحاب أي أحد، حفاظاً على المكان السري والخطير جداً. قيل أن هذه الأجهزة، هي المركز الالكتروني للتجسس ومكافحة التجسس[١٥٥]. وقيل في رواية أخرى أنها أجهزة للتعذيب[١٥٦].

١٥٣- فرحان. المرجع السابق. ص٦٩.

١٥٤- صالح مهدي دكلة، من الذاكرة (سيرة حياة). ص١٠٨.

١٥٥- خدوري. المرجع السابق. ص١٠٨.

١٥٦- العلوي. المرجع السابق. ص١٥٠.

وحسب الاتفاق، وصل سعدون غيدان إلى المكان المحدد، واستقبله ناظم كزار بالأحضان وذهبا إلى المكان السري وحدهما. يقول غيدان: (دخلنا البناية وبدأنا ننزل إلى الطابق الأسفل وهو سرداب واسع وطويل. وبعد مسيرة بضع خطوت انطفأت الأنوار وهجم علي بعض الأشخاص ودفعوني دفعا، دون أن أتمكن من رؤية وجوههم، إلى غرفة مظلمة وأغلقت علي الباب واستقبلني صوت عرفت فيه حماد شهاب وزير الدفاع، الذي أخبرني أنه استدرج بنفس الطريقة..)[١٥٧].

ثم نقلهم ناظم كزار إلى منطقة الكوت، وربما كان يريد التوجه بهم نحو الحدود الإيرانية، وصار يسبهم ويسمعهم كلمات بذيئة ويهددهم بين فترة وأخرى. حتى جاءت طائرات عمودية تابعة للجيش العراقي وأخذت تطلق النار، فتوقفت السيارات وقبض على ناظم كزار ومساعديه.

ظل سعدون غيدان يتعالج في الخارج لعدة أشهر. وبعد عودته أُعفي من وزارة الداخلية وعين وزيراً للمواصلات.

عاش سعدون غيدان، بعد مؤامرة ناظم كزار، خائفاً مذعوراً، وهو يرى رؤوساً كثيرة قد تدحرجت. وزاد خوفه بعد تنحي البكر وانفلات حمى الاعدامات التي طالت القريب والبعيد والصديق والعدو. كان هو - نفسه - لا يدري متى يأتي دوره؟ فأسلم نفسه للخمرة، يعب منها ليلاً ونهاراً. وأصيب بالسرطان وطلب إعفاءه من جميع مناصبه عام ١٩٨٢. وتقول الرواية الرسمية أنه مات عام ١٩٨٥، أما نحن فلا نعرف كيف كانت نهايته؟

١٥٧- د. رحيم عجينة. الاختيار المتجدد. ص١١٨.

الفصل الثالث

تاريخ مسدس
(مكتب العلاقات العامة)

(الأصعب هو امتلاك الفكرة
والأسهل هو قطـع الرؤوس)
دوستويفسكي

في الأيام الأولى لانقلاب ١٧ تموز، أنشيء جهاز سري، كان الناس لا يعرفون عنه شيئاً ولا يسمعون باسمه الا نادراً، وهو (مكتب العلاقات العامة) التابع لمجلس قيادة الثورة. والذي عرف منذ عام ١٩٧٢ بالمخابرات العامة. ان هذا الفصل مخصص للسنوات الأربع التي كان الجهاز فيها يسمى بمكتب العلاقات العامة.

ان حزب البعث عام ١٩٦٤ وفي دراسته (أسباب نكسة حكم الحزب في العراق[١٥٨])، عام ١٩٦٣، اعترف (أن مكتب التحقيق الخاص، الذي شكل للإشراف على عمليات التحقيق، قد تحول إلى جهاز بوليسي إرهابي جشع أصبح الإرهاب والتعذيب بالنسبة إليه حرفه ولذة كما تحول إلى عصابة من المستفيدين).

ويبدو أن القصد من هذا الاعتراف، التهرب من المسؤولية والقاؤها على (جماعة علي صالح السعدي) المنشقة عن الحزب. فلم يطرد الحزب من صفوفه، أحداً من أعضاء

١٥٨- نضال البعث. دار الطليعة. بيروت ١٩٧٢. الجزء التاسع. ص٤٤-٧٧

(المكتب الخاص) أو غيرهم بسبب القتل أو التعذيب، بل إن بعض أبرز عناصر (المكتب الخاص) أصبحوا بعد انقلاب ١٧ تموز من أبرز رجال الحكم.

فمن عناصر معروفة بدورها في أعمال القتل والتعذيب في (مكتب التحقيق الخاص) وفي غيره، في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣. ومن كوادر ذات سوابق إجرامية، ومن شباب جدد، لديهم كل الاستعداد لقتل الآخرين وتعذيبهم بدون تردد، تشكل (مكتب العلاقات العامة) أساساً.

وكانت هذه العناصر، تسمى في حزب البعث، بالعناصر الصِدامية بكسر الصاد، أي المستعدة للصدام مع الشيوعيين واليساريين. وقد برز دور هذه العناصر بعد عام ١٩٥٨، وتصاعد المد الشيوعي في النصف الاول من عام ١٩٥٩. وحظيت هذه العناصر - دائماً - بالتقدير والهيبة والنفوذ داخل الحزب، وتقدمت مكانتها على المثقفين وغيرهم.

وتحت شعار (العنف الثوري) صار الانضمام إلى العناصر (الصدامية)، مغرياً للكثير من شباب الحزب، وكان بينهم من يعتقد أن ذلك هو التجسيد الأقرب لمثل الحزب وأهدافه. وهكذا - للأسف - تورط كثيرون في أعمال قتل وتعذيب واعتداء. والأسوأ من ذلك، أن من العناصر الصدامية، أو ربما لكونها صدامية فحسب، جاءت بعد عام ١٩٦٨، معظم قيادات حزب البعث وكوادره ووزرائه وموظفي دولته، والكثير من كتابه وصحفييه.

ان تصفية ما درج على تسميته آنذاك بمواقع (الثورة المضادة) وبكل الوسائل، هو الهدف من إنشاء (مكتب العلاقات العامة). إذ تربّوا على مقولة عفلق بأن (العمل القومي القابل للنجاح هو ذلك الذي يستثير الحقد حتى الموت تجاه أولئك الذين يجسدون فكرة مضادة. ان من التفاهة بمكان أن يحارب أعضاء الحركة النظريات. يقولون لماذا علينا أن نهتم بالأشخاص، ان النظرية المعادية لا توجد بذاتها لذاتها، بل تتجسد في أشخاص لابد من زوالهم لزوالها)[١٥٩]. وتشبعوا بأن (إذلال الخصم وإبادته هما من صميم

١٥٩- راجع بطاطو. المرجع السابق. ص٤٦.

العقيدة وأساليب الحزم الثوري)[١٦٠].

هنا لا بد من وقفة مع أسباب وظروف (العنف) الذي اجتاح العراق بعد قيام الحكم الجمهوري عام ١٩٥٨.

❖ ❖ ❖

من الصعب، تفسير ظاهرة (العنف) بالنزعة الستالينية التي طبعت سلوك الحزب الشيوعي، في تلك السنوات. واستعارتها منه حركات سرية أخرى في مقدمتها (حزب البعث). إننا - بهذا التفسير - ننتهي إلى النتيجة ولا نبدأ بالسبب.

ان المجتمع العراقي، وبسبب قرون طويلة من السيطرة الأجنبية، التي أعاقت تطوره وخربت كل شيء في حياته، ولأن النظام الملكي، الذي حكم العراق لأربعين سنة تقريباً كان فاسداً ومتخلفاً وطائفياً، ففشل في بناء مجتمع متماسك، وإنشاء تقاليد سياسية مستقرة، وتحقيق تنمية شاملة. وهكذا، وكأي مجتمع في حالة صيرورة، فإنه يزخر بالتناقضات والصراعات والآلام والأحقاد التي تغلي تحت السطح.

لقد عانى أكثر من ٨٠٪ من السكان عام ١٩٥٧ من الأمية[١٦١]. والتي كانت نسبتها عام ١٩٦٨ أكثر من ٧٥٪. ولو جاز لنا أن نختصر مصائب العراق بعامل واحد، فإن الأمية هي ذلك العامل.

وافترس الفقر غالبية شعب يعيش في أغنى بلد، في المشرق العربي، أو إنه كان فعلاً يمتلك مقومات الغنى. و(كان أربعة أخماس عائلات العراق بلا أية أمـلاك)[١٦٢].

١٦٠- الفكيكي. المرجع السابق. ص٢٧٦.

١٦١- سمير الخليل. جمهورية الخوف. ص١٤٠.

١٦٢- بطاطو. المرجع السابق. ص٤٢٩.

أما معدل عمر الفرد في العراق فلا يتجاوز ٢٨-٣٠ سنة، ولولا ارتفاع معدل الولادات لانقرض سكان العراق[١٦٣].

وعاملت (السلطة السياسية) - التي أقامتها بريطانيا في العراق، وهي سلطة فاسدة بكل المقاييس - شعبها بقسوة واستعلاء وكراهية. فقد عاملت - مثلاً - ريف الفرات الأوسط، عام ١٩٣٥، وكأنه ارض محتلة، ونصبت المشانق لفلاحيه الفقراء، وخربت أرضهم الزراعية، وأحرقت بيوتهم. وفي عام ١٩٤١ - وبعد فشل ثورة مايس - شنت حملة شاملة، ضد كل من كانت لديه روحٌ معارضة، أو نزعة استقلالية، أو إيمان بأمة عربية. وكان واضحا ان هذه العناوين، تجمع اغلب شباب العراق. وهكذا، امتلأت السجون والمنافي، بخيرة أبناء البلد. وفي نهاية الأربعينات، بدأت حملة شرسة ضد الشيوعيين، الذين حشروا بالمئات في سجون رهيبة، وقد وضعت أصفاد الحديد في أيديهم وأرجلهم، كما يفعل سلاطين القرون الوسطى مع ضحاياهم. وفي كل مرة يحتج فيها الشيوعيون على ظروف سجنهم، تدخل الشرطة وتطلق ا لنار عشوائيا عليهم. واصدر الحكم الملكي عام ١٩٥٤[١٦٤]، سلسلة من القوانين الجائرة تحت ستار مكافحة الشيوعية. كان أبرزها مرسوم إسقاط الجنسية العراقية، والذي اصبح سيفا مسلطا على راس كل عراقي شيوعيا أو غير شيوعي. وكان مضحكا ان يشمل القانون رجلا قوميا كعدنان الراوي.

وعانت اغلب مناطق العراق من الحرمان، خاصة الارياف والمدن الصغيرة والمناطق البعيدة عن العاصمة. وكان هناك الاقطاع، الذي يملك الأرض ومن عليها، ويعامل الناس بجهل واستعلاء.

وتسيطر العقلية الريفية على غالبية المجتمع، بقراه ومدنه الصغيرة، وعلى المهاجرين

١٦٣- الزبيدي. المرجع السابق. ص٢٩.

١٦٤- المرجع السابق. ص٢٣-٢٤.

إلى العاصمة والمدن الكبيرة، وتبادل المدينة والتمدن الكراهية والاحتقار. وكانت النزاعات العشائرية، تثور لأتفه الأسباب وتتحول إلى صراعات دامية ومأساوية، أما العادات الاجتماعية، فقد نفت فئات عديدة، بسبب اصلها أو مهنتها أو طريقة حياتها، أو لأي سبب آخر، وعاملتها باحتقار.

هناك أيضا نظرات الاحتقار التي تتبادلها المدن المتجاورة والمحافظات المتباعدة. حتى حارات المدينة الواحدة، كانت تتبادل العداء والاحتقار، ولطالما شهدت الكثير منها حروبا دامية طويلة.

وأرادت بريطانيا بالطائفية (سياسة حكم) لتفرق بين أبناء الشعب الواحد والدين الواحد. فكانت - بما راكمته الأيام - اخطر ما يهدد مستقبل العراق، وكان الوجه الآخر لها، الشعور المزمن بـ (المظلومية) عند الشيعة، والخوف من الحكومات، والتشكيك بشرعيتها. وكانت هناك الأقليات الدينية والعرقية وما تعانيه من استبعاد وتمييز واستضعاف.

وكانت هناك أيضا، العقد النفسية والحرمان الجنسي، والفشل الدراسي، والبطالة، وغيرها من مشاكل الشباب، في مجتمع لا يفهم معاناة شبابه ولا يحترم مشاعرهم.

كل ذلك، انفجر في موجات عنف مدمر وجنوني. منحته الأحزاب الشمولية (شرعية ثورية). فبرر الشيوعيون ما جرى باسم (النضال الطبقي)، والبعثيون باسم (النضال القومي). ورفعت شعارات وأهداف، ربما كانت هناك قلة قليلة من كل الأطراف تفهمها أو تؤمن بها. وربما أيضا، كان هناك في الجبهات المتضادة، متقاتلون من طينة واحدة ولديهم دوافع للتحزب والقتل واحدة. إذ قد تجد في كلا الجبهتين من يقاتل لنفس السبب، أو بالاحرى بدافع العقدة نفسها.

ومما يزيد الأمور سوءا، أن اغلب قادة الأحزاب الثورية كانوا صغاراً في السن وبدون تجربة كافية، وكان مستواهم الثقافي متواضعاً جدا.

وعلى أي حال، هذا هو التاريخ البشري في صيرورته، (دون ان ينتج عنها بالضرورة

التقدم نحو الأمام، فقد تعني التقهقر نحو الوراء)[١٦٥]، عندما يكون هناك عبث وجنون كالذي جرى في بلادنا.

❖ ❖ ❖

وكما جرى عام ١٩٦٣، عملت اغلب قيادات حزب البعث وكوادره وعناصره، في الفترة الأولى من عمر النظام، في مكتب العلاقات العامة، والأجهزة الإرهابية المرتبطة به، وقد تفرغ بعضهم لهذا العمل، ومُنحوا رتباً عسكرية. أما البعض الآخر، فقد يرتبط بعمل آخر، كأن يكون وزيراً أو محافظاً أو مديراً عاماً، ولكنه يعمل في (مكاتب) الأجهزة السرية أيضاً، وهو مستعد في أية لحظة ان يقدم خدماته لها.

لقد كرروا تجربة (الحرس القومي) و(مكتب التحقيق الخاص)، حيث شارك الجميع من أعضاء مجلس قيادة الثورة، إلى اصغر حزبي، في أعمال القتل والتعذيب.

ولست متحمسا للكتابة عن هؤلاء الناس، ولكني أريد أن اقدم (نماذج) من العقلية السياسية التي حكمت العراق، منذ ١٧ تموز، وأوصلته إلى ما وصل إليه.

ومن ابرز القيادات المتفرغة لمكتب العلاقات العامة، النماذج التالية:

١- علي رضا:

معلم وطالب في كلية الحقوق[١٦٦] من مدينة خانقين. أرسل في صيف عام ١٩٥٩ مع آخرين إلى كركوك، لمساعدة تنظيم الحزب هناك[١٦٧]. أو للتحريض على الصدام

١٦٥- سامي ذبيان وآخرون. قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ص٢٨٧.

١٦٦- المنحرفون. الطبعة الثانية. ١٩٩٥. ص٢٤.

١٦٧- محاضر جلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة. الجزء العشرون. ص٤١٨.

الكبير بين الأهالي والشيوعيين والذي حدث في تموز ١٩٥٩. وقد قال الزعيم عبد الكريم قاسم عن ذلك فيما بعد (أتعلمون من كان وراء حوادث كركوك؟.. لقد ثبت لدينا وجود خمس جماعات. خمسة أوكار كانت تعمل في كركوك مرسلة من حزب البعث)[١٦٨]. لعب دورا بارزا في أعمال التعذيب والقتل عام ١٩٦٣، وكان عضوا في (مكتب التحقيق الخاص)، ومسؤولا عن استخباراته.

كان مساعدا لصدام في قيادة (مكتب العلاقات)، وفي عام ١٩٧٠ عُين عضواً في (المحكمة الخاصة) التي حكمت على العشرات بالإعدام خلال ثلاثة أيام.

ألقي القبض عليه في تموز ١٩٧٣، وحكمت عليه (محكمة خاصة) بالحبس لمدة سنتين، لأنه لم يبلّغ عن (مؤامرة) ناظم كزار. وكان كزار قد فاتحه بالمؤامرة، ولكن علي رضا رفض عرضه بقوة وأخذ يقنعه بالعدول عن ذلك، فتظاهر كزار بالتراجع عنها، حسب ما رشح عن الرواية الرسمية حينذاك. وعُين بعد خروجه من السجن، مديراً عاماً لشركة الحديد والخشب.

يتصف علي رضا، بالغموض وتحاشيه الظهور علناً واعتزاله الناس، وهي صفات تتناسب تماماً مع عمله في الأجهزة السرية. وفي المرات النادرة التي ذكره الإعلام الرسمي فيها، كان يسمى بالرفيق علي رضا. فلما صدر الحكم عليه بالحبس، سماه الإعلام بالمجرم علي رضا باوه، إشارة إلى أصله الإيراني. وهذه واحدة من مفارقات النظام الكثيرة.

٢- ناظم كزار:

ولد ناظم كزار سنة ١٩٣٩ أو ١٩٤٠ في مدينة العمارة بجنوب العراق، ابناً لشرطي. وينتمي ناظم لعشيرة البزون المعروفة القاطنة بين العمارة والناصرية. و(أبوه مغمور

١٦٨- المرجع السابق. الصفحة غير مرقمة. وهي أول صفحة بعد الغلاف.

الأصل وربما انتمى إلى الصابئة ويبدو أنه أصبح شيعياً في سن مبكرة من حياته) [١٦٩]. ورغم أني لا أميل إلى كونه صابئياً، إلا أن الحياة القبلية في العراق، هي من التعقيد، بحيث لا يمكن الأخذ بالألقاب في تحديد الأنساب.

فباستثناء أسر (السادة) المنتسبة للرسول (ص) والتي يرتبط أبناؤها بصلة الدم، فالحياة القبلية هي تحالفات بين عدة عشائر لا يجمعها جد أعلى واحد، تضاف إليها أيضاً أسر من أقليات دينية أو عرقية أو من قبائل أخرى، تتكاتب مع القبيلة وتدخل في نسبها ويكون لها ما للقبيلة وعليها ما على القبيلة. وهو عُرف قديم عند العرب، ومنذ الجاهلية، يسمى بـ (الولاء).

❖ ❖ ❖

أما الصابئة، فيشكلون ٠،٢٪ من الشعب العراقي، حسب تقديرات بطاطو[١٧٠]. أو (٠،١٧٪ من مجموع سكان العراق. ويعيش ما يقرب من نصفهم في المحافظات الوسطى، وبالذات في مدينة بغداد، ويكاد النصف الآخر من أعدادهم يتوزع بين مدن العمارة والناصرية والبصرة، من المحافظات الجنوبية) [١٧١].

ان ديانة الصابئة ديانة قديمة، يعيش اتباعها في العراق والأهواز. وقد ورد ذكرها ثلاث مرات في القرآن الكريم. وربما جاء أتباعها من منطقة نهر الأردن وفلسطين، بعد مذبحة مروعة دبرها اليهود لاتباع النبي يحيى بعد وفاته بستين عاماً. وفي رأي آخر (يرجح قسم من الباحثين أنهم من بقايا البابليين القدماء بدليل طقوسهم الدينية،

١٦٩- د. خدوري. المرجع السابق. ص١٠٦ (حاشية).

١٧٠- بطاطو. العراق. الكتاب الأول. الجدول ١-٣، ص٦٠.

١٧١- الدكتور فاضل الأنصاري. مشكلة السكان. نموذج القطر العراقي. ص٣٣.

والتعابير البابلية فيها)[١٧٢] ويسكنون عادة بجوار الأنهار والأهوار، إذ أن (ممارستهم الدينية الرئيسية هي الغطس في النهر)[١٧٣]. وللصابئة لغة تسمى (المندائية) وهي من اللغات السامية، وانحصرت هذه اللغة اليوم بعدد قليل جداً من المتحدثين وصارت مجرد لغة المناسبات الدينية. ويعيش الصابئة في انسجام تام، بل اندماج تام، مع محيطهم، حتى أنهم تحالفوا مع قبائل مناطق سكناهم، واتخذوا لأنفسهم أسماء إسلامية، ربما إلى جانب أسماء صابئية تستعمل في البيت فقط. ويشاركون في المناسبات الدينية لمحيطهم الشيعي كأيام عاشوراء.

وعموماً، فانهم قوم طيبون ومسالمون، كما أنهم (حرفيون ماهرون برعوا في صياغة الذهب.. وكانوا يصنعون لفلاحي المنطقة الأدوات الحديدية والقوارب)[١٧٤]. ومن ابرز أعلام العراق من الصابئة عالم الفيزياء الدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد (١٩٥٨-١٩٦٣)، والشاعرة لميعة عباس عماره، وقريبها الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد.

تلقى ناظم تعليمه الابتدائي في العمارة، ثم انتقلت عائلته إلى بغداد، ودخل (معهد الهندسة الصناعية) الذي يتخرج منه الطالب بدرجة (معاون مهندس). وانضم إلى حزب البعث حين كان طالباً في سنة ١٩٥٩. وقد سجن في عهد عبد الكريم قاسم، ولم ينه دراسته الا سنة ١٩٧٠ أيام حكمهم الثاني، فحصل على الدبلوم[١٧٥].

١٧٢- المرجع السابق. ص٣٣.

١٧٣- بطاطو. المرجع السابق. ص٦٠ (هامش الجدول ٣-١).

١٧٤- ثائر صابر. الصابئة المندائيون. مجلة الثقافة الجديدة. العدد ٢٠٢ تشرين الاول ١٩٨٨ ص٥٨.

١٧٥- د. خدوري. المرجع السابق. ص١٠٦ و(الحاشية) أيضاً.

وحسب انطباع رفيق له في السجن[١٧٦]. كان انطوائياً، هادئاً، أقرب إلى القبح وطوله ١٧٢ سم، وربما كان يعاني من شعور بالنقص. ويقرأ كثيراً في ديوان المتنبي. وكان همه دائماً أن يثبت لمسؤوليه أنه مقتدر ويعتقد أن هذا هو طريقه للصعود إلى مراكز الدولة العليا.

(لعب دوراً نشطاً في مذبحة الشيوعيين في أعقاب الانقلاب البعثي الأول سنة ١٩٦٣[١٧٧]. وذات مرة (استدعى ناظم كزار من يعتقد أنه كان أصلب معتقل سياسي بين رفاقه ولف الحبل حول رجليه ويديه وجسده وأدخله في التابوت ثم أغلق الغطاء بالمسامير وقطعه من وسطه بالمنشار على مرأى من الموقوفين جميعاً)[١٧٨]. ان ناظم كزار هذا، خنق عندما كان في السجن أحد الكلاب السائبة بكلتا يديه حتى لفظ أنفاسه[١٧٩].

اعتقل بعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، بسبب مسؤوليته عن اختفاء أكثر من (١٠٣) من الشيوعيين والأكراد. ومما هو جدير بالذكر، انه أعطى براءة في السجن إلى مدير الأمن العام آنذاك رشيد محسن[١٨٠]، أي أنه تعهد بترك حزب البعث نهائياً وعدم العمل معه ثانية. وعندما نقل من سجن بغداد إلى سجن كركوك عام ١٩٦٥ ضربه الشيوعيون في سجن كركوك بالسكاكين وكاد أن يموت، وبسبب ذلك ظل عليلاً ويتناول طعاماً محدداً.

كانت كراهيته للشيوعيين فظيعة، وتابع - وهو في السجن - أخبارهم بدقة، حتى صارت لديه خبرة في شؤونهم ومعرفة تفصيلية بقياداتهم. وربما كان هذا تحسباً لاستلامهم السلطة وانتقامهم منه.

١٧٦- وائل الهلالي. مقابلة في دمشق بتاريخ ٢٠٠٠/٥/٦.

١٧٧- د. خدوري. المرجع السابق. ص١٠٦.

١٧٨- حسن العلوي. العراق دولة المنظمة السرية. ص٤٧-٤٨.

١٧٩- حسن العلوي. العراق دولة المنظمة السرية. ص٤٧-٤٨.

١٨٠- وائل الهلالي. مقابلة سبق ذكرها.

حُكم عليه عام ١٩٦٥، بالحبس لأربع سنوات، لاعتدائه أثناء التحقيق معه، على القاضي علاء الخياط حاكم التحقيق. وكان الأخير سجيناً عام ١٩٦٣ عند الحرس القومي وتعرض للتعذيب على يد ناظم كزار، وقد ذكّره بذلك فحمل كرسياً كان يجلس عليه وضربه به.

وفي ٨ شباط ١٩٦٨ أطلق سراح ناظم كزار بمرسوم جمهوري، أعفاه من بقية مدة محكوميته. وأطلق معه تسعة آخرون. وقد دفع أحمد حسن البكر، الكفالة من اجل الإخلاء عن سبيله. وكان كزار قد انضم في البداية إلى (لجنة تنظيم القطر) التي انضم إليها أغلب البعثيين، وبعد وضوح توجهاتها اليسارية تركها وانضم إلى كتلة البكر.

بعد انقلاب ١٧ تموز، أسس إلى جانب صدام (مكتب العلاقات العامة). وفي شباط ١٩٦٩، وبعد أن فشل المقدم حامد العاني مدير الأمن العام، في التصدي للحزب الشيوعي – القيادة المركزية، عُين ناظم كزار مديراً للأمن العام ومنح رتبة لواء بناءاً على اقتراح من صدام حسين[١٨١].

وقضى السنوات الخمس المتبقية من حياته، متفرغاً لهذا المنصب، ومقيماً في مبنى المديرية. بدون زواج أو أصدقاء أو أية هواية. وكان لا يحب الظهور علناً وقد عانت الصحافة في الخارج وهي تحاول الحصول على صورة له عند الإعلان عن مؤامرته عام ١٩٧٣.

(لقد اشتهر عنه أنه رجل لا يعرف الرحمة، وذلك بسبب ممارساته السادية، مما ألقى الرعب داخل الحزب نفسه. فعلى سبيل المثال كان يحب أن يقوم بالاستجوابات بنفسه، وأن يطفئ سيجارته في عيون ضحاياه)[١٨٢]. (ففي عام ١٩٧١ نشر أحد أجنحة «الحزب الشيوعي العراقي» قائمة بأسماء (٤١٠) أعضاء قتلوا فيما سمي تسمية مناسبة

١٨١- د. خدوري. المرجع السابق. ص١٠٦.

١٨٢- الخليل. المرجع السابق. ص٤٤.

بـ (قصر النهاية)[١٨٣]) و(كان قصر النهاية مرعباً وصلاحيات ناظم كزار واسعة لا حدود لها يصادر ويقتل ويختطف من الشارع)[١٨٤].

كان ناظم كزار يتلذذ في تعذيب ضحاياه والتنكيل بهم. وكان مساعدوه (أشراراً في غاية السوء وبعضهم قتلة ومجرمون تعرف عليهم ناظم كزار خلال سجنه أو اعتقاله بينهم السارق ومهرب الحشيشة وقاتل أخته.. خصص لهم رواتب عالية ومنحهم رتبة ملازم يتنقلون بسيارات حكومية أو مصادرة من أشخاص اتهموا بالتجسس والتآمر فلا عجب إذا تفانوا في خدمته ونفذوا أوامره.. كانت شتائمهم في غاية البذاءة والفحش والسوء)[١٨٥].

فذات مرة وفي (غرفة ناظم كزار وكان واقفاً أمامه السيد عبد الرحمن البزاز.. كان ناظم يسأل ثم يجيبه البزاز فيما يقف حارس يصفع البزاز بعد كل إجابة ويشتمه[١٨٦]. ومرة (كان التلفزيون مفتوحاً ظهرت على شاشته راقصة مصرية جاءت للعراق بمناسبة ثورة ١٧ تموز فطلب ناظم من طاهر يحيى ورشيد مصلح أن يرقصا مثلها)[١٨٧]. وكمثال على وحشيته حتى مع أتباعه فقد أرسل ناظم كزار جاسوساً إلى بلد عربي مجاور ثم أرسل وراءه جاسوساً آخر، وأمره أن يبلغ عن الأول حتى يكسب ثقتهم.

في عام ١٩٧٣، أعلن بأن ناظم كزار قد قام بمحاولة انقلابية فاشلة، إذ أرسل يوم ٣٠ حزيران ١٩٧٣ مجموعة لاغتيال البكر العائد من زيارة رسمية لبولونيا وبلغاريا، ونائبه صدام حسين، لحظة تعانقهما في مطار بغداد الدولي. ثم يتولى عبد الخالق السامرائي (عضو مجلس قيادة الثورة) إصدار بيان بعد نجاح التنفيذ عبر الإذاعة والتلفزيون يدعي

١٨٣- المرجع السابق. ص٤٤.

١٨٤- فرحان. المرجع السابق. ص٢٥١.

١٨٥- المرجع السابق. ص٢٤٨.

١٨٦- المرجع السابق. ص٢٤٤.

١٨٧- المرجع السابق. ص٢٥٠.

فيه أن الحزب وقيادته، قد تعرضا لمؤامرة خطيرة، من عدد من المغامرين العسكريين، وعلى رأسهم كل من حماد شهاب وزير الدفاع، وسعدون غيدان وزير الداخلية وعدنان شريف التكريتي آمر لواء الحرس الجمهوري وكالة. والذين مع آخرين كمنذر المطلك سكرتير رئيس الجمهورية وزوج ابنته، والملازم خطاب عمر التكريتي (عضو فرع بغداد العسكري) والرائد عدنان خير الله آمر معسكر أبو غريب. كان ناظم كزار قد استدرجهم واعتقلهم وبالاتفاق مع (محمد فاضل) عضو القيادة القطرية.. حسب الرواية الرسمية[١٨٨].

ويذهب كاتب إلى القول (دلت التطورات اللاحقة على دور كبير لصدام حسين ليس فقط في إدارة المحاولة عن طريق ذراعه الضارب ناظم كزار وإنما في إدارة المراحل والنتائج الكبيرة التي حصل عليها صدام حسين والتي نعتقد أنها أهم وأصعب وأخطر المراحل التي قطعها في طريقه إلى رئاسة الجمهورية)[١٨٩]. وذكر من بين أهم تلك النتائج، تجريد البكر من أهم مؤيديه، والتخلص من ناظم كزار سيئ السمعة، وزج غريمه القوي عبد الخالق السامرائي في هذه المحاولة.

ويرجع التشكيك بها، لأن (الرواية الرسمية لمحاولة كزار الانقلابية ليس بها الا القليل من المنطق)[١٩٠]. أو أن (تفاصيل العملية لا تعطي انطباعا بأنها محاولة انقلاب[١٩١]، حتى ان بطاطو يسميها (المؤامرة الطائشة للعقيد كزار)[١٩٢].

وإذا أخذنا بالرواية الرسمية فللمرء ان يتصور، إمكانية نجاح محاولة كزار، لولا تأخر إقلاع طائرة البكر من بولونيا وإصرار الحكومة البلغارية على إعداد استقبال

١٨٨- راجع برزان التكريتي. محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين. الطبعة الثانية. ص٩١-١١٦.
١٨٩- العلوي. المرجع السابق. ص١٥١
١٩٠- الخليل. المرجع السابق. ص٤٥.
١٩١- العلوي. المرجع السابق. ص١٥٠.
١٩٢- بطاطو. المرجع السابق. ص٤١٢.

رسمي له في (فارنا) المدينة البلغارية[١٩٣].

وبعد فشل المحاولة، حمل كزار معه حقيبة بداخلها (٤٧،٧٨٥،٧٥٠) دينار[١٩٤]، أي ما قيمته ١٥٠ مليون دولار بأسعار تلك السنة. وحاول الهرب برهائنه إلى إيران، مفترضا أنها ستسمح له بعبور الحدود دون اعتقاله. المفارقة ان كزار عذب وقتل الكثيرين بتهمة التجسس لإيران، أما الآن فهو ذاهب بكل أسرار البلد إلى إيران الشاه، فهو رجل الأمن الاول في العراق، ومعه رهائنه وعلى رأسهم وزيري الدفاع والداخلية.

وكان البكر قد رفض عرضه، للالتقاء به في منزل عبد الخالق السامرائي للبحث في مطاليبه، التي شملت اشتراك الجيش العراقي في المعركة فعلياً ضد إسرائيل، وتقديم تأييد أقوى للفلسطينيين في مقاومة الاحتلال. وتطهير (العناصر الانتهازية) في الحزب، ونقل السلطة إلى أيدي الزعماء الذين يتمتعون بثقة القيادة القومية[١٩٥].

أما (شن الحرب على الأكراد) فربما دست في مطاليبه، إذ أنها تتناقض مع طلبه الآخر باشراك الجيش العراقي فعلياً في المعركة ضد إسرائيل. وعلى أية حال كانت الأمور بين السلطة والأكراد، تتجه نحو الصدام، بعد أن تنتهي الفترة الانتقالية أو الهدنة مع الأكراد في ١١ آذار ١٩٧٤. ويبدو أن اقتراحه التفاوض في بيته، أو أن اعتراف محمد فاضل، (أنه أبلغ السامرائي بها بعد ذلك بساعة حين كانا في المطار)[١٩٦]، أو ان علاقة كزار الوطيدة معه، أدت أو سهلت الزج باسم السامرائي في المحاولة.

ويذكر أحد قياديي الحزب الشيوعي في بداية السبعينات، أنه زار عبد الخالق السامرائي في مكتبه، وكان ناظم كزار حاضراً، ليشكو إليه من قيام الأمن باختطاف

١٩٣- د. خدوري. المرجع السابق. ص١٠٩.

١٩٤- برزان التكريتي. المرجع السابق. ص١٠٧.

١٩٥- راجع كلا من د. خدوري. المرجع السابق. ص١١٠، وبرزان التكريتي. المرجع السابق. ص١٠٨.

١٩٦- د. خدوري. المرجع السابق. ص١١١.

شاب شيوعي عمره ١٥-١٦ سنة، إلى أحد البيوت السرية التابعة للأمن، حيث (حققوا معه وضغطوا عليه للاعتراف على من يعمل معهم من الشيوعيين أو في الحركة الطلابية وللتعاون معهم أيضا، ثم اغتصبوه على مدى ثلاثة أيام)[١٩٧].

عقب عبد الخالق السامرائي بالقول: (انه لو كان أي شخص آخر غير ناظم كزار على رأس جهاز الأمن لصدقت قصة الشاب، ولكن هذا الإنسان الثوري لا يمكن أن يسمح بمثلها!!)[١٩٨].

تعرض ناظم كزار ومساعدوه لأشد أنواع التعذيب، وسلمت جثته لأهله، وكانت مشوهة وغير واضحة المعالم. ودفن في النجف، حيث يدفن الشيعة موتاهم بجوار مرقد الإمام علي، ولكن الناس هدوا القبر، وفي كل مرة تبني العائلة القبر، يهد في اليوم التالي، وهكذا تركوه مهدما. وعادت عائلته إلى فقرها المزمن، وسجنت أخته المهندسة (نظيمة) زوجة المهندس حازم البزاز، ثلاث سنوات، تعرضت خلالها لأبشع أنواع التعذيب، بتهمة أن ناظم كزار أخفى لديها وثائق خطيرة قبل قيامه بالمؤامرة. وبعد خروجها من السجن التحقت بزوجها في ليبيا[١٩٩] وأبعد أخوه علي إلى تكريت. وخرجت أخته الأخرى مع أولادها، إلى سورية في بداية الثمانينات، ثم التجأت إلى هولندا في التسعينات، شأنها شأن ضحايا النظام الآخرين.

٣- محمد فاضل:

ولد بمحلة الفضل ببغداد، ابناً لبائع كبة، كان قصيراً جداً (١٦٠ سم) ودميماً، وبعد تخرجه من الثانوية دخل كلية التربية، قسم اللغة العربية. وسجن عام ١٩٦٢ ولما يزل

١٩٧- د. رحيم عجينة. المرجع السابق. ص١٠٣.

١٩٨- المرجع السابق. ص١٠٤.

١٩٩- فوزي الراوي. عدة مقابلات في دمشق.

طالباً. وأطلق سراحه يوم انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣.

ساهم في أعمال القتل والتعذيب أيام الحرس القومي عام ١٩٦٣، وسجن بعد ١٨ تشرين الثاني. وفي السجن نشأت له علاقة حميمة مع ناظم كزار[٢٠٠]. وعندما حدث الانشقاق داخل صفوف البعث، كان هواه مع اليسار ولكنه انضم إلى اليمين، لاعتقاده بأن البكر هو الوحيد الذي سيقود قطار البعث إلى الحكم ثانية[٢٠١]، وليحمي نفسه من عصابة جبار كردي شقيق (ستار كردي) أحد جلادي الحرس القومي، والذي قتله محمد فاضل اثر خلاف شخصي نشب بينهما.

خرج من السجن يوم انقلاب ١٧ تموز، وعين (مديراً عاماً) في مكتب العلاقات العامة، ثم أصبح أيضاً (أميناً لسر) القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث في الأردن، والتي شُكلت سنة ١٩٦٩. و(قد يظل سر الدور الذي نهضت به هذه القيادة مطوياً في السجل الحزبي زمناً طويلاً لكن ملامح الدور يمكن ان تستنتج من خلال الصراع الأردني الفلسطيني ومجازر أيلول)[٢٠٢]. أي من خلال (ممارسة التحريض للمنظمات الفلسطينية ضد نظام الملك حسين ووعدهم علناً.. وعبر وفود ومراسلات بأن الجيش العراقي سيهاجم أية قوة تصطدم بهم في الأردن. لكنهم وقفوا يتفرجون على معركة غير متكافئة بين القوات الأردنية والمقاومة الفلسطينية)[٢٠٣].

إن هذا الدور نفسه، والذي سنعود إليه لاحقاً، يفسر - ولو جزئياً - ما حدث يوم ٣٠ حزيران ١٩٧٣. ولعل ما أعلن من مطالب ناظم كزار، يدفع للأخذ بهذا التفسير. إذ (كانت إحدى النتائج الجانبية لأزمة الأردن ظهور حركة تأييد ضمن الجناح المدني

٢٠٠- وائل الهلالي. مقابلة سبق ذكرها.

٢٠١- فوزي الراوي. عدة مقابلات في دمشق.

٢٠٢- العلوي. المرجع السابق. ص١٠٩.

٢٠٣- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢١٩.

للحزب، ابتعدت عن صدام حسين ووقفت إلى جانب عبد الخالق السامرائي)[٢٠٤].

كان صدام حسين - نفسه - وراء صعود محمد فاضل، فعُين سنة ١٩٧٠، عضواً في القيادة القطرية، ومسؤولاً للمكتب العسكري المشرف على التنظيم الحزبي في الجيش. أي أن صدام أراد أن يسيطر على الجيش مبكراً، من خلال (محمد فاضل). وقد فوجئ الناس بالإعلان عن دوره في (مؤامرة كزار) واعدم في ٩ تموز ١٩٧٣.

٤- عبد الوهاب كريم:

ولد عام ١٩٣٧ في الحلة ابناً لفلاح، وعمل معلماً[٢٠٥] وكان يلقب (وهاب الأعور[٢٠٦]. ومن المفيد التذكير هنا أنه ورفاقه الآخرين، من أسر مغمورة غير معروفة الأصل. وقد صعدوا مباشرة من قاع (المجتمع) إلى أعلى مراكز الدولة، بدون أي تدرج وظيفي أو غيره، ومنحوا سلطات مطلقة على البلاد والعباد.

قاد وهاب عملية اغتيال الدكتور ناصر الحاني، أول وزير خارجية لانقلاب ١٧ تموز، ويبدو لاغتيال الحاني، من بين كل ما قام به (مكتب العلاقات العامة) من اغتيالات، أهمية استثنائية.

ولد الدكتور ناصر الحاني[٢٠٧] في بغداد ١٩٢٠، وأصله من عانة (الرمادي). (بدأ عمله في ظل الملكية مدرساً أكاديمياً شاباً في كلية المعلمين، وعندما أصبح صنيعة خليل كنه وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت عُين ملحقاً ثقافياً في السفارة العراقية في واشنطن في سنة ١٩٥٥.. عاد إلى بغداد بعد ثورة ١٩٥٨ بقليل، وتعرف أثناء وجوده في واشنطن

٢٠٤- بطاطو. المرجع السابق. ص٤١٢.

٢٠٥- المرجع السابق. ص٤٦٥.

٢٠٦- العلوي. المرجع السابق. ص٤٨.

٢٠٧- له دراسة مطبوعة بعنوان (محاضرات عن الزهاوي) بغداد ١٩٥٤.

بهاشم جواد مندوب العراق الدائم لدى الأمم المتحدة الذي عينه سفيراً لدى الولايات المتحدة حين أصبح جواد وزيراً للخارجية في عهد قاسم. وتمكن الحاني، بتحوله في ولائه السياسي من فريق ناجح إلى فريق آخر أن يرتقي السلم السياسي)[٢٠٨].

عمل سفيراً للعراق في دمشق. وعين عام ١٩٦٣ وكيلاً لوزير الخارجية، بناء على ترشيح صديقه صالح عماش. ثم عُين سفيراً في بيروت. وبعد انقلاب ١٧ تموز، عين وزيراً للخارجية حتى يوم ٣٠ تموز، وأصبح بعدها مستشاراً شخصياً للبكر للشؤون الخارجية[٢٠٩].

يتهم كثيرون الحاني بلعب دور خطير في انقلاب ١٧ تموز[٢١٠]، إذ (دفع (الأميركان) شركاءهم - النايف والداود والحاني ولطفي العبيدي - لتقديم السلطة على طبق للبكر وصدام وعماش)[٢١١]. وبسبب هذا الدور أو (تحسباً من ان يقوم باتصالات سرية مع أخصامهم)[٢١٢]، اغتيل في ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٨. وشارك حردان التكريتي وزير الدفاع ممثلاً للرئيس في جنازته. وقد تزامن اغتياله مع حوادث قتل أخرى، طالت شيوعيين وعمال مضربين، (ووجهت أصابع الاتهام في كل هذه الحوادث إلى قوات خاصة مرتبطة بمكتب صدام حسين التكريتي للأمن القومي)[٢١٣].

قتل عبد الوهاب كريم، الذي أصبح عضواً في القيادة القطرية، في حادث غامض،

٢٠٨- د. خدوري. المرجع السابق. ص٨٥.

٢٠٩- المرجع السابق. ص٨٥.

٢١٠- راجع بطاطو، المرجع السابق، ص٣٩٠. وأيضا. د. كريم، المرجع السابق. ص٢١٩ و٢٨٨ و٢٨٩ و٣٦٩.

٢١١- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢١٩.

٢١٢- د. خدوري. المرجع السابق. ص٨٥.

٢١٣- بطاطو. المرجع السابق. ص٤١٤.

وقيل في حادث سيارة مدبر، أما الأسباب الكامنة وراء ذلك، فلا يعرفها - ربما - الا صدام وبضعة أفراد على صلة مباشرة بالحادث.

٥- سعدون شاكر:

ولد في محافظة ديالى عام ١٩٤٠، وعمل ضابط صف في الجيش قبل سجنه أيام عبد الكريم قاسم. وكان يسمى بين معارفه بـ (سعدون عنيفة) لميله إلى العنف[٢١٤].

لعب بعد انقلاب شباط ١٩٦٣ دوراً بارزاً في أعمال القتل والتعذيب، وعُرف بالتفنن في العنف مع ضحاياه. يقول رفيقه في مكتب التحقيق الخاص، خالد طبرة: (حفرنا أنا وسعدون شاكر.. قبراً لمحمد صالح العبدي وجئنا به أنزلناه إلى القبر (الحفرة) وبعد مَدِّه بداخله، طالبه سعدون شاكر بالاعتراف أو الموت؟ فرد العبدي بشجاعة واتهمنا بخيانة الوطن. فأطلق عليه سعدون شاكر (النار) فمات فوراً دون أن يعترف أو يتنازل، وحصل الأمر (نفسه) مع مهدي حميد)[٢١٥].

وكان سعدون شاكر يطلب من الضحية بعد أن يرفض الإدلاء بالاعترافات المطلوبة، وأمام معتقلين آخرين، أن يعد من الواحد إلى العشرة، وقبل أن ينتهي يطلق عليه النار فيقتله، وحتى أنه قام بتعذيب أطفال صغار ثم قتلهم.

أصبح من ابرز مساعدي صدام حسين بعد ١٧ تموز في (مكتب العلاقات العامة). وقام ثانية بالكثير من أعمال القتل والتعذيب. وكان صدام وراء صعوده الحزبي، و(عندما اعترض بعض البعثيين عام ١٩٧١ لأنه تم تعيين سعدون شاكر مباشرة عضواً في قيادة فرع بغداد (قال) صدام حسين.. الرفيق سعدون هو الذي هربني من السجن)[٢١٦].

٢١٤- وائل الهلالي. مقابلة سبق ذكرها.

٢١٥- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٠٠ (حاشية).

٢١٦- فؤاد مطر. صدام حسين الرجل والقضية والمستقبل. ص٢٣٩.

وكان قد التقى بصدام أول مرة في السجن العسكري عام ١٩٦٤[٢١٧].

عُين مديراً للمخابرات العامة عام ١٩٧٣، وعضواً في مجلس قيادة الثورة عام ١٩٧٧، ووزيراً للداخلية عام ١٩٧٩، وفي عام ١٩٩١، أُعفي من جميع مناصبه الرسمية والحزبية، لإصابته بمرض السرطان، أو لأمر آخر لا نعرفه.

٦- عبد الأمير الناجي:

ولد عام ١٩٢٧ في مدينة بلد، ابناً لشيخ عشائر بلد، وله عدد من البساتين. كان والده مهاب الجانب، على قدر كبير من الحكمة العشائرية. تعلم عبد الأمير، القراءة والكتابة، في المدرسة الابتدائية، ولم يواصل تعليمه بعد ذلك. ثم قرأ بعض الكتب، في اللغة والتاريخ، وتضخم لديه الشعور بالمعرفة، فأخذ يطرح الكثير من الآراء في الدين والتاريخ.

انتمى لحزب البعث عام ١٩٦١، وربما كان ذلك بسبب (أعدائه) القبليين، والذين كانوا على صلة محلية جيدة بالحزب الشيوعي. وكان عبد الأمير - نفسه - قد غازل الشيوعيين لفترة قصيرة في مطلع عهد عبد الكريم قاسم. ثم اصبح على علاقة حسنة بالحزب الوطني الديمقراطي.

المفارقة أن فرعاً قبلياً آخر، عندما انفك تحالفهم معه فيما بعد، نقلوا ولاءهم من البعثيين إلى القوميين. وقد قتل عبد الأمير في آذار عام ١٩٨٢، على يدي شخصين أحدهما من أعدائه السابقين والآخر من أعدائه الأخيرين وقد أصبحوا معاً موالين لحزب الدعوة الإسلامية.

لعبد الأمير الكثير من الضحايا العشائرية. وقد استصدر بعد الانقلاب مباشرة، مرسوماً جمهورياً بإغلاق (جميع) الدعاوى الجنائية ضده. فجاء إلى محكمة بلد ومزق بيده أوراق القضايا المقامة عليه، ومنها قضية قتل أربعة أشخاص من عائله (الماجود)

٢١٧- مجلة ألف باء. العدد ٥١٢ في تموز ١٩٧٨. ص٢١ (مرجع سابق).

ثأراً لمقتل عمه.

وقد حشدت وزارة طاهر يحيى (عام ١٩٦٧) كل قواها لإلقاء القبض عليه. بسبب قتل أحد أتباعه - دون أن تكون لعبد الأمير يد في ذلك - القاضي المحبوب والطيب جبر التكريتي، في حادث عرضي. فذهب عبد الأمير ليقيم في أحد أوكار حزب البعث في بغداد. وفيما بعد كان دوره الأساسي، وبناء على طلبه، ليلة انقلاب ١٧ تموز، هو اعتقال طاهر يحيى رئيس وزراء العراق. وقد سأل الرجل بعد اعتقاله إذا ما كان يعرفه، فرد يحيى بالنفي، فلطمه على وجهه صارخاً أنا عبد الأمير. وكان طاهر يحيى قد اعتقل الملا ناجي والد عبد الأمير لبضعة أشهر بعد أن أفلت منه الأخير.

عُين في مكتب العلاقات العامة بدرجة معاون مدير عام. وجند بعض أتباعه للعمل في المكتب. ولكن صدام حسين، وبعد بضعة شهور من الانقلاب، طلب منه، أن يقتل قاتل القاضي التكريتي، ويدعى محسن الحصرلي، وأن يأتي بإبهامه الأيمن، وهي عادة عشائرية نادرة، تومىء إلى القوة أو الانتقام.

ويقال أن الوفد العراقي الذي ذهب بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، بأيام قلائل، للمشاركة في احتفالات الذكرى السادسة لثورة ٢٣ يوليو / تموز، قدم للرئيس جمال عبد الناصر، علبة مغلقة وطلب منه أن يفتحها بنفسه. ولما فتحها متسائلاً عما فيها، قيل له إنه إبهام نوري السعيد، وكان موضوعاً في محلول من الكحول، فأعادها إليهم وهو يغالب اشمئزازه.

وفي حالة أخرى، تفضح طريقة تفكير الحكم الجديد بعد ١٧ تموز، فرض صدام دفع أربعة أمثال (الدية) التي تدفع في حالة القتل العادي، وخلافاً للعرف العشائري في مثل هذه الحالة، فصلا لأحد أقربائه، الذي قتل قبل الانقلاب، وهو يسطو ليسرق أحد البيوت في الدجيل. وليس من قبيل الشتيمة أبداً القول هنا: إن غالبية أفراد عشيرة صدام كانوا يمتهنون السطو وقطع الطريق.

وبالعودة إلى قصة القاضي التكريتي، وبعد أن نفذ عبد الأمير أمر صدام باغتيال قاتل القاضي التكريتي، فإن حسين الحصرلي، شقيقه، والمجند من قبل عبد الأمير للعمل في (مكتب العلاقات العامة) والذي طرد بعد اغتيال أخيه، حاول غير مرة اغتيال

عبد الأمير. فقام رجال من مكتب العلاقات باغتياله في مدينة الكاظمية ذات صباح، وكان عبد الأمير يتابع العملية قريباً منهم. ودخل بعدها مطعماً مجاوراً وتناول فطوره.

وقد قام عبد الأمير، بالكثير من الاعتقالات والاغتيالات. وكان احد المسؤولين عن ملف كربلاء والنجف والمرجعية الدينية في المكتب. ولعله هو الذي قاد عملية اغتيال حردان التكريتي، إذ ذهب إلى الكويت واجتمع به مبعوثاً من البكر، وعاد إلى العراق وذهب ثانية، قبل مقتل حردان بيومين. وقاد أيضاً عملية اغتيال المقدم القومي هادي الجبوري.

أحيل عبد الأمير على التقاعد من عمله في (مكتب العلاقات) سنة ١٩٧١، لأن صدام كان يعتقد أنه يميل لصالح مهدي عماش، الذي عزل سنتئذ. وعمل بعد عام ١٩٧١ مسؤولاً حزبياً محلياً في الكاظمية، وعُين سنة ١٩٨٠ عضواً في المجلس الوطني.

وانتقاما لمقتله، قتلت السلطة العشرات، ومن بينهم ثلاثة اعترفوا تحت التعذيب، بأنهم القتلة. وسجنت عوائل الضحايا في بادية السماوة. وقام النظام بتجريف بساتين بلد، والتي كانت متصلة ببساتين الدجيل ولا يفصلها عن بساتين الخالص سوى نهر دجلة، أما الآن وبعد إزالة بساتين الدجيل، وبساتين الخالص أيضا. أصبحت المنطقة جرداء خالية.

واختفى قاتلاه الحقيقيان وآخرون في بيت لأقارب أحدهما، وكان معهم شاب من مدينة كربلاء، انضم إليهم قبل فترة قصيرة، عندما كانوا يقومون بعمليات منظمة ضد قوات الأمن. فخرج لشراء الخبز، متصوراً أنه لن يثير انتباه أحد، الا أن شابة كانت تعمل سراً مع الأمن، انتبهت له فتابعته إلى البيت. واستُقدمت من بغداد (قوات خاصة) تساندها طائرات مروحية، وبعد قتال ضار استمر عدة ساعات، قُتل المطلوبون جميعهم. ووضعت جثثهم في (شفل) دار بهم شوارع المدينة. بينما كان ابن لأحد البعثيين المحليين القتلى في صدامات سابقة معهم ويبلغ الثالثة عشرة يحمل مسدساً ويطلق النار على الجثث.

الغريب، أن صداماً، وفي عام ١٩٨٦، اعتبر مقتل عبد الأمير، حادثاً عشائرياً، وسحب عنه لقب (الشهيد).

٧- وليد الجنابي:

كان وليد قبل الانقلاب معلماً، وعمل بعد الانقلاب في (مكتب العلاقات العامة)، ثم ملحقاً صحفياً في المغرب (على ما بينه وبين الصحافة من مسافات وحواجز)، ثم معاوناً لمدير عام وكالة الأنباء العراقية، فمديراً عاماً لدار الثورة للصحافة. ثم انتقل، بناء على طلبه، إلى وزارة الصناعة، تطارده ذكريات عمله السابق في (مكتب العلاقات) وأعدم رمياً بالرصاص في الثامن من آب ١٩٧٩ بتهمة المؤامرة المزعومة بعد أن تعرض لتعذيب شديد.

وخلال عمله بالمكتب، وبأمر من صدام حسين، وعبد الكريم الشيخلي، ويبدو أن الأخير هو صاحب الفكرة، قام وليد الجنابي، بجلب أربعة مرضى من المصابين بحالات ميئوس من شفائها، من مستشفى التدرن الرئوي، لينقلوا المرض إلى سجناء من (القوميين العرب) و(البعثيين اليساريين)[٢١٨].

٨- زهير يحيى عبد الفتاح الدوري:

عمل بدرجة مدير عام في (مكتب العلاقات العامة) وعُين عضواً إلى جانب سعدون شاكر، في المحكمة الخاصة التي رأسها عزت الدوري، وحكمت بإعدام ناظم كزار وجماعته. وعُين في كانون الثاني ١٩٧٤ عضواً احتياطاً في القيادة القطرية.

قبض عليه في قضية مؤامرة ١٩٧٩، وتعرض لتعذيب شديد. ثم قضت المحكمة الخاصة بها، الإفراج عنه مع آخرين، وانقطعت أخباره بعدها.

ان هناك أسماء أخرى من المتفرغين في (مكتب العلاقات العامة) وبعضها بمستوى أهمية الأسماء التي ذكرناها. ومن بين هذه الأسماء عدنان خير الله طلفاح، غانم عبد الجليل، سمير الشيخلي، محي عبد الحسين مشهدي، نوري حمادي، وليد الخشالي،

٢١٨- راجع العلوي. المرجع السابق. ص١٨٧-١٩١.

محمد العزاوي، حمودي العزاوي، علي حسين عجام، حبيب جاسم، ياسين الجبوري، طه الجبوري، فلاح ميرزا، صباح ميرزا، سعدون فياض، علي العبيدي، كامل أبو المعلاك[٢١٩].. وسامي خليل النعيمي، طاهر أحمد أمين، رياض العزاوي، خالد طبرة، خالد عبد الله (الملقب بخالد سرية)، داود سلمان، عبد الله الراوي، عدنان التركماني، شهاب عكلة وغيرهم[٢٢٠].

❖ ❖ ❖

وقبل الحديث عن (رئيس) مكتب العلاقات العامة، سنتكلم عن التشكيلة الثانية (لمجلس قيادة الثورة) والتي جاءت، ما خلا اثنين منها، من أوكار مكتب العلاقات حيث القتل والتعذيب.

ففي ٩ تشرين الثاني ١٩٦٩، أعلن رسمياً عن تعيين أعضاء القيادة القطرية، أعضاء في مجلس قيادة الثورة، لأنهم خططوا للانقلاب أو شاركوا فيه، حسب ما جاء في البيان الرسمي. رغم أن بعضهم لم يكن موجوداً في العراق أصلاً عند وقوع الانقلاب. ويبدو ان تعيينهم كان غطاء لتعيين صدام حسين نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة. أو ليضعف البكر – بهم – نفوذ العسكريين الآخرين وتحديداً حردان وعماش. وهم:

١- عبد الخالق إبراهيم خليل السامرائي:

ولد عام ١٩٣٥ في سامراء ابناً لعامل. حصل على الثانوية، وعمل موظفاً بسيطاً في صحة محافظة ديالى. انتمى لحزب البعث عام ١٩٥٤ أو قبل هذا التاريخ، وساهم في

٢١٩- محمد الحسيني. الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، دراسة في سيرته ومنهجه. بيروت ١٩٨٩. ص ٢٩٤.

٢٢٠- صادق جعفر الحاوي. مقابلة في دمشق بتاريخ ١٩٩٨/٩/٥.

انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣.

كان في منتصف الستينات، على رأس (لجنة قيادة التنظيم) لحزب البعث في العراق. وفي عام ١٩٧٠ أصبح عضواً في (القيادة القومية) أعلى قيادة لحزب البعث.

ورغم أنه نفى كل علم له بمؤامرة ناظم كزار[٢٢١]، حكم عليه بالإعدام في ٩ تموز ١٩٧٣، وخفف الحكم إلى السجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة بناء على وساطة عفلق وجنبلاط وقادة الثورة الفلسطينية. و(في زنزانته لم يكن وقد سأل أمه التي سُمح لها برؤيته بعد ثلاث سنوات يعرف في أي شهر وفي أي عام هو)[٢٢٢]. ويقال أنه طلب في (زنزانته) نسخة من القرآن الكريم، وهو الشيء الوحيد الذي سمحوا له به.

ولكن النظام وفي رواية بائسة ومضحكة عن مؤامرة سنة ١٩٧٩، ادعى بأن المتآمرين عملوا (على التنسيق بين اللجنة السرية وبين عبد الخالق السامرائي، وتأمين إيصال المساعدة المادية إليه)[٢٢٣]. وأن (الجانب السوري رشح عبد الخالق السامرائي لتولي مسؤولية أمانة القطر ورئاسة الجمهورية في القطر العراقي)[٢٢٤] وهكذا نفذوا فيه الإعدام يوم ١٩٧٩/٨/٨.

لقد دفع عبد الخالق السامرائي حياته ثمناً - كما يبدو - لأنه كان مسؤول صدام الحزبي عام ١٩٥٩[٢٢٥]. ولأنه أنقذه من الاعتقال بعد اشتراكه في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم[٢٢٦] وهَرَّبه إلى سوريا[٢٢٧]. وكان هو الذي رشحه للاشتراك

٢٢١- د. خدوري. المرجع السابق. ص١١١.
٢٢٢- العلوي. المرجع السابق. ص١٧٨.
٢٢٣- برزان التكريتي. المرجع السابق. ص١٥٠.
٢٢٤- المرجع السابق. ص١٥٨.
٢٢٥- د. اسكندر. المرجع السابق. ص٤٤.
٢٢٦- المرجع السابق. ص٥٢.
٢٢٧- المرجع السابق. ص٥٩.

في المحاولة. فصدام الذي كان مجرد حزبي صغير تابعاً لعبد الخالق السامرائي، ظل حساساً تجاهه بعد أن أصبحا سوية في القيادة. (فهو لا يستطيع احتمال أي شخص يمكن أن يصلح بديلاً عنه. ولا يطيق أي شخص له رصيد شخصي. ويريد أن يكون رصيد كل من حوله نابعاً من علاقته بصدام، ومن ولائه لصدام. يريد أن يكون الآخرون أقوياء به لا بأنفسهم (...) لا يستطيع أن يرى أي شخص يمكن أن يكون بديلاً عنه، ورده على ذلك هو تصفية هذا الشخص وإلغاؤه بالكامل)[٢٢٨].

وربما ساعدت (العصبيات المحلية) أيضا في إذكاء الخلاف بينهما. إذ بين (تكريت) وسامراء، حساسية قوية، ناشئة عن التجاور والتنازع على النفوذ وادعاء المجد، ككل مدن العراق المتجاورة والمتنافسة شمالاً وجنوباً. وقد مهدت إزاحة عبد الخالق السامرائي، الطريق أمام صدور قرار لمجلس قيادة الثورة، في شباط ١٩٧٦، باستحداث محافظة تكريت باسم (محافظة صلاح الدين) ولو كان عبد الخالق السامرائي في الحكم، لما صدر هذا القرار الجائر، الذي حول عاصمة العراق في العصر العباسي، والمدينة التي كانت مركزاً تتبعه تكريت، إلى تابعة لها إدارياً.

وبعيداً عما يؤلفه حوله الخيال الشعبي، وربما بغضاً لصدام، وما اتخذه بعض الكتاب مادة لكتاباتهم، فإن الكلام عن كونه (منظراً يسارياً)[٢٢٩]، أو (كان.. مشغولاً بمشروعه الفكري لإعادة النظر بفكر الحزب)[٢٣٠]، فيه الكثير من المبالغة والتضخيم.

فقد كان عبد الخالق السامرائي، ضيق الأفق، متعصباً لحزبه، حتى أنه أحتج مرة على البكر عام ١٩٦٧، لتوسطه لشخص من البعث اليساري، بحجة أنه ليس من تنظيماتهم[٢٣١]. ويسجل عليه أيضاً أنه لم يعترض يوماً على أعمال القتل والتعذيب،

٢٢٨- مجلة الوسط. العدد٢٨٧ في ١٩٩٧/٧/٢٨ مقابلة مع عزيز محمد.ص١٥.

٢٢٩- راجع بطاطو. المرجع السابق. ص٤٠٩.

٢٣٠- حسن العلوي. المرجع السابق. ص١٧٦.

٢٣١- فوزي الراوي. عدة مقابلات في دمشق. وراجع أيضاً، د.عجينة. المرجع السابق. ص١٠٤.

يوم كان عضواً بمجلس قيادة الثورة، ولعله كان يرى فيها عنفاً ثورياً مشروعاً، ويقال إنه هو الذي قام عام ١٩٦٥ باغتيال (رأفت لافي) ضابط الأمن المتشدد مع البعثيين.

ولكن ما يسجل له (عفافه وكفافه وترفعه عن الدنايا)[٢٣٢]، وإيمانه بمبادئه.

٢- عبد الكريم عبد الستار الشيخلي:

ولد سنة ١٩٣٥ ببغداد في عائلة كردية مستعربة أصلها من مدينة السليمانية. وقيل أنها من أصول هندية. وتسكن منطقة باب الشيخ والتي ينتسب إليها. أما والده عبد الستار الشيخلي فهو أحد مؤسسي المدارس الأهلية الجعفرية أواخر الحكم العثماني، ومعلم اللغة العربية فيها.

انتمى عبد الكريم لحزب البعث عام ١٩٥٤. ودخل كلية الطب عام ١٩٥٧، وتركها بعد سنتين، أرسل عام ١٩٥٩ ليتدرب على السلاح في سورية، ومنذ عام ١٩٥٩ ارتبط وصدام بعلاقة حميمة وضمهما تاريخ مشترك. إذ شاركا سوية في المحاولة الفاشلة لاغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم. وبعد هروبهما إلى الجمهورية العربية المتحدة، سكنا سوية في القاهرة، وشاركا بعد عودتهما إلى العراق بعد ٨ شباط ١٩٦٣، في أعمال القتل والتعذيب في مكتب التحقيق الخاص[٢٣٣] قبل أن يعين الشيخلي معاوناً للملحق العسكري في بيروت.

(وعندما وقع انقلاب عارف ترك منصبه، وذهب إلى سورية، ومنها تسلل إلى العراق، واتخذ موقعه في القيادة الجديدة للحزب)[٢٣٤]. اذ عُين عام ١٩٦٤ أميناً لسر القيادة القطرية، والتي تشكلت من صفاء الفلكي، صدام التكريتي، محمد صبري الحديثي، حسن

٢٣٢- العلوي. المرجع السابق. ص١٧٥.

٢٣٣- راجع د.علي كريم. المرجع السابق. ص١٦٥، ١٧٥، ١٧٧، ١٩٢.

٢٣٤- د. اسكندر. المرجع السابق. ص٨٠.

العامري[٢٣٥]. ولكنه انهار تحت التعذيب، بعد اعتقاله، واعترف على كل شيء[٢٣٦]. وكان موقف صدام الذي اعتقل معه يلفه الغموض أيضاً. ثم هربا من الاعتقال سوية يوم ٢٣ تموز ١٩٦٦ وقد أصدر المجلس العرفي العسكري الأول - بعد هروبهما - عفواً عنهما مسقطاً التهم الموجهة إليهما.

لعب دوراً كبيراً في أعمال القتل والتعذيب في (مكتب العلاقات العامة)، إلى جانب منصبه الرسمي كوزير للخارجية منذ ٣١ تموز ١٩٦٨، وكنموذج من سلوك وزير في نظام ١٧ تموز، أمر عبد الكريم الشيخلي، مساعديه في التحقيق، ذات ليلة من شهر رمضان، أن يتبولوا في فم أحد المعتقلين المتدينين، بعد أن رفض أمره بشرب الخمر[٢٣٧].

في عام ١٩٧١، وفي خطوة مفاجئة، عُين مندوباً للعراق في الأمم المتحدة بنيويورك. وفي ٨ نيسان ١٩٨٠ اغتيل أمام زوجته بمنطقة الأعظمية ببغداد. ثم منحه صدام - في واحدة من مفارقاته العجيبة - في ١٩٩١/١٠/٧ وسام الرافدين من الدرجة الأولى من النوع المدني وهو أعلى وسام عراقي، وثلاثة أنواط شجاعة مع ستة آخرين، شاركوا مشاركة فعلية ومباشرة في عملية اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم[٢٣٨].

٣- مرتضى سعيد عبد الباقي الحديثي:

ولد عام ١٩٣٩ في حديثة (محافظة الرمادي) ابناً لملاك صغير. وأنهى دراسته الثانوية عام ١٩٥٩ وتخرج مدرساً للغة الإنكليزية عام ١٩٦٣.

عُين عضواً في القيادة القطرية، في المؤتمر القطري السابع في تشرين ١٩٦٨ ووزيراً للعمل سنة ١٩٧٠، ووزيراً للاقتصاد سنة ١٩٧١، ثم وزيراً للخارجية، فسفيراً سنة ١٩٧٣.

٢٣٥- هويدي. المرجع السابق. ص١٧١.

٢٣٦- د. اسكندر. المرجع السابق. ص٨٨.

٢٣٧- العلوي. المرجع السابق. ص١٦١.

٢٣٨- العقيد الركن أحمد الزيدي. أزمة القيادة في العراق. ص١٤٢.

تحول من موال لصدام (جبى له.. الأموال وأدخلها في حسابات خاصة وأخرى موظفة لكسب الأنصار والوكلاء وتقوية المؤسسة السرية، وعندما سمع مظهر المطلك (زوج بنت البكر) بالأمر سعى لفضحه، فرد صدام بإغراقه مع سيارته في نهر دجلة)[٢٣٩]، إلى ألد أعدائه وأصبح يعتبر صداماً مشكلة الحزب الكبرى والذي لابد من إزاحته[٢٤٠].

حكمت المحكمة الخاصة بمؤامرة عام ١٩٧٩ المزعومة[٢٤١]، بالسجن لمدة خمس عشرة سنة على مرتضى الحديثي، ولمدة عشر سنوات على أخيه المعلم كردي المسؤول الحزبي لمحافظة ديالى. مع مصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة، وقتلا - في السجن - عام ١٩٨١.

٤- صلاح عمر العلي:

ولد سنة ١٩٣٨ بتكريت، في عائلة ذات أصول كردية بعيدة، ولا يتجاوز تعليمه الثانوية العامة. عمل قبل ١٧ تموز موظفاً صغيراً في البلدية.

لعب دوراً هاماً في (مكتب العلاقات العامة) وعين وزيراً للإعلام سنة ١٩٦٩. وانقطع فيما بعد عن العمل في مكتب العلاقات، بسبب خلافه مع صدام. إذ كان الأخير حريصاً أن يبقى (مكتب العلاقات) جهازاً خاصاً له، وأن يُبعد عنه أي شخص لا يثق به. وفي سنة ١٩٧٠ عين سفيراً وبعد أزمة الكويت انشق عن النظام، وأقام في بريطانيا مدعوماً من السعودية.

٥- عزت إبراهيم الدوري:

ولد سنة ١٩٤٢ في مدينة الدور التابعة لتكريت، ابناً لبائع ثلج. وقد امتهن الابن مهنة أبيه. انتمى لحزب البعث عام ١٩٥٩، واعتقل في نفس العام، وكذلك عام ١٩٦٢، في كل

٢٣٩- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٣٥٣ (حاشية).

٢٤٠- فوزي الراوي. عدة مقابلات في دمشق.

٢٤١- ألف باء. العدد ٥٦٧ في ٨ آب ١٩٧٩. ص٦ (مرجع سابق).

مرة لستة أشهر. منح بعد انقلاب ٨ شباط، رتبة ملازم في الحرس القومي. وقد حصل وعدد من الحزبيين على الثانوية العامة عام ١٩٦٣، أيام فوضى حكم (الحرس القومي).

سجن بعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ حتى عام ١٩٦٧. وبعد انقلاب ١٧ تموز عين عضواً في القيادة القطرية. وفي ١٩٦٩/١٢/٦، عُين وزيراً للإصلاح الزراعي، وعمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين. وأصبح وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي، بعد دمج الوزارتين عام ١٩٧٢. (وهو (بطل) الحنطة المسمومة التي وزعت على المناطق الكردية في الشمال، ومناطق الجنوب، وعلى مدينة الثورة، وتسبب في قتل وتشويه عدة ألوف من فقراء العراق)[٢٤٢].

عين عام ١٩٧٤ وزيراً للداخلية، وفي عام ١٩٧٩، نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة، و نائبا لأمين سر القيادة القطرية، ولم يكن الأقدم بين أعضاء القيادة أو الحزب. بل كان أقلهم (ثقافة) و(تعليماً)، ولم ينجح يوماً في أية مهمة حكومية.

ولذلك اختاره صدام نائباً له، إذ يحرص المستبدون دائماً أن لا يحظى مساعدوهم بحب شعوبهم أو احترامهم حتى لا ينافسوهم.

٦- طه ياسين الجزراوي:

ولد سنة ١٩٣٩ في الموصل ابناً لبستاني (عامل في البساتين)، وهو كردي مستعرب، يقال انه أصلاً من (مجموعة غوران) التي تعيش في جزيرة (ابن عمر) في تركيا[٢٤٣].

عمل ضابط صف ومُنح يوم ١٧ تموز ١٩٦٨ رتبة نقيب، وعين سكرتير رئيس الجمهورية.

ساهم بدور كبير في أعمال القتل والتعذيب في (مكتب العلاقات العامة)، (وفي آذار - مارس ١٩٧٠، عُين الجزراوي وزيراً للصناعة. وبقي في هذا المنصب إلى أن عين

٢٤٢- صحيفة الجهاد، العدد ٩٦، في ١٩٨٣/٨/١ نقلاً عن طالب الحسن. عزت إبراهيم الدوري: الصنم. ص١٨.

٢٤٣- راجع بطاطو. المرجع السابق. ص٤٦٤-٤٦٥.

وزيراً للإسكان عام ١٩٧٦)[٢٤٤]. وكان قد عُين في ٨ شباط ١٩٧٠، قائداً عاماً للجيش الشعبي. وفي عام ١٩٧٩ عين نائباً أول لرئيس الوزراء، فأصبح من الناحية الرسمية، الرجل الثالث بعد صدام وعزت الدوري.

٧- الدكتور عزت مصطفى أحمد:

ولد سنة ١٩٣٢ بمدينة عانة (محافظة الرمادي). ابناً لملاك صغير. تخرج من كلية الطب بجامعة دمشق، حيث انتمى لحزب البعث مبكراً عندما كان طالباً فيها.

مثل الأطباء في التجمع القومي الذي تشكل من البعثيين والقوميين لمناهضة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم[٢٤٥]. وعين - بعد انقلاب ٨ شباط - وزيراً للصحة حتى عام ١٩٦٤. وبعد انقلاب ١٩٦٨ عين وزيراً للصحة إلى عام ١٩٧٦، حيث عين وزيراً للبلديات.

لم يعرف عن الدكتور عزت مصطفى أبداً المشاركة في أي من أعمال القتل والتعذيب، وهو أمر نادر بالنسبة لأعضاء مجلس قيادة الثورة وكوادر الحزب. حتى أنه لم يشارك بانقلابي ١٧ تموز و٣٠ تموز، إذ إن (عزت مصطفى، وعبد الله سلوم.. سافرا إلى القاهرة قبل قيام الثورة، وعندما عرفا بتوقيتها، بعد أن زعم كل منهما أن لديه عملاً هناك لا يستطيع أن يؤجله)[٢٤٦].

كان يحظى باحترام رفاقه البعثيين، ربما بسبب ما قيل عن إنفاقه كل ما يملك على الحزب في العراق، بعد أن فقد تمويله من سورية عام ١٩٦٦، ولأنه - ومن بين صفات حميدة أخرى - لم تتلطخ يداه بدماء رفاقه أو مواطنيه.

٢٤٤- د. عبد الوهاب الكيالي. موسوعة السياسة. الجزء الثالث. ص٧٨٨. نقلاً عن طالب الحسن. طه الجزراوي: الهزيل المنفوخ. ص٣٦.

٢٤٥- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٣-٢٤.

٢٤٦- د. اسكندر. المرجع السابق. ص١١٥.

وأراد صدام إحراجه أو التخلص منه، فطلب من مجلس قيادة الثورة، في شباط ١٩٧٧، تعيينه رئيساً للمحكمة الخاصة، بمحاكمة المحتجين من أهالي النجف، على منعهم من إحياء الذكرى السنوية لأربعينية الإمام الحسين.

فجمع الدكتور عزت أشياءه وغادر إلى أهله في عانة. وغادر أيضا إلى أهله في ديالى العضو المعين في المحكمة، فليح حسن الجاسم وزير الصناعة، والذي عُين للتو - مع آخرين - عضواً في القيادة القطرية بترشيح من صدام. ولم يحضر المحاكمة سوى العضو الآخر حسن العامري، والذي ألقى ما قرره صدام حسين من أحكام بالإعدام والسجن على الضحايا. وكان المحتجون، وفي ذروة احتجاجاتهم، بعد إطلاق قوى الأمن النار عليهم، في الطريق بين النجف وكربلاء، ومقتل شخصين أو أكثر منهم. قد هتفوا ضد صدام حسين فقط، ولم يتطرقوا في هتافاتهم إلى أي شخص غيره حتى البكر نفسه.

وكأسلوب يتكرر باستمرار، إذ تذاع أشياء، وتنسب لأشخاص لم تصدر عنهم أبداً، نشر صدام في الصحف والإذاعة قرارات المحكمة الخاصة، مذيلة بأسماء عزت مصطفى وفليح حسن الجاسم دون علمهما، بالإضافة لاسم العضو الآخر حسن العامري.

وفي ٢٢ آذار ١٩٧٧، أصدر المؤتمر القطري، أعلى هيئة لحزب البعث في العراق، الذي دُعي لاجتماع استثنائي، قراراً بفصل كل من الدكتور عزت مصطفى وفليح حسن الجاسم، من جميع مناصبهما الحزبية والرسمية، (لإهمالهما وإخفاقهما في تصريف واجباتهم الرسمية) حسب ادعاء البيان الرسمي. ولم يُسمح لهما طبعاً بالحضور والدفاع عن وجهة نظرهم. وعُين بعدها (الدكتور عزت مصطفى) طبيباً في أحد أرياف الموصل، وفليح حسن الجاسم معلماً في تكريت، وقد أغتيل الأخير وأظن أن عزت مصطفى لا يزال حياً. وعلى أي حال، كان موقفهما شجاعاً وعظيماً ومتفرداً، في وجه نظام دموي شرس.

٨- عبد الله سلوم السامرائي:

ولد سنة ١٩٣٢ في سامراء ابناً لشرطي. وعمل مدرساً للتاريخ، وكان قد انتمى لحزب

البعث عام ١٩٤٨ عندما كان طالباً في دار المعلمين العالية[٢٤٧].

عُين بعد انقلاب ٨ شباط، وكيلاً لوزير العمل والشؤون الاجتماعية، وأعفي من هذا المنصب بعد ١٨ تشرين الثاني. وكالدكتور عزت مصطفى - وقد مر بنا ذلك - لم يشارك بانقلابي ١٧ و٣٠ تموز إذ سافر إلى القاهرة. وعين بعد ٣٠ تموز ١٩٦٨، وزيراً للثقافة، وفي عام ١٩٦٩ وزيراً للدولة.

ان (صدام حسين وهو في طريقه إلى محاصرة عبد الخالق (السامرائي) طرد عبد الله سلوم السامرائي.. بعد أن قدم لعبد الخالق ولأعضاء القيادة تقريراً موثقاً (بالشهود) والصور حول ميول عبد الله سلوم النسائية أو تورطه في مشكلات من هذا النمط)[٢٤٨]. وقد برع صدام في (نصب كمائن أخلاقية وجنسية مصورة)[٢٤٩] للآخرين. وهكذا أعفي سلوم من جميع مناصبه عام ١٩٧٠، وعين سفيراً ثم أحيل على التقاعد. مات في ١٩٩٨/٥/٢٠ بعد معاناة مع مرض القلب الذي أصيب به في سجن الأمن الخاص[٢٥٠].

٩- شفيق الكمالي:

ولد سنة ١٩٣٢ في البوكمال، المدينة السورية الواقعة على الحدود العراقية، ابناً لصاحب دكان. انتمى وأخوه عبد اللطيف الكمالي لحزب البعث عام ١٩٤٨. وقد انضم عبد اللطيف إلى الناصريين في الستينات، حيث عُين مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون في عهد عبد السلام عارف (وكان من قبل ملحقاً صحفياً في إحدى دول شمال أفريقية[٢٥١].

٢٤٧- فائز إسماعيل. بدايات حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق. ص١٨٣ و ٢٣١.

٢٤٨- العلوي، المرجع السابق. ص١٧٦.

٢٤٩- د.علي كريم. المرجع السابق. ص٣٥٣.

٢٥٠- المرجع السابق. ص٣٩٨

٢٥١- فرحان. المرجع السابق. ص١٢٣.

تخرج شفيق من المعهد العالي للمعلمين قسم اللغة العربية ببغداد، وحصل فيما بعد على الماجستير من القاهرة. ونشر مبكراً نتاجاته الشعرية، وقد نشر بعضها على صفحات جريدة البعث الصادرة بدمشق عامي ١٩٥١ و١٩٥٢ (٢٥٢).

لم يكن بعيداً عن أعمال التحقيق والتعذيب عام ١٩٦٣. فقد ساهم وكان مديراً للإذاعة آنذاك، وآخرون من مثقفي حزب البعث، ومنهم ضياء عبد الرزاق الحسن، الذي ترأس فيما بعد تحرير مجلة ألف باء عام ١٩٦٨، في أعمال الاستجواب البشعة التي كانت تجري في الإذاعة والتلفزيون، وهي مهمة يقوم بها ضباط المخابرات عادة.

عُين بعد ٣٠ تموز ١٩٦٨ وزيراً للشباب، وفي عام ١٩٦٩ سفيراً في مدريد، وفي عام ١٩٧٠ وزيراً للإعلام حتى عام ١٩٧٢. وكان قد خسر عضويته في القيادة القومية، في المؤتمر القومي العاشر في كانون الثاني ١٩٧٠. وفي عام ١٩٧٢ أعفي من جميع مناصبه الحزبية والرسمية.

(ويسجل عليه صدام حسين.. أنه انتدب مبعوثاً من الحزب لحضور مؤتمر قومي مع زميله عبد الله سلوم السامرائي قبل وصول الحزب إلى السلطة لكنه لم ينقل إلى المؤتمر وصية بترقية صدام حسين إلى عضو قيادة قومية) (٢٥٣). وحاول أن يسترضي صدام بعد توليه الرئاسة، (مستخدماً أداته الشعرية فظهر أمام الرأي العام العراقي غجرياً يحمل ربابته عند مضيف الشيخ) (٢٥٤). ورغم ذلك فقد قتلوا ابنه يعرب، ومات هو فجأة ولم يكن يشكو من مرض (٢٥٥). وقد عاش سنواته الأخيرة في رعب حقيقي، (وأخذ يتصرف بهاجس مَن يعتقد أن قراراً بإعدامه سيصدر بين لحظة وأخرى) (٢٥٦).

٢٥٢- إسماعيل. المرجع السابق. ص١٩٧ و٢٧٢.

٢٥٣- العلوي. المرجع السابق. ص١٧٣.

٢٥٤- المرجع السابق. ص١٧٤.

٢٥٥- المرجع السابق. ص١٧٤.

٢٥٦- المرجع السابق.ص١٧٣-١٧٤.

ان نظرة إجمالية لمجلس قيادة الثورة، تبين - وباستثناء الكرديين عبد الكريم الشيخلي وطه الجزراوي- إن أعضاء المجلس ينتمون إلى محافظتين فقط هما تكريت والرمادي، اللتين احتكرتا السلطة والنفوذ بعد ٨ شباط ١٩٦٣، وبالتالي (أصبح اعتماد النظام البعثي الراهن على الروابط المحلية أكثر بروزاً) (٢٥٧).

وبالنسبة للعناصر المدنية التي أضيفت للمجلس في ٩ تشرين الثاني ١٩٦٩، فإن أعمارهم زمن الانقلاب، تتراوح بين السادسة والثلاثين والسادسة والعشرين. ولا يتجاوز تعليم أغلبهم الثانوية. أما المنحدر الاجتماعي، فأغلبهم أبناء عمال.

يبقى أن نذكر، أن ثلاثة منهم، من أصول كردية، وهم الشيخلي والعلي والجزراوي. وأن ثلاثة منهم على الأقل، قد قتلوا على يد النظام، وهم السامرائي والشيخلي والحديثي. ولم يبق في الحكم منهم سوى ثلاثة وهم صدام وتابعيه الدوري والجزراوي.

❖ ❖ ❖

أما صدام حسين فهو رئيس مكتب العلاقات العامة، رئيس هيئة التحقيق الخاصة الأولى منذ ١٧ تموز ١٩٦٨، ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة منذ ٩ تشرين الثاني ١٩٦٩، وفريق أول ركن منذ ٦ كانون الثاني ١٩٧٧، ورئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة منذ ١٧ تموز ١٩٧٩.

ولد صدام في ريف تكريت، بقرية العوجة، شمالي بغداد ١٤٥ كم. وقد سجل في مديرية الأحوال المدنية فيما بعد على أنه مولود سنة ١٩٣٩ (٢٥٨).

عانى صدام من اليتم والحرمان وقسوة الحياة،خاصة ان علاقات القربى في الريف،

٢٥٧- بطاطو. المرجع السابق.ص٤٤٧ وراجع أيضا ص٤٠٠ و ٤٠٦.

٢٥٨- مطر. المرجع السابق. ص٧٥.

هي مزيج من القسوة والحماية، والتعاضد والتحاسد.. وما يقال عن (ان صدام ابن بالتنشئة لخير الله طلفاح)[٢٥٩] غير دقيق، إذ (لم يكن خاله الحاج خير الله طلفاح صادقاً في ادعاء تبنيه والإشراف عليه فقد ترك طلفاح مدينة تكريت إلى بغداد في الوقت الذي دخل فيه صدام إلى المدرسة)[٢٦٠]. (ولما انتقل خاله إلى بغداد بقي وحده في تكريت)[٢٦١]. ثم انتقل إلى بغداد سنة ١٩٥٥ وهو في السنة الثانية من الدراسة الثانوية[٢٦٢]. أي في الصف الثاني المتوسط.

الا ان صدام وككل أفراد الأسرة، كان واقعاً تحت تأثير خاله، ربما لأن خاله كان ضابطاً سابقاً، وللضابط هيبته في المجتمع العراقي آنذاك.

وأسوأ تأثير لخاله عليه، كان توجيهه لقتل أحد أقربائه بسبب خلاف شخصي لطلفاح معه. إذ (ان خير الله طلفاح أرسل ابن أخته (صدام حسين) وكان يحمل معه خنجراً للتنفيذ واستطاع المغدور أن يمسك بصدام ولكن الأخير استطاع أن يفلت منه ويطعنه وكانت الطعنة قاتلة وبقي أخوته يتحينون الفرص للاقتصاص من المجرم فترة طويلة إلى بداية ١٧ تموز ١٩٦٨)[٢٦٣]. وأظن أن الخوف من انتقام أخوة الضحية سعدون الناصري، علم صدام الحذر الشديد، وهو السلاح الذي استفاد منه كثيراً، في صراعه الدموي لاحقاً، مع رفاقه وأعدائه على السواء.

وبالمناسبة، فالناصري لقب العشيرة، كان صدام - نفسه - يتلقب به في أوراقه الدراسية. ثم وبعد مجيئه من القاهرة، صار يلقب نفسه بالتكريتي، ربما تقرباً من الضباط التكارتة الذين أصبحوا يسيطرون على مراكز الدولة بعد انقلاب ٨ شباط.

٢٥٩- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٩.

٢٦٠- العلوي. المرجع السابق. ص٧٤.

٢٦١- اسكندر. المرجع السابق. ص٢٤.

٢٦٢- خدوري. المرجع السابق. ص١٢١.

٢٦٣- طالب الحسن. حكومة القرية. ص٤٤٣.

وبعد انقلاب ١٧ تموز، جرد صدام اسمه من أي لقب، في خطوة ذكية ليضفي على نفسه صفة الانتماء الوطني.

وعرضا، كانت جريمة قتل سعدون الناصري وهي باكورة جرائمه، فاتحة الحظ بالنسبة له. إذ كان يوضع - وقتها - سجناء الجرائم العادية والسجناء السياسيين في سجن واحد قبل المحاكمة. فاتصل بالسجناء البعثيين وانضم إلى صفوف حزب البعث. وقد جذبه إلى البعث أن ضحيته سعدون الناصري كان من أنصار الحزب الشيوعي، وأن ثورة ١٤ تموز - والذي ظل يكرهها على الدوام ويتجنب الإشارة إليها، وحوّل العيد الوطني عنها إلى يوم آخر - أقصت خاله من منصب مدير معارف لواء بغداد. بعد افتضاح علاقته السرية السابقة مع رجال الحكم الملكي. وقد اتهم طلفاح سعدون الناصري بالتبليغ عن تلك العلاقة وبالتالي خسرانه منصب مدير معارف بغداد، فحقد عليه ودفع ابن أخته صدام لاغتياله[٢٦٤].

انضم صدام لحزب البعث في نهاية سنة ١٩٥٨، أو بداية عام ١٩٥٩. وقد كسبه للحزب اما عطا محي الدين[٢٦٥]، أو غانم عبد الجليل. والذي عينه صدام، بعد انقلاب ١٧ تموز، وخلافا للأعراف الحزبية مديراً لمكتبه. إذ بالإضافة لكونه عضواً في (القيادة القطرية) في عام ١٩٧٤، كان عندما انضم صدام تواً الى الحزب عام ١٩٥٩، (عضواً في قيادة فرع بغداد لحزب البعث)[٢٦٦] والتي كانت هي القيادة الاحتياط للحزب إذا ما حدث للقيادة القطرية طارئ بالإضافة إلى عملها الأصلي في الإشراف على تنظيمات الحزب ببغداد. وربما أراد صدام بذلك انتقاصه كما فعل مع كل الذين كانوا قد تقدموا عليه يوماً ما، في الحياة العادية أو السياسية، ثم قتله في المؤامرة المزعومة عام ١٩٧٩ كما

٢٦٤- راجع محاضر جلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة. الجزء الخامس. ص٤٠٩-٤١٠.

٢٦٥- الفكيكي. المرجع السابق. ص١٤٢.

٢٦٦- محاضر وجلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة. الجزء العشرون. ص١٩١.

قتل أول مسؤول حزبي، عمل تحت قيادته، أي عبد الخالق السامرائي[٢٦٧].

كان البعثيون قد نشطوا في الأوساط الطلابية، بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. وكان صدام طالباً آنذاك في ثانوية الكرخ، التي كانت قلعة للبعثيين. ويبدو أن طبيعته العنيفة، وحياة التشرد التي كان يعيشها، قد أعطتهم انطباعاً بأنه لا يصلح للسياسة.

أما وقد بدأ الشيوعيون العنف في الشارع بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ بقليل، فان أمثاله من أصحاب السوابق الإجرامية، والعناصر الميالة للعنف، اصبحوا هم العناصر المطلوبة ليدافعوا عن حزب البعث.

وبعد اشهر من انضمامه للحزب، جاءت مشاركته بمحاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، لتفتح أمامه أبواب الصعود السياسي، رغم بؤس العملية وهزالتها. إذ كمن ستة شباب[٢٦٨] مسلحين بمدافع رشاشة وقنابل يدوية، يعاونهم آخرون، لاغتيال رجل واحد، ليست لديه قوة حماية، ولم يكن يحيط نفسه بأية إجراءات أمنية.

وبدلاً من ان يقتلوه، وبسبب ذعرهم وارتباكهم، (كان المهاجمون يوجهون أسلحتهم بعضهم نحو البعض الآخر دون أن يشعروا)[٢٦٩] كما يقول أحد قادة العملية. فقتلوا زميلهم عبد الوهاب الغريري. وجرحوا اثنين من زملائهم، هما صدام وسمير النجم.

هرب صدام بعد ذلك إلى الجمهورية العربية المتحدة، حيث عومل المشاركون بالمحاولة كأبطال. إلا أن عملية الاغتيال هذه والتي بنى صدام فيما بعد مجده عليها كان حزب البعث قد ندد بها، وعاقب الركابي زعيم الحزب في العراق بسببها، ولكنه أشاد بالمنفذين[٢٧٠]. المفارقة، إذ يعفو عبد الكريم قاسم عنهم، ويطلق سراحهم بعد اقل من

٢٦٧- راجع اسكندر. المرجع السابق. ص٤٤.

٢٦٨- فؤاد الركابي. الحل الأوحد. القاهرة ١٩٦٣. ص٢٠.

٢٦٩- خالد علي الصالح. على طريق النوايا الطيبة. ص١٢٥.

٢٧٠- راجع نضال البعث. دار الطليعة بيروت ١٩٧٢. الجزء السابع. ص١٣٥.

عامين، فان (صدام حسين قاد رجال المحاولة إلى الموت واحدا بعد الآخر)[٢٧١].

وعاد صدام إلى العراق بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ بأيام قلائل. وعين عضوا في (مكتب الفلاحين) التابع للحزب. وانضم إلى المجموعة العسكرية التكريتية. و(بلغ الصراع درجة عالية من التوتر، وبدأت عناصر حزبية وعسكرية تتسلل ليلا إلى القصر الجمهوري للاجتماع بالبكر وعارف وطاهر يحيى وتنقل لهم ما كان يدور في الاجتماعات والمؤتمرات الحزبية.. وكان في راس هؤلاء المخبرين صدام حسين التكريتي.. وقد عرض صدام حينئذ على بعض المسؤولين استعداده لاغتيال علي السعدي وإنهاء المشكلة[٢٧٢] إذ قال (اقترح ان نقوم أنا واحمد طه العزوز بتصفية السعدي.. ونتهم اثنين من الشيوعيين الذين يسكنان في جوار بيته ونشنقهما في الصباح وتنتهي المشكلة)[٢٧٣].

و(خلال المؤتمر القومي السادس للحزب، وقف صدام بقوة ضد علي صالح السعدي والى جانب ميشيل عفلق، الذي أوصى في العام ١٩٦٤ – وربما لهذا السبب – بترفيعه إلى الدور الأعلى في الحزب)[٢٧٤].

ان خروج جماعة فؤاد الركابي، أو ما عرف بالقيادة الثورية، من الحزب عام ١٩٦١. واستقالة أياد سعيد ثابت، صاحب الموقف الشجاع أمام محكمة المهداوي، من الحزب في العام نفسه. وخروج آخرين وانضمامهم للتيار الناصري. ثم خروج مجموعة علي صالح السعدي عام ١٩٦٤، وجماعات أخرى اصغر شأناً منها، من الحزب. وانضمام أغلبية ما بقي من البعثيين إلى الجناح اليساري عام ١٩٦٦، أفسح المجال لمجموعة البكر، وفي مقدمتها صدام، للسيطرة على الحزب، أو بقايا الحزب، تماما.

٢٧١- العلوي. المرجع السابق. ص٧٩.

٢٧٢- الفكيكي. المرجع السابق. ص٣٢٥.

٢٧٣- صحيفة الحياة بتاريخ ١٩٩٧/١٠/٢٤. نقلاً عن الحسن. حكومة القرية. ص٢٠٢.

٢٧٤- بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٩.

بنى صدام سمعته الحزبية، على محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم البائسة. وقد عفا الأخير عن القائمين بها. وكذلك على دخوله السجن عام ١٩٦٤، وقد اصدر المجلس العرفي العسكري الاول، بعد هروبه من السجن، عفوا عنه واسقط التهم الموجهة له. لكن صدام لا ينفك عن الحديث عن أمجاده في محاولة الاغتيال وقصة السجن. رغم ان العفو الصادر في الحالتين، يدل على ان ساسة تلك الأيام، اعتبروها من قبيل الأعمال الطائشة.

ورغم ما تكلفه كاتبا سيرته الشخصية شبه الرسميين[٢٧٥]، وغيرهما، في تسييس سيرته وادلجتها. ورغم المبالغة حد القرف لإضفاء البطولة والحكمة عليها[٢٧٦]. وقد بلغت الفجاجة حداً، ان يصبح ما يكتب وكأنه بيان صادر عن (مديرية الأمن العامة) العراقية[٢٧٧]. وبغض النظر عن الثمن الذي يدفع - عادة - لمداحي السلاطين. فقد ظل تاريخ صدام - بالرغم من كل ذلك - تاريخ مسدس جاهز للقتل[٢٧٨].

إن (درجة صدام الدموية حادة للغاية تعاونت على تشكيلها طفولة معذبة وبيئة قاسية فإذا تلفحت هذه الظروف بأفكار ميشيل عفلق ظهرت إلى الوجود شخصية كشخصية صدام حسين الحالية)[٢٧٩]. أو (كانت هذه كلها تعبيراً عن عدم الثقة في مجتمع اخفق في منحه المنافع التي تمتع بها زملاؤه على مقاعد الدراسة)[٢٨٠]. وللأسف لم تظهر - حتى الآن - أية دراسة نفسية عنه، رغم ان هناك مؤشرات كثيرة، بأن وضعه النفسي،

٢٧٥- أمير اسكندر وفؤاد مطر. وقد انقلب الأخير على صدام بعد أزمة الكويت.

٢٧٦- راجع - مثلاً - اسكندر. المرجع السابق. ص٨٧-٨٩.

٢٧٧- راجع - مثلاً - مطر. المرجع السابق. ص٥٩.

٢٧٨- راجع - مثلاً - اسكندر. المرجع السابق. ص٢٣، ٤٤، ٧٧، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ١١٢، ١١٧، ١١٨، ١١٩. وأيضا راجع فؤاد مطر. المرجع السابق. ص٤٩، ٥٠. وراجع بطاطو. المرجع السابق. ص٣٩٩.

٢٧٩- العلوي. المرجع السابق. ص٧٧.

٢٨٠- خدوري. المرجع السابق. ص١٢٣.

كان سبباً أساسياً، ويبدو أحياناً سبباً وحيداً، في كل ما أصاب العراق من مآس. يقول حسن العلوي، الصحفي المقرب منه في السبعينات: (انه لا يصدق ان شخصاً مثلي كان يحبه وان رفاقه في الحزب أو رعاياه في الدولة يحملون له شيئاً من الود)[٢٨١].

ان الجانب الآخر في شخصيته، الذي لا يقل أهمية عن وضعه النفسي، والذي يبدو واضحا في كلامه وسلوكه. انه ابن بار للعقلية الريفية، القائمة على القسوة والثأر والانتقام، واستضعاف الغريب، واحتقار الضعيف.

ولسوء الحظ، لم تحرره من ثقافته الريفية، لا الحياة الحزبية، لقصرها، أو لانضمامه إليها وقد اجتاحتها موجات العنف. فاحتاجت لقيم الريف المتخلفة، لا لقيم النضال السامية. فجمعت كل القتلة والمتخلفين لتقابل بهم الآخرين، الذين أيضاً، جمعوا أمثالهم. ولا (أيامه) في القاهرة، والتي حاول ان يمسح فيها حرمانه، فلم تجد الأجواء السياسية والثقافية طريقها إلى روحه. بالإضافة إلى تأخره في التعليم، وثقافته المتدنية وعدم اهتمامه بتطوير نفسه فكرياً. كل هذه العوامل، جعلته فريسة لعقلية ريفية قاسية ومتخلفة.

وقد قال مرة، انه لم يقرا في حياته قبل الحكم، سوى كتابين أحدهما (ما العمل) لـ (لينين). وقال في مرة أخرى (سنة ١٩٨٨)، انه كرئيس لا وقت لديه للقراءة، ولكنه مع ذلك، وكان يتحدث لمجموعة من الضباط، قد قرأ كتاب لونكريك الشهير (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث). وقد اخطأ في تلفظ اسم الكاتب والكتاب. وبدا معجباً بهذا الكتاب، والمعلومات الجديدة التي اطلع عليها لأول مرة فيه، فحدثهم عما قرأه عن (بكر الصوباشي)، ضابط الصف العثماني، الذي حكم بغداد (١٦١٩-١٦٢٣).

يستقوي صدام بجرأته وذكائه على تدني ثقافته. ولكن لم يحصل ابداً رغم كثرة ما يرتجل من خطابات طويلة ان استشهد ببيت من (ديوان العرب) أو بحكمة عربية قديمة،

٢٨١- العلوي. المرجع السابق. ص٧٤.

أو ارتجل آية قرآنية أو حديثاً نبوياً. وفي المرة الوحيدة التي استشهد فيها ببيت شعر، كان نصف بيت من شعر ريفي يقال عادة في المعارك الريفية. وطالما استشهد في خطاباته بتلك المعارك، التي تجري بين العشائر لأتفه الأسباب. وعموماً، لا تجد فيما يقول، شيئاً مفيداً، إذ يستغرق في الحديث عن بديهيات، أو يكرر حشداً من شعارات، وأحياناً تجد نفسك أمام جمل لا معنى لها ولا رابط بينها.

❖ ❖ ❖

ان الثقافة الريفية والتي يقع تحت تأثيرها، بهذا القدر أو ذاك، غالبية الشعب العراقي، هي مصيبة العراق الكبرى، وتستعمل الثقافة - هنا - باعتبارها مجموعة القيم وقواعد السلوك الخاصة بجماعة إنسانية ما، أو (هي الثقافات التي ترتكز بصورة أساسية على التقاليد. وهذه التقاليد هي النقل عبر الأجيال، لتجربة كاملة، ولنوع من الحياة، ولنظام من القيم)[٢٨٢].

وتقوم الثقافة الريفية على إعلاء قيم القوة والعصبية، حيث يسود الجهل والنفاق والحسد، ويغيب العقل والحوار. ويكون القتل والنهب فضائل لمن يبدع فيها، ومنقصة لمن يتردد عنها[٢٨٣].

أما (الالتزام الديني) فضعيف إلى أقصى الحدود، وينصب على بعض الشكليات، كتقديس قبور الأولياء، واحترام (السادة) أي الذين يرجع نسبهم إلى النبي (ص). وحتى هذه الشكليات، تذوي عند (المصلحة) أو (الغضب).

٢٨٢- سامي ذبيان وآخرون. المرجع السابق. ص١٧٣.

٢٨٣- راجع الدكتور علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. الطبعة الثانية. الجزء الثاني. ص٥.

ويوّرث الآباء في الريف لأبنائهم الاعتزاز بقيم القتل والعصبية. ويطرى على الحرامي بأنه (دواس ليل)، والقاتل بأنه (رجل). والذي تزداد مكانته كلما كثرت ضحاياه. ويتناقل المجتمع الريفي بتفاخر، حكايا معاركه العشائرية، رغم أنها تثور لأتفه الأسباب وبأية لحظة. ولا أحد يناقش (الأسباب) أو يعترض على (المسببين). إنما العار كل العار، يلحق أولئك الذين جلسوا في بيوتهم، ولم يشاركوا في (الفزعة).

وبعض الظواهر الريفية - خاصة تلك المتعلقة بالمرأة - مخجلة حقاً. ولا يقتصر الأمر على الجنوب أو الوسط أو الشمال، لمن تعجبه هذه التقسيمات. وقد أضحت أغلب هذه الظواهر اليوم نادرة، إذ تزوج المرأة بدون رضاها. وقد تخطب لرجل فيرفض الزواج بها فيدخل بها أخوه أو أبوه، وعندما تبتعد بعض القبائل البدوية أو شبه البدوية في البر بحثاً عن الكلأ، يتم الزواج بدون مراسم دينية، والتي تجري بعد العودة، أو ربما بعد سنين. كما قد تزوج المرأة ثانية وثالثة وإجراءات طلاقها لم تتم. وتكون المرأة في كثير من الحالات جزءً من الثمن الذي يدفعه (المعتدي) في الفصل العشائري شأنها شأن النقود، فيُلزم بتزويج عدد - بحسب الجريمة - من بناته أو أخواته لذوي المعتدى عليه، والذين لا يعاملونهن عادة باحترام.

وهناك (العادات) الاجتماعية واليومية، الثقيلة والمملة والمتخلفة، والتي لا بد من الالتزام بها حرفياً، سواء في السلام أو الملبس أو الضيافة. ويعتبر ريف الجنوب العراقي، أو أجزاء منه على الأقل، الأكثر استغراقاً في هذه العادات والتقاليد من بين أرياف العراق. وقد يقع من لا يعرف هذه العادات في إشكال ما كان يرد في خاطره أبدا. فمثلاً، يقدم رأس الخروف، على المائدة لرأس القوم سيداً أو شيخاً. والويل لمن تمتد يداه ليأخذ شيئا من (الرأس) قبلهما أو بدون أذنهما. وتحتقر بعض قبائل جنوب العراق بعض الأعمال وأهلها، حيث يحتقر من يزرع (الخضراوات) أو يبيع (الألبان)، أو يعمل بالحياكة، وغير ذلك.

ويتبادل الريف والدولة عداء مزمنا. هو في جانب منه، عداء بين (التخلف) و(التمدن)، وبين (الفوضى) و(النظام)، وبين (العدوان) و(القانون). رغم ان الدولة

والتي يجب ان تكون للجميع، مسؤولة عن هذا، ومسؤولة عن تخلف الريف المريع. فهي لم تعر الريف الاهتمام الكافي ولم تحاول ولو (تدريجياً) تطويره وتغييره وظلت على الدوام، تتعامل معه بالقوة وباللعب بالمشايخ، وبدون أدنى شعور بالمسؤولية.

وربما قصدت النخب الحاكمة آنذاك، من إبقاء المجتمع الريفي أمياً ومتخلفاً، الاستئثار بالسلطة وامتيازاتها، وألا يشاركهم بقية العراقيين فيها. خاصة، ان اغلب هذه النخب، جاءت إلى حكم العراق، من جهاز السلطة العثمانية، والتي تعودت على احتقار أهل البلد، واعتبار السلطة ملكاً خاصاً بها.

يقول رفعت الجادرجي في ذكرياته عن والده (واذكر ان الوضع المالي ليوسف إبراهيم قد ساء في فترة ما فتوسط له والدي دون علمه لدى أحد المسؤولين آنذاك فعين مديراً عاماً لانحصار التبغ فاستطاع تدارك وضعه المالي براتبه)[٢٨٤].

وهكذا يتوزعون المناصب بينهم، بينما لا يجد ابن البلد من يتوسط لتعيينه شرطياً أو فراشاً، ومن الطريف، أن أحد أقارب (عزيز صالح نومان) المسؤول في النظام البعثي، طلب تعيينه فراشاً، فقال له عزيز: أنت أقاربي ومن العيب أن تعمل فراشاً. فرد عليه طالب الوظيفة ساخراً: إذاً عيّني وزيراً.

من هذا الوسط، جاء صدام، معبأ بثقافته معتزاً بتقاليده، ويبدو ذلك واضحاً في كل سكنة وحركة منه. حتى يمكن القول أنه خلاصة (العقلية الريفية) ونتاجها. وقد استعار صدام الكثير من ثقافة الريف، في حكمه للعراق، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك.

فالقتل في الريف على (الهوية العشائرية) حيث يتم قتل أقارب (العدو) ثأراً أو

٢٨٤- رفعت الجادرجي. صورة أب. ص١١٢.

انتقاماً، طبّقه صدام، معاقباً أقرباء ضحاياه، إلى حد إبادة أسرة أو قبيلة بأكملها، انتقاماً من أحد أبنائها.

فقد دفن الآلاف من عشيرة البارزاني أحياء من رجال ونساء وأطفال. كما أعدم سبعة عشر رجلاً، من آل الحكيم، انتقاماً من السيد محمد باقر الحكيم. وأعدم المئات من أهالي بلد والدجيل، انتقاماً من أبنائهم المعارضين، وغير ذلك الكثير. والجدير ذكره وبتأثير العادات الريفية، فقد أصدر قوانين تبيح (القتل) ثأراً أو غسلاً للعار.

وصدام دائماً (يفلسف البطش والإرهاب، مهما كانت قسوة الأمثلة المطروحة عليه، منطلقاً من أن الناس ستنسى كل ذلك في المستقبل حتى وان هدم الكعبة لأن التاريخ يكتبه المنتصرون)[٢٨٥].

وكما ترحّل (العشيرة) نزلاءها من العشائر الأخرى، عندما تختلف معهم، هجّر صدام العراقيين من أصول إيرانية، وانتهب أملاكهم، وسجن وقتل أبناءهم.

وعلى الطريقة الريفية في الانتقام، بالتمثيل بالضحية أو تقطيع جثته. قال صدام في تشرين الثاني ١٩٨٢، في واحدة من اعترافاته النادرة، بأن (رياض إبراهيم الحاج حسين) وزير الصحة، والذي طلب من صدام أن يتنحى لتتوقف الحرب العراقية الإيرانية، قد أخذ جزاءه مربعاً أي أربع مرات. وللمرء أن يتصور أو يفسر معنى (القتل) أربع مرات.

وكما يتم (النهب والسلب) في الغزوات العشائرية، أو كما يمتهن أغلب أهل الريف الذي جاء منه صدام، السطو على البيوت أو قطع الطريق ليلاً، أمر صدام بنهب المحلات التجارية، لتجار عوقبوا لرفعهم الأسعار أو بتهمة الاحتكار أو لأي سبب آخر. كما أمر بنهب بيوت (المهجرين) و(المعارضين). وهكذا تم تشجيع وترسيخ ثقافة (النهب) والتي بلغت أسوأ صورها في نهب المدن الإيرانية والكويت ومن ثم المدن التي شاركت بالانتفاضة،

٢٨٥- د. عجينة. المرجع السابق. ص١٣١.

وفي الحرب العراقية الإيرانية كان أي كلام مضاد للنهب، يقود صاحبه إلى المشنقة.

وكما يأمر الريفي ابنه أو أخاه الأصغر أو من يأتمر بأمره من أقاربه، بتطليق زوجته، عندما يختلف مع أهلها، أصدر صدام القرار المرقم (٤٧٤) في ١٩٨١/٤/١٥ بمنح من يطلق زوجته العراقية، إذا كانت من أصول إيرانية، مبلغ قدره أربعة آلاف دينار إذا كان عسكرياً، وألفان وخمسمائة دينار إذا كان مدنياً[٢٨٦].

وعلى نفس المنوال أصدر صدام القرار المرقم (١٦٦٤) في ١٩٧٩/١٢/٢ بفصل ثلاث مدرسات بسبب زيارتهن لزميلة لهن، للقيام بتعزيتها بعد إعدام ولديها[٢٨٧]. وكما تفكر العشيرة في الريف، بإبادة العشيرة المنافسة لها، أصدر صدام قراره الشهير بتاريخ ١٩٨٠/٣/٣١ والقاضي بإعدام المنتسبين إلى حزب الدعوة الإسلامية، والعاملين لتحقيق أهدافه، ونص القرار، خلافاً للقواعد الجنائية، على تنفيذ العقوبة بأثر رجعي[٢٨٨].

وفي حديثه عن قضايا كبرى كالحرب مع إيران وأزمة الكويت، تجد صداماً يفكر بطريقة (الغزوات العشائرية) بل ويستعمل نفس الأفكار والمصطلحات، وهكذا خسر، ومعه العراق، كل الحروب التي خاضها.

وأنزل صدام (قاموس الشتائم السياسية) في العراق إلى الحضيض، فبعد اغتيال العميد الركن عبد الكريم مصطفى نصرت، أحد زعماء البعث اليساري، ليلة السابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٦٩، أعلن (أن غلاماً منحرفاً كان اللواء نصرت على صلة

٢٨٦- المركز الإسلامي للأبحاث السياسية. جرائم صدام (عرض وثائقي). ص٣٢.

٢٨٧- المرجع السابق. ص٣٦.

٢٨٨- المرجع السابق. ص١٠٨.

جنسية به هو الذي اغتاله بمنزله)[٢٨٩].

وقد وصف الكاتب حسن العلوي، عملية اغتيال نصرت، بأنها (تخلو من الشهامة[٢٩٠]. ولعله أراد أن يؤكد المعنى الذي نتحدث عنه الآن. والمفارقة أن مجلة ألف باء والتي كان العلوي رئيساً لتحريرها، قدمت (عباس هادي عجينة) وهو أحد المشاركين بانتفاضة النجف الدينية في شباط ١٩٧٧، ووصفته بأنه شاعر يتغزل بالذكور[٢٩١]. وكان التلفزيون العراقي قد وعد بجائزة لمن يساعد في القبض عليه، وقد نُفذ فيه حكم الإعدام بعد ذلك.

وقد رد البعض على هذه الشتائم بمثلها، وتحدثوا حديثاً مطولاً عن صدام وعن أمه. وادعوا بأن أمه (مزواجة) رغم أن في حياتها زيجتان فقط، ولا يعتبر زواجها الثاني معيباً، خاصة في مثل سنها وظروفها.

❖ ❖ ❖

ولأن صدام من أسرة غير معروفة، في مجتمع للأنساب والأحساب فيه مكانة أولى تتقدم على أي أمر آخر، ولأنه جاء من الأوكار السرية، بدون أي تدرج في الحياة، وبلا أي ماض ثقافي أو وظيفي أو حتى سياسي مقبول، ولأن اسمه ارتبط بأعمال القتل والتصفيات، فإنه لم يكن شخصية مقبولة، لدى الرأي العام العراقي أبداً.

وقد ظهر في أول صورة علنية له، بعد انقلاب ١٧ تموز، مع البكر حاملاً بندقية رشاشة، وذلك يوم انقلاب ٣٠ تموز ١٩٦٨، وتصوره كثيرون أنه مجرد (حارس) البكر، أو

٢٨٩- العلوي. المرجع السابق. ص٢٩.

٢٩٠- المرجع السابق. ص٢٩.

٢٩١- ألف باء. العدد ٤٤٠، ٢٣ شباط ١٩٧٧، ص٤.

يده اليمنى، ولكنه فاجأ الجميع، إذ سيطر على البكر، وأخذ منه السلطة، ثم انفرد بها.

وكان صدام، قبل انقلاب تموز، ظل البكر وأمين سره ومساعده الأقرب. وهناك معلومات شبه مؤكدة، عن لقاء عقد في القنصلية البريطانية في البصرة قبل الانقلاب، كان صدام فيه ممثلاً عن البكر، وقد رافقه في هذه المهمة علي عبد السلام، والذي أغتيل بعد الانقلاب. وعقد لقاء مماثل قبل اسبوعين من الانقلاب على الحدود العراقية - السعودية، كان فيه صدام ممثلاً عن البكر، مع أحد مساعدي كمال أدهم، مسؤول المخابرات السعودية، وشقيق زوجة الملك فيصل بن عبد العزيز، والرجل الخطير في المشرق العربي آنذاك. ويبدو أن ذلك كان جزءاً من اتصالات كثيرة مهدت لانقلاب ١٧ تموز(٢٩٢).

وكما ادعى الملك فاروق، ذو الأصل الألباني، النسب الهاشمي. وكما ادعته على مر التاريخ، أسر حاكمة وغير حاكمة، ادعى صدام النسب الهاشمي. وألف الشيخ طه الهنداوي رجل الدين الذي يشتغل بالأنساب، كتاباً عن الأسر الهاشمية في العراق، ودسهم فيه، بعد أن رتب له سلسلة نسب تتصل بالنبي (ص). ويستهزئ أهالي تكريت، في مجالسهم الخاصة، بهذه الأسرة الهاشمية الجديدة، التي لم تكتف بسرقة العراق بما فيه، فانتحلت لنفسها نسباً شريفاً.

وجاء صدام بأقربائه المباشرين من الريف، وولاهم أعلى مناصب الدولة، ومنحهم أعلى الرتب العسكرية، بل ومنح بعضهم أعلى الشهادات الجامعية. وأصبحوا سلطة فوق الحزب والدولة والشعب، وارتكبوا من الحماقات والخطايا ما يبدو غريباً وعجيباً.

٢٩٢- فوزي الراوي. عدة مقابلات.

وسنشير هنا إلى نماذج قليلة منهم[٢٩٣].

فابن عمه، علي حسن مجيد، ضابط صف أمي، منحه رتبة فريق أول ركن وعينه وزيراً للدفاع، وقد ارتكب مجازر جماعية بشعة، واستخدم الأسلحة الكيمياوية ضد الأكراد وكان سفاح الانتفاضة في الجنوب عام ١٩٩١.

وصياد السمك الذي لا يقرأ ولا يكتب، غالب محمود، زوج أخت صدام، أصبح مسؤولاً عن الجمعيات الفلاحية في محافظة تكريت، وحاكمها الفعلي. والشرطي عبد حمود، عينه مديراً للمخابرات العامة، ثم عضواً في المجلس الوطني، وعين الشرطي هاشم حسن مجيد، محافظاً لبابل، فسرق كل ما يمكن سرقته من الحكومة والناس في المحافظة. ويعمل الآن في المقاولات وتعاطي الربا.

ومنح ضابط الصف أرشد ياسين، زوج أخت صدام الثانية، رتبة لواء، وعينه مرافقاً له. وهو الذي أشرف على مجزرة مدينة الدجيل عام ١٩٨٢، وعلى اغتصاب عدة نساء. وهو اليوم أكبر تاجر آثار في العراق، فقد امتدت أيديهم إلى آثار العراق أيضاً. وعين شقيقه ضابط الصف، كامل ياسين، المتزوج من ابنة البكر، عضواً في مجلس قيادة الثورة، ومنحه رتبة فريق، حتى سنة ٢٠٠١، حيث عزل عن جميع مناصبه.

وفي التسعينات، تعاقب على مديرية المخابرات، عدد من أقرباء صدام، ومنهم مانع عبد الرشيد، والذي كافأه صدام على مجازره في الانتفاضة، والتي بلغت من فظاعتها أنه قتل فيها أخوين أمام أمهما[٢٩٤]. وشغل منصب مدير المخابرات، رافع دحام مجول، والذي مات فيما بعد بصورة غامضة، ويقال أن وراء موته خلافاً مع أولاد صدام[٢٩٥].

أما المعلم دحام أحمد العبد، والذي عُين نائباً لرئيس المخابرات عام ١٩٧٩، فقد قتله

٢٩٣- للمزيد من التفاصيل، راجع طالب الحسن، حكومة القرية، الجزء الأول.

٢٩٤- العميد الركن نجيب الصالحي. الزلزال. ص٢١٤-٢١٥.

٢٩٥- طالب الحسن. المرجع السابق. ص٣٠٠.

ابنه البالغ عشر سنوات، انتقاماً لوالدته التي تزوج عليها، أو بتحريض منها. فقام خاله خير الله طلفاح مع حرسه بقتل الأم وأولادها[٢٩٦].

وعين صدام ابن خالته، ضابط الصف عبد حمود، سكرتيراً له ومرافقاً أقدم، ومنحه رتبة فريق، بالإضافة إلى دكتوراه في العلوم السياسية. ولعله - اليوم - ثالث مسؤول في العراق. بعد صدام وابنه قصي.

ومنح صدام، ضابط الصف وزوج ابنته الكبرى حسين كامل، رتبة فريق أول ركن، وعينه وزيراً للدفاع، ومسؤولاً عن التصنيع العسكري، ومديراً للأمن الخاص. ومنح أيضاً شقيقه ضابط الصف صدام كامل، رتبة عقيد وعينه مرافقاً له. وقد قتلهما ووالدهما وشقيقهما عام ١٩٩٦، بعد أن عادا من الأردن، والذي هربا إليه بسبب خلافهما مع عدي. أو أن المخابرات الأميركية استدرجتهما إلى هناك، عن طريق الملك حسين، الذي كان حسين كامل على صلة جيدة به. ويقال أن ملكية حسين كامل تزيد على سبع مليارات دولار، وأنه أخذ معه إلى الأردن ٢٨ مليون دولار لتغطية نفقاته فيها.

ان حسين كامل وشقيقه صدام، مسؤولان عن قتل عشرات الآلاف بعد دحر انتفاضة عام ١٩٩١. وقد قام حسين كامل بنفسه مع آخرين، بذبح آلاف العوائل التي احتمت داخل ضريح الإمام الحسين بن علي بكربلاء.

أما أخوان صدام غير الأشقاء، فبرزان إبراهيم، عين مديراً للمخابرات العامة، وكان الرجل الثاني في الدولة، قبل أن يعترض، حسب التقاليد الريفية، على تزويج صدام ابنتيه من ضابطي الصف حسين وصدام كامل عام ١٩٨٣، ثم أرسله صدام سفيراً في جنيف. وعُين مفوض الشرطة وطبان وزيراً للداخلية، ثم طرد بسبب خلافه مع عدي حول علاقات نسائية، اذ أنه انصرف إلى اللهو وأهمل وظيفته[٢٩٧]. وأطلق عدي، في شجار

٢٩٦- المرجع السابق. ص٤٥٨.

٢٩٧- مجلة الوسط. العدد ٢٦٧، ١٠/٣/١٩٩٧. ص٢٤.

معه فيما بعد، النار على رجله فكسرها.

وعُين مفوض الشرطة سبعاوي، مديراً للأمن العام، ثم طرد لإهماله وظيفته. فهو لا يصحو من النوم الا بعد الظهر، حيث يقضي ليله، كمسؤولي العشيرة الآخرين، في سهرات ماجنة تحييها فرق الغجر.

وفاق خاله خير الله طلفاح، جميع أبناء العشيرة الآخرين، في الاستيلاء على أراضي الآخرين، فإذا رفض صاحب الأرض ذلك، فمكانه السجن. وإذا لم يعترض، فإنه لا يدفع له ثمناً، إنما يعطيه بعض (المقاولات) في أشغال الدولة ليستفيد منها. وقد ارتبط أولاده بعلاقات مع (تجار المافيا والمخدرات لإدخال مبالغ إلى العراق لغسلها، وتتم هذه العملية عن طريق قروض تقدم للحكومة العراقية أو مواد تورد للعراق ويدفع العراق المستحقات في تواريخ لاحقة) (٢٩٨).

أما أولاد صدام، فعدي الرئيس الأعلى للرياضة في البلاد، وله إذاعة وتلفزيون وصحيفة، خاصين به، يشتم فيها من يشاء ويتكلم بما يشاء. وقد اشتهر بارتكاب الكثير من جرائم القتل والاغتصاب. وفي إحداها، اضطر والده أن يعترف علناً، بقتل عدي لمرافق والده (كامل ججو) عام ١٩٨٨. وفي ١٩٩٦/١٢/١٢، قامت عناصر موالية لحزب الدعوة الإسلامية، بمحاولة اغتياله، عندما كان في حي المنصور الراقي، لوحده، يتصيد الفتيات، كما يفعل كل يوم. ولعدي عشرات الشركات والعقارات والمكاتب التجارية، وقد هرب أحد مديري أعماله في الأردن بملايين الدولارات إلى سورية.

أما قصي، فهو الرجل الثاني بعد والده. وقد عُين عضواً في القيادة القطرية، بالإضافة لمنصبه كقائد للحرس الجمهوري.

وهناك العشرات من الأسماء الأخرى، من أبناء العشيرة الحاكمة، والذين شغلوا ويشغلون مناصب مهمة في الحزب والدولة، وقد شاركوا جميعاً في أعمال قتل وتعذيب

٢٩٨- المصدر السابق نفسه.

واغتصاب ونهب. على أية حال، فإنهم حكام العراق اليوم وتجاره حتى أن أحمد وطبان، المولود عام ١٩٧٨، وكمثال على اقتسامهم العراق فيما بينهم، هو من أغنى أغنياء العراق، ويسيطر على كل المقاولات والأعمال التجارية في محافظة البصرة.

الفصل الرابع

الكذب سلاح الفاشية

(ولا يهمنا في هذا المجال الكذب
من ناحيـة أخلاقيـة بحتة....)
من دراسة لحزب البعث - ١٩٦٤

تحكم علاقة رجال الحكم بالشعب في العراق، كما هو الحال في البلاد العربية، نظرية (الراعي والقطيع). فالقطيع لا يملك عقلا ولا مشاعر ولا غرائز، وعلى الراعي ان يقوده وإن تطلّب ذلك ضربه أو خداعه أو القسوة معه. وان اخطر تطبيقات ذلك، كان الكذب على الجماهير وخداعها.

وجاء البعثيون إلى الحكم، فأسرفوا في ذلك، واصبح الكذب هو الأصل، والحقيقة هي الاستثناء. وهذا ما يفسر ميل المواطنين في العراق باستمرار، إلى التشكيك بكل ما يصدر عن النظام، حتى بما ليس له علاقة بالسياسة كالإحصاءات السكانية.. وغيرها. ولا نسعى هنا للحديث عن (كذب النظام)، بقدر ما نسعى للحديث عن أحداث خطيرة جرى التمويه على بعضها أو تزويرها أو اختراع أسبابها.

ورغم انهم بدؤوا منذ اليوم الاول لانقلابهم، في العمل على تصفية خصومهم. فقد أطلق البكر تصريحا تضليليا، قائلا: (من الضروري التزامنا بمبادئ الحريات الأساسية للمواطن وحقوقه. وإعادة الحياة الديمقراطية والدستورية للبلاد)[٢٩٩].

٢٩٩- صحيفة الحياة. العدد (٦٨٣٧)، يوم ١٩٦٨/٧/٢٣. نقلاً عن السعيد. المرجع السابق. ص٤٣٦.

وليفتعلوا خلافاً مع الرئيس جمال عبد الناصر، اختلقوا بعد مرور أسابيع من وصولهم للحكم، (مؤامرة) هي الأولى من سلسلة طويلة من مؤامرات مخترعة جزئياً أو كلياً. وزجوا في المؤامرة أسماء (بعض المسؤولين) في عهد عارف. وفي مقدمتهم، الدكتور عبد الرحمن البزاز، رئيس الوزراء الأسبق. مع ضباط آخرين، أشهرهم، المقدم احمد أبو الجبن، مدير الاستخبارات العسكرية الأسبق، الذي لعب دورا كبيرا في كشف وملاحقة بعض جرائم (الحرس القومي). وكان آمراً لمعسكر الرشيد، ليلة ١٧ تموز، وقد نقل في اليوم التالي إلى وحدة عسكرية بعيدة في العمادية بشمال العراق. والعميد عزيز توفيق آمر الكلية العسكرية، والمقدم داود عبد المجيد من ابرز قيادات الحرس الجمهوري سابقا. واللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاري رئيس الأركان حتى انقلاب ١٧ تموز، والعميد فاضل محمد علي، المرافق الأقدم للرئيس عارف.

ان ثمة أشياء كثيرة تؤكد ان هذه المؤامرة مختلقة. فالعلاقة بين القاهرة والبزاز، لم تكن حميمة أبداً[٣٠٠]. في حين، ان للقاهرة في العراق آنذاك، الكثير من السياسيين والضباط، الموالين للتيار الناصري، والذين يمكنها الاعتماد عليهم في مثل هذه الحالات. ثم ان البزاز ابعد ما يكون عن الانقلابات والمؤامرات، وكانت علاقته مع (الضباط) غير جيدة دائما. خاصة وان الجيش قد أبعده عن رئاسة الجمهورية، يوم كان اقرب إليها من أي رجل آخر، بعد وفاة عبد السلام عارف.

زد على ذلك، عدم انسجام الأسماء الأخرى في المؤامرة المزعومة[٣٠١]، وكراهية بعضهم المعروفة لمصر ولعبد الناصر وللتيار القومي. ناهيك عن الادعاء السخيف، رغم علاقة المؤامرة المزعومة بمصر، (بان أسلحة أمريكية الصنع تم تهريبها إلى داخل العراق)[٣٠٢] للمتآمرين، ومن الواضح لأي متابع لأساليب النظام، أن وراء هذا الادعاء،

٣٠٠-راجع أمين هويدي. المرجع السابق. ص١٩٩-٢٠٢ و ٢١٥ و٢٥٥-٢٥٦.

٣٠١- راجع برزان التكريتي. المرجع السابق. ص١٦و١٨.

٣٠٢- المرجع السابق. ص٢٣.

إيحاءاً بعلاقة للمتآمرين مع أمريكا.

المثير للسخرية، أن برزان إبراهيم، أخ صدام ورئيس مخابراته، والمسؤول عن تعذيب وقتل عشرات الآلاف من السياسيين والمواطنين، يتساءل في كتابه (محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين) على لسان مخبر وهمي اندس في المؤامرة المزعومة، قائلاً: (ماذا سيصيب الناس لو امتلك هؤلاء - فعلاً - القوة المادية بأيديهم وتسلموا زمام السلطة؟.. ما مصير هؤلاء المواطنين البسطاء)[٣٠٣].

كانت حمى الاغتيالات والاعدامات والاعتقالات تتصاعد، وكانت تستهدف أساساً الحزب الشيوعي القيادة المركزية والبعث اليساري والناصريين. و(نظراً للشكوك والرفض الذي لاقاه النظام من قبل القوى السياسية الأخرى في البداية، فان إحساسه بالهشاشة - في البداية على الأقل - إضافة إلى الرغبة بترويع الأعداء أو بكسب شعبية، هو سبب الخشونة المحسوبة التي استخدمت في تحطيم (المؤامرات) وكسر «حلقات التجسس»)[٣٠٤].

وفي خطوة استعراضية، رافقها الكثير من الضجيج الإعلامي والادعاءات، أعلن انقلابيو ١٧ تموز، في ٩ تشرين الاول ١٩٦٨، القبض على (شبكة تجسس) تعمل لصالح إسرائيل والمخابرات الأمريكية. وللقصة (أصل) أضيف له الكثير من الأكاذيب.

في العراق، حيث كانت اكبر (طائفة يهودية) في البلاد العربية. ولما يمثله العراق في (العقل) اليهودي. وللخوف من أي دور قادم للعراق في الصراع العربي الصهيوني. بدأ

٣٠٣- المرجع السابق. ص٢٩.

٣٠٤- بطاطو. المرجع السابق. ص٤٠٥.

النشاط الصهيوني - الجاسوسي مبكراً في العراق[٣٠٥]. وللتذكير فإن التوراة، تقول: (بان وعداً وعد به الإله (يهوه).. بان يمنحهم بلاد كنعان «من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»)[٣٠٦]. كما ان (تل أبيب - تسمية بابلية قديمة لموقع في جنوب العراق كان قد سكنه اليهود من بقايا الأسر - وسميت تل أبيب، الحاضرة بفلسطين على اسم تل أبيب القديمة)[٣٠٧]. وعموماً (ان عدداً من الحوداث الخطيرة الوارد ذكرها في كتاب اليهود المقدس جرت في بلاد بابل وآشور وبين النهرين)[٣٠٨]، و(الرافدان نهران ذكرهما كتاب دينهم بين أنهر الفردوس. كما أن ذكر شنعار وبين النهرين وبابل وآشور وبلاد ماذي وشوشن حي في ذاكرة هذا الشعب)[٣٠٩].

كانت الطائفة اليهودية في العراق، تشكل ٢،٦٪ من سكان العراق عام ١٩٤٧[٣١٠]. وشكلت ٣٥،٣٪ عام ١٩٠٨ و١٥٪ عام ١٩٤٧ من سكان بغداد. ويعود تراجع نسبتهم في السنة الأخيرة، إلى وجود هجرة داخلية إلى بغداد في العقود السابقة. وفي إحدى الدورات، كان لهم في مجلس النواب ستة أعضاء، ثلاثة من بغداد، واحد من كركوك، واحد من الموصل، واحد من البصرة.

(والواقع ان الطائفة اليهودية في العراق كانت عربية تماماً، أو إذا كان القارئ يفضل، فقد كانت مستعربة. كانت لغتها عربية، وكانت العربية تستخدم حتى في طقوسها الدينية. وكان طعامها عربياً، وكانت خرافاتها خرافات عربية، وكذلك الأمثال التي تستخدمها.

٣٠٥- راجع - مثلاً - خيري العمري. حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث. ص١٧١. وأيضا، شلومو نكديمون، الموساد في العراق ودول الجوار. ص٢٥.

٣٠٦- جعفر الخليلي. الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ. الطبعة الثانية. ص١١٣.

٣٠٧- المرجع السابق. ص١١٨.

٣٠٨- يوسف رزق الله غنيمة. نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق. بغداد ١٩٢٤. ص١.

٣٠٩- المرجع السابق. ص٤١.

٣١٠- بطاطو. العراق. الكتاب الاول (مرجع سابق). ص٦٠. الجدول رقم ٣-١.

وكان الكثير من عاداتها عربياً، وحتى (الحريم) كان يشكل جزءاً من أعرافها)[٣١١].

إلا أن ظهور الحركة الصهيونية ثم إقامة الكيان الصهيوني، قلب الأمور رأسا على عقب. إذ (أن عشرات المؤسسات التي أسسها اليهود في بغداد وخانقين، وكركوك، وأربيل، والبصرة لأغراض أدبية ورياضية كانت تعمل في سبيل الصهيونية وجمع التبرعات ليهود فلسطين وتهجير اليهود إليها)[٣١٢]. واحتل العراق (المرتبة الرابعة بعد الولايات المتحدة الأميركية وإنكلترا والصين في التبرعات للحركة الصهيونية)[٣١٣]. (وعلى اثر قيام دولة إسرائيل في فلسطين سنة ١٩٤٨ أخذ هؤلاء اليهود يهربون إلى إيران، ومنها إلى فلسطين سراً وعلانية، بعد أن شرعوا بتصفية أعمالهم وبيع ممتلكاتهم)[٣١٤]. إذ (ان بعض ضباط الشرطة.. كانوا يهربون اليهود بسيارات الحكومة إلى إيران.. وقد أثرى المهربون إثراء فاحشاً من جراء هذا العمل الوضيع لأن السلطات العليا كانت تتستر عليهم)[٣١٥].

وقد قامت شركة السياحة العراقية التي كان أحد الوزراء من بين ملاكيها، وبالتعاون مع شركات جوية أميركية بنقل هؤلاء النازحين، وطبعاً بالاتفاق مع الوكالات اليهودية[٣١٦].

(ولكن أجـرأ.. عمليتي تهجير هما اللتان كانتا مرتبطتين برحلتين جويتين غير قانونيتين قامت بهما طائرة أميركية بموجب ترتيب مع ملاحيها، كانت الطائرة تهبط في مطار بغداد من أجل التزود بالوقود، وبينما كانت الطائرة تسير على المدرج وتتوقف في طرفه استعداداً للإقلاع، كان خمسون فتى وفتاة قد وصلوا إلى هناك بسيارة شحن

٣١١- المرجع السابق. ص٢٩٥-٢٩٦.

٣١٢- عبد الرزاق الحسني. تأريخ الوزارات العراقية. الطبعة السابعة. الجزء الثامن. ص١٥٥.

٣١٣- حاييم كوهيت. النشاط الصهيوني في العراق. ص٩٣. نقلا عن المرجع السابق. ص١٥٥-١٥٦. (حاشية).

٣١٤- الحسني. المرجع السابق. ص١٥٦.

٣١٥- المرجع السابق. ص١٥٧ (حاشية).

٣١٦- المرجع السابق. ص١٥٨.

مع مرافقين يهود مسلحين لمواجهة احتمال أي خطر وانطلقوا إلى الطائرة تحت ستار الظلام وضوء مصابيح الطائرة الوهاج وخلال ذلك بدقائق معدودة كان الفتيان والفتيات الخمسون داخل الطائرة التي أخذت تحلق وتنخفض وبعد ساعتين وصلت إلى مطار سري بفلسطين)[٣١٧].

وبضغط أميركي - بريطاني، أصدرت وزارة السويدي الثالثة، قانوناً في ٢ آذار ١٩٥٠ - تم إقراره بسرعة قياسية وخلال يومين في مجلسي النواب والأعيان - ينص على (إسقاط الجنسية العراقية عن اليهودي العراقي الذي يرغب باختيار منه، ترك العراق نهائياً[٣١٨]. وبقي هذا القانون نافذاً لمدة سنة. وكمثال على مستوى الوعي العربي، في مواجهة المشروع الصهيوني، فإن هذا القانون الذي وصفه الجواهري بالمؤامرة، لأنه قام (بتسليم أكبر هدية وأثمنها، وأسمنها إلى دولة إسرائيل وبعدما يقل على سنتين من عمرها)[٣١٩]، حظي بدعم وتهليل حزب الاستقلال، رافع راية القومية العربية في العراق آنذاك.

و(لما شرعت الوزارة السويدية الثالثة قانون إسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الذين كانوا يظهرون رغبتهم في السفر إلى إسرائيل، لم تتخذ أية خطوة قانونية لتجميد أموال الراغبين في ترك العراق، الأمر الذي أدى إلى تهريب معظم أموالهم، والتصرف بما تبقى تصرفاً ينافي المصلحة، يساعدهم على ذلك لفيف من الوزراء وكبار الموظفين والمتنفذين الذين ماتت ضمائرهم. فلما قاربت المدة القانونية لانتهاء مفعول هذا القانون، أسرعت (الوزارة السعيدية الحادية عشرة) إلى تجميد أموال المسقطة عنهم

٣١٧- أميل مراد. قصة الحركة الصهيونية في العراق. ص٢٤. نقلاً عن المرجع السابق. ص١٥٨. (حاشية).

٣١٨- الحسني. المرجع السابق. ص١٥٦.

٣١٩- محمد مهدي الجواهري. ذكرياتي. الجزء الثاني. ص٧٩.

هذه الجنسية العراقية ولكن - بعد خراب البصرة - كما يقول المثل)[٣٢٠].

وبدأ نشاط صهيوني محموم، لتشجيع الهجرة اليهودية من العراق، حتى ولو بالقوة عن طريق التفجيرات والتهديدات. فقام عملاء إسرائيليون بضرب أهداف يهودية بالقنابل لإجبار اليهود العراقيين على الهجرة إلى إسرائيل[٣٢١]. إذ (رغم أنه سجل نحو ستين ألف مهاجر حتى نهاية ١٩٥٠م، فإنه لم يغادر إلا ٢٣ ألفا فكان لابد من تعجيل العملية.. فألقيت القنابل.. وكانت نتيجة تلك الأحداث انضمام أربعين ألف يهودي آخر إلى قوائم الهجرة، وقدر عدد اليهود الذين غادروا العراق منذ أول العملية في آذار ١٩٥٠ وحتى كانون الأول حيث انتهت العملية ١١٣،٥٤٥ نسمة)[٣٢٢].

وعثرت السلطات العراقية على مخابئ أسلحة ومتفجرات، ودعت الملحقين العسكريين في السفارتين البريطانية والأميركية، وممثلي السفارات الأجنبية، ورؤساء اليهود ووجوههم، للاطلاع على هذه المخابئ. وفي النهاية، نفذ حكم الموت بحق كل من شالوم صالح شالوم، والمحامي يوسف إبراهيم بصري، كما حكم على غيرهما بالحبس مدداً منوعة[٣٢٣].

ان هناك سبباً مهماً للهجرة اليهودية يضاف إلى الأسباب الأخرى، أو ربما يأتي في مقدمتها، إذ خلافاً للتصور الشائع، (كان الاستقطاب الملاحظ للثروة عند بقية العراقيين، يطبع بطابعه الطائفة اليهودية أيضاً)[٣٢٤]. (وقدر تقرير أعد في العام ١٩١٠م للقنصلية البريطانية أن التجار والصرافين كانوا يشكلون ٥ بالمئة، ويشكل صغار

٣٢٠- الحسني. المرجع السابق. ص٢٠٢.
٣٢١- باتريك سيل. أبو نضال بندقية للإيجار. ص٢٤٠.
٣٢٢- راجع الحسني. المرجع السابق. ص١٥٨.
٣٢٣- المرجع السابق. ص٢٠٧.
٣٢٤- بطاطو. المرجع السابق. ص٢٩٤.

التجار وباعة التجزئة (المفرق) والموظفون ذوو الدخل المتوسط ٣٠ بالمائة، والفقراء ٦٠ بالمائة، والشحاذون المحترفون ٥ بالمائة من يهود بغداد)[٣٢٥]. ولم تتغير هذه النسب كثيراً فيما بعد.

ولذلك فإن أغلب فقراء اليهود، في العراق والبلدان العربية، فرحوا بالهجرة، هرباً من فقرهم المزمن وبحثاً عن مستقبل أفضل، لا تأثراً بالصهيونية.

(ان عدداً من تجار اليهود الهامين تخلف عن الهجرة)[٣٢٦]. وهاجر آخرون إلى إيران أو بريطانيا أو الولايات المتحدة أو دول أخرى، خوفاً من تطور الأحداث، وظل القليل من اليهود في العراق. والذين كان عددهم عام ١٩٦٧، ثلاثة آلاف نسمة[٣٢٧]. وقد شهد عام ١٩٧٠ وبمساعدة الحركة الكردية، عملية هروب واسعة لما تبقى من يهود العراق، (حتى لم يبق سوى عدة عشرات)[٣٢٨].

وحتى السبعينات (لم يكن جميع الفارين يرغبون في التوجه إلى إسرائيل ويرجع السبب في ذلك.. إلى الرسائل التي تلقوها من ذويهم الذين سبق أن هاجروا إلى إسرائيل، فالوضع الاقتصادي في إسرائيل صعب، إضافة إلى أن أبناء الطوائف الشرقية يعاملون معاملة سيئة.. أضف إلى ذلك أن الذي يدخل إسرائيل لا يستطيع الخروج منها. وقالت امرأة.. لقد شنق زوجي في بغداد، ولم يبق لي سوى هذين الولدين، وحينما سأصل إلى إسرائيل سيأخذونهما مني ويزجون بهما في الحروب)[٣٢٩].

❖ ❖ ❖

٣٢٥- المرجع السابق. ص٢٩٤.

٣٢٦- المرجع السابق. ص٢٨٤ (حاشية).

٣٢٧- شلومو نكديمون. الموساد في العراق ودول الجوار. ص٢٤٩.

٣٢٨- المرجع السابق. ص٢٥٢.

٣٢٩- المرجع السابق. ص٢٥٣.

(عمد الموساد ونظيراه الإيراني (السافاك) والتركي (تي. ان. أس. أس) إلى إقامة منظمة ذات ثلاثة أضلاع (تريدنت) في نهاية عام ١٩٥٨. وفي هذا الإطار الثلاثي تبادلت الأجهزة الثلاثة معلومات استخبارية، وكان رؤساء هذه الأجهزة يعقدون اجتماعين سنوياً)[٣٣٠]. وبعد ذلك ومن خلال هذه العلاقة بين الأجهزة الثلاثة والتي تعود إلى بداية الخمسينات، وبالتعاون مع المخابرات الأميركية، كان النشاط الصهيوني - الجاسوسي في العراق، يدار في الستينات مباشرة من محطتين.

الأولى، في شمال العراق، بحماية الحزب الديمقراطي الكردستاني، وبدأت نشاطها منذ تموز ١٩٦٣[٣٣١]. حيث يوجد بشكل دائم مستشارون إسرائيليون، من الموساد والجيش الإسرائيلي، وقد ينضم إليهم مسؤول من الخارجية الإسرائيلية أحياناً. ويتم تغيير الأشخاص - لأسباب أمنية - كل ثلاثة أشهر.

يقول الدكتور محمود عثمان أحد أبرز قادة الحركة الكردية في تلك السنوات: (لقد حصل تعاون استخباري مع إسرائيل، لأن العلاقات بيننا كانت عسكرية، ما يعني أن هناك أسلحة وضباطاً وخبراء ورجال موساد.. وكان بيننا تبادل معلومات.. كان الإسرائيليون يطلبون منا معلومات عن الجيش العراقي، وفي الوقت نفسه يزودوننا معلومات عن تحركاته. حتى أن المستشفى الميداني الذي أقامه الإسرائيليون في كردستان، كان من أهدافه جمع المعلومات الاستخبارية عن العراق لمصلحة إسرائيل)[٣٣٢].

ومن أشهر أدوار هذه المحطة، والتي ربما كان لها أدوار أهم لا نعرفها حتى الآن، هو المساهمة في تجنيد (منير روفا) الضابط في القوة الجوية العراقية، أو أنها كانت قناة الاتصال معه. وقد هرب روفا بطائرة (ميغ ٢١) إلى العدو يوم ١٩٦٦/٨/١٦. حيث

٣٣٠- المرجع السابق. ص٧٦.

٣٣١- المرجع السابق. ص١٠١.

٣٣٢- مجلة الوسط. العدد ٢٩٨. ١٣/١٠/١٩٩٧. ص٣٠-٣١.

كان بطائرته مع طائرة أخرى في (مهمة تدريبية)، عندما استدار هارباً باتجاه الأردن ففلسطين المحتلة. وكانت الولايات المتحدة قد بذلت جهوداً مضنية من قبل للوصول إلى أسرار طائرة (ميغ ٢١) الروسية الصنع، والتي ألحقت بالطيران الأميركي خسائر ملحوظة في حرب فيتنام الدائرة آنذاك.

وهرّبت هذه المحطة، وبمساعدة مهربين أكراد، زوجة روفا وأطفاله[٣٣٣]. والمعروف أن منير روفا من عائلة بعثية، وكان أخوه فهمي روفا، قد مُنح رتبة ملازم في الحرس القومي عام ١٩٦٣، وارتكب الكثير من الجرائم[٣٣٤]. وليست لهذه المعلومة أية دلالة، لولا أنهم بعد انقلاب ١٧ تموز عام ١٩٦٨، وبسبب الإحراج الذي يمكن أن يلحقهم من هذه العلاقة، بثوا على التلفزيون وكبشرى سارة مهّدوا لها بالكثير من الضجيج، صورة فوتوغرافية، يبدو أنها مرتبة، تظهر الرئيس عبد السلام عارف مع عائلة روفا، وهو يقدم لأخت منير عقداً من الذهب.

الغريب، بينما ينكّل نظام صدام بأقرباء وأصدقاء أي عضو بحزب الدعوة الإسلامية، فقد ظل فهمي روفا، شقيق منير، رئيساً للمؤسسة العامة للصناعات الإنشائية، وهو منصب لا يحظى به الا البعثيون القدامى، حتى ٢٤ أيلول ١٩٧٩ حيث نقل إلى وظيفة أخرى[٣٣٥].

وتقول رواية أخرى عن تجنيد روفا. بأنه جند للموساد، بمساعدة المخابرات الأميركية،عندما كان في ألمانيا أو أمريكا، في دورة تدريبية، عام ١٩٦٣ أو بعد ذلك بقليل. وان عائلته قد سحبت إلى لندن بحيلة مخابراتية، قبل هربه إلى إسرائيل[٣٣٦].

٣٣٣- جوناثان راندل، أمة في شقاق. ص٢٥٧.

٣٣٤- أنظر المنحرفون، الطبعة الثانية، ص١١١، ١١٢، ١١٤.

٣٣٥- قرارات تفضح انتهاكات حقوق الإنسان في العراق. شباط ١٩٩٣. ص١٦.

٣٣٦- سعيد الجزائري. المخابرات والعالم. الطبعة الرابعة ١٩٨٦. الجزء الأول. ص٤٢٤ و ٤٢٨ وما بعدها.

الملاحظ، أن القيادة العسكرية في العراق آنذاك، واستخباراتها، كانت في غفلة تامة، عن محاولات المخابرات الإسرائيلية، لتجنيد ضباط وطيارين، من العاملين في الملحقيات العسكرية في الدول الغربية. أو من الذين يرسلون في دورات تدريبية إلى هناك. حتى ان ضابطاً عراقياً، كان قد قتله الموساد والقوا بجثته من القطار بألمانيا، لأنه تراجع عن استعداده للعمل معهم، وهدد بأنه سيبلّغ حكومته العراقية[٣٣٧]. اعتبرت الاستخبارات العسكرية موته قضاء و قدراً بسقوطه من القطار.

ومن أدوار منير روفا الخطيرة قبل هروبه بطائرته إلى العدو، قيامه بإبلاغ إسرائيل عن الاستعدادات لمحاولة انقلاب ٣٠ حزيران ١٩٦٦، فاستعانت إسرائيل ببريطانيا لتحذير الحكومة العراقية منها، للحيلولة دون نجاح انقلاب ناصري مدعوم من مصر، وقد بلغ البريطانيون وزير المالية آنذاك شكري صالح زكي، والذي بلغ بدوره البزاز رئيس الوزراء[٣٣٨].

وبالعودة إلى محطة الموساد في شمال العراق. يقول الدكتور محمود عثمان (كانت تقع في أيدينا معلومات أثناء القتال، حيث نأسر بعض العسكريين فنعرف منهم الحقائق. وكحركة كردية كان لدينا أناس يعملون داخل الجيش العراقي وداخل العراق، من الأكراد وغيرهم. فكانت تأتينا المعلومات منهم)[٣٣٩]. ويضيف عثمان بأن (قسما منها كان يعطى للإسرائيليين في نطاق تبادل المعلومات، وهم بالتأكيد استفادوا منها)[٣٤٠].

وفي عام ١٩٦٦ (اسهم الموساد في تأسيس جهاز الاستخبارات الكردية الذي حمل اسم (باراستن) أو الحماية باللغة الكردية، وتولى قيادة هذا الجهاز نجل البارزاني مسعود

٣٣٧- المرجع السابق. ص٤٢٤ وما بعدها.

٣٣٨- عارف عبد الرزاق. مقابلة مع تلفزيون الجزيرة، برنامج شاهد على العصر. الحلقة الأخيرة، في ٢٠٠٢/٣/١٧.

٣٣٩- الوسط. العدد ٢٩٨. ١٣/١٠/١٩٩٧. ص٣١.

٣٤٠- المرجع السابق نفسه.

الذي خضع لدورات تدريبية مكثفة في كردستان وإسرائيل، وقام بإنشاء شعب تابعة له في مختلف التجمعات الكردية في الخارج)[٣٤١]. ويقول باحث آخر: (شكل الموساد والسافاك جهاز مخابرات كرديا ذكيا للغاية، لجمع المعلومات عن الحكومة العراقية، والأوضاع العراقية، وقوات العراق)[٣٤٢].

وافتتحت محطة الموساد في كردستان العراق ثانية، بعد عام ١٩٩١. الا ان المعلومات نادرة عنها. وبالإضافة إليها، فان السفارة الإسرائيلية بالاردن، ومحطة الموساد فيها، يديران النشاط التجسسي في العراق منذ عام ١٩٩٣. حيث أعيد افتتاح الأخيرة بعد تولي الملك عبد الله. وكانت قد أغلقت اثر محاولة اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس.

أما المحطة الثانية، والتي كانت تدير النشاط التجسسي في العراق حتى عام ١٩٧٩، فهي السفارة الإسرائيلية في طهران، والتي كانت تستخدم عملاء ينتقلون عبر الحدود العراقية - الإيرانية. حيث كان الناس ينتقلون بسهولة وأحيانا بدون وثائق سفر. إذ تسكن على جانبي الحدود، فروع من عوائل واحدة[٣٤٣]. والتي تتبادل الزيارات يوميا، خاصة أيام رمضان ومحرم والأعياد والمناسبات العائلية والدينية. وكان بعض هواة اللهو يذهبون لقضاء (سهراتهم) في نوادي عبادان الإيرانية ويعودون عند الفجر إلى بيوتهم في البصرة.

ولا علاقة للمعلومات آنفة الذكر، باستخدام الطريق من قبل (عملاء) إسرائيل. والذين كانوا يستفيدون، من الفوضى في العراق آنذاك، وانشغال البلد وأحزابه في

٣٤١- جوناثان راندل. المرجع السابق. ص٢٥٣.

٣٤٢- د.ادموند غريب. المسألة الكردية في العراق. ص١٠٠. نقلاً عن نكديمون. المرجع السابق. ص١٠٠.

٣٤٣- فمثلاً، للأميرال علي شمخاني وزير الدفاع الإيراني، أبناء عم في مدينة البصرة ويحملون نفس اللقب. وهم عائلة عربية معروفة ومن وجوههم في العراق، كاظم الشمخاني.

الاقتتال بينهم، ومن الغفلة العربية عن الخطر الصهيوني، بل والاستخفاف به. وكمثال على استخفاف العرب بقدرات إسرائيل، كتبت جريدة الجمهورية المصرية، في ١٩٦٧/٥/٢١، أي قبل اسبوعين من هزيمة حزيران، ما نصه: (في ساعات قليلة يمكن ان تسحق إسرائيل، بغير استخدام كافة أسلحتنا في المعركة)[٣٤٤].

وفي ٢٠ حزيران عام ١٩٦٨ - وهذا أصل القصة التي أشرنا لها - حكمت محكمة أمن الدولة الثانية بالأشغال الشاقة المؤبدة على رئيس شبكة تجسس اتخذت من البصرة قاعدة لأعمالها. وكانت قد صدرت، قبل ذلك، أحكام في قضايا ثلاث شبكات تجسس، قضت بسجن خمسة أشخاص بين ٣ و ١٥ عاماً. وصرح رئيس المحكمة، العقيد خليل إبراهيم القيسي، أن هذه الشبكات بدأت أعمالها سنة ١٩٦٥ لحساب المخابرات الإسرائيلية، وبالتعاون مع المخابرات الأميركية، وكانت مهمتها الحصول على معلومات واسعة ودقيقة عن الجيش العراقي[٣٤٥].

ومن الواضح، أن الأحكام كانت متهاونة بحق الجواسيس، في بلد طالما ذبح أبناؤه بسبب عقائدهم السياسية. والأسوأ من ذلك، أنها لم تجد اعتراضاً أو احتجاجاً آنذاك من السياسيين أو الصحف أو العلماء أو الأحزاب السرية أو غيرهم.

وبعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، قام (مكتب العلاقات العامة) بإعادة فتح ملف التجسس، وحسناً ما فعل، لولا أنه أضاف إليه الكثير من الناس الأبرياء من معارضيه والذين لا يرقى الشك إليهم أبداً.

فقد تم الزج بأسماء كثيرة مع الجواسيس، وأضيف إليهم يهود أبرياء، حتى يبدو الأمر حقيقياً. ومع الأيام، تزايد الإعلان عن شبكات جاسوسية جديدة، وأضيفت أسماء وأسماء، فمع الشبكة الأولى، زج بعبد الحسين جيتا، رجل الأعمال المتدين جداً،

٣٤٤- السعيد. المرجع السابق. ص١٩٧.

٣٤٥- راجع المرجع السابق. ص٢٦٨.

الباكستاني الأصل، وقيل أن وراء ذلك تمويله للنشاطات الدينية، أو أن إعدامه كان رسالة تهديد مبطنة للمرجعية الدينية في النجف، والتي حاولت مراراً التوسط له، وللدكتور عبد الرحمن البزاز.

وكان الدكتور البزاز قد زج به في مؤامرة ناصرية مزعومة كما ذكرنا. ثم عادوا وزجوا باسمه إلى جنب وزير الدفاع الأسبق، النزيه والقدير عبد العزيز العقيلي، في اعترافات عبد الهادي البجاري، عن نشاطات شبكات التجسس[٣٤٦].

ومع تصفية المعارضة السياسية، كان الانقلاب الجديد مشغولاً أيضاً بتصفية النشاط الديني، والذي تعاظم في السنوات القليلة السابقة للانقلاب، فاعتقلوا صادق جعفر الحاوي وهو ابن أحد تجار البصرة المعروفين، وكان والده من المولين الأساسيين للنشاطات الدينية في العراق وخاصة في البصرة، أما التهمة التي كانت تنتظر الابن فهي التجسس لإسرائيل. وقد اوقعت به غانية اسمها (هيفاء نعوم) والتي سنعود للحديث عنها لاحقاً. وبتأثير الخوف والخديعة معاً، تعاون الابن منذ اللحظة الأولى مع جلاديه.

ثم اعتقلوا المحامي عبد الهادي البجاري - والذي كان عضواً في مجلس النواب في العهد الملكي - لتوسطه لإطلاق سراح صادق الحاوي بتكليف من والده. ومنذ اللحظات الأولى لاعتقاله، تعرض البجاري لتعذيب شديد، ثم جاؤوا بعائلته - بعد أسبوع من اعتقاله - وهددوه باغتصاب زوجته وابنته ما لم يوافق على الإدلاء بمعلومات محددة على شاشة التلفزيون. وكانوا قد أحضروه ليشاهد بنفسه كيف اغتصبوا زوجة عدنان حبة أمام زوجها، والمعتقل أيضا بتهمة التجسس بعد أن رفض الإدلاء بالاعترافات المطلوبة.

ووافق البجاري على الظهور على شاشة التلفزيون بعد ان أقسم له صدام - المشرف على التحقيق - أغلظ الأيمان بأنه لن يعدم وأن المسألة للإعلام فقط حتى يبدو الحكم وطنياً.

٣٤٦- د. خدوري. العراق الاشتراكي. ص٨٦-٨٩.

وعرض على شاشة التلفزيون كل من البجاري والحاوي، حيث قام باستجوابهما على الأثير صلاح عمر العلي أحد قياديي مكتب العلاقات العامة ووزير الإعلام آنذاك، وقد أعدم فيما بعد البجاري وخفف حكم الإعدام على الحاوي إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. وستتكرر هذه الحالة بعد ذلك كثيراً، إذ تنتزع اعترافات بالإكراه أو الخديعة من سجناء أبرياء للإعلان عن مؤامرات أو تفجيرات مختلقة، وباستثناء حالات نادرة، فإن أغلب الذين يدلون بهكذا اعترافات سيجري إعدامهم لتختفي الحقيقة معهم.

ومن الذين اضيفوا إلى شبكة الحاوي، صباح جمال الحكيم، وهو ابن تاجر يهودي قد أسلم وتزوج من مسلمة (والدة صباح)، وصباح شاب غر ساذج وشت به ايضاً (هيفاء نعوم) التي مر ذكرها آنفاً، ورغم أن التحقيق قد أثبت براءته من أي نشاط جاسوسي أو سياسي، إلا أنه أعدم أيضاً.

وهيفاء نعوم هذه، ولدت في البصرة عام ١٩٤٩، وهي ابنه موظف في الموانئ العراقية، وقد شاركت ولما تزل طالبة في الثانوية في إحدى مباريات الجمال في لبنان في الستينات فتوجت ملكة لتلك المباريات لجمالها البارع، وهو ما لفت نظر الرائد جابر العلي مدير استخبارات المنطقة الجنوبية فجندها عام ١٩٦٧ للعمل مع الاستخبارات العسكرية، وقد أعدم الرجل بعد انقلاب ١٧ تموز بسبب ميوله الناصرية. أما هيفاء فقد نقلوا خدماتها إلى مكتب العلاقات العامة وأرسلت فيما بعد للعمل في لبنان، ولكنها - وقد سئمت من الخدمة السرية وما فيها من خديعة ودماء - سلمت نفسها إلى المكتب الثاني (اللبناني)، وقد قتلت في بحمدون عام ١٩٧١ على يد رجل كان يعمل في السفارة العراقية في لبنان يدعى (سعيد الموسوي).

وقد صدر على العقيلي حكماً بالإعدام عام ١٩٦٩ ولم يُنفذ به وظل في قسم الإعدام في سجن أبي غريب. وفي سنة ١٩٧٧ خُفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، ونُقل إلى قسم الأحكام الخاصة حيث وضع في زنزانة انفرادية إلى عام ١٩٨٢.

وفي عام ١٩٨٢ - وكان وضع العراق في الحرب حرجاً جداً - جاءت مجموعة من المخابرات واقتادوا العقيلي إلى المخابرات العامة، حيث وجد نفسه وجهاً لوجه مع صدام

حسين، وبعد أن رحب به صدام دار بينهما الحوار التالي[٣٤٧]:

صدام: بلدك مُعرض إلى خطر من قبل المجوس، والفرس يريدون احتلال العراق لجعله ضيعة تابعة إلى إيران فهل ترضى بذلك؟ نريد منك ان تتعاون معنا لدفع الخطر عن العراق.

صمت العقيلي لحظات، رفع رأسه بعدها وقال: أنا محكوم بالتجسس لصالح إسرائيل وأميركا، هذه هي التهمة التي وجهت لي، فكيف تريدون مني أن أتعاون معكم لدرء الخطر عن بلادي؟

ابتسم صدام وقال له: لا نريد أن ننظر إلى الماضي، نحن الآن في صدد الحاضر. فأجاب العقيلي: لا، أريد أن يظهر مسؤول كبير على شاشة التلفزيون، ليصرح بأن العقيلي بريء من التهمة المنسوبة إليه عام ١٩٦٩ والتي كلها كذب وافتراء.

أجابه صدام فوراً: نعم، بعد أن تنتهي الحرب مع إيران أعدك بذلك، لكن نريدك الآن أن تتعاون مع القيادة العسكرية، وان شاء الله سنلبي كل ما تريده، اطمئن لذلك.

لكن العقيلي أصر على موقفه، وهكذا انتهى اللقاء بينهما، وأعيد العقيلي - بعد أيام - إلى سجن أبي غريب. ثم - وبعد ثلاثة أشهر - جيء به إلى المخابرات، وأعاد عليه ضباط كبار من المخابرات ما عرضه عليه صدام سابقاً، ولكنه أصر على موقفه السابق، فعرضوه لتعذيب (وصفه العقيلي بالخفيف)، ويبدو أنهم قد دسوا له سماً في طعامه، ثم أعادوه إلى سجن أبي غريب، وأخذت أعراض السم (بطيء المفعول) تظهر عليه تدريجياً، حتى أصبح مشلولاً لا يقوى على الحركة[٣٤٨].

وذات صباح وكانت الساعة السابعة صباحاً توفي العقيلي، فجاء رجال الأمن والمخابرات

٣٤٧- صادق جعفر الحاوي. مقابلة سبق ذكرها.

٣٤٨- صاحب الحصونة. مذكرات سجين، هكذا عشت مصرع وزير الدفاع الأسبق. جريدة نداء الرافدين، العدد (٢٤٧)، آب ٢٠٠١.

وعلى رأسهم فلاح عاقوله - شرطي الأمن المشرف على قسم الإعدام - ومعهم عربة النظافة حيث وضعوا العقيلي فيها وغطوه بشرشف ثم أخذوه ودفنوه سراً في مكان ما.

وادعى النظام أن فؤاد الركابي، السياسي النظيف، وأول زعيم لحزب البعث في العراق، قد أقام علاقة عن حسن نية مع جاسوس أميركي، وحكموه بالحبس خمس سنوات، ثم قتلوه طعناً بالسكاكين قبل انتهاء فترة الحبس.

وعرضوا على شاشة التلفزيون، اللواء مدحت الحاج سري، الذي اعترف تحت التهديد باغتصاب زوجته وبناته، قائلاً: (ان السيد مهدي الحكيم حضر بعض الاجتماعات - مع الأكراد - التي كانت تتم بأوامر من المخابرات المركزية الأميركية)[٣٤٩]. وسنعود للحديث عن ذلك بعد قليل.

وعرض على شاشة التلفزيون أيضا، اللواء رشيد مصلح التكريتي، الحاكم العسكري العام لانقلاب البعث الاول، قبل أن ينشق عنهم ويشارك في انقلاب عبد السلام عارف عليهم في ١٨ تشرين الثاني. ورغم تحسن علاقته بالبكر وكبار الضباط البعثيين، بعد استقالته من وزارة الداخلية، في ١٤ تشرين الثاني ١٩٦٤، الا أنهم لم يغفروا له أبداً مطاردته لفلولهم أيام كان وزيراً للداخلية.

ويعلق أمين هويدي، أحد مساعدي الرئيس جمال عبد الناصر، قائلاً: (لم ينس حزب البعث لرشيد مصلح هذا الموقف ابداً وبعد عودته إلى الحكم اعتقل رجال الحزب رشيد مصلح وتحت التعذيب اعترف الرجل بأنه خائن.. وكان الاعتراف على شاشات التلفزيون)[٣٥٠]. وقد كان اعترافه تحت التهديد باغتصاب زوجته وبناته أيضاً. وكان الذي يقوم بهذه الاستجوابات البشعة على الأثير هو محمد سعيد الصحاف، أحد رجالات

٣٤٩- سليم العراقي. لماذا قتلوه؟ ص٨٣. نقلاً عن صلاح الخرسان. حزب الدعوة الإسلامية. ص١٦٣.

٣٥٠- هويدي. المرجع السابق. ص١٤٧ (حاشية).

مكتب العلاقات العامة، ومدير عام الإذاعة والتلفزيون، والذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية ثم وزيراً للإعلام.

وقد ذكر مصلح في اعترافاته، السيد حسن الشيرازي، رجل الدين الذي نشر قصائد عديدة عامي ١٩٦٣ و١٩٦٤، تتهم عفلق بتخريب عقائد المسلمين خدمة للمستعمرين. وكان جلادو مكتب العلاقات العامة قد اعتقلوا الشيرازي قبل أيام من عرض اعترافات مصلح. وظل تحت التعذيب حتى إطلاق سراحه بعد عامين. حيث التجأ بعدها إلى سوريا ثم اغتاله النظام العراقي في ٣٠ نيسان ١٩٨٠ في لبنان.

ومع الاعدامات الفورية للمتهمين بالمؤامرة المزعومة في كانون الثاني ١٩٧٠، أعدم كل من اللواء مدحت الحاج سري، واللواء رشيد مصلح. وأصدر الحزب الشيوعي العراقي حينها، منفرداً من بين جميع القوى السياسية، بياناً يرحب فيه بتلك الاعدامات، خاصة إعدام (الجلاد العميل رشيد مصلح). ومما يثير الانتباه أن بعثياً منشقاً، لم يكن بعيداً عن أجواء التعامل مع جهات دولية في التسعينات، أشار في مذكراته وكأنه يتشفى برشيد مصلح بأنه أعدم بتهمة التجسس للمخابرات الأميركية[٣٥١].

أما السيد مهدي الحكيم والذي ورد ذكره في اعترافات مدحت الحاج سري، فهو الابن الثالث للمرجع الديني الأعلى السيد محسن الحكيم. ومما يذكر هنا، أن البكر في الأشهر الأولى للانقلاب، قد قام بعدة زيارات مفاجئة للإمام الحكيم في بيته بالنجف، مبدياً له الكثير من الود والاستعداد لسماع توجيهاته، ثم انقطعت زياراته تماما، ويبدو أنها كانت للخداع وكسب الوقت.

المفارقة أن السيد مهدي وقبل ساعات من اتهامه على شاشات التلفزيون، كان في زيارة للقصر الجمهوري للمطالبة بالرد على مذكرة سبق أن قدمها، (والتي يحتج بها على

٣٥١- الفكيكي. المرجع السابق. ص٣٤٨.

مجمل التصرفات ويدين النظام على أساسها ويقدم مقترحات محددة بشأنها[٣٥٢]. وقد قال له البكر أنهم سيردون عليه غداً وكان من الواضح أن النظام لم يكن بصدد اعتقاله.

كان السيد مهدي في بيته يستمع إلى اعترافات مدحت الحاج سري مذهولاً، وعندما ورد اسمه، قاد سيارته بنفسه من بغداد إلى النجف. ولم تقبض عليه نقطة التفتيش الموجودة على الطريق. ثم تسلل من النجف إلى السعودية، حيث كشف للسعوديين عن اسمه وهويته، طالباً أن يسمحوا له بالمغادرة إلى الأردن، لمقابلة خاله علي حسن بزي سفير لبنان هناك. والذي سهل بدوره انتقاله إلى باكستان[٣٥٣]. وأقام في البلد الأخير إلى عام ١٩٧١، غادر بعدها إلى دبي، ليقيم هناك مع طائفة شيعية صغيرة، غنية ومتنفذة، وقد منحه وعائلته، حاكم دبي الشيخ راشد آل مكتوم، جوازات إماراتية، ومنحه أرضاً وسط مدينة دبي، تزيد قيمتها آنذاك على خمسة ملايين دولار، الا أن السيد مهدي تبرع بها لإقامة أوقاف خيرية عليها.

وكانت مئات الألوف قد هتفت بحماس في تشييع والده، السيد محسن الحكيم، في حزيران ١٩٧٠، بشعارات تقول أن السيد مهدي ليس بجاسوس، وأن الذين اتهموه هم الجواسيس والخونة. ولأول مرة يتعقل النظام، وربما عن ضعف، فلم يتعرض للتشييع، ولم يعتقل أحد. وكان الاستثناء الوحيد على ذلك، المقالة التي كتبها صلاح عمر العلي بعد انتهاء المناسبة، في افتتاحية جريدة الثورة، والتي لام بها الجماهير على دفاعهم عن السيد مهدي الحكيم، وكرر الاتهامات السابقة. وبعد أيام من ذلك، طُرد صلاح من جميع مناصبه الحزبية والرسمية، وقيل وقتها، أن صدام حسين الموتور منه، اتهم

٣٥٢- السيد محمد باقر الحكيم. نظرية العمل السياسي عند الشهيد محمد باقر الصدر. مجلة المنهاج (لبنان) العدد ١٧ ربيع ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. ص٢٥٣.

٣٥٣- صلاح الخرسان. المرجع السابق. ص٧٨.

صلاح بأنه - وبدون علم الحزب - استفز المواطنين بمقالته ونكأ جروحاً لم يعد هناك ضرورة لها، وأنه لم يراع ظروف المرحلة. أما صلاح فله روايته المختلفة تماماً عن سبب إقالته[٣٥٤].

وفي عام ١٩٧٦، أرسلت الحكومة العراقية الشيخ أحمد السماوي، ليبلغ السيد مهدي، بأنهم اتهموه بالتجسس، ليضعفوا مركز والده، والآن وقد مات والده، وانتهى الغرض الذي قصدوه، بإمكانه العودة آمناً مطمئناً، فكان جواب السيد مهدي، ليعلنوا أولاً براءتي في الإذاعة والتلفزيون، من التهمة التي نسبوها لي.

الجدير بالذكر ان السيد مهدي الحكيم، وبعد خروجه من العراق نشط لفترة قصيرة، للإطاحة بالنظام بالتنسيق مع إيران، وجند شيوخ قبائل وسياسيين قدامى، مثل عبد الغني الراوي نائب رئيس وزراء أسبق، وسعد صالح جبر، وأحمد الجلبي رئيس المؤتمر الوطني فيما بعد. وعبد الرحمن الجبوري الذي أعدم فيما بعد في السبعينات، رغم العفو الصادر عنه، وحربي المزعل شيخ بني ركاب، وآخرين.

وتم تدريب أكثر من سبعين شخصاً على السلاح، في إحدى جزر الخليج الإيرانية، إلا أن الحكومة الإيرانية - ولسر ظل مجهولاً - أوقفت العملية فجأة، وألقت بالعناصر المتدربة على السلاح، بدون مال، على شواطئ الكويت سراً، ليتدبر كل واحد منهم أمره. وغادر زعماء العملية إيران إلى مواطن إقامتهم. واعتزل السيد مهدي أي نشاط سياسي بعدها. ولو أراد النظام اغتياله في دبي، لكان ذلك سهلاً.

ولما انتصرت الثورة الإسلامية في ايران، وحتى لا يحرج مضيفيه، وقد عزم العودة إلى النشاط السياسي، غادر السيد مهدي دبي، تاركاً عائلته فيها، إلى لندن. وكان موقف الثورة الإسلامية منه سلبياً جداً، لعلاقته السابقة مع الشاه.

وبعد أكثر من محاولتي اغتيال، وفي زيارته للسودان لحضور مؤتمر الجبهة القومية

٣٥٤- طالب الحسن. المرجع السابق. ص١٥٧-١٥٨.

الإسلامية، وعند عودته من زيارة رئيسها، حسن الترابي في بيته، اغتيل يوم ١٩٨٨/١/١٧ في الفندق بالخرطوم. وفر القاتل بسيارة دبلوماسية عراقية. وقد دفن جثمانه في قم. أما الشيخ أحمد السماوي، الذي كان يوماً رسول الحكومة إليه، فقد اختفت آثاره نهائياً عام ١٩٧٩ وكان عائداً من بغداد إلى السماوة.

❖ ❖ ❖

كانت سنة ١٩٧٠ سنة انتصارات للنظام، إذ اختفت من الوجود وجوه وأخطار كثيرة، كانت تهدد النظام وتقلقه أو تنافسه.

ففي بداية السنة، وتحديداً في ٢٢ كانون الثاني، أعلن عن مؤامرة مزعومة. وقبل الكلام عن هذه المؤامرة، فإن السؤال الذي يطرح نفسه، هل إن النظام لم يواجه أية مؤامرات؟ أو بالأحرى هل ان كل ما أعلنه النظام من مؤامرات ليس صحيحاً؟

ان النظام العراقي، لا ينتمي إلى الأنظمة الاستبدادية المألوفة بأشكال مختلفة، في أغلب دول العالم الثالث. فهو من الأنظمة التوتاليتارية النادرة في التاريخ الحديث، كنظامي هتلر وموسوليني أي أنظمة الفاشية (الحكم المطلق أو الشمولي).

فالنظام الاستبدادي.. هو النظام التسلطي والمحتكر للسلطة والثروة والنفوذ والامتيازات ولكنه لا يتدخل قسرياً في تفاصيل الحياة اليومية للناس ولا يجبرهم على تنفيذ وصاياه ومبادئه الأيديولوجية كنصوص مقدسة. أما النظام الشمولي (توتاليتران..) فهو نظام دكتاتوري تمامي يحتكر التقرير في كل شيء[٣٥٥]. حيث (كل شيء في الدولة، ولا شيء ضد الدولة أو خارجها)[٣٥٦]. كما يقول موسوليني.

٣٥٥- علاء اللامي. وثائق المؤتمر الوطني السابع للحزب الشيوعي العراقي. السفير. العدد ٩٠٢٨ بتاريخ ٢٠٠١/١٠/١٣. ص١٩.

٣٥٦- سامي ذيبان وآخرون. المرجع السابق. ص١٦٧.

وإذا كان هناك في أوروبا من اعتقد (ان الفاشية هي ظاهرة مدينية أساساً، وذلك على عكس أغلبية أيديولوجي «التوتاليتارية».. والذين يرون أن الفاشية هي ظاهرة «فلاحية» أصلاً)[٣٥٧]، ففي العراق، ومع التشديد على طابعها العشائري - الطائفي - المناطقي، فإنها ظاهرة فلاحية خالصة، وجدت امتدادها في (البروليتاريا الرثة)، والذين هم نفايات الريف ونفايات المدن في الوقت نفسه. وقد تناولنا بعض الملامح الريفية لهذه الفاشية في العراق في الفصل السابق.

❖ ❖ ❖

زج النظام في مؤامرة (كانون الثاني ١٩٧٠) بأسماء متناقضة، وربطت كالعادة بإيران، والمخابرات الأميركية. ومن أبرز تلك الأسماء العقيد القومي النزيه جابر حسن حداد محافظ كربلاء الأسبق. والذي كان والعقيد عبد الهادي الراوي، على رأس كتلة عسكرية قومية، نشطت في بداية الستينات للإطاحة بالزعيم عبد الكريم قاسم[٣٥٨]. والعميد محمد فرج السامرائي، والمهندس عبد الغني شندالة، واللذان يتزعمان جناحاً من (الأخوان المسلمين) يؤمن بالثورة لإقامة حكومة إسلامية[٣٥٩].

ومن تلك الأسماء راهي ابن الشيخ عبد الواحد سكر، أحد أبطال ثورة العشرين، الذي قال عنه رشيد عالي الكيلاني (كان رجلاً عظيماً، وكان وطنياً متطرفاً)[٣٦٠]. ويسميه الشهيد صلاح الدين الصباغ (البطل العربي الأبي) ويقول عنه (أعلن الحاج

٣٥٧- مجموعة من الكتاب. دراسات في الفاشية. ترجمة جوزيف سماحة. الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٨. ص٢٢٦.

٣٥٨- هويدي. المرجع السابق. ص٢٨.

٣٥٩- راجع السعيد. المرجع السابق. ص٢٤٦-٢٤٧.

٣٦٠-إسماعيل ياغي. حركة رشيد عالي الكيلاني. ص١٠٥.

عبد الواحد صقر (سكر) احتجاجه الثائر على المهازل التي يمثلها المتزعمون بقوة الإنكليز)[٣٦١]. وقد دفع الشيخ راهي حياته، ثمناً لموقفه الشجاع قبل أشهر مع البكر، إذ قال له: (نحن نموت من أجل كرامتنا) فذكرهم بثورات أبيه التي أشار الصباغ لها قبل قليل، فعاجلوه بزج اسمه في المؤامرة.

وهكذا فهناك سبب خاص بكل اسم زج في المؤامرة، فصفوك ريكان، النائب ضابط في استخبارات محافظة الأنبار، كان نشطاً في ملاحقة البعثيين بعد انقلاب عبد السلام عليهم. ومحمد جعفر النميري، وسلمان التميمي، وحسن الخفاف، وآخرون، كانوا من جماعة السيد مهدي الحكيم.

وفي كل مؤامرة معلنة، بعد انقلاب ١٧ تموز، لا نجد سوى بيانات رسمية غامضة، مليئة بالشعارات. أي لا توجد أبداً رواية رسمية كاملة. وحاول برزان التكريتي أن يخرج على الناس بروايته لتلك المؤامرات، فكانت محاولة بائسة بحيث لا يمكن للمرء أن يعتمد عليها في توثيق الأحداث الا قليلاً.

ولأنه لم يكن هناك شيء ليرويه لنا، تفتق ذهن برزان، أو من كتب الكتاب، عن رواية جديدة ولكنها أيضا مهلهلة وغير منطقية. إذ تقول الرواية الجديدة، بأن المخابرات العراقية، شكلت في الثالث والعشرين من أيلول عام ١٩٦٨ تنظيماً معارضاً وهمياً باسم (جبهة الوفاق الوطني) لاصطياد المعارضين للحكم[٣٦٢]. وهكذا تستمر الرواية ويزج فيها بكل اسم يتداعى في ذهنه، حتى من لم يرد اسمه في الرواية الأصلية للمؤامرة. وينسى التدقيق في التواريخ المعلنة، ويقول: (وسيكون لمهدي الحكيم الموجود في طهران دور في العمل والتنسيق مع تنظيم الجبهة كما أبلغه داود طاهري السكرتير الثالث في السفارة الإيرانية ببغداد. في اجتماع ١٩٦٩/٤/٣٠)[٣٦٣]. وكان السيد مهدي في هذا

٣٦١- مذكرات الصباغ. المرجع السابق. ص٩٢.

٣٦٢- راجع برزان التكريتي. المرجع السابق. ص٥٢ و ٥٣ و ٦٢.

٣٦٣- المرجع السابق. ص٧٠.

التاريخ ببغداد وكان وضعه مع النظام طبيعياً، ناهيك أنه من الذين لم يرد اسمهم في الرواية الأصلية للمؤامرة.

لقد أصيب الناس بالرعب مما جرى في تلك الأيام الثلاثة. إذ شكلت محكمة خاصة برئاسة الجزراوي. وكان المتهمون يقادون من بيوتهم، وبملابس نومهم، إلى المحكمة، ليبلغوا بأحكام الإعدام الجاهزة بحقهم، بعد أن يوجه لهم أعضاء المحكمة سيلاً من الشتائم والكلمات البذيئة.

❖ ❖ ❖

وفي ١١ آذار ١٩٧٠، أعلن البكر في بيان رسمي الاعتراف بالحقوق القومية للأكراد، والذي لم يكن - في الحقيقة - سوى هدنة ستستمر لأربع سنوات بين النظام والحركة الكردية المسلحة. وسنعود للحديث عن (القضية الكردية) في فصل قادم. ولكن ثمة سؤال يطرح نفسه هنا، فالمعروف أن صراعاً شرساً كان يدور بين نظام الشاه ونظام ١٧ تموز، وقد أعلن في بغداد - قبل أقل من شهرين - عن اكتشاف مؤامرة إيرانية أميركية خطيرة. فكيف تم الاتفاق بين النظام والحركة الكردية المسلحة، المدعومة من الشاه آنذاك، والذي ما إن تخلى عنها عام ١٩٧٥ حتى انهارت خلال يومين؟

ان المرء إذ لا يملك جواباً جاهزاً، فإنه يتلمس الجواب في الصورة التي يراها أمامه يومذاك. والتي تضم مشهدين، الأول صراع مع شاه إيران، يتحجج النظام به حتى لا يكون له أي دور حقيقي في الجبهة الشرقية ضد إسرائيل[٣٦٤]. والثاني، هدنة مع الحركة الكردية، المدعومة من إيران، لكي يثبت أقدامه وينتهي من ذبح معارضيه.

ان الأحداث الأخرى، التي جرت سنة ١٩٧٠، توضح الصورة تماماً. (ففي أيلول

٣٦٤- راجع مذكرات، الفريق سعد الدين الشاذلي. المرجع السابق. ص٢٨٨-٢٨٩ و ٣٠٤ - ٣٠٥.

(سبتمبر) ١٩٧٠ وعدوا علناً بوضع قواتهم الموجودة في الأردن إلى جانب المقاومة الفلسطينية في حال وقوع الصدام مع جيش الملك حسين. ولكن كل هذا التصلب كان تصلباً كلامياً أكثر منه عملياً، وبينما كانوا يثيرون الكثير من الضجيج ضد (الحل السلمي) لم يسمحوا لقواتهم في الجبهة الشرقية بأن تفعل أكثر من إطلاق صليات متفرقة من المدفعية بين الحين والآخر، وعندما وقع الصدام المتوقع أمروا قواتهم بعدم التدخل)[٣٦٥].

ويكون الموقف الأخير مبرراً (نظراً لتهديدات الحكومة الأميركية والضغط الدبلوماسي للاتحاد السوفييتي، والضعف العسكري العراقي)[٣٦٦]. لولا التحريض المتواصل والحماسي الذي دفع به النظام المقاومة لحسم الأمور، بل وتبين فيما بعد، أنهم في الوقت الذي تعهدوا فيه للمقاومة الفلسطينية بالقتال إلى جانبها كانوا قد تعهدوا للملك حسين بعدم التدخل عندما يقع القتال. وهكذا حينما احتدم القتال، (أفلت عرفات بصعوبة من الأسر، أما أبو أياد وقائد بارز آخر من قادة فتح وهو أبو اللطف (فاروق القدومي).. فتم إلقاء القبض عليهما واعتقالهما. ولهدم معنوياتهما، فقد جعلهما معتقلوهما ينصتان لمكالمة تليفونية بين الملك حسين والجنرال التكريتي أكد فيها القائد العراقي أنه وفقاً لاتفاقهم المسبق فان القوات العراقية لن تتدخل..)[٣٦٧].

والأغرب من ذلك، أن إذاعة (صوت فلسطين) من بغداد، وبعد مذبحة أيلول مباشرة كانت تهاجم قيادة الثورة الفلسطينية، متهمة إياها بالجبن في المعركة، ومدينة اتفاقها على وقف إطلاق النار مع الملك حسين[٣٦٨].

٣٦٥- بطاطو. العراق. الكتاب الثالث. ص٤١١.

٣٦٦- المرجع السابق. ص٤١١.

٣٦٧- باتريك سيل. المرجع السابق. ص١١٨.

٣٦٨- المرجع السابق. ص١١٨.

(وقدر الملك حسين بدوره هذا العمل فعرض مساعيه الحميدة على إيران والعراق لحل نزاعهما على الحدود.. وكان للجهود الأردنية لتأييد العراق في المحافل الدولية ما حمل العراق على التعاون مع الأردن في المجالات الاقتصادية والثقافية)[٣٦٩]. وبقية القصة معروفة.

ومات الرئيس جمال عبد الناصر، في ٢٨ أيلول، وفي اللحظة التي مات فيها، كانت إذاعة بغداد، تبث حلقة من مسلسل يومي يشتمه ويسميه بأبي رغال. فقد اعتبر النظام منذ البداية، عبد الناصر والنظام اليساري في سوريا، هم أعداءه الرئيسيين، فحاول باستمرار تصعيد الخلاف معهم في وقت كانت فيه حرب الاستنزاف تتصاعد على قناة السويس، وكانت الجبهة الشرقية بحاجة لمساهمة عراقية اكبر واكثر جدية. وبدلاً من تطبيق شعاره (كل شيء من أجل المعركة) جند النظام الكثير من الجهود والأموال، لمحاربة الرئيس عبد الناصر، محرضاً العديد من مجلات وصحف بيروت لتهاجمه، حتى أن أحدها وبدون حياء، صدرت وعلى غلافها عنوان عريض (عبد الناصر عميل أميركي)[٣٧٠].

وقد أشارت الصحافة العربية والأجنبية، منذ البداية: (أن الخاسر الوحيد في انقلاب العراق هو الرئيس جمال عبد الناصر.. وإسرائيل هي المنتفع الوحيد، في هذه العملية، دون شك، وان عدم الاستقرار في بلدان الشرق الأوسط يقوي مركز إسرائيل ويزيدها جشعاً)[٣٧١].

ويبدو هذا التصور دقيقاً جداً، إذا أعدنا قراءة بن غوريون، وهو يرسم استراتيجية إسرائيل في مواجهة العرب – في ٢٩ مايو ١٩٤٩– إذ يقول: (يجب منع مصر من إقامة

٣٦٩– د. خدوري. العراق الاشتراكي. ص٢٧٢.

٣٧٠– مجلة الدستور. الموالية للعراق. وكان يرأس تحريرها (علي بلوط).

٣٧١– راجع السعيد. المرجع السابق. ص٣٩٨.

أي تحالفات مع بقية العالم العربي قفزاً فوق إسرائيل، خصوصاً في سوريا بالذات، ثم مع السعودية والعراق. وهذه مسألة مهمة)[٣٧٢]. وفيما بعد رأى بن غوريون - في عام ١٩٦٣- الرئيس عبد الناصر مرهقاً ومتعباً ومحبطاً لأنه (يواجه عداء أهم حركتين منظمتين في العالم العربي: حزب البعث في سوريا والعراق والأردن. وحزب الإخوان المسلمين في عقر داره في مصر)[٣٧٣].

وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٠، سقط العدو الرئيسي الآخر لنظام ١٧ تموز، فقد انتهى الصراع المزمن في سوريا، بسيطرة الفريق حافظ الأسد وزير الدفاع واعتقال (صلاح جديد) ومجموعته اليسارية. والذين على أية حال، رفعوا شعارات ثورية، كانت أكبر من قدراتهم، فأضرت بهم وبسوريا وبالأمة العربية. وظل صدام لفترة طويلة، يسخر منهم قائلاً: (عندما سقط دعاة حرب التحرير الشعبية لم تنطلق رصاصة واحدة في سماء دمشق).

٣٧٢- محمد حسنين هيكل. سياحة صيف في الوثائق الإسرائيلية. جريدة السفير. العدد ٨٧١٨، في ٣٠/أيلول/٢٠٠٢، ص١٦، ١٥، ١٤.

٣٧٣- المرجع السابق نفسه.

الفصل الخامس

الجبال الدامية

(القتال أفضل من الكسل)

مثل كردي

عندما قيل للرئيس عبد الرحمن عارف، أنه يمكن تحريض الأكراد ضد بعضهم، وتصعيد الاقتتال بينهم - وكانت الحركة الكردية تعاني من انشقاق خطير - أجاب: (هذا حرام، حيث أن الكل مسلمون ولا يجوز أن تسفك الدماء بينهم، ونحن لا نشجع هذا)[٣٧٤]. بينما لم يتردد البرزاني والذي كانت علاقته والحركة الكردية بالرئيس عارف والحكومة العراقية على احسن ما يكون، بالقيام - في ١٥/٤/ ١٩٦٨- بأول زيارة سرية لإسرائيل. فقيادة الحركة الكردية لم تتردد يوماً في التعاون مع إسرائيل.

لقد اخطأ البرزاني - بعلاقته مع إسرائيل - بحق الجميع. وتحديداً بحق الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان متعاطفاً مع القضية الكردية [٣٧٥]، وسمح لهم بفتح مكتب في القاهرة. وبحق القوى السياسية العراقية، التي كانت تحترمه وتتعاطف معه، وعلماء النجف الذين حرموا قتال الأكراد، واليسار العربي الذي تعاطف مع القضية الكردية وساندها، وخاصة الحزب الشيوعي العراقي الذي قاتل معه. فقد شارك الشيوعيون في

٣٧٤- محاضرة للدكتور محمود عثمان، صحيفة الحياة، العدد ١١٥٦٩، في ٢١/١٠/١٩٩٤، نقلاً عن صلاح الخرسان. التيارات السياسية في كردستان العراق. بيروت. ٢٠٠١ ص١٤٦-١٤٧.

٣٧٥- الوسط. العدد ٢٩٩ في ٢٠/١٠/١٩٩٧ محمود عثمان يروي.. ص٢٤.

الهجوم على سد دوكان، دون أن يعلموا أنها من عمليات الموساد في العراق[٣٧٦]. وأطلق الشيوعيون على مؤتمرهم الثاني سنة ١٩٧٠ (اسم مؤتمر هندرين وهو اسم معركة لعب فيها الأنصار الشيوعيون دوراً بارزاً في الستينات)[٣٧٧]. أي المعركة التي يدعي الإسرائيليون أنهم قادوها[٣٧٨].

وسبق للبرزاني أن اخطأ مع الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي قرر إعادته إلى العراق، حيث (استقبل في المطار استقبالاً فاق كل تصور)[٣٧٩]. وخصص له ولأقاربه وجماعته رواتب كبيرة جداً. (واستجاب قاسم أيضاً لطلب الملا بتسليح أتباعه)[٣٨٠]. يقول جلال الطالباني: (الحقيقة أننا نتحمل مسؤولية ما وقع بيننا وبين عبد الكريم قاسم)[٣٨١]. ولمسعود البرزاني نجل الملا مصطفى والرئيس الحالي للحزب الديمقراطي الكردستاني رأي مماثل اذ يقول عن الزعيم قاسم: (فمهما يقال عن هذا الرجل فإنه كان قائداً فذاً له فضل كبير يجب أن لا ننساه نحن الكورد أبداً. لا شك أنه كان منحازاً إلى طبقة الفقراء والكادحين وكان يكن كل الحب والتقدير للشعب الكوردي)[٣٨٢].

لقد حاول الزعيم عبد الكريم قاسم أن يقيم دولة عراقية عربية -كردية. حتى أنه جعل نصف كل من العلم والشعار الوطنيين رموزاً كردية. وكان لا يكف عن الحديث عن القوميات المتآخية في (الجمهورية العراقية الخالدة). فخسر القوى القومية العربية، ولم

٣٧٦- شلومو نكديمون. المصدر السابق. ص٢٣٦.

٣٧٧- د. عجيبنة. المرجع السابق. ص١٠٢.

٣٧٨- مجلة الوسط. العدد ٢٩٨ في ١٣/١٠/١٩٩٧.

٣٧٩- العميد المتقاعد خليل إبراهيم حسين. ثورة الشواف في الموصل ١٩٥٩. بغداد١٩٨٧. الجزء الاول. ص١٩١.

٣٨٠- المرجع السابق. ص١٩٤.

٣٨١- مجلة الوسط. العدد (٣٥٧) في ٣٠/١١/١٩٩٨. نقلاً عن الخرسان. المرجع السابق. ص٩٧.

٣٨٢- صحيفة خبات. العدد٧٩١، في ١٩/٧/١٩٩٦. نقلاً عن الخرسان. المرجع السابق. ص٩٧.

يربح القوى القومية الكردية، لقد خسرهما معاً. ولازالت الذاكرة القومية الكردية تعتبر حكم الزعيم قاسم رمزاً لمحاولات الصهر القومي، فيما تعتبره الذاكرة القومية العربية وبغير حق شعوبياً وعدواً للقومية العربية.

ووجه الزعيم عبد الكريم قاسم للحركة الكردية (ضربات ذات طابع تأديبي ليس أكثر، ولم يخض ضدهم حرباً)[٣٨٣]. و(سمى الملا مصطفى البرزاني «ناكر الجميل» وغير ذلك)[٣٨٤]. أما الذين جاؤوا بعده فأطّروا القتال (بمفاهيم أيديولوجية عنصرية)[٣٨٥].

كانت اللعبة الدولية في المنطقة بعد سقوط قاسم، والتي على المرء ألا يغفلها لحظة، تلعب ومن خلال الشاه بالحكومة العراقية والحركة الكردية معاً. فقد قال مسؤول رفيع المستوى في نظام الشاه: (نحن نرغب في استمرار لهيب التمرد الكردي شريطة ألا يتحول هذا اللهيب إلى حريق كبير)[٣٨٦]. وكانت العلاقة الرسمية بين حكومة الشاه والحزب الديمقراطي الكردستاني قد بدأت عن طريق السفارة الإيرانية ببغداد عام ١٩٦٠ [٣٨٧]. ومن الجانب الآخر، يقول وزير خارجية الحكم البعثي الأول عام ١٩٦٣: (أما ما قيل عن اتصالنا بحلف السنتو فهو أمر غير صحيح ومستحيل، لأننا لم نكن بحاجة لإحيائه ولم يكن الإيرانيون والأتراك يرغبون بذلك، لأن التنسيق القائم بيننا يؤدي عملياً نفس الهدف دون العودة إلى اسم لا يحبه شعبنا ولا نرغب به)[٣٨٨].

ولنبدأ قصة التعاون مع إسرائيل من أولها، فقد تساءل بن غوروين رئيس وزراء

٣٨٣- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٦٦.

٣٨٤- المرجع السابق. ص٢٦٦.

٣٨٥- المرجع السابق. ص٢٦٦.

٣٨٦- شلومو نكديمون، المرجع السابق. ص٩٤.

٣٨٧- الخرسان. المرجع السابق. ص١٢٥.

٣٨٨- د. علي كريم. المرجع السابق. ص٢٥٩. وراجع أيضا. فرحان. المرجع السابق. ص١٥٨.

العدو، في اجتماع لمجلس الوزراء، في ٢٩ مايو ١٩٤٩ قائلاً: (هل نستطيع إقامة علاقات مع الأكراد في العراق وإيران وتركيا؟ هل نستطيع إقامة علاقات منظمة مع (الموارنة) في لبنان؟ لا أتحدث عن علاقات مع أفراد من هنا وهناك ولكن مع كتل دائمة وحاضرة باستمرار، هل نستطيع مع الدروز خصوصاً وهناك قسم كبير منهم تحت سلطة الدولة الآن؟ هل نستطيع مع العلويين في سوريا؟ فكرت أيضاً في أقباط مصر لكنهم حالة ميؤوس منها لأن حرصهم على حياتهم المشتركة مع المسلمين في مصر طغى عندهم على أي اعتبار آخر)[٣٨٩].

وهكذا فيما يتعلق بالأكراد بدأت إسرائيل ومنذ الأربعينات نشاطاً محموماً لاختراق الأوساط الكردية. أما الحركة الكردية المعاصرة، فهناك معلومات تدل على أن علاقتهم مع البرزاني قد بدأت عام ١٩٥٩[٣٩٠]. أو (منذ مطلع العقد الستيني عن طريق كامران بدرخان أولاً وآخرين مثل عصمت شريف فانلي وصحفيين أجانب ثانياً)[٣٩١]. حسب رواية الدكتور محمود عثمان. وكامران بدرخان هذا، (دكتوراه في القانون وأستاذ في السوربون). يرتبط منذ الأربعينات بصلات قوية بالكيان الصهيوني، وقد زار بغداد عدة مرات للالتقاء بالبرزاني بعد عودته للعراق بتكليف من الموساد[٣٩٢].

وكما مر معنا، وفي العام ١٩٦٦، (أسهم الموساد في تأسيس جهاز الاستخبارات الكردية الذي حمل اسم «باراستن»)[٣٩٣]. وكان الموساد يتابع الطلبة الأكراد الدارسين في أوروبا وغيرها، ويحاول (اختيار الأشخاص المؤيدين للبرزاني وللتمرد وأهدافه،

٣٨٩- محمد حسنين هيكل. سياحة صيف في الوثائق الإسرائيلية. صحيفة السفير. العدد ٨٧٨١ في٢٠٠٠/٩/٣٠.ص١٤.

٣٩٠- نكديمون. المرجع السابق. ص٦٢.

٣٩١- الوسط. العدد ٢٩٨ في ١٩٩٧/١٠/١٣.

٣٩٢- الخرسان. المرجع السابق. ص١٥٣-١٥٤ و١٦٥.

٣٩٣- راندل. المرجع السابق. ص٢٥٣.

وتأهيلهم لوظائف رئيسية)[٣٩٤]. أي أنهم حاولوا تجنيدهم. (وكان الإسرائيليون يريدون معلومات عن كل العرب)[٣٩٥] أي عن كل الدول العربية. يقول الدكتور محمود عثمان: (أن أهم سر لم ينشروه حتى الآن موضوع إلحاحهم علينا في مساعدتهم ضد الفلسطينيين، وكذلك تفاصيل تبادل المعلومات الاستخبارية بين الأكراد والإسرائيليين.. والجواب على كل هذه الأسئلة لدى الإسرائيليين أنفسهم)[٣٩٦].

وبالإضافة إلى محطة الموساد الدائمة لدى الحركة الكردية، قام رؤساء الموساد وكبار ضباطه والكثير من قادة جيش العدو بزيارة المنطقة الكردية. (وكان المستشارون الإسرائيليون يدفعون الأكراد للعمل، وحينما لم يجد حثهم، طرحوا بينهم وبين أنفسهم أفكاراً شتى، ومن ضمنها العمل على إثارة العراقيين وتحريضهم بصورة تجعلهم يوجهون ضربات إلى الأكراد، وبالتالي اضطرار الأكراد للرد عليهم)[٣٩٧].

وعموماً فقد جرى تخطيط أغلب معارك الحركة الكردية الكبرى في إسرائيل[٣٩٨]. كما يروي الكتاب الإسرائيلي (الموساد في العراق ودول الجوار)، والذي يقول عنه القائد الكردي محمود عثمان بأن (معظم ما ورد فيه صحيح)[٣٩٩].

وحينما (عقد رئيس الحكومة ليفي أشكول اجتماعاً في الخامس عشر من نيسان ١٩٦٥، حضره وزيرة الخارجية جولدا مائير، ورئيس الأركان اسحق رابين ورئيس الموساد.. وخلص المؤتمرون إلى قرار نص على ضرورة منح الأولوية للقضية الكردية[٤٠٠]، كانت

٣٩٤- نكديمون. المرجع السابق. ص١٨٥.

٣٩٥- الوسط. العدد٢٩٩. في١٩٩٧/١٠/٢٠ (الدكتور محمود عثمان يروي..) ص٢٤-٢٥.

٣٩٦- المرجع السابق. ص٢٧.

٣٩٧- نكديمون. المرجع السابق. ص٢١٥.

٣٩٨- راجع مثلاً، المرجع السابق. ص٢٥٨، ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٣، ٢٢٠، ٢٠٧، ٢٠٥، ٢٠٣.

٣٩٩- الوسط. العدد ٢٩٩، في ١٩٩٧/١٠/٢٠ (الدكتور محمود عثمان يروي...).

٤٠٠- نكديمون. المرجع السابق. ص١١٦.

أجهزة المخابرات الإسرائيلية قد تبنت الرأي الذي يقول: (يستحيل هزيمة الأكراد، بيد أن الأكراد أيضا، غير مؤهلين لهزيمة أعدائهم)[٤٠١]. ويبدو أن هذا ما تريده إسرائيل تماماً.

إذ يقول عزرا وايزمان نائب رئيس العمليات عام ١٩٦٦ ورئيس إسرائيل فيما بعد: (ان مصلحة إسرائيل كانت تقتضي أن يكون لدينا صديق في مؤخرة العراقيين يقض مضاجعهم ويثبت قواتهم بعيداً عن إسرائيل)[٤٠٢]. وعندما ودع مائير عميت رئيس الموساد قائد سلاح المظلات أهارون ديفيدي، والذي كان في طريقه إلى الحركة الكردية، لقيادة عملية (أناناس) والتي تهدف لتوجيه ضربة قاصمة للقوات العراقية في راوندوز، قال له: (لقد خدمت حتى الآن في غور الأردن التي هددتها دائماً قوات عراقية والآن أنت تنتقل إلى منطقة جديدة، يتم فيها إشغال لواء عراقي كي لا يهدد غور الأردن[٤٠٣]. ثم أعطاه التوجيهات الأخيرة: (يجب أن تكون العملية كبيرة وواسعة النطاق، لطرد العراقيين من شمال أربيل والزوزك إلى ما بعد راوندوز وجلي علي بك)[٤٠٤].

الملفت للانتباه، أن هناك إشارات كثيرة تدل على احتقار الإسرائيليين للأكراد. فعندما رفض البرزاني التخلي عن مسدسه، عند زيارته للرئيس الإسرائيلي (حاول لبكوب تبرير هذا الموقف بالقول: هل شاهدتم كلباً يتخلى عن ذنبه؟)[٤٠٥]. ومرة (بعث المستشارون الإسرائيليون إلى إسرائيل رسالة قالوا فيها: كما يبدو أن الأكراد لا يرون أبعد من الجبل القائم أمامهم)[٤٠٦]. ويصف العبادي (ضابط مظلي احتياط يعمل مع

٤٠١- المرجع السابق. ص١١٠.
٤٠٢- المرجع السابق. ص١٥٧.
٤٠٣- المرجع السابق. ص١٩٨.
٤٠٤- المرجع السابق. ص٢٠٧.
٤٠٥- المرجع السابق. ص٢٠٢.
٤٠٦- المرجع السابق. ص١٧٩.

الموساد لدى الحركة الكردية) مقاتلين أكراد بما مفاده: (ان المجموعة لن تنجح في أداء مهمتها الا إذا كان العمل لا يحتاج إلى تفكير أو تدبير)[٤٠٧].

ويقول تقرير إسرائيلي سري: (لا علاقة البتة بين القضية الكردية ووزن الأمة الكردية، وإقامة كردستان هي نبوءة غامضة جداً، ودون أي أسس سياسية واقتصادية معقولة)[٤٠٨]. وكتب مستشرق إسرائيلي: (لا يجب علينا أن نتسرع بإطلاق مصطلح شعب على الأكراد)[٤٠٩].

إن التعاون بين الحركة الكردية والموساد ورغم دلائله الكثيرة، لم ينكشف للحكومة العراقية وللعرب عموماً، إلا بعد انهيار الحركة الكردية عام ١٩٧٥، بسبب استبعاد العرب تماماً، أن يقيم أشقاؤهم الأكراد والملا مصطفى البرزاني تحديداً - والذي لا يكف عن الاستشهاد بالآيات القرآنية عندما يلتقي عرباً أو غيرهم من المسلمين - أية علاقة مع إسرائيل، وقبل هذا وبعد هذا، كانت هناك الغفلة العربية العامة والمدمرة.

الحركة الكردية وانقلاب ١٩٦٨:

أبلغ البعث العفلقي الحركة الكردية وجناحها الآخر المنشق عنها، والمتحالف مع الحكومة أي جلال الطالباني، بانقلابه القادم، بل وكلف الأخير بتبليغ الشيوعيين أيضاً[٤١٠].

وبعد فترة قصيرة من الانقلاب، تجددت الاشتباكات بين الحكومة والحركة الكردية، وقد قرر الإسرائيليون هذه المرة مهاجمة المنشآت النفطية، والتي كانت الحركة الكردية

٤٠٧- المرجع السابق. ص٢٢٢.

٤٠٨- المرجع السابق. ص٥٤.

٤٠٩- المرجع السابق. ص١٠٥.

٤١٠- الخرسان. المرجع السابق. ص١٦٩-١٧٠.

تحجم عن مهاجمتها لقاء (مبالغ طائلة من شركة النفط العراقية)[٤١١].

وهناك في إسرائيل (وفي السادس من كانون الأول ١٩٦٨، تمت مناقشة الخطة خلال الجلسة الأسبوعية لهيئة وزير الدفاع.. وكان من الواضح أن من المستحيل تنفيذ هذه العملية بدون موافقة الإيرانيين، وبناء على ذلك توجه رئيس الموساد.. إلى طهران وشرعوا في مناقشة القضية.. وافقوا.. وفي العشرين من كانون الاول طرحت القضية مرة أخرى في مكتب وزير الدفاع ثم ناقشها مع رئيس الموساد، وحدد الهدف من العملية بإلحاق أكبر قدر من الأضرار بالمنشأة النفطية العراقية.. وفي الأول من آذار ١٩٦٩ نقلت وسائل الإعلام نبأ قصف المنشآت النفطية في كركوك)[٤١٢]. كان الاسم الإسرائيلي للعملية هو ألكسندر.

ونفذ الموساد عن طريق الحركة الكردية مهمات أخرى مثل الهجوم على مراكز الشرطة، قطع الكهرباء، نصب كمائن، تفجير جسر[٤١٣]. (وعندما اتضح لوزير الدفاع موشيه ديان ولرئيس الأركان بارليف أن الوضع في كردستان بحاجة إلى هزة عنيفة، قررا إرسال قائد سلاح المظلات والمشاة رفائيل ايتان إلى هناك)[٤١٤]. وفي نهاية عام ١٩٦٩، أنشأ الإسرائيليون محطة بث حديثة أطلق عليها اسم صوت الثورة[٤١٥].

ولأن (موازين القوى ظلت على حالها في سوح القتال)[٤١٦]. فقد عاد الطرفان - أي الحكومة العراقية والحركة الكردية - لمفاوضات شاقة صاحبتها الكثير من المناورات. و(بعث البرزاني إلى إسرائيل تقريراً حول المفاوضات.. وقال توقعاتي من الاتفاق ليست

٤١١- نكديمون. المرجع السابق. ص١٠٢.

٤١٢- المرجع السابق. ص٢٢٠-٢٢٣.

٤١٣- المرجع السابق. ص٢٣٣-٢٣٤.

٤١٤- المرجع السابق. ص٢٣٧.

٤١٥- المرجع السابق. ص٢٤١.

٤١٦- الخرسان. المرجع السابق. ص١٧٣.

كبيرة، ولا أشعر بالسعادة منه)[٤١٧]. وفي مساء ١١ آذار ١٩٧٠ أعلن البكر الاتفاق مع البرزاني على سلسلة من الإجراءات من اجل تمكين الجماهير الكردية من ممارسة حقوقها المشروعة، وصولاً إلى توحيد المحافظات والوحدات الإدارية التي تقطنها كثرة كردية ضماناً لتمتعها بالحكم الذاتي.

وشاع بعد ذلك الحديث عن (الحزبين الحليفين) أي البعث والديمقراطي الكردستاني. وأغدقت الحكومة على الحركة الكردية الامتيازات والمناصب وخصصت رواتب شهرية لأفراد البيش مركة كحرس حدود، ورواتب تقاعدية لعوائل الذين قتلوا منهم. واشتُرط إعادة الإذاعة والأسلحة الثقيلة إلى الحكومة بتنفيذ المراحل النهائية من الاتفاق.

إن هناك تشابهاً كبيراً بين قيادة إنقلاب ١٧ تموز وقيادة الحركة الكردية، حتى في طريقة التفكير وسوء التقدير، حتى أن كلا منهما يكاد يكون نسخة من الآخر. فكلاهما (يقود ثورة حديثة بأساليب زعيم عشيرة)[٤١٨]. حسبما وصف صحفي إنكليزي الملا مصطفى البرزاني.

فكما حول البكر - صدام حزب البعث إلى واجهة لحكمهما العشائري، بحيث أصبح (مكتب العلاقات العامة) هو المهيمن على الدولة. كذلك بالنسبة للديمقراطي الكردستاني (أخذ مقر البارزاني عن طريق جهاز الباراستن والنفوذ الشخصي يدس بعناصر موالية له في صفوف الحزب وذلك لإضعافه)[٤١٩]. وكما ان صدام وأبناءه هم فوق الحزب والدولة (كان شخص البرزاني وأبنائه لا يخضعون لأي تنظيم أو أية محاسبة)[٤٢٠]. ومع الفارق الكبير في عدد الضحايا، فان البرزاني وأبناءه لا يقلون

٤١٧- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٤٥.

٤١٨- مير بصري. أعلام الكرد. لندن ١٩٩١. ص٤٧.

٤١٩- الحزب الديمقراطي الكردستاني (اللجنة التحضيرية). تقييم مسيرة الثورة وانهيارها. ١٩٩٧. ص١٧-١٨.

٤٢٠- المرجع السابق ص١٠١. وراجع أيضا. ص٥٨.

قسوة مع الآخرين[٤٢١]. ويقال (فر أحد زعماء الأكراد الإيرانيين إلى.. البرزاني.. وقد طالبت إيران بإعادته.. وقرر حل هذه المشكلة بأسلوب فظيع للغاية، حيث أمر بإعدام الهارب وتسليم جثته للإيرانيين)[٤٢٢]. وقُتل قائد الجناح اليساري للحزب الديمقراطي الكردستاني (التركي) (بأمر من قيادة البرزاني في منطقة بالك مع بعض رفاقه)[٤٢٣]. كما قُتل قائد الجناح المعتدل في ظروف غامضة.

(وفي نهاية أيلول ١٩٧١ استضاف البرزاني رئيس الموساد زامير ورئيس شعبة (تيبل) العالم وهي الشعبة التي تعالج القضايا العالمية (ناحوم ادموني).. وفي التاسع والعشرين من أيلول توجه زامير و ادموني إلى منطقة راوندوز التي كانت تعسكر فيها غالبية القوة العراقية)[٤٢٤]. أي في نفس اليوم، الذي جرت فيه للبرزاني محاولة اغتيال أعدت بعناية فائقة، ولكنه نجا من الموت بأعجوبة، رغم ان المحاولة تتضمن سلسلة من العمليات.

فقد أرسل ناظم كزار مدير الأمن العام، تسعة رجال دين من السنة والشيعة، بقصد إصلاح ذات البين بين الحكومة والحركة الكردية، والتي تكدرت العلاقة بينهما بعد محاولة اغتيال ابن البرزاني. وكان بعضهم يحمل أجهزة تسجيل ملغومة دون ان يدري، لتسجيل كل كلمة يقولها الملا كما قيل لهم ببغداد. وما ان ضغط على زر التسجيل، حتى حدث انفجار هائل، ولكن الملا والدكتور محمود عثمان - والذي كان حاضراً - لم يصبهما سوء. وعندما خرجا من دار الضيافة بعد ذلك مباشرة رماهما بقنبلة أحد السائقين اللذين نقلا رجال الدين من بغداد، وتبين فيما بعد انهما ضابطا أمن. فصرعت القنبلة أحد حراس الملا وجرحت ١٤ آخرين، ونجا الملا والدكتور عثمان ثانية وتوجها إلى بيت

٤٢١- المرجع السابق. ص٢٤-٢٥ و٤٨.

٤٢٢- نكديمون. المرجع السابق. ص١٤٥.

٤٢٣- الحزب الديمقراطي الكردستاني (اللجنة التحضيرية). المرجع السابق. ص٥١.

٤٢٤- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٥٨.

قريب. ثم انفجرت إحدى السيارتين التي نقلت رجال الدين، وظهر ان السيارة الأخرى أيضا كانت مفخخة، وان هناك صواريخ في اضويتها[٤٢٥].

وقد شن البرزاني - في النصف الثاني من عام ١٩٧٣- حربا ضد الشيوعيين، حلفائه السابقين، ربما لأنه أراد ان يجتذب المزيد من المساعدات الأمريكية لحركته[٤٢٦]. وعموما، فان علاقاته مع الجهات التقدمية تلاشت تدريجيا حتى انقطعت تقريبا سنة ١٩٧٤[٤٢٧].

واقتربت أمريكا هذه المرة من اللعبة اكثر من أية مرة، ولو أنها ظلت - كعادتها في ظروف كهذه - تلعب من وراء الستار. وقد كان وراء الاقتراب الأمريكي ضغط إيراني - إسرائيلي شديد. حيث توجهت غولدا مائير رئيسة وزراء العدو لهذا الغرض إلى طهران سراً في نيسان ١٩٧٢، قبل وقت قصير من زيارة الرئيس الأمريكي نيكسون الشهيرة لإيران[٤٢٨]. وبعد شهرين من ذلك، وافق نيكسون على التعاون مع الشاه في دعم الحركة الكردية، مع الحفاظ على أقصى درجات السرية[٤٢٩]. وقد لعب كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي آنذاك، دورا هاما في موافقة الإدارة الأمريكية، إذ ان (كيسنجر اعتبر الأكراد جزءاً من صفقة الأسلحة)[٤٣٠] مع إيران، والتي كانت اضخم صفقة سلاح في العالم خلال السبعينات.

(ولم يتجاوز مجموع المساعدات الأمريكية للأكراد.. حدود ١٦ مليون دولار)[٤٣١].

٤٢٥- الوسط. العدد ٢٩٩ في ١٩٩٧/١٠/٢٠. ص٢٧-٢٨.

٤٢٦- الحزب الديمقراطي الكردستاني (اللجنة التحضيرية). المرجع السابق. ص٤٨.

٤٢٧- المرجع السابق. ص٥٤.

٤٢٨- الخرسان. المرجع السابق. ص٢٠٨-٢٠٩.

٤٢٩- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٦٥-٢٦٦.

٤٣٠- راندل. المرجع السابق. ص١٩٨.

٤٣١- المرجع السابق. ص٢٠١.

بل وفي تقرير لوكالة المخابرات الأمريكية في الثاني والعشرين من آذار ١٩٧٤ ورد ما نصه: (أننا نتفق مع الشاه في ضرورة عدم حسم الوضع الكردي إلى هذا الجانب أو ذاك)[٤٣٢]. وهكذا يلعبون بدماء الشعب الكردي والشعب العراقي.

من جانبه وفي جهل فاضح بالسياسة الدولية، صرح البرزاني: (إذا كانت المساعدات الأمريكية كبيرة بما فيه الكفاية، فسوف يصبح بمقدورنا الإشراف على النفط في كركوك وتسليم إدارته إلى شركة أمريكية)[٤٣٣]. (إلا ان تلك العروض السخية لم تغيّر من الخطط الأمريكية التي تركت ملف الثورة الكردية بيد الشاه)[٤٣٤]. على أية حال، انه تصريح يذكر بتصريحات صدام عند احتلاله الكويت عن ضمان تدفق النفط.

الا ان الخطوة الأكثر جهلا وحماقة، جاءت فيما بعد، ففي سنة ١٩٧٥ (بعث البرزاني رسالة إلى واشنطن، اقترح فيها تحويل كردستان إلى الولاية الحادية والخمسين للولايات المتحدة)[٤٣٥].

وقد رفضت الإدارة الأمريكية – وتحديداً كيسنجر نفسه – طلب البرزاني زيارة أميركا (لما قد تسببه تلك الزيارة – حتى ولو كانت سرية – من احراجات للولايات المتحدة[٤٣٦]. (وفي أيلول ١٩٧٣، وصل البرزاني، في زيارة ثانية لإسرائيل)[٤٣٧].

ولما نشبت حرب تشرين ١٩٧٣، طلب الموساد من البرزاني (ان يدفع برجاله للقيام بنشاطات مهددة للعراقيين)[٤٣٨]. ويقول كيسنجر: (ان القرار الخاص بمنع الأكراد

٤٣٢- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٨١.
٤٣٣- المرجع السابق. ص٢٧٣.
٤٣٤- الخرسان. المرجع السابق. ص٢١٠.
٤٣٥- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٩٧.
٤٣٦- الخرسان. المرجع السابق. ص٢٠٩.
٤٣٧- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٧٤.
٤٣٨- المرجع السابق. ص٢٧٦.

من شن حرب على العراقيين أبان حرب ١٩٧٣، قام على أساس اتفاق الآراء بين جهاز المخابرات الأمريكية وجهاز المخابرات الإيراني، والشاه)[٤٣٩]. و(حينما أعرب رئيس الموساد أمام البرزاني عن استياء إسرائيل من الموقف الكردي السلبي، عزا البرزاني عدم التحرك الكردي إلى الموقف الإيراني)[٤٤٠].

القتال عام ١٩٧٤:

أخطأت الحركة الكردية - عام ١٩٧٤ - في تقدير قوة الحكومة العراقية وعلاقاتها الدولية، كما أنها أخطأت في تحليل الأوضاع العالمية[٤٤١]. فطرحت مطالب متشددة قريبة لمطالب عام ١٩٦٣، التي يمكن وصفها بالتعجيزية، والتي قال عنها الطالباني (بأنها اكثر من المطالبة بالحكم الذاتي واكثر من المشروع الفدرالي)[٤٤٢]. إذ كانت مطالب عام ١٩٦٣ تتضمن جيشا كرديا بقوات جوية، وما لا يقل عن ثلثي العائدات النفطية، ووزراء دولة أكراد لوزارات الدفاع والخارجية والمالية[٤٤٣].

وأضافوا إليها طلبا بتعديل النص الوارد في الدستور بان (الشعب العراقي جزء من الأمة العربية)، ليصبح (الشعب العربي في العراق جزءاً من الأمة العربية). واقترح الشيوعيون صيغة مخففة[٤٤٤]، اخذ بها عند تعديل الدستور فيما بعد، وهي ان (العراق

٤٣٩- المرجع السابق. ص٢٧٧.

٤٤٠- المرجع السابق. ص٢٧٨.

٤٤١- الحزب الديمقراطي الكردستاني (اللجنة التحضيرية). المرجع السابق. ص٣٤.

٤٤٢- مجلة الوسط. العدد ٣٥٨ في ١٩٩٨/١٢/٧. نقلاً عن الخرسان. المرجع السابق. ص١٠٧.

٤٤٣- د. سعد ناجي جواد. العراق والمسألة الكردية. ص٩١. نقلاً عن الخرسان. المرجع السابق. ص١٠٦-١٠٧.

٤٤٤- د. عجينة. المرجع السابق. ص١٢١.

جزء من الأمة العربية)[٤٤٥]. وكانت هناك مشكلة شمول كركوك بالحكم الذاتي[٤٤٦]، والتي أصبحت اكثر تعقيداً مما مضى، وسنعود لاحقاً لمناقشتها.

وقد طرحت الحكومة في ١١ آذار ١٩٧٤، مشروعا للحكم الذاتي، كان يمكن تطويره مع الأيام، إلا انه تحول إلى مشروع بائس. أما الحركة الكردية فاقترحت استمرار المفاوضات عاما آخر. ولكن الحكومة العراقية رفضت ذلك ولوحت للحركة الكردية بالاتفاق مع شاه إيران في نهاية المطاف، الأمر الذي لم تتصور وقوعه قيادة الحركة الكردية يوماً[٤٤٧].

والتحق عشرات الآلاف من الأكراد بالحركة الكردية. وبادر البرزاني إلى الهجوم[٤٤٨]، وحققوا في البداية إنجازات عسكرية مهمة. ولكن الجيش العراقي ما لبث ان امتلك زمام المبادرة بقوة، حتى انه صار يهدد طريق الإمداد الرئيسي للحركة، مما سيؤدي بالتالي إلى سقوط التمرد الكردي كله، ولم يبق أمام البرزاني سوى أن يرسل بأصوات الاستغاثة باتجاه شاه إيران، والذي قامت مدفعيته من داخل الأراضي الإيرانية والعراقية، بقصف أهداف عسكرية عراقية، مما عطل الهجوم الحاسم على آخر معاقل الحركة الكردية ومد في عمرها.

فالحركة الكردية (لم تعد ممكنة الاستمرار دون مساندة من جيش نظامي مجاور أمام حرب شاملة يشنها جيش الحكومة العراقية المسلح تسليحاً حسناً)[٤٤٩]. وبدا البارزاني يائساً وهو يقول للإسرائيليين.. لقد انتهى الأمر ان الجيش العراقي بأكمله يعمل ضدي، لم يعد هناك أي أمل[٤٥٠].

٤٤٥- د. خدوري. المرجع السابق. ص٢٩٦.

٤٤٦- د. عجينة. المرجع السابق. ص١٢١.

٤٤٧- المرجع السابق. ص٢١٤.

٤٤٨- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٨٢ وما بعدها.

٤٤٩- خدوري. المرجع السابق. ص١٧٨.

٤٥٠- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٨٧.

وفي كانون الأول ١٩٧٤ طلب الشاه سحب المدافع بعيدة المدى من الجبهة للحيلولة دون سقوطها بأيدي العراقيين، إذ كان يعتقد أن الأكراد لن يستطيعوا الصمود بوجه الهجوم العراقي[٤٥١]. وظل فيما بعد يبرر اتفاقه مع العراق، وتوقفه عن تأييد الأكراد بأنهم لم يحققوا أي تقدم في الحرب[٤٥٢].

(فللمرة الأولى، ظل العراقيون في الجبال خلال أشهر الشتاء، بدلاً من الانسحاب إلى مناطق أكثر أماناً، واقترب موسم القتال التقليدي في فصل الربيع، مع كل ما يحمله من أكلاف ومخاطر يصعب التكهن بها، فشعر الشاه (وآخرون) أن عليه التوصل إلى تسوية ما، وإلا فسيتحمل مسؤولية نشوب حرب حقيقية مع العراق)[٤٥٣].

اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥:

قاد صدام شخصياً الحرب مع الحركة الكردية خلال عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥، ولو صمد شهرا أو شهرين على الأكثر،لكان ذلك كافياً لحسم الأمور، بدون الثمن الذي دفعه في الجزائر، خصوصاً وأن فصل الربيع - حيث يصبح الجيش أكثر قدرة على القتال والمناورة - كان على الأبواب.

(وقبل ذوبان الثلوج بوقت طويل فقد الأكراد جميع المناطق التي كانوا يسيطرون عليها، ولم يبق في حوزتهم سوى شريط بري صغير متاخم لشمالي غربي إيران، حيث كان بإمكانهم الاستفادة من حماية المدفعية الإيرانية البعيدة المدى، والصواريخ المضادة للطائرات)[٤٥٤].

٤٥١- المرجع السابق. ص٢٩١.
٤٥٢- خدوري. المرجع السابق. ص١٧٩ (حاشية).
٤٥٣- راندل. المرجع السابق. ص٢١٨.
٤٥٤- المرجع السابق. ص١٩١.

وبينما كان التمرد الكردي على وشك الانهيار، كان صدام على استعداد لتقديم تنازلاته لشاه إيران، وبرر ذلك (أمام مجلس الثورة في اجتماع سري أن السلاح الجوي للبلاد لم يعد يملك الا خمس قنابل ثقيلة وأن المدفعية تملك بالكاد ألف طلقة)[٤٥٥]. الأمر الذي يستحيل تصديقه بالنسبة لبلد غني يملك شبكة علاقات دولية واسعة آنذاك.

إن صدام بدا مستعداً لتقديم تنازلاته حتى قبل أن ينطلق الرصاص ربما بسبب قلقه المرضي على الحكم، وسوء تقديره، وانعدام المحرمات الوطنية لديه، (وقد تبين لوكالة الاستخبارات المركزية أنه بدأ بذلك في شهر تشرين الأول من العام ١٩٧٢)[٤٥٦].

من جانب آخر، يعترف تقرير امريكي بأن (الرئيس والدكتور كيسنجر، وشاه إيران كان يأمل منذ البداية، ألا ينتصر أتباعنا) أي الحركة الكردية. ومضى التقرير قائلا أنهم (فضلوا في المقابل أن يستمر المتمردون في القتال بوتيرة كافية لاستنزاف موارد البلد المجاور لحليفنا)[٤٥٧] أي موارد العراق. ويقول كاتب أميركي: (وكما تبين بوضوح مراراً، فان كيسنجر لم يكن يعتبر الأكراد من ضمن أصدقاء واشنطن.. وبات واضحاً بالنسبة لجميع العاملين في وزارة الخارجية، أن من يذكر اسم الأكراد أمام كيسنجر يعرض نفسه لغضب الوزير وخطر الإقالة من منصبه)[٤٥٨].

وهكذا جرى اللعب بصدام والحركة الكردية معاً. وقد (صدم الدبلوماسيون والسياسيون المحنكون بحجم التنازلات التي اضطر صدام إلى تقديمها، ولاسيما بالتنازل الأهم الذي يريده الشاه أكثر من أي شيء.. أي إعادة ترسيم الحدود في شط العرب عند خط الوسط في المياه العميقة)[٤٥٩].

٤٥٥- جرهارد كونسلمان. سطوع نجم الشيعة. ترجمة محمد أبو رحمة. القاهرة. ١٩٩٢. ص٢١٣.

٤٥٦- راندل. المرجع السابق. ص٢١١.

٤٥٧- المرجع السابق. ص٢٢٢.

٤٥٨- المرجع السابق. ص٢٣٧.

٤٥٩- المرجع السابق. ص٢١٨.

لقد قال صدام فيما بعد عندما وقعت الحرب مع إيران عام ١٩٨٠: (الآن صرنا نفهم السياسة الدولية)، الأمر الذي يبدو أنه لم يحصل أبداً، فقد تكرر أكثر من مرة اللعب بالعراق وما حوله، أو بعبارة أدق بصدام وأعدائه معاً.

(ومن الجدير بالذكر، أن عدداً من الجهات ربطت بين الاتفاق العراقي الإيراني، وبين الاتفاق المصري - الإسرائيلي. وبدأت قصة هذه العلاقة بين الاتفاقين في الصعوبات التي برزت أمام وزير الخارجية الأميركي كيسنجر خلال جولاته المكوكية في الشرق الأوسط بين مصر وإسرائيل كي ينجز ما أسماه (اتفاق سيناء الثاني) وقد أشارت إحدى الجهات إبان هذه الجولات إلى المعارضة السورية الأمر الذي جعل كيسنجر يفكر في إمكانية إشغال سورية بمسألة أخرى، كالعراق مثلاً. والذي وضع عداءه لسوريا جانباً في تلك الآونة، نظراً لمواجهة جبهتين هما الجبهة الإيرانية والكردية، ولربما فكر كيسنجر في أن توصل العراق وإيران إلى تسوية، حول الخلافات القائمة بينهما، قد يؤدي إلى نفض الرماد عن المشاكل السياسية القائمة بين سورية والعراق. وصديق كيسنجر الحميم الرئيس المصري أنور السادات، كان يدرك تماما، كيف يمكن إحراز هذه التسوية، خصوصاً وانه كان يعمل كوسيط بين إيران والعراق. ويذكر أن سورية نعتت العراق في أعقاب إنجاز الاتفاق الإيراني بأقذع النعوت.. وتجددت النزاعات السورية العراقية بصورة شديدة جداً. وفي أيلول ١٩٧٥ تم توقيع الاتفاق الإسرائيلي المصري «سيناء الثاني»)[٤٦٠]. وذلك حسب رواية إسرائيلية.

وإذا أخذنا بهذه الرواية، تمكنا من تفسير أمور كثيرة حدثت آنذاك، ففي شهر شباط ١٩٧٥ (بعث الرئيس المصري أنور السادات برسالة إلى البرزاني طلب منه فيها، إيفاد سامي عبد الرحمن إلى القاهرة، وأثناء اللقاء، أقنع السادات عبد الرحمن بالموافقة على أن تنقل مصر عرضاً كردياً لعقد تسوية مع العراق. ومن دون علم المبعوث الكردي، قام

٤٦٠- نكديمون. المرجع السابق. ص٣٠٧-٣٠٨.

السادات بتسجيل اللقاء وأرسل شريط التسجيل إلى الشاه الذي استبد به الغضب على الفور)[٤٦١].

وبعد توقيع اتفاقية ٦ آذار (وعندما أبلغ الشاه البارزاني أن اتفاقية الجزائر تلزمه (أي الشاه) بقطع مساعدات إيران عن الثورة الكردية.. كان جواب البارزاني باختصار ما يلي: نحن شعبك وما دمت راضياً عن اتفاقية الجزائر وتؤمن مصالح إيران التي هي وطننا الأم لا يوجد لدينا شيء ضدها ونحن رهن أوامرك إذا قلت لنا موتوا نموت أو عيشوا نعيش. لقد كنا مخلصين لك ولا نزال وسوف نبقى هكذا في المستقبل أيضا[٤٦٢].

اما في اسرائيل ففي (الثالث عشر من آذار ١٩٧٥ عقد إسحاق رابين رئيس الحكومة اجتماعاً في مكتبه.. وخلال الاجتماع حاول رابين أن يعرف فيما إذا كانت هناك أية إمكانية لإحياء التمرد الكردي، بيد أن جميع من كانت لديهم علاقة بالأمر أكدوا له عقم المحاولة، فالطريقان الوحيدان لتقديم المساعدات للأكراد هما إيران وتركيا، وهذان الطريقان باتا مغلقين تماما. وفي نهاية الجلسة قال رابين: «حسناً ما العمل؟ ليس أمامنا سوى أن نتوقف عند هذا الحد»)[٤٦٣].

ويقول كاتب متعاطف مع القضية الكردية: (أما الجنرال البرزاني، فقد أمضى أعوامه الأخيرة في الخزي والعار، في البلدين اللذين خاناه، إيران والولايات المتحدة. وكان لديه الوقت الكافي للتأمل في مدى حكمة قراره برفض عرض صدام حسين بتقاسم نفط كركوك، وفي الحماقة التي ارتكبها باعتماده على الأجانب الذين دفعوه في اتخاذ ذلك القرار. فالاتكال على القوى الأجنبية يشكل نتيجة مباشرة للمسار الطويل الذي سلكه البرزاني في البداية بحذر.. ثم بخفة شديدة دفعت منتقديه إلى التساؤل عن مدى

٤٦١- راندل. المرجع السابق. ص٢١٥.

٤٦٢- الحزب الديمقراطي الكردستاني (اللجنة التحضيرية). المرجع السابق. ص٨٨-٨٩.

٤٦٣- نكديمون. المرجع السابق. ص٣١٩.

سلامة تفكيره، ومدى وطنيته)[٤٦٤].

وفي الثاني من آذار ١٩٧٩، توفي الملا البرزاني، في أميركا عن ثلاث وسبعون سنة. ودفن في بلدة إيرانية حدودية. وبمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته (أقامت رئاسة الأركان الإسرائيلية حفلاً تأبينياً له في نادي الضباط في تل أبيب حضره كبار المسؤولين ورئيس الأركان آنذاك)[٤٦٥].

أما النظام فقد واصل سياسته الخرقاء بل وتمادى فيها مؤسساً لجولة قادمة من الصراع. فأقام تنظيماً لحزب البعث العربي في صفوف الأكراد، تجمع فيه الانتهازيون، ثم أخذ النظام باجبار الطلبة وموظفي الدولة والعسكريين على الانضمام إليه. وحول الشخصيات الكردية التي تحالفت معه إلى دمى. و(تم تدمير حوالي ألف وخمسمائة قرية ضمن ما يسمى بالمنطقة الآمنة، وجرى تهديم البيوت وقطع الكروم، وإغلاق الآبار بالأسمنت، وقامت القوات العراقية بتهجير سبعمائة وخمسين ألف شخص من سكان هذه الأرياف إلى مجمعات سكنية أقيمت على عجل)[٤٦٦]. وأبعد آلاف العوائل من العائدين من الحركة الكردية إلى جنوب العراق لفترات مختلفة. واندفع في سياسة التعريب.

الأخطر من كل هذا، أنه تصرف بروح المنتصر، ونسي أن (العقل يجب أن يمنع المنتصر من الإفراط في انتصاره لأن النصر لحظة عابرة في التاريخ). هذا إذا اعتبرنا - تجاوزاً - أن ما حدث انتصار، وان العلاقة بين الشعب والحكومة يمكن أن تكون يوماً ما علاقة غالب ومغلوب.

لكن جريمة النظام الكبرى والتي وضعت علاقة العراق بأكراده على مفترق الطرق كانت الأسلحة الكيمياوية التي استخدمها ضد المواطنين الأكراد عام ١٩٨٨. وقيل أن عدد

٤٦٤- راندل. المرجع السابق. ص١٩٢.

٤٦٥- صحيفة الحياة. العدد ١٢٣٣٢ في ١٩٩٦/١١/٣٠ نقلاً عن الخرسان. المرجع السابق. ص١٦٣.

٤٦٦- راندل. المرجع السابق. ص٢٣٠.

ضحايا حرب الإبادة هذه (تراوح ما بين ٦٠ ألفاً و١١٠ آلاف شخص)[٤٦٧]. وقد قدرتهم الإدارة الأميركية فيما بعد بعشرين ألفاً وكان عداء الإدارة الأميركية لإيران قوياً خلال المرحلة الأخيرة من الحرب العراقية - الإيرانية، فلم تتخذ أية إجراءات ضد استخدام صدام - الذي كان حليفها - للغازات السامة ضد الأكراد[٤٦٨].

تدمير الذات:

الآن وحتى بعد قيام ما يسميه القانون الدولي بـ (دولة فعلية) للأكراد في كردستان العراق، فإن القضية الكردية أصبحت أكثر تعقيداً من أي يوم مضى، ومستقبلها أشد غموضاً. فالاستقلال الذي كان حلماً، لم يأت بالاستقرار ولا بالسلام ولا بالتنمية. والحكومة الواحدة أصبحت حكومتين، والشعب الواحد شعبين، والعاصمة عاصمتين، وجيش دفاع كردستان أصبح عدة جيوش. ولا زالت النخبة الكردية تعيش في الخارج ولا تأمن العودة إلى وطنها. فالهجرة إلى الغرب، صارت أمنية الكثيرين، كما هو الحال في كل أرض العراق.

وأسقط الاقتتال الكردي جميع المحرمات. فعندما تجدد القتال صيف العام ١٩٩٦ قُتل أربعة آلاف كردي معظمهم من المدنيين، وسقط بضعة آلاف آخرين في الجولة الثانية من القتال[٤٦٩]. ورافق هذا الاقتتال موجة نزوح جماعي للسكان[٤٧٠]. وقام كل من الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، بتصفية خصومهم في مناطق سيطرتهم[٤٧١]. وقد أدانت منظمة العفو الدولية مثل هذه الممارسات في تقرير صدر

٤٦٧- المرجع السابق. ص٢٨٤.

٤٦٨- المرجع السابق. ص٢٤٠-٢٤١.

٤٦٩- المرجع السابق. ص٣٨٩.

٤٧٠- الخرسان. المرجع السابق. ص٥٦١.

٤٧١- راندل. المرجع السابق. ص٤١٩.

عنها في حزيران ١٩٩٤ اعتبرت فيه (أن من المهين جداً أن يتعرض الأكراد.. لانتهاكات بشعة مماثلة على أيدي مؤيدي زعمائهم السياسيين)[٤٧٢]. وفي تقريرها التالي في شباط اللاحق تحدثت عن (التعذيب والاعتقالات الاعتباطية، والتصفية الجسدية للخصوم السياسيين، والمتظاهرين المسالمين، والأسرى)[٤٧٣].

لقد اتخذ أمراء الحرب، المهيمنون على مقدرات الشعب الكردي، قضية هذا الشعب أو بالأصح معاناته حرفة لهم. وتصرفوا أحياناً كقطاع طرق، خاصة عند (لجوء الميليشيات إلى طرد الناس من منازلهم)[٤٧٤]. (ان الأزمة الكردية ستكون مديدة وعنيفة ومثيرة للفوضى)[٤٧٥]، بسبب هيمنة العقلية الريفية العشائرية عليها، والتي يستثمرها (التدخل الخارجي) بمهارة.

ومما له دلالاته بالنسبة لطريقة تفكير الزعامة الكردية الحالية، فإن آزاد برواري عضو المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني قدم رجاء متكرراً للمسؤولين العراقيين عام ١٩٩١، قبل وصول الوفد الكردي إلى بغداد، بإحاطة مسعود البرزاني باهتمام متميز أكثر من الطالباني[٤٧٦]. وفسر مسعود البرزاني فيما بعد عدم التوصل إلى حل مع الحكومة عام ١٩٩٢ بأن الطالباني لعب دوراً سيئاً عندما لاحظ أن الحكومة لا تحيطه باهتمام متميز عن غيره، وأنها تبحث عن حل مع الجميع، وليس معه فقط[٤٧٧].

ولم يتردد أي منهما في عقد (صفقة مع الشيطان)، أي شيطان. (فقد تغاضى البرزاني عن جميع الجرائم التي ارتكبها صدام حسين بحق الأكراد، والتي شملت قتل ثلاثة من

٤٧٢- المرجع السابق. ص٤١٥.

٤٧٣- المرجع السابق. ص٤١٥.

٤٧٤- المرجع السابق. ص٤١٥.

٤٧٥- المرجع السابق. ص٤٢٤.

٤٧٦- راجع الخرسان. المرجع السابق. ص٥٣٢.

٤٧٧- المرجع السابق. ص٥٣٤.

أشقائه، وأكثر من ثمانية آلاف شخص من أفراد عشيرته، فضلاً عن عشرات الآلاف من أكراد العراق، وطلب منه المساعدة لإخراج الاتحاد الوطني من مدينة أربيل[٤٧٨]. ولأن الاتحاد الوطني كان متحالفاً مع إيران (اعتبرت الإدارة الأميركية أنها حصلت على جائزة ترضية غير متوقعة.. وتمثلت في إضعاف النفوذ الإيراني في شمال العراق والذي كان يثير استياءها)[٤٧٩].

وفي الهجوم على أربيل، لم تهتم الإدارة الأميركية بمصير حلفائها و(إذا كانت الـ (سي آي ايه) قد نجحت في إنقاذ رجالها في الوقت المناسب، الا أنها خلفت وراءها كمية من المعدات المتطورة، وما جمعته من معلومات عن المعارضة العراقية في محفوظاتها. فقد تُرك الأكراد الذين عملوا في المكاتب الأميركية المختلفة في أربيل، لمواجهة مصيرهم على الرغم من الوعود.. وما تبلغوه رسمياً عن وجود خطة أميركية مفصلة لإجلائهم عند الضرورة (الأمر الذي تبين لاحقاً أنه ليس سوى كلام فارغ ووعود كاذبة). وهكذا قُتل المئات من عناصر المعارضة)[٤٨٠]. ولم يبد أي مسؤول من الحزب الديمقراطي ابتداء (بمسعود البرزاني وحتى أصغر المسؤولين، أدنى شعور بالخجل والعار لما ارتكبوه من خيانة بحق حلفائهم المفترضين في المؤتمر الوطني العراقي)[٤٨١]. والكلام لكاتب أمريكي.

وقد تكرر هذا الأمر، أي خيانة الحلفاء المحليين أو الإقليميين، كثيراً من كل الأطراف الكردية. ففي عام ١٩٩١ (قررت الجبهة الكردستانية فجأة الدخول في مفاوضات مع النظام رغم عدم مضي شهر على قرارات مؤتمر بيروت الذي شاركت فيه بكافة فصائلها

٤٧٨- راندل. المرجع السابق. ص٣٩٥.

٤٧٩- المرجع السابق. ص٣٩٨.

٤٨٠- المرجع السابق. ص٣٩٩.

٤٨١- المرجع السابق. ص٣٩٩.

ورغم توقيعها على ميثاق لجنة العمل المشترك والذي نص البند الأول منه على «إسقاط النظام الديكتاتوري»)[٤٨٢].

وقد جرت سلسلة طويلة ومخزية من الحروب والاغتيالات لتصفية (الآخر) الكردي. ورغم الحديث الذي لا يهدأ عن كردستان الكبرى والأمة الكردية، فقد قامت الحركتان الكرديتان الرئيسيتان وبالتناوب بتصفية الحركات الكردية من البلدان الأخرى، بأمر من حكومات تلك البلدان أو إرضاءً لها. إذ (تعاون الحزب الديمقراطي والاتحاد الوطني في شهر تشرين الأول من العام ١٩٩٢، على شن حملة عسكرية دموية ضد قواعد (حزب العمال الكردستاني التركي) أدت إلى إبعادها عن الحدود التركية، بالتعاون مع أنقرة[٤٨٣].

ان (تدمير الذات) ليست حالة كردية خاصة، بل هي حالة عراقية عامة، رأيناها في الانتفاضة، وسنراها في أية حالة مماثلة، فالضحية تأخذ ملامح جلادها. و(الأكراد وسائر العراقيين، يحملون آثار حوالي ثلاثة عقود من حكم حزب البعث المفسد، وقد ترك القمع والإرهاب، والحكم الشمولي، بصماته على شخصية العراقيين عموماً، والأكراد بوجه خاص)[٤٨٤].

ومما يجب ذكره، وبكل دقة، ليست هناك مشاعر كراهية بين العرب والأكراد البتة. فالشعب الكردي، والشعب العراقي، هما الضحية معا. ضحية جلادٍ فاشٍ غبي، وضحية حركة تمرد فيها الكثير من ملامح الجلاد وغبائه وتخلفه وعدم شعوره بالمسؤولية. رغم ان القليل من القادة الأكراد، يعترفون بهذا، فلا زالوا أسرى صنمية (الماضي) وأوهامه.

المشكلة أن الزعامات الكردية، وهي ترفض الاندماج في النظام السياسي العراقي، والكلام هنا عن دولة عراقية لا عن نظام معين، فانها لا تتردد في إقامة أوثق العلاقات مع

٤٨٢- الخرسان. المرجع السابق. ص٥٢٩.

٤٨٣- راندل. المرجع السابق. ص ٣١٨-٣١٩.

٤٨٤- المرجع السابق. ص٤١٦.

الدول المجاورة، رغم عدم اعتراف تلك الدول بأية حقوق كردية لا لمواطنيها ولا لمواطني الدول الأخرى.

فقد هددت تركيا العراق، عندما كان يتفاوض مع جلال الطالباني لإقامة حكم ذاتي للأكراد عام ١٩٨٤، بإغلاق خط أنابيب النفط العراقي المار بتركيا[٤٨٥]. كما احتجت تركيا في الستينات لدى الرئيس جمال عبد الناصر على بث إذاعة صوت العرب برامج باللغة الكردية[٤٨٦].

ان سؤالاً يطرح نفسه بإلحاح: كيف نثق بعد الآن بقيادة الحركة الكردية؟ بعد أن تكشفت علاقتها الحميمة والطويلة مع إسرائيل، حتى أن (الوفد الكردي إلى إحدى جولات المفاوضات مع العراقيين، ضم ضابطاً إسرائيلياً)[٤٨٧].

والغريب أن جلال الطالباني، والذي كان متحالفاً مع الفصائل الفلسطينية اليسارية، والتي قدمت له مساعدات لا تثمن، ووضعت كل قدراتها تحت تصرفه، يوم تخلى عنه الجميع. وقد قدم الطالباني في ندوة الاشتراكيين العرب في الجزائر - عام ١٩٦٧- واحداً من أكثر البحوث تميزاً وأكثرها ثورية وحماساً ضد (الإمبريالية والصهيونية). أن جلال هذا كتب يقول بدهاء: (لم تعد العلاقة بين الكرد واليهود الإسرائيليين محرمة ومجرمة بعدما تطورت العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية وبعد العلاقات الإسرائيلية - العربية المتعددة.. وبالتالي فليس للأخوة العرب الحق في العتاب على كل نوع من أنواع العلاقة الكردية - اليهودية و«الإسرائيلية»)[٤٨٨].

٤٨٥- المرجع السابق. ص٣٠٠.

٤٨٦- المرجع السابق. ص٤٣٢ (حاشية).

٤٨٧- صحيفة النور، التي كان يصدرها جناح الطالباني ببغداد، عدد ١٩٦٩/١/٢٩. نقلاً عن راندل. المرجع السابق. ص٢٥٤.

٤٨٨- الخرسان. المرجع السابق. ص٦٤٨.

الفيدرالية أم الحكم الذاتي؟

بغض النظر عن النوايا الطيبة وراء تبني الأكراد للعلاقة الفيدرالية بين الأكراد و(السلطة المركزية) فان الدول الاتحادية تنشأ - حسب القانون الدستوري - بأحد أسلوبين، الأول باتحاد دولتين أو أكثر. والثاني (ينتج عن تفكك دولة بسيطة موحدة إلى عدة دويلات تنتظم في اتحاد يجمعها)[٤٨٩]. وهو ما لا ينطبق على حالة العراق حتى الآن. وإذا قيل أن هناك (دولة عراقية) و(دولة كردية)، فان الدولة الكردية لا تتمتع بالشخصية الدولية، أي أنها لا زالت إقليماً عراقياً.

ان (الدولة الاتحادية هي (اتحاد دول تخضع جزئياً لسلطة موحدة وتحتفظ جزئياً باستقلالها) ويتم التوفيق بين النقيضين بأعمال مبدأين: هما مبدأ المساهمة ومبدأ الاستقلال)[٤٩٠]. وفي الحالة العراقية، يجب استبعاد المبدأ الأول، والأخذ بالمبدأ الثاني أي مبدأ الاستقلال والحكم الذاتي. (ومقتضاه أن الدويلات الأعضاء تحتفظ بنوع من الاستقلال في إدارة شؤونها. فلها دستورها وهيئاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية الخاصة بها. وتملك تعديلها بحرية ضمن الحدود المقررة في الدستور الاتحادي)[٤٩١].

أي أننا أمام شكل من أشكال الدولة الاتحادية، أو (تنظيم إقليمي جديد للدولة البسيطة يقترب إلى حد ما من تنظيم الدولة الاتحادية.. وقد قصد بهذا التنظيم معالجة وضع أقليات قومية أو لغوية أو أوضاع تاريخية)[٤٩٢]. وسيتطور مع الأيام كما تطورت كل التجارب الاتحادية في العالم[٤٩٣].

٤٨٩- د.كمال الغالي. مبادئ القانون الدستوري والنظم السياسية. دمشق. ١٩٨٣. ص٩٢.
٤٩٠- المرجع السابق. ص٩٥.
٤٩١- المرجع السابق. ص٩٨.
٤٩٢- المرجع السابق. ص٨٩ (الحاشية) بتصرف.
٤٩٣- المرجع السابق. ص٩٩-١٠١.

ويتميز الاتحاد الفيدرالي عن هذا التنظيم بمبدأ المساهمة (ومضمونة أن تساهم الدول الأعضاء في تكوين القرارات التي تلزم الاتحاد بكامله)[٤٩٤] وهو ما لا تسمح به أي تجربة وليدة في مثل ظروف العراق. إذ تتطلب ظروفاً سياسية واقتصادية وثقافية بل وتاريخية لم يصلها العراق بعد.

وإلا فسيتكرر - على الأقل - ما حصل عند تقاسم جميع المناصب في السلطة الكردية مناصفة بين الحزبين الكرديين، إذ (سرعان ما تبين أنه لم يعد التحكم في هذا النظام السخيف الذي بات ينطبق على جميع المراتب من أعلاها إلى أدناها، وشملت سياسة تقاسم المناصب مناصفة وظيفة الخادم المكلف بتقديم الشاي للضيوف)[٤٩٥].

ولابد من الوقوف هنا باهتمام شديد، عند التبشير الصهيوني منذ الأربعينات بالفيدرالية[٤٩٦]، من أجل خلق دولة مشلولة وضعيفة في العراق وبالتالي إخراج العراق من الصراع العربي - الصهيوني.

يقول زامير (رئيس الموساد حتى ١٩٧٤): (عندما كان البرزاني يسألني عن رأيي في أفضل الأوضاع كنت أقول له: ان أفضل الحلول التي اعتقد أنها قاسية على صعيد الأكراد تتمثل في إقامة اتحاد فدرالي عراقي مركب من العرب والأكراد)[٤٩٧]، ويبدو أن مسعود البرزاني - والذي تسميه وثائق الموساد المعلنة (ميرخان) - كان يفهم قصد الإسرائيليين من ذلك. فقال لأحد مسؤولي الموساد: (عندما نتوصل إلى اتفاق مع العراق، فلن يستطيع تحريك جيشه دوننا، ونحن لن نسمح للجيش العراقي لمحاربتك

٤٩٤- المرجع السابق. ص٩٥.

٤٩٥- راندل. المرجع السابق. ص٤١٤.

٤٩٦- مجلة الوسط. العدد ٢٩٩ في ١٩٩٧/١٠/٢٠. ص٢٩.

٤٩٧- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٩٦.

مهما حدث[٤٩٨]، فوافقه مسؤول الموساد قائلاً: (إننا نرغب في وجود دولة تهتم بشؤونها ومشاكلها الداخلية في غضون العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة.. وأن تخرج من إطار الدول المعادية لإسرائيل سواء أنجزنا السلام أم لم ننجزه)[٤٩٩].

❖ ❖ ❖

لقد نشأت القضية الكردية في العراق، مع نشأة الدولة العراقية عام ١٩٢١ (ومن الواضح أن فريقاً من الأكراد، وخاصة سكان الجبهة الشرقية (أي السليمانية وما جاورها) لم يكونوا راغبين في الانضمام إلى الحكومة العراقية التي أنشئت حديثاً[٥٠٠]. وقد ذهبت معاهدة سيفر في آب ١٩٢٠ بين الدول الغربية وتركيا، (إلى حد منح الاستقلال لأكراد تركيا والسماح لأكراد العراق بالانضمام إلى الدولة الكردية «المنشودة» إذا رغبوا في ذلك)[٥٠١].

وفي مؤتمر القاهرة الاستعماري - في آذار ١٩٢١- لتخطيط السياسة البريطانية في الشرق الأوسط (استقر رأي المؤتمر على القيام بمحاولة للتوثق من مدى رغبة الكرد في الاندماج في المملكة العراقية أو الانفصال عنها)[٥٠٢]. وهو ما لم يجر أبداً، إنما استخدم البريطانيون القضية الكردية دون الالتفات إلى معاناة الشعب الكردي لابتزاز

٤٩٨- المرجع السابق. ص١٧٨.

٤٩٩- المرجع السابق. ص١٧٨.

٥٠٠- د.عبد الرحمن البزاز. العراق من الاحتلال إلى الاستقلال. الطبعة الرابعة. لندن ١٩٩٧. ص٢١٣.

٥٠١- د.عزيز الحاج. القضية الكردية في العشرينات. بيروت ١٩٨٤. ص٣٦.

٥٠٢- راجع عبد الرزاق الحسني. تاريخ الوزارات العراقية. الطبعة السابعة. بغداد ١٩٨٨. الجزء الأول. ص٣٧.

وإضعاف الحكومة العراقية دائماً[٥٠٣]. واستخدمتها بعدهم قوى إقليمية ودولية كثيرة لنفس الغرض.

لقد رسمت السياسة الاستعمارية خرائط المنطقة بخبث شديد، ففصلوا ما فصلوا، وأضافوا ما أضافوا، ليخلقوا كيانات ضعيفة، أو ليؤسسوا لصراعات مزمنة. (ناهيك عن المشاكل الحدودية التي زرعها الاستعمار بين تلك الدول كقنابل موقوتة يتاح له تفجيرها وقت يشاء) [٥٠٤].

وهكذا قسموا سوريا الطبيعية إلى ثلاثة أو أربعة كيانات، وحتى سوريا الحالية، كانت قد قسمت إلى أربعة كيانات، قبل إعادة جمعها في دولة واحدة. وأقاموا عشرات الإمارات في الخليج والجنوب العربي، بينما سمحوا لابن سعود أن يوحد الجزيرة العربية، ويطيح حلفاءهم من الهاشميين في المملكة الحجازية.

وفيما يتعلق بالعراق، فقد ساندت بريطانيا، استقلال إمارة الكويت منذ ١٨٩٩ وكان عدد سكانها لا يزيد عن عشرة آلاف نسمة، وعندما صوت مجلسها البلدي المنتخب عام ١٩٣٨ بأغلبيته الساحقة على الانضمام إلى العراق، تم حل المجلس والتنكيل بأعضائه. بينما رفضت محاولات الأكراد المتكررة لإنشاء دولة مستقلة لهم.

ولا يعني هذا بالنسبة للكويت، تبني ادعاءات سابقة تجاوزها الزمن حتى لم يعد لها موضوع. وأصبح هناك ألف خط أحمر دونها. ولكنها إشارة اقتضاها الحديث عن السياسة الاستعمارية.

ان استمرار إلحاق المنطقة الكردية بالدولة العراقية، هو اليوم قرار دولي، تتداخل فيه مصالح كثيرة، على حساب حقوق الشعب الكردي، وعلى حساب مستقبل العراق

٥٠٣- راجع المرجع السابق. ص٥٤-٥٦ و٦٤.

٥٠٤- د. علي شريعتي. التشيع العلوي والتشيع الصفوي. ترجمة حيدر مجيد. بيروت. ٢٠٠٢ ص١٣٨-١٣٩.

واستقراره وعروبته، فبالإضافة إلى حق الأكراد المشروع ككل أمم الأرض في الوحدة والاستقلال، فإن جبال كردستان، ومنذ عام ١٩٦١ وباستثناء فترات قصيرة جداً، كانت دائماً خارج السلطة العراقية، وكانت أية دولة مجاورة – بالإضافة إلى أميركا وإسرائيل – تملك من النفوذ فيها أكثر من نفوذ العراق بكثير. ثم ان هذه القضية استنزفت قدرات العراق وهددت مستقبله، وكانت السبب الذي تناسلت منه حروب العراق، دون أن يقلل هذا من مسؤولية نظام صدام الاساسية. باختصار شديد: كان العراق دائماً رهينة القضية الكردية.

وقد آن الأوان لنمزق الخريطة البريطانية التي رُسمت للعراق في العشرينيات، ومن الممكن جداً، بل ومن الواجب، أن يكون الطلاق سلمياً ومنصفاً.

أما ما يسوقه بعض السياسيين العراقيين، عن دول مشابهة للعراق من أمثلة طيبة لتعدد القوميات في وطن واحد، كيوغسلافيا وجيكوسلوفاكيا[٥٠٥]، فلم يعد لها وجود. والحديث عن السلبيات والإيجابيات، وحساب الربح والخسارة، لم يعد له قيمة. والخوف من أن (الدولة الكردية) ستكون قاعدة استعمارية وصهيونية، لم يعد مجدياً، بعد كل ما عرفناه عن العلاقة السياسية والعسكرية والمخابراتية العميقة جداً بين الحركة الكردية وإسرائيل والتي مررنا على جوانب منها في هذا الفصل. وما يقال عن تهديد منابع المياه، يبدده وجود مصالح مشتركة ستجبر الطرفين على التعاون، كما حصل وبدقة في التسعينات. وستكون علاقة الأكراد بالعرب وبالعراق تحديداً، بعد إقامة دولتهم المستقلة، على أحسن حال، لأن العراق قد حقق لهم استقلالهم من جانب، ولأن خطراً شمالياً يتهددهم من جانب آخر.

أما ان تركيا أو غير تركيا، لن يسمحوا بإقامة دولة كردية في شمال العراق، فتلك مشكلتهم، فعندما تكون هناك قنبلة يريدون تفجيرها في بيتك، فلتنفجر في بيوتهم، ثم

٥٠٥- البزاز. المرجع السابق. ص٢١٢.

إلى متى يظل العراق حارساً لمصالح الآخرين؟ ولأمن تركيا على التحديد؟

ان العودة إلى الوحدة الوطنية، أظنه يفتقر إلى الثقة التي تحتاجها أي علاقة. فكلانا يحتاج إلى وقت طويل لينسى جراحه من الآخر. جراحهم هم من حرب الإبادة المجرمة، وجراحنا نحن من العلاقة المجرمة مع إسرائيل. فقد احتفل الملا البرزاني، مع محطة الموساد في كردستان بهزيمة العرب واحتلال القدس عام ١٩٦٧. وكان يقول لهم، أي لرجال الموساد، عشية الحرب: (عليكم أن تدمروا لهم مدرعاتهم ومشاتهم في غضون شهر بل دعنا نقول أسبوع)[٥٠٦]. إنه بذلك يذكرنا بإمام جامع حيفا، الذي وقف بعد حرب حزيران ١٩٦٧ مهنئاً ليفي اشكول رئيس حكومة العدو قائلاً: (ان الله نصركم وهزم عدوكم).

ويقال أن سامي عبد الرحمن، والذي يبدو أنه كان نائباً لرئيس جهاز الباراستن حتى عام ١٩٧٠، وربطه عمله هذا بعلاقة حميمة بالموساد الإسرائيلي، وبعد أن أصبح واحداً من وزراء (الحركة الكردية) في الحكومة العراقية بعد ١١ آذار ١٩٧٠، كان يسجل ما يدور في اجتماعات مجلس الوزراء العراقي، بساعة يدوية، لمصلحة الموساد الإسرائيلي. وفي رواية لرئيس الموساد زامير، عن العلاقة بين الملا مصطفى البرزاني وشخصيات كردية، ربما قد انشقت عنه والتحقت بالحكومة، يقول: (وقد تمكنا من خلق اتصال بينه وبين شخصيات عراقية كردية كانت تشغل مناصب رفيعة في السلطة)[٥٠٧].

مشكلة كركوك:

ان مشكلة كركوك، أو بعبارة أخرى قضية التركمان في العراق، لم يكن لها وجود قبل عام ١٩٨٠. (وتقع كركوك، وهي مركز نفطي، على بعد ١٨٠ ميلاً (٢٨٠ كيلومتراً) إلى

٥٠٦- نكديمون. المرجع السابق. ص١٩٤.

٥٠٧- المرجع السابق. ص٢٩٦.

الشمال من بغداد. وكانت مدينة تركية بكل ما في الكلمة من معنى حتى ماض غير بعيد، وانتقل الأكراد تدريجياً من القرى القريبة إلى هذه المدينة، وتكثفت هجرتهم إليها مع نمو صناعة النفط. وبحلول العام ١٩٥٩ كان الأكراد قد أصبحوا يشكلون حوالي ثلث السكان.. وشهدت مدن تركية أخرى، مثل أربيل، عملية مشابهة، لقد تكردت (أصبحت كردية) أربيل نفسها إلى حد كبير)[٥٠٨].

و(رفضت الحكومات العراقية المتعاقبة مطالب الأكراد بشأن كركوك ونفطها، وأشارت إلى أن المدينة عند مطلع القرن الحالي قبل البدء باستخراج النفط منها، مدينة تركمانية أساساً)[٥٠٩].

فمشكلة كركوك، أن التركمان يعتبرونها مدينة تركمانية، بل (مركز التركمان والعنوان الدال عليهم وهي أرض آبائهم وأجدادهم)[٥١٠]. بل وأن أكراد كركوك أو بعضهم (يصنفون أنفسهم تركماناً)[٥١١]. أما الأكراد فيعتبرونها جزءاً من كردستان العراق[٥١٢]. وجاء انقلاب ١٧ تموز بثالثة الأثافي، فحاول منذ أوائل السبعينات تغيير خريطة المدينة وتغليب العنصر العربي عليها، وكان التركمان والذين هم غالبية سكان كركوك ضحايا هذه السياسة، التي لم تقتصر على مدينة كركوك بل شملت كل مناطق التركمان الأخرى.

لقد وطنت عوائل عربية استقدمت من مناطق عراقية أخرى مقابل منحها امتيازات شتى، بينما منع التركمان من التملك في كركوك، وتم استبدال الأسماء التركمانية بأخرى عربية، وأجبرت العشائر التركمانية على تغيير نسبها إلى عشائر عربية، وتم

٥٠٨- بطاطو. العراق. الكتاب الثالث. ص٢٢٤.

٥٠٩- راندل. المرجع السابق. ص١٨٧.

٥١٠- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. الشهداء التركمان. ١٩٩٩. ص٤٢.

٥١١- بطاطو. العراق. الكتاب الأول. ص٦٧.

٥١٢- الخرسان. المرجع السابق. ص١٨٠.

تدمير وتفكيك أحياء وقرى تركمانية كثيرة[٥١٣]. وتصور النظام (أن صهر الوجود التركماني في كركوك والقضاء على آثارهم فيها يحتاج إلى ٢٠ أو ٢٥ سنة)[٥١٤]. وقد أدى هذا إلى نشوء قضية، لم يكن لها وجود أبداً قبل مجيء انقلاب ١٧ تموز، هي (القضية التركمانية).

و(للتركمان علاقة إيجابية وجيدة مع الشعب العربي في العراق حيث لم تشهد هذه العلاقة فترات فتور أو اضطهاد أو عنف و دماء)[٥١٥]. وقد استمر التركمان في ولائهم لكافة الحكومات العراقية الملكية منها والجمهورية.. ولم يتمردوا على أية حكومة أو نظام.. وان ولاءهم يبقى للعراق وللعراق وحده ويعتزون بهويتهم العراقية الخاصة[٥١٦].

والتركمان في العراق مسلمون قاطبة ويتوزعون على المذهبين الرئيسيين الشيعة والسنة بالتناصف تقريباً. وهذا التنوع المذهبي في الوسط التركماني أخرجهم من دائرة الشعور بالأقلية الضيقة، ومنحهم الشعور بالامتداد والارتباط بالدائرة الكبيرة للشعب العراقي[٥١٧].

وقد عانى التركمان الشيعة، مما عاناه العرب الشيعة، من اضطهاد طائفي، حتى في ظل الحكم العثماني[٥١٨]. المفارقة أن نظام صدام وكما يصف الشيعة العرب بأنهم فرس، فقد قال عن التركمان الشيعة على لسان السفاح علي حسن مجيد وبغباء بأنهم بتعاطفهم مع الثورة الإسلامية، يعودون إلى أصولهم الفارسية[٥١٩].

٥١٣- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. المرجع السابق. ص٥٧-٦٠.

٥١٤- المرجع السابق. ص٥٧-٦٠.

٥١٥- عباس البياتي. التركمان في العراق. مجلة الموسم. العدد العشرون ١٩٩٤. ص١٨٦.

٥١٦- راجع المرجع السابق. ص١٨٧.

٥١٧- المرجع السابق. ص١٨٥.

٥١٨- المرجع السابق. ص١٨٦.

٥١٩- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. المرجع السابق. ص٦٣٦.

أما التركمان السنة، فقد استفادوا من الصيغة الطائفية الحاكمة، بالقدر الذي استفاد منه غيرهم، وكان اندماجهم بسنة المدن قوياً، وعموماً (كان التركمان في العراق ولا يزالون عراقيين تعنيهم عراقيتهم أكثر مما يعنيهم التفكير في قوميتهم)[٥٢٠].

و(التركمان صنف من الأتراك يرجع أصولهم إلى بلاد تركستان في آسيا الوسطى[٥٢١]، (ويرجع تاريخ استيطان غالبية التركمان للعراق إلى هجرة القبائل التركمانية التي استطاعت تكوين دول لها في الشمال بين ١٤١١-١٥٠٨)[٥٢٢]. ولكن الكتّاب التركمان مجمعون على (ان تاريخ التركمان في العراق يعود إلى أكثر من ثلاثة عشر قرناً وليس إلى أربعة قرون)[٥٢٣]، بل هو (أقدم بكثير من استيطان الأتراك للأناضول)[٥٢٤].

يشكل التركمان (٢٪) من سكان العراق حسب إحصائيات بطاطو المستندة على الإحصاء الرسمي لعام ١٩٤٧[٥٢٥]، وأميل إلى أنها أدق من غيرها ولا يمكن للمرء الا أن يضع جانباً نسباً مبالغ بها ذكرتها مصادر تركمانية وتتراوح بين ١٠-١٥٪ من سكان العراق[٥٢٦]. ويعتمد الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق نسبة ٦٪ [٥٢٧]. وفي إحصائيات عراقية مخابراتية وضعت نسبة ٧٪ من سكان العراق للتركمان والمسيحيين معا[٥٢٨].

٥٢٠- شاكر صابر الضابط. موجز تاريخ التركمان في العراق. بغداد ١٩٦٠ ص١٢٩.

٥٢١- عباس البياتي. المرجع السابق. ص١٨٤.

٥٢٢- د. فاضل الأنصاري. مشكلة السكان (نموذج القطر العراقي) دمشق ١٩٨٠. ص٢٥.

٥٢٣- شاكر صابر الضابط. المرجع السابق. ص١٢١.

٥٢٤- فاضل دميرجي. ماضي وحاضر أتراك العراق. أنقرة ١٩٩١. ص٨.

٥٢٥- بطاطو. العراق. الكتاب الأول. ص٦٠. الجدول رقم ٣-١.

٥٢٦- فاضل دميرجي. المرجع السابق. ص٥١.

٥٢٧- عباس البياتي. الأمين العام للاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. مقابلة في دمشق في ٢٠٠٠/١٠/٢٤.

٥٢٨- اللواء وفيق السامرائي. حطام البوابة الشرقية. الكويت. ١٩٩٧. ص١٨٨-١٨٩.

واحتجت تركيا عام ١٩٨٠ على إعدام قوميين تركمان، فردت الحكومة العراقية بحسم (إذا كان هؤلاء من مواطنيكم فخذوهم إليكم، أما إذا كانوا مواطنينا، فلا نسمح لأحد بالتدخل في شؤوننا الداخلية)، فتناست تركيا التركمان، بسبب مصالحها الاقتصادية الضخمة في العراق، وبسبب الدور القادم للنظام العراقي في مهاجمة الثورة الإيرانية.

إلا أن تركيا بالكاد تستطيع إخفاء مطامعها في ولاية الموصل السابقة (شمال العراق) كلما ضعف العراق. وقد مررنا على جانب من دورها في القضية الكردية، أما بالنسبة للقضية التركمانية، فقد عادت في التسعينات -بعد أن نستها في الثمانينات- إلى التدخل فيها، الا أنها لا تملك أية رؤية محددة بشأنها، وهو ما ينعكس بوضوح في مواقف حلفائها (القوميين التركمان)، والذين تدعمهم بقوة رغم أنهم أقلية لا تحظى بالشعبية وتعاني من خلافات حادة. وقد توقفت تركيا منذ عام ١٩٩١ عن منح أي تركماني عراقي، الجنسية التركية بعد سنتين من إقامته بتركيا، كما كانت تفعل من قبل، حتى لا تشجع الهجرة التركمانية من العراق خاصة في ظروف الحصار الصعبة على جميع العراقيين.

وتستخدم تركيا (القضية التركمانية) أيضاً للحد من المطالب الكردية، أو (إلى تخفيف اللون الكردي في شمال العراق)[٥٢٩]. وهي تصر وتركمان العراق على هذه التسمية، أي شمال العراق، وأجبرت الأكراد على اعتمادها في اتفاقاتها المكتوبة معهم[٥٣٠].

في عام ١٩٧٩، وكما هو الحال في كل مناطق العراق، بدأ النظام حربا دموية ضد التيار الإسلامي، الواسع الانتشار والمتجذر في صفوف التركمان. وكان (الشيخ عباس فاضل صادق) أول تركماني يعدم في تاريخ العراق وذلك في ١٩٧٩/٧/٣. وبلغت الحملة ذروتها في ٢٤ حزيران ١٩٨٠ والذي يعتبره التركمان يوما لشهدائهم الذين هم شهداء

٥٢٩- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. الساحة التركمانية. ١٩٩٧. ص١١٩.

٥٣٠- المرجع السابق. ١٩٩٧. ص١١٩.

العراق أيضا[٥٣١].

يطمح التركمان في العراق، إلى رفع الحيف عنهم، واحترام حقوقهم الثقافية، ومساواتهم مع الآخرين أمام القانون وبما يحقق تكافؤ الفرص للجميع [٥٣٢].

وعند ذكر التركمان، لابد من ذكر الدكتور مصطفى جواد التركماني الأصل، واكبر علماء النحو واللغة العربية منذ القرن الثاني الهجري، أي منذ عصر الفراهيدي وسيبويه. والعلامة الذي لا يُدانى في التاريخ والآثار والمخطوطات العربية والإسلامية. والذي عندما أرسل في بعثة دراسية إلى فرنسا (كتب المستشرق ماسينيون إلى وزارة المعارف العراقية.. كلمة شكر لأنها أرسلت في بعثتها رجلا كمصطفى جواد تتعلم الجامعة منه وليس يتعلم هو منها) [٥٣٣].

أقليات دينية:

مادمنا قد تحدثنا عن الأكراد والتركمان، فلا بد من الإشارة إلى ثلاث من الأقليات الدينية في شمال العراق، والتي يدعي كل من العرب والأكراد والتركمان ان هذه الطائفة أو تلك منهم. وارى ان لكل من هذه الطوائف خصوصيتها، بحيث يصعب دمجها في أية قومية.

ومن المفيد القول هنا، ان العراق ليس فسيفساء أو كياناً مصطنعاً. فهذا الغنى (القومي والديني)، ان صح التعبير، هو ما يميز كل البلدان العريقة كبريطانيا وروسيا والصين وغيرها، ناهيك عن بلدان العالم الجديد كالولايات المتحدة وأوستراليا.

٥٣١- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. الشهداء التركمان. ص٨٢ و ١٢٠ و١٢٩.

٥٣٢- عباس البياتي. التركمان في العراق (مرجع سابق). ص١٨٧. ومقابلة مع عباس البياتي سبق ذكرها. ومقابلة مع آخرين من الاتحاد الإسلامي في دمشق (٢٠٠٢/٣/٧).

٥٣٣- جعفر الخليلي. هكذا عرفتهم. الجزء الثالث. بيروت (سنة الطبع مغفلة). ص٨٧.

ولكن مشكلة العراق، التي هددت كيانه، وأعطت الفرصة للتشكيك في وجوده، هو حكومته الفردية والعشائرية والطائفية، والتي فرقت بين أبناء القومية العربية فيه، واضطهدت اقلياته القومية والدينية. أما الأقليات الثلاثة موضوع حديثنا الآن، فهي:

١ - الشبك[٥٣٤]:

جماعة يصنفهم البعض بأنهم من الغلاة. (والمعروف ان الغلاة مع الإطلاق من يعتقد إلهية علي أو غيره من الأئمة)[٥٣٥]. ويقطن الشبك اكثر من عشرين قرية في الجانب الشرقي من الموصل. وقدر صحفي بريطاني عددهم عام ١٩٨٨ بعشرين ألفا.

ولسانهم خليط من الكردية والعربية والفارسية والتركية، وهذه الأخيرة غالبة على لسانهم. ولم يقطع الصراف في اصل الشبك فقال المظنون انهم من عنصر كردي أو تركي. ويقول بطاطو: (أما دين الشبكيين، الذين يتكلمون الكردية هم أيضا، فيحتوي على سمات اليزيدية والشيعية)[٥٣٦].

ويقول الصراف: (الشبك ألين أخلاقا من سائر التركمان القاطنين في قرى الموصل الشرقية.. وهم أهل زرع وضرع ومازالت البداوة قائمة فيهم.. وهم اشد الناس حرصا على أعراضهم.. ومن خصائصهم انهم اكثر الطوائف تعصبا للعلويين وأشدهم تعلقا بهم وعندهم ان المرء المنحدر من صلب النبي نور وعطر.. لذلك يرى الشبكي وجود السيد الهاشمي في قريته بركة ورحمة.. وقد اهتدى كثير من الشبك فعادوا إلى حضيرة الاثنى عشرية)[٥٣٧].

٥٣٤- ما لم يذكر خلاف ذلك. فالمرجع الأساسي هنا، أحمد حامد الصراف، الشبك، بغداد ١٩٥٤.

٥٣٥- المحقق الحلي. شرائع الإسلام.شرحه وعلق عليه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب. بيروت ١٩٨٨.الجزء الأول.ص٩٨ (حاشية).

٥٣٦- بطاطو. العراق. الكتاب الأول. هامش الجدول (٣-١). ص٦٠.

٥٣٧- أحمد حامد الصراف. المرجع السابق. ص١٣٩.

٢- اليزيدية:

(يعتنق اليزيديون.. ديانة توفيقية تؤلف ما بين المعتقدات الزرادشتية، والثنوية الفارسية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، ويعيشون في جماعات معزولة ومبعثرة في جنوب تركيا قرب الحدود السورية والعراقية، في شمال شرق سوريا في منطقة الجزيرة وفي منطقة عفرين في شمالها الغربي، وفي محيط جبل سنجار في شمال غرب العراق، وشمالي مدينة الموصل، ومنذ القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، تم إحصاء عشرين عملية إبادة جماعية نفذها الأتراك ضد اليزيديين)[٥٣٨].

أما المؤرخ عبد الرزاق الحسني، والذي له رسالة مطولة عنوانها (اليزيديون في حاضرهم وماضيهم) فيقول عنهم: (وقد درسنا نحن هذا الموضوع درساً عميقاً.. فوصل بنا التدقيق إلى أن هذه الطائفة كانت تدعى (العدوية) عند ظهور مبدعها الشيخ عدي بن مسافر الأموي، وكان من آراء هذا الزاهد المتصوف صلاح يزيد بن معاوية، واعتقاده بصحة خلافته، ومن هذا الاعتقاد المجرد، نشأ اعتقاد اليزيديين أتباعه به، إلا أن هذا الاعتقاد تطور بهم إلى درجة الغلو في (يزيد) حتى اعتقدوا فيه إلها، واستغرقوا في الضلال والأوهام حتى أصبحوا كفاراً في نظر المسلمين)[٥٣٩].

ويرفض كاتب يبدو أنه من أصل يزيدي هذه الرواية تماماً، ويقول: (أما اليزيديون أنفسهم فيؤكدون أن الشيخ عدي أتى من الشام إلى منطقة (حكار - هكار) في جبال لالش، واستطاع أن يجمع حوله جماعة اليزيدية) ولكن (تاريخ العقيدة اليزيدية أبعد من تاريخ ظهور الشيخ عدي)[٥٤٠]، ورغم اعتراف الكاتب بأنها أصبحت (لغزاً حيّر الباحثين) إلا أنه يخلص بأن (اليزيدية أقدم من الزرادشتية) ثم يضيف جازماً: (لذا

٥٣٨- راندل. المرجع السابق. ص٤٤.

٥٣٩- الحسني. تاريخ الوزارات العراقية. الطبعة السابعة. بغداد. ١٩٨٨. الجزء الرابع. ص١٤٦.

٥٤٠- شيخ علي. حول اليزيدية. الثقافة الجديدة. العدد ٢٠٥ كانون الثاني ١٩٨٩. ص٨٢.

من الواجب تعديل ما قاله سابقاً كثير من الباحثين حول أن اليزيدية في الأصل هي الزرادشتية.. العكس هو الصحيح. ويمكن أن نقول في هذا الصدد أنه بظهور الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية وانتشارها الواسع دخلت عناصر منها في الديانة اليزيدية)[٥٤١].

ويقول عنهم بطاطو: (دين اليزيديين، وهم شعب من أصل كردي، هو في الأساس دين مركب ويشتمل الزرادشتية والمانوية (أحد الأديان الفارسية) والنسطورية والإسلام وعناصر أخرى ومركز الحياة الدينية لليزيديين هو مقام وليهم الشيخ عدي قرب عين سفني شمال شرق الموصل)[٥٤٢].

و(يعتقد اليزيديون بوجود إلهين: إله الخير وإله الشر، ويرمزون إلى الثاني بالشيطان والذي يعبدونه دفعاً لشره ولاعتقادهم بأن إله الخير لا يفعل بهم شرا)[٥٤٣]. وبخلاف ذلك يقول كاتب آخر: (ان اليزيديين يعتبرون نعتهم بـ «عبدة الشيطان» إهانة ومسبة لهم)[٥٤٤].

يقول الحسني بأن من عاداتهم: أنهم يمنعون أبناءهم من تعلم القراءة والكتابة، ويحرمون أكل الخس وحلق الشوارب ولبس الأزرق وتقليم الأظافر ودخول الحمامات والمراحيض.. وغيرها[٥٤٥]. (كما تنظر اليزيدية بعين التقديس للعناصر الأربعة (النار - التراب - الهواء - الماء) ولكل يوم من أيام الأسبوع (إله) ويوم الأربعاء من الأيام المقدسة لديهم)[٥٤٦].

٥٤١- المرجع السابق. ص٨٦.

٥٤٢- بطاطو. العراق. الكتاب الأول. هامش الجدول(٣-١) ص٦٠

٥٤٣- الحسني. المرجع السابق. ص١٤٧.

٥٤٤- شيخ علي. المرجع السابق. ص٨٥.

٥٤٥- الحسني. المرجع السابق. ص١٤٧.

٥٤٦- شيخ علي. المرجع السابق. ص٨٤.

يبلغ عدد نفوسهم في العراق، في إحصاء عام ١٩٦٥ (٦٥،٧١٥) نسمة[٥٤٧]. ويشكلون والشبكيون ما نسبته (٠،٨٪) من الشعب العراقي[٥٤٨]، حسب تقديرات بطاطو المبنية على إحصاء عام ١٩٤٧.

و(يعد تاريخهم غامضاً إذ تختلف الآراء في تحديد أصولهم، ويرجعهم بعضهم إلى العنصر نفسه الذي ينتمي إليه الأكراد، في حين ينسبهم آخرون إلى أصل فارسي قديم.. ويرى فريق ثالث من الباحثين أنهم عرب، تأثروا مع الزمن بالكردية والفارسية القريبتين من مناطقهم)[٥٤٩].

قاوم اليزيديون الميالون إلى الانغلاق والانعزال، محاولات نظام صدام حسين الشمولي لإخضاعهم، فانضموا إلى هذا الجانب أو ذاك من أعدائه، وتعرضوا إلى الكثير من التصفيات.

٣- الآشوريون أو الآثوريون أو التياريون:

(قبائل مسيحية كانت تقطن جبال «هكّاري» الواقعة عند الجانب الآخر من الحدود مع تركيا.. ففي الحرب العالمية الأولى، قاتل مسيحيو جبال «هكّاري» إلى جانب القوات الروسية، وحاربوا الأتراك الذين سارعوا إلى طردهم من مناطقهم، فلجئوا إلى المنطقة المجاورة لبحيرة «أرومية» في إيران، وعمد البريطانيون إلى تجنيد هؤلاء المحاربين الجبليين الذين أطلق عليهم اسم (المجندين الآشوريين) في سياق السياسة البريطانية الاستعمارية القائمة على استخدام أبناء الأقليات لفرض الأمن والنظام)[٥٥٠]. (مما

٥٤٧- الحسني. المرجع السابق. ١٤٦

٥٤٨- بطاطو. المرجع السابق. الجدول (٣-١)ص٦٠.

٥٤٩- د.فاضل الأنصاري. المرجع السابق. ص٢٥.

٥٥٠- راندل. المرجع السابق. ص٣٢٧.

أوجد ضغائن كثيرة بينهم وبين أهل البلاد الشرعيين)[٥٥١].

(ان الآمال الكبيرة التي كان البريطانيون والتياريون يعلقونها على استعادة الآثوريين مواطنهم في جبال هكاري، بددها القرار الذي اتخذته عصبة الأمم في كانون الأول سنة ١٩٢٥ وهو القرار الذي ألحق القسم الأعظم من تلك المواطن بالبلاد التركية)[٥٥٢]. وقد رفضت تركيا عودة الآثوريين إلى بلادهم، كما رفضت إسكانهم في العراق على مقربة من حدودها. وقد نظرت بريطانيا في نقلهم إلى إحدى مستعمراتها(٥٥٣)، إلا أنها وجدت أن الحل الوحيد الممكن تطبيقه بسهولة هو إسكانهم في المناطق الخصبة في شمال العراق[٥٥٤].

ولما كان العراق على وشك الدخول في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ أرسلوا عرائض إليها، طلبوا فيها إما ترحيلهم من العراق، وإما استمرار الانتداب البريطاني [٥٥٥].

وفي عام ١٩٣٣، حدث التمرد الآثوري الشهير، والذي قمع بشدة متناهية رافقها سلب ونهب. و(قد بلغت ضحايا المتمردين ٨٥٠ نسمة بين قتيل وجريح، أما ضحايا الجيش فكانت ثمانين بين قتيل وجريح)[٥٥٦]. إلا أن كاتباً آشورياً قدر الضحايا الآشورية بأكثر من ثلاثة آلاف[٥٥٧]. ولابد من القول هنا، إن أغلب الآشوريين لم يشاركوا بالتمرد، بل وقاتل بعضهم إلى جانب الحكومة.

٥٥١- الحسني. المرجع السابق. الجزء الأول. ص١٨٣.

٥٥٢- المرجع السابق. الجزء الثالث. ص٢٦٠.

٥٥٣- البزاز. المرجع السابق. ص١٧٠.

٥٥٤- راجع الحسني. المرجع السابق. الجزء الأول. ص٢٠٨-٢١٠ (حاشية).

٥٥٥- المرجع السابق. الجزء الثالث. ص٢٦٢.

٥٥٦- المرجع السابق. ص٣٠٤ (حاشية).

٥٥٧- وليام وردة. الآشوريون في العراق.. التاريخ والحاضر. مجلة دراسات عراقية. العدد التاسع. كانون الثاني (يناير) ١٩٩٩. ص١٩٣.

وبعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ ألغى النظام القرارات التي صدرت بحق المتمردين من الآشوريين عام ١٩٣٣ ومنها نزع الجنسية عن بضعة أفراد منهم. وعموماً (فبين عام ١٩٧٠ إلى ١٩٧٨ أتاح المناخ السياسي السائد في العراق.. للآشوريين فرصة تأسيس بعض المؤسسات القومية الخاصة بهم.. وشهدت تلك الفترة نهضة ثقافية حقيقية، برهنت على رغبة حقيقية للعمل القومي الآشوري)[٥٥٨] كما يقول كاتب آشوري.

ولكن النظام اكتشف عام ١٩٧٦ وبالصدفة نشاطاً سرياً معادياً له في أوساطهم. إذ بلّغ السفارة العراقية بقطر أحد العاملين منهم بالخليج عن تفاصيل ذلك النشاط. حيث قام ومن بداية السبعينات (جيل من الشباب الآشوري.. بتشكيل تجمعات وكتل كل واحدة مستقلة عن الأخرى، للقيام بنشاطات وفعاليات تلتزم العمل القومي)[٥٥٩].

ويصر بعض الكتاب العراقيين بأن (الآثوريين هم غير الآشوريين الساميين القدماء[٥٦٠]، وعلى أية حال (يختلط بالآثوريين اختلاطاً شديداً (الكلدان والسريان) بحكم اللغة السريانية والآرامية التي يتكلمون بها، وبحكم العقيدة النسطورية التي يؤمن بها السريان، وهي عقيدة غالبية الآثوريين)[٥٦١]، الا أن لكل منهم بطريرك، ويقع مقر البطريرك الكلداني لجميع العالم في بغداد. وقد خدم الكلدان والسريان اللغة العربية والتراث العربي كثيراً.

ويميل الآشوريون - ككل الأقليات - إلى تضخيم أعدادهم، ويذكر ورده بأن (تعداد الآشوريين في العراق ما يقارب ١،٥ مليون نسمة)[٥٦٢]، وهو رقم مبالغ فيه جداً، إذ

٥٥٨- المرجع السابق. ص١٩٣.

٥٥٩- المرجع السابق. ص١٩٣.

٥٦٠- الأنصاري. المرجع السابق. ص٢٦ وراجع أيضا البزاز. المرجع السابق. ص١٦٨ (حاشية) والحسني. المرجع السابق. ص٢٥٥ (حاشية).

٥٦١- الأنصاري. المرجع السابق. ص٢٧.

٥٦٢- وليام وردة. المرجع السابق. ص١٩٢.

تبلغ نسبة المسيحيين حسب تقديرات بطاطو ٣،١٪ من الشعب العراقي[٥٦٣]. (وتفيدنا إحصائية مجلة «الفكر المسيحي» للعام ١٩٧٧.. أن عدد مسيحيي العراق ٥٠٠،٠٠٠ (نصف مليون) وموزعون هكذا: الكلدان: ٣١٦,٠٠٠، الآشوريون: ٨٣،٠٠٠، السريان الكاثوليك: ٤٠،٥٠٠٠، السريان الأرثوذكس: ٣٩،٧٠٠، اللاتين:٣،٥٠٠، الأرمن الكاثوليك: ٣،١١٨، البروتستنت:٣،٧١٥، الروم الأرثوذكس: ١٤،٥٠٠، الأقباط: ١،٥٠٠، الروم الكاثوليك: ٥٠٠، السبتيون: ١،٥٠٠)[٥٦٤]. وحالياً (ان في العراق نحو ٦٥٠ ألف مسيحي، ٧٠-٧٥ بالمائة كلدان، وان الذين تركوا العراق منذ التسعينات نحو ١٥٠ ألفاً[٥٦٥]. وللأسف الشديد، فإن هجرة مسيحية واسعة جداً من العراق قد حدثت بعد الحصار. وقد دعا كاتب هذه السطور[٥٦٦] وآخرون إلى وقف هذه الهجرة حتى لا يفرغ العراق من مسيحييه.

ويجب أن نذكر هنا، أنه توجد إشارات عن اتصالات مبكرة للموساد بوجوه آشورية[٥٦٧]. وعلى أي حال إن عراق المستقبل يجب أن يرعى مسيحييه الذين هم جزء أصيل من سكانه وتاريخه بكل حب وتقدير، وأن يتمتعوا بفرص متساوية مع الجميع.

٥٦٣- بطاطو. العراق. الكتاب الاول. الجدول رقم ١-٣ص٦٠.

٥٦٤- الأب الدكتور يوسف حبي. قراءة في مستقبل مسيحية العراق. الملف العراقي. العدد ٥٦، آب/ أغسطس ١٩٩٦. ص٥٥.

٥٦٥- المرجع السابق. ص٥٥

٥٦٦- نشرت مجلة (المجلة) عام ١٩٩٢ مقالاً للكاتب بهذا المعنى.

٥٦٧- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٩.

الفصل السادس

المعضلة الأساسية
الطائفية

(ما زلنا أفراداً.. وطوائف.. وعشائر
لم نصل درجة المواطنة بعد)
صلاح الدين البيطار

يتناول هذا الفصل طائفية الحكم في العراق. (فالطائفية ليست الدين ولا التدين[٥٦٨]. و (تبدأ المشكلة الحقيقية عندما.. تصبح الأقلية أو الطائفة حزبا سياسيا وقناة للسلطة)[٥٦٩]. أي (عندما تتلقى جماعة أو مجتمع ما معاملة مختلفة، وغير متساوية مع المعاملة التي يتلقاها الآخرون)[٥٧٠]. وتبلغ المشكلة ذروتها - كما جرى بعد انقلاب ١٧ تموز - عندما يقمع الآخر، وتجرم معتقداته، وتجري محاولات حثيثة لتغييرها.

ان الطائفية - كظاهرة اجتماعية - اقل حدة في العراق من أي بلد عربي أو إسلامي آخر. ولكن طائفية الحكم فيه، ورغم طابعها غير المعلن والحديث الدائم عن المساواة بين المواطنين، اكثر حدة من أي بلد عربي أو إسلامي عدا لبنان. فهي معضلة العراق

٥٦٨- د. برهان غليون. المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. بيروت ١٩٧٩. ص٢٠.
٥٦٩- المرجع السابق. ص١٩.
٥٧٠- سامي ذبيان وآخرون. المرجع السابق. ص١٦٠.

الأساسية، والتي أضحت اليوم اكثر انفجاراً، واكثر خطراً على مستقبله.

ذلك (مع ان معظمهم ينكر وجود المشكلة أصلا، ويصبح الحديث عنها هو الطائفية[٥٧١]، حتى (ان الشيعة العراقيين أنفسهم غير متفقين على ان المشكلة الطائفية هي المشكلة الأساسية في العراق)[٥٧٢]. ومن الضروري التأكيد هنا بأن (الأكثر عنفا في الحرب الطائفية والأكثر حماسا لها هم أولئك الذين ينكرون الدين بشكل عام أو لا يمارسونه ولا يعتقدون به فعلاً)[٥٧٣].

وتاريخيا، فان المعضلة الطائفية في العراق، هي إرث عثماني قبل أن تصبح صناعة بريطانية. يقول كامل الجادرجي: (كانت الطائفة الشيعية تعد في زمن السلطان عبد الحميد، وبالحقيقة في زمن الدولة العثمانية أقلية تنظر إليها الدولة بعين العداء. فلم تفسح لها مجالات التقدم في أية ناحية من نواحي الحياة العامة. ومن الأمثلة البارزة على ذلك انها كانت لا يقبل لها تلميذ في المدرسة الحربية، ولا يقبل منها فرد في وظائف الدولة.. وحتى في مدارس الدولة الإعدادية القليلة، كانت توضع العراقيل في طريق دخول أبناء الطائفة فيها)[٥٧٤]. وكمثال على تلك العراقيل يقول توفيق السويدي في ترجمة حمدي الباججي رئيس الوزراء الأسبق: (اسمه محمد باقر في الأصل، لان جده عبد الرحمن الباججي كان تفضيليا يميل إلى العلويين، غير ان المدرسة طلبت من أبيه ان يبدل هذا الاسم بآخر)[٥٧٥].

٥٧١- الدكتور سعيد السامرائي. حول المشكلة الطائفية في العراق. مجلة الموسم. العدد الرابع عشر ١٩٩٣ ص٣٦.

٥٧٢- المرجع السابق. ص٤٠.

٥٧٣- د. برهان غليون. المرجع السابق. ص٧٤.

٥٧٤- كامل الجادرجي. من أوراق كامل الجادرجي. بيروت ١٩٧١. ص٨٦.

٥٧٥- توفيق السويدي. وجوه عراقية عبر التاريخ. لندن ١٩٨٧ ص١٢٢.

المفارقة (فيما أعطت الدولة العثمانية لليهود والمسيحيين في العراق حق اختيار أو تعيين مندوب لهم في مجلس المبعوثين (البرلمان العثماني). وعلى الرغم من صدور الدستور العثماني عام ١٩٠٨ الذي اعتبر ثورة ديمقراطية ودعوة شاملة للحرية والمساواة بين مواطني الدولة فقد حرم الشيعة من حق التمثيل عن مدنهم)[٥٧٦].

وقد دفع عرب العراق، شيعة وسنة، ثمن الصراع الدامي بين الدولتين، العثمانية التي تغطت بالمذهب السني، والصفوية التي تغطت بالمذهب الشيعي. (واصبح أهل العراق بين فوهتي المدفع الفارسي مرة والمدفع التركي مرة.. وكان كل منهما، في نظر طائفته، بطلا فاتحا ومثالا للعدل والرحمة)[٥٧٧].

ويبدو ان سنة العراق لم يغفروا للدولة الصفوية مذابحها وجرائمها بحقهم. فظلوا ينظرون إلى إيران بأنها خطر دائم[٥٧٨] على العراق، وبأنها (شر مطلق)، وهو ما سماه الدكتور سعيد السامرائي بـ (عقدة إيران)[٥٧٩]. وقد تصاعدت هذه الكراهية اللاعقلانية في سنوات الحرب مع إيران وما بعدها، حتى بلغت مستوى الشتائم السوقية، كما كان يجري- مثلاً - في مهرجانات شعراء العامية، والتي كان صدام يحرص شخصياً على حضورها. وكان إلزامياً تحت طائلة السجن والإعدام، على تلاميذ المدارس وأئمة الجوامع وموظفي الحكومة، الهتاف والدعاء يومياً، كما يفعل الإعلام الرسمي، ضد ما يسمونهم (الفرس المجوس).

٥٧٦- حسن العلوي. الشيعة والدولة القومية في العراق. الطبعة الثانية ١٩٩٠. محل الطبع مغفل. ص٥٩.

٥٧٧- المرجع السابق. ص٥٠-٥١.

٥٧٨-راجع مثلاً. د. عبد العزيز الدوري. الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت ١٩٨٠. الطبعة الثانية. ص٩٦.

٥٧٩- د. سعيد السامرائي. المرجع السابق. ص٣٧.

الأخطر من ذلك ان الوجه الآخر لهذه العقدة هو الموقف من شيعة العراق، أي الآراء التي تراوحت بين اعتبارهم فرساً[٥٨٠]، وبين اعتبارهم عملاء لإيران[٥٨١].

وعلى العكس من ذلك، فإن الفكر الشيعي عموماً، حتى في إيران نفسها، يرى بأنه (مع انكسار الدولة العثمانية تعرض الإسلام كقوة سياسية وعسكرية إلى هزيمة، وبات الطريق معبداً أمام القوى الاستعمارية للهجوم على الشرق وبخاصة الدول الإسلامية[٥٨٢]. وذهب بعض من هذا الفكر إلى اعتبار قيام الدولة الصفوية شق لوحدة المسلمين، بل وخروج على الإسلام، وخيانة له. يقول المفكر الايراني الدكتور علي شريعتي: (من القضايا الواضحة وجود ارتباط بين الصفوية والمسيحية حيث تضامن الاثنان لمواجهة الإمبراطورية الإسلامية العظمى.. إبان الحكم العثماني وشكلت خطراً جدياً على أوربا[٥٨٣].

وقد قاتل شيعة العراق دفاعا عن الدولة العثمانية، فيما عرف في التاريخ العراقي بـ (الجهاد). وقاد أكابر علمائهم - رغم طبيعتهم المسالمة وكبر سن أكثرهم - المجاهدين في سوح القتال. ولولا أولئك العلماء ما كانت حركة الجهاد أصلا، خاصة ان الشعب العراقي كله كان ناقما على الحكم العثماني وفساده وتعسفه ووحشيته[٥٨٤]. ومما له

٥٨٠- راجع مثلاً، عبد الرزاق الحصان. العروبة في الميزان. بغداد ١٩٣٣. وأيضا العلوي. المرجع السابق. ص٤٧.

٥٨١- راجع جريدة الثورة (جريدة الحزب الحاكم)،نقد الشعب العراقي، التأثير الطائفي الإيراني، عدد ٤ نيسان ١٩٩١ وما بعده.

٥٨٢- مقدمة كتاب معرفة الإسلام. نقلاً عن الدكتور علي شريعتي. التشيع العلوي والتشيع الصفوي. ترجمة حيدر مجيد. بيروت ٢٠٠٢ ص٦٩.

٥٨٣- راجع شريعتي. المرجع السابق. ص٢٠٦.

٥٨٤- د. وميض جمال عمر نظمي. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق. بيروت ١٩٨٤. ص٣٩٤-٣٩٥.

دلالته، ان اغلب العلماء الذين قادوا (حركة الجهاد) هم من أصول إيرانية. في حين (ان علماء المؤسسة التركية لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد، وإنما بدؤوا يتصلون برجال الاحتلال البريطاني عارضين على الإنكليز تأييدهم)[٥٨٥].

وهو ما يمثل ردا حاسما على دعاوى (المؤامرة الفارسية) التي يصم بها مهووسو الطائفية علماء الشيعة[٥٨٦].

ويعلق العلوي على دور الشيعة في حركة الجهاد قائلاً: (قد لا يأتي بالثناء عليهم دائما. فهناك مجال واسع للاعتقاد، بأنهم بسطاء ومثاليون ربطوا مصيرهم بمصير دولة مهزومة، كانت مثالا للجور والاستبداد، وانهم عاطفيون للغاية حين استفزهم منظر الجيش غير المسلم الذي غزا ارض الإسلام)[٥٨٧].

٥٨٥- العلوي. المرجع السابق. ص٦٢.

٥٨٦- انظر مثلا، الاتجاه الآخر، نشرة يصدرها (مشعان الجبوري) في دمشق، العدد ٢١، ٢٠٠١/٧/٤، ص (١١). حيث ورد ما نصه عن علماء النجف: (وعملوا ضمن فريق عمل طويل عريض في النجف على تشجيع العادات الفارسية وتوزيع الأموال لإحيائها.. وتخصيص يوم لزيارة طاق كسرى في عاصمة الفرس الشتوية (المدائن) كما زرعوا الفتنة والعداوة بين السنة والشيعة في العراق)!!

وما نصه: (لعبة الإيرانيين الذين طلب إليهم أسيادهم في دوائر المخابرات الإيرانية تسلم زمام شؤون الدين في العراق.. لأنهم من ابغض الناس للعراق والعراقيين، انهم يعيشون الحقد الفارسي على العنصر العربي بكل ما لهذه العبارة من دلالات)!!

وأيضا ما نصه: (انهم يريدون خداع الشعب العربي في العراق بتواضع مصطنع وتدين ظاهري فيما يغلي في صدورهم حقد رستم وفارس)!! وقد علق كاتب على هذا الهذيان قائلا (انها نفس (المدرسة الطائفية) المتخلفة، تواصل شن حربها القذرة، دون ان تغير هزائمها المنكرة وما جرته من نكبات على عراقنا الحبيب وفلسطيننا المغتصبة وامتنا، من طريقة تفكيرها أو أسلوبها). الموقف العدد ٢٤٧، ٢٣ آب ٢٠٠١، ص٦.

٥٨٧- العلوي. المرجع السابق. ص٧٦.

وأظن ان موقف الإسلاميين (سنة وشيعة) من الدولة العثمانية، باعتبارها رمزا للاسلام وحامية لوحدة المسلمين، والذي لا يزال كما هو حتى اليوم، يحتاج إلى إعادة نظر. فالدولة العثمانية ما كانت كذلك باي معنى من المعاني، بل نشأت كإمارة لقبيلة مسلمة مثل إمارات الخليج اليوم، وتوسعت بالغزو والضم. ثم امست الرجل المريض الذي حاولت أوروبا إبقاءه أطول فترة ممكنة، ليبقى العالم الإسلامي ممزقا ومتخلفا، حتى تحسم صراعاتها أي (الصراعات الأوروبية)، ومن ثم تقتسم تركة (الدولة العثمانية) فيما بينها. وهذا ما عرف في أوروبا بالمسألة الشرقية. فلا اعتقد ان من الحكمة، الدفاع عن (الدولة العثمانية) التي كانت عنصرية وطائفية وفاسدة، وكانت السبب في تخلف البلاد العربية لأكثر من أربعة قرون. وكان سقوطها من الناحية التاريخية حتميا.

وحاول الاستعمار البريطاني - كعادة أي استعمار - اللعب على التناقضات المحلية التي خلفتها الدولة العثمانية. فعندما اجتمع ويلسون الحاكم البريطاني للعراق، في آب ١٩٢٠، مع رجال من الحركة الوطنية في بغداد، (لم يجد ويلسون وترا آخر يضرب عليه سوى تهديدهم بالأقلية الكردية وبالعنصر الشيعي القوي في الفرات. فكان جوابهم على هذا التهديد: ان هذين الفريقين فلاحون جهلة من السهل إبقاؤهم على وضعهم الحالي، حيث يمكن إبقاء الأكراد على وضعهم عن طريق التحاسد المتبادل بين رؤسائهم، أما الشيعة فيمكن ذلك بالطريقة نفسها وبواسطة العلماء الذين هم منسجمون مع الحركة الوطنية)[٥٨٨].

تقول المس بيل السكرتيرة الشرقية للحاكم البريطاني العام في العراق في رسالة إلى أبيها مؤرخة في ١ حزيران ١٩٢٠ ما نصه: (ان المتطرفين اتخذوا خطة من الصعب

٥٨٨- د. علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. الجزء الخامس. القسم الثاني. بغداد ١٩٧٨. ص٩.

مقاومتها: وهي الاتحاد بين الشيعة والسنة)[٥٨٩]. كان الجانب المكمل لهذا الخوف من وحدة العراقيين، هو كراهية المحتل البريطاني لشيعة العراق. تقول المس بيل: (أما أنا، شخصياً، فأبتهج وافرح أن أرى هؤلاء الشيعة الأغراب يقعون في مأزق حرج، فإنهم من أصعب الناس مراساً وعناداً في البلاد)[٥٩٠].

(كانت السياسة البريطانية في العراق، منذ البدء.. تقوم على إقصاء جميع الشيعة عن المناصب الرفيعة المسؤولة)[٥٩١]. (وقد توقعت دائرة الاستخبارات البريطانية أن تؤدي هذه السياسة إلى الإيقاع بين الطائفتين، وخلق حالة من سوء التفاهم)[٥٩٢]. أي بين السنة والشيعة في العراق.

وحتى لا يشاركوهم في امتيازات الحكم، وبفعل إرث عثماني طويل، لاقت سياسة بريطانيا لإقامة سلطة طائفية، هوى وتأييداً وتبنياً من الذين جاءت بهم إلى الحكم وأعوانهم. وهم من بقايا الإدارة العثمانية وضباطها، وأغلبهم من أصول غير عربية ولكنهم ركبوا بعد الاحتلال الفكرة العربية. وليس لهذه الملاحظة الأخيرة أي معنى لو انهم لم يشككوا بعروبة الأغلبية الشيعية وبعراقيتها، والغريب أن سياسة بريطانيا الطائفية هذه، أصبحت مع الأيام، الثابت الوحيد في الحياة السياسية العراقية، وصار كل من يخرج على هذا الثابت هو الطائفي واللاوطني.

وكأمثلة على انقلاب الصورة، يقول علي محمود الشيخ علي، في رسالة إلى ناجي شوكت، وكلاهما من وزراء الحكم الملكي، عن توظيف بضعة رجال من الشيعة في الدولة، ما نصه: (إن انتهاج مثل هذه السياسة لا يفيد البلاد على ما أعتقد ويوجب الاستياء في الجهة المقابلة.. إن الحالة تستدعي التفكير العميق بمستقبل أبنائنا كما أنها تنشط

٥٨٩- د. علي الوردي. المرجع السابق. الجزء الخامس. القسم الأول. بغداد ١٩٧٧. ص١٩٥.
٥٩٠- عبد الله فهد النفيسي. دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. بيروت ١٩٧٣. ص١٩٩.
٥٩١- المرجع السابق. ص١٩٩.
٥٩٢- المرجع السابق. ص١٩٩.

الفكرة الطائفية عند القوم سيما وأنهم لا يدركون مدى أضرارها ولا يفكرون الا في منافعهم الخاصة)[٥٩٣].

وعن تعيين أول شيعي رئيساً للوزراء في تاريخ العراق عام ١٩٤٧، وبدلا من اعتباره الإجراء الطبيعي، فإن كامل الجادرجي الذي رفع راية الديمقراطية والعلمانية في حياته، كتب عن ذلك يقول: (فدبرت على ما يظهر، على يد عميلها السيد نوري السعيد، تأليف مجلس نيابي لم يكن يجيء في تلك الظروف الا على أساس طائفي، ثم حتمت، على ما أعتقد، تلك اليد الخفية مجيء رئيس وزراء على أساس طائفي أيضاً)[٥٩٤].

شهادات طائفية:

من بين الكثير، اخترت خمس شهادات، غير مقصودة، لملك العراق ولشهيده، ولواحد من أبرز سياسييه، ولاثنين من أعمدة الحكم في الستينات، عن طائفية الحكم في العراق في عهوده المختلفة:

١- يقول الملك فيصل الاول في مذكرته الشهيرة: (العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية.. وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً.. وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة)[٥٩٥].

والغريب أن يضيف عن الشيعة قائلاً: (الا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم والتمرس عليه، والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين، كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع، خاصة الدينيون منهم وطلاب الوظائف

٥٩٣- عبد الكريم الأزري. مشكلة الحكم في العراق. سنة ومحل الطبع مغفلين. ص٢٩٩.
٥٩٤- مذكرات كامل الجادرجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي. بيروت ١٩٧٠. ص٢١٦.
٥٩٥- البزاز. المرجع السابق. ص٢٣١.

بدون استحقاق، والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة، ويسوقون هذه الأكثرية للتخلي من الحكم الذي يقولون بأنه سني بحت)[٥٩٦]. إن النص الآنف الذكر، مثل آخر على انقلاب الصورة.

ومما يثير الانتباه قوله عن الجيش: (أما ما سأطلبه من الآن، هو أن يكون مستعداً لإخماد ثورتين تقعان (لا سمح الله) في آن واحد، في منطقتين بعيدتين عن بعضهما[٥٩٧].

٢- يقول العقيد صلاح الدين الصباغ في مذكراته: (لقد شاءت الأقدار أن نتصل بمن يدعون «رجالات الأمة» وعلى رأسهم نوري وجميل، فوجدنا نوري يطعن جميلا.. ووجدنا جميلا يقول أن نوري صنيعة للإنكليز وأنه لا يؤتمن.. ورأينا توفيق السويدي يتقرب إلينا ليحرضنا.. ورأينا صبيح نجيب وإبراهيم كمال يشجعاننا على إسقاط وزارة عمرو لأنه كذا.. فرستم شيعي ويشجع الشيعة، والآخر خائن، وغيره شيوعي، الخ)[٥٩٨]. أي أن الشيعية عند رجالات الأمة - في العهد الملكي - مساوية لأية تهمة كالخيانة مثلاً.

٣- ويقول رفعت الجادرجي عن والده كامل الجادرجي: (كان والدي يعتقد أن من أخطاء نوري السعيد كونه طائفياً، وأذكر أن الحكومة كانت تنوي في إحدى وزارات السعيد إنشاء مدارس مهنية في الجنوب فكان اعتراض والدي على ذلك بقوله أن نوري السعيد يريد أن يجعل من أبناء الجنوب (وأغلبهم من الطائفة الشيعية) عمالاً ماهرين ليس إلا، في حين يجعل من أبناء الشمال (وأغلبهم من السنة) خريجي جامعات)[٥٩٩].

ان هذه التوجهات لم تكن مقتصرة على نوري السعيد، لقد كانت سياسة حكم. فسنة

٥٩٦- المرجع السابق. ص٢٣١.

٥٩٧- المرجع السابق. ص٢٣٣.

٥٩٨- مذكرات الصباغ. المرجع السابق. ص٧٠-٧١.

٥٩٩- رفعت الجادرجي. صورة أب. بيروت ١٩٨٥. ص١١٦.

١٩٣٥ وفي أغرب قرار لا أظن أن له في العالم مثيلاً، عُين طه الهاشمي رئيس أركان الجيش، مديراً للمعارف بالوكالة أيضاً. (وعرض الهاشمي ما لديه من مقترحات لتسيير شؤون المعارف، أهمها عدم الإكثار من فتح المدارس قبل تهيئة المدرسين، وعدم جواز تعيين وكلاء للمعلمين، كما جرت العادة من قبل، وعدم جواز إعادة المدرسين الذين حوكموا أمام المجلس العرفي إلى التدريس)[٦٠٠]. فقدم الشيخ محمد رضا الشبيبي وزير المعارف استقالته.

ان مقترحات الهاشمي الثلاثة تتعلق جميعها بالشيعة. فأحكام المجلس العرفي كانت قد صدرت بحق مواطنين من الجنوب. والمقصود بوكلاء المعلمين، هم رجال الدين (الشيعة) الذين يعينون كمعلمين بصورة مؤقتة. أما الإكثار من فتح المدارس والتي ربطها بتهيئة المدرسين للتمويه فمن الطبيعي أن لا توجد مدارس بدون مدرسين ولكن بالعودة إلى ما قاله الجادرجي يتوضح معناها. وبدلاً من هذه المقترحات التعسفية كان على الهاشمي العمل على دمل الجروح، وقد استباح قبل أسابيع، عن طريق بكر صدقي، الفرات الأوسط. فقتلوا الأسرى والأطفال، وأحرقوا المزارع والقرى ونصبوا المشانق للفلاحين الأبرياء[٦٠١]. وفيما يتعلق بالنقص في المدرسين، كان عليه أن يستفيد من (وجود عشرة آلاف طالب علم في النجف الأشرف وحدها من دارسي العربية وآدابها. ولم يكن مستوى أي وزير في السلطة قد وصل إلى مستويات المراحل الأولى من الدراسات العلمية في الكاظمية وكربلاء والنجف.. ان ثلاثة من وزراء النقيب كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة الا بصعوبة)[٦٠٢].

٤- وعن اجتماع لمجلس قيادة الثورة - عام ١٩٦٤ - يقول عبد الكريم فرحان عضو

٦٠٠- الحسني. المرجع السابق. الجزء الرابع. ص١٤١.

٦٠١- راجع المرجع السابق. ص١٧٣ (حاشية) وراجع أيضاً إبراهيم الراوي. ذكريات من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث. بيروت ١٩٦٩. ص١٦٥.

٦٠٢- العلوي. المرجع السابق. ص١٤٩-١٥٠.

المجلس ووزير الثقافة والأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي وعضو القيادة الموحدة لمصر والعراق، ما نصه: (أحاط الرئيس عبد السلام عارف الأعضاء علماً بقرب إيفاد (٤٢) طالباً من الكلية العسكرية العراقية إلى الكلية الفنية بالإسكندرية.. ثم استطرد قائلاً ولكن الرئيس جمال عبد الناصر يفضل أن يكون هؤلاء من السنة)[٦٠٣]. ومن نافل القول أن الرئيس عبد الناصر لا علاقة له بالقصة كلها.

ويصف فرحان عبد السلام عارف قائلاً (كان شديد الحرص على إطالة فترة الانتقال.. واتباع سياسة فرق تسد، والاعتماد على العشيرة والقرابة والبلدة في إسناد المناصب المهمة بصرف النظر عن الكفاءة والقابلية وهكذا شجع الطائفية وشكك في الأغلبية)[٦٠٤]. والمجلس الوطني لقيادة الثورة، أعلى سلطة في البلد، لم يكن فيه أي عضو من الأكثرية التي كان يشكك بها الحكم كما يقول فرحان.

٥- ذكر العقيد صبحي عبد الحميد وزير الداخلية وأحد أعمدة الحكم آنذاك، في استقالته يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٥ قائلاً: (وأخذ الحكم يجنح إلى الفردية متبعاً سياسة فرق تسد هذه السياسة التي أدت إلى تعميق الروح الطائفية، وتفتيت الوحدة بخلق الإقليمية..الخ)[٦٠٥]. وليس في هذا النص شيء مهم، لولا أن صاحبه الذي اتهم حكومته بتفتيت الوحدة الوطنية، تحدث قبل عام من ذلك - في ١ تموز ١٩٦٤- وكان وقتها وزيراً للخارجية، عن مؤامرة إمبريالية، وأن المتآمرين (سوف يخبرون السنة شيئاً ويخبرون الشيعة شيئاً آخر ولذلك يجعلون الناس يكرهون بعضهم البعض)[٦٠٦]. ولأنه

٦٠٣- فرحان. المرجع السابق. ص١٣٧.

٦٠٤- المرجع السابق. ص١٣٤.

٦٠٥- هويدي. المرجع السابق. ص٢٥٠.

٦٠٦- راجع د.حامد البياتي. شيعة العراق بين الطائفية والشبهات في الوثائق السرية البريطانية. لندن ١٩٩٧. ص١٠٥-١٠٧.

لم تكن هناك مؤامرة فعلاً، أضاف في تهديد مبطن لأي رد فعل على سياسة الحكم الطائفية قائلاً: (الناس سوف يخبرون الدولة حول كل شخص سوف يحاول وسوف ينال جزاءه العادل)[٦٠٧]. وهكذا كل رجالات الأنظمة المتعاقبة، من السنة والشيعة، ينكرون أي وجود للطائفية، عندما يشاركون في الحكم، ويعترف بعضهم، بوجودها بعد خروجهم من الحكم.

وحدة العراق:

خلافاً لما يقوله عبد المحسن السعدون رئيس وزراء العراق في العشرينات وغيره من الطائفيين: (ان أهل العراق ليسوا شعباً واحداً بل شعوباً متباينة)[٦٠٨]، وهو ايضا ما يردده الإعلام الغربي منذ أزمة الكويت. فإن العراق بلد متجانس، بل ولولا صيغة الحكم الطائفية البغيضة، لكان واحداً من أكثر بلدان العالم تجانساً.. وان هذا الغنى القومي والديني هو ما يميز كل بلدان العالم، وخاصة العريقة منها. ومن النادر ان تجد بلداً في العالم خلواً من الأقليات. ويعتبر البلد غير متجانس، إذا تساوت أو تقاربت نسب مكوناته القومية والدينية. أو كانت لديه اكثر من أقلية تطمح إلى الانفصال. وهو ما لا ينطبق على حالة العراق.

يشكل العرب ٧٩٪ من سكان العراق وكلهم مسلمون. وعموما فان المسلمين يشكلون اكثر من ٩٥٪ من سكان العراق. وعندما نتحدث عن عرب العراق، فلا يشكل أي من الشيعة أو السنة شعبا بأي شكل من الأشكال. وينحدر اغلب سكان العراق من قبائل رئيسية. والتي تتوزع إلى شيعة وسنة، ولا يعني هذا ان النسب واحدة في كل القبائل. وفضلا عن أشياء كثيرة موحدة فإن النظام القبلي يجمع ما فرقته المذاهب، فالقرابة في

٦٠٧- المرجع السابق. ص١٠٥-١٠٧.

٦٠٨- الوردي. المرجع السابق. الجزء السادس. ص٢٠٦.

الظروف الطبيعية تتوازن مع الانتماء الطائفي.

(وفي ١٥٣٤ ميلادية احتل السلطان سليمان القانوني العراق وجعل بغداد مركز إدارة كبرى باسم (إيالة بغداد) وكانت تضم منطقة العراق الحالي تقريباً، فتتبعها البصرة والموصل وشهرزور)[٦٠٩]. (وفي ١٦٣٨ احتل مراد الرابع، السلطان العثماني، العراق وقسمه إلى ثلاث ولايات الموصل وبغداد وشهرزور (ولاية شهرزور: كانت تضم السليمانية وكركوك)، وبعد سنوات قلائل ضمت البصرة إلى العراق تحت السيطرة العثمانية. ومنذ ١٧٢٦ صارت الموصل والأراضي المحيطة بها يحكمها وال عربي من أسرة الجليلي.. وفي ١٨٣٥ وضعت الموصل تحت إدارة والي بغداد وأصبحت سنجقاً (لواء) وكانت ولاية بغداد تضم العراق الحالي كله تقريباً، ولم تعد الموصل ولاية الا في ١٨٧٩، بما فيها سنجقا كركوك والسليمانية، أي أن شمال العراق في عهد مدحت باشا، الوالي العثماني المشهور على العراق (١٨٦٦) كان لا يزال جزءاً من ولاية بغداد)[٦١٠].

فتقسيم العراق أواخر الحكم العثماني - إدارياً إلى ثلاث ولايات - لم يكن يتطابق تماماً مع الخريطة القومية أو المذهبية فيه. وهذه الولايات ككل التقسيمات الإدارية في العالم غير قابلة للحياة كدول. فولاية الموصل ذات الأغلبية الكردية، كان مركزها مدينة الموصل العربية، والتي تعد ثاني أو ثالث مدن العراق سكاناً، وعموماً فإن أكثر من نصف سكان الولاية هم من الأكراد، أما البقية فمن العرب والتركمان والأقليات الدينية[٦١١]. أما ولاية بغداد ففيها السنة والشيعة، وللسنة في ولاية البصرة كان هناك وجود فاعل خاصة في محافظتي البصرة والناصرية.

يقول كاتب صهيوني: (ان العراق تأسس عام ١٩٢٠ بقرار من عصبة الأمم تحت

٦٠٩- د. عزيز الحاج. القضية الكردية في العشرينات. بيروت ١٩٨٤. ص٣٩.

٦١٠- المرجع السابق. ص٣٨.

٦١١- راجع المرجع السابق. ص٨١.

الانتداب البريطاني). ويضيف: (ولم يسبق للمنطقة المسماة العراق اليوم أن خضعت قبل ذلك لكيان سياسي واحد، بل كانت مقسمة إلى ثلاث ولايات عثمانية)[٦١٢]. ومما يبعث على السخرية، أن هذا الكاتب الذي يعيش في دولة مصطنعة، تكونت من مهاجرين جاؤوا من مختلف البلدان والبيئات، وكانوا يحملون عشرات الجنسيات ويرجعون إلى أعراق متعددة يقول عن العراق: (كما أن الجماهير التي سكنتها كانت متنوعة، على الصعيدين العرقي والديني: سني، شيعي، بدوي، كردي، آشوري، يعقوبي، أرمني، كلداني، كاثوليكي، أرثوذكسي، تركماني، يزيدي وكذلك يهودي)[٦١٣]. ونسي الكاتب أن يذكر الغجر والصابئة والشبك والكاكائية والشركس وأتباع الطرق الصوفية ومجموعة من أصول شيعية اسمها الشيخية ومدرسة من الشيعة اسمها الإخبارية ومجموعة صغيرة من الزيدية، كما نسي أن يذكر أسماء القبائل والمحافظات العراقية، ونسي أن يذكر السادة.. إلى آخره.

ان ثورة العشرين وإرادة العراقيين في إقامة دولة عراقية واحدة من الخليج العربي إلى الموصل هو ما يكذب ببساطة هذه المقولة الصهيونية أو غيرها.

والعراق، شأنه شأن الهند وكندا واستراليا وأغلب دول العالم، لم يكن موجوداً كدولة قبل القرن العشرين، ولكنه كقطر أو كإقليم كان معروفاً تاريخياً، بل هو أقدم من أغلب بلدان العالم المعروفة حالياً، وحدوده كما يقول الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧ هـ أي في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي: (من عبادان إلى الموصل، ومن القادسية إلى حلوان.. والعراقان: الكوفة والبصرة)[٦١٤]، وقد ورد ذكر العراق بكثرة في صدر الإسلام وما

٦١٢- نكديمون. المرجع السابق. ص٢٣.

٦١٣- المرجع السابق. ص٢٣.

٦١٤- الفيروز آبادي. القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٨٧، مادة عرق ص١١٧٢-١١٧٣.

بعده[٦١٥]، على لسان الخلفاء والولاة والأدباء والشعراء والعلماء.

وحتى نناقش كل ما طرح منذ أزمة الكويت، فإنه لا توجد نزعة انفصالية عند السنة أو الشيعة في العراق، فكل من شيعة العراق وسنته يتمسك بالعراق ويعتبره عراقه.

إذ يستقر في وجدان الشيعة بأن العراق هو عراق أهل البيت، وأن علياً جاء من المدينة عاصمة الرسول، ليتخذ من الكوفة - وسط أنصاره ومحبيه - عاصمة له. وأن مراقد ستة من الأئمة، أي نصف أئمة الشيعة هي في العراق، ناهيك عن مراقد أخرى مقدسة لديهم. وان المهدي المنتظر آخر أئمة الشيعة، غاب عن الأنظار في العراق، وإن بقية الأئمة مروا بالعراق أو عاشوا شطراً من حياتهم فيه.

وملاحم الشيعة الكبرى (الجمل، صفين، النهروان، كربلاء، التوابون، ثورة زيد، ثورة إبراهيم.. وغيرها) كلها جرت في العراق، وإن أهم علمائهم عاشوا وعملوا في العراق، حيث توجد فيه مرجعيتهم الكبرى ومدرستهم الأولى. وأغلب علماء الشيعة، من مختلف الأقطار والقوميات، كانوا يأتون إلى العراق لإكمال دراساتهم الدينية ويفتخرون - قبل أن يبدأ صدام حربه على الحوزة العلمية في النجف - بأنهم خريجو العراق.

وإذا كان الإمام الحسين بن علي قد استشهد في كربلاء على يد جيش جاء من الكوفة، فإن انصاره الذين صمدوا واستشهدوا معه هم أيضاً من الكوفة، ولو أنه ذهب إلى أي مصر آخر لواجه المصير نفسه.

وينظر شيعة العالم إلى العراق بعين الإكبار والتقديس، وهو أمر لم تأخذه بعين الاعتبار، ولم تستفد منه الحكومات العراقية المتعاقبة أبداً، و(قبل قرابة ألف سنة خلت كان أبو بكر الخوارزمي «توفي سنة ٩٩٣ أو ١٠٠٢ ميلادية» قد حسد شعب العراق لأنه -

---

٦١٥- انظر مثلا، شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد (المتوفى ١٢٥٨م). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية مصر ١٩٦٥. الجزء الأول. ص٣٤٣. والجزء السادس. ص١٢٧ و١٣٤ والجزء السابع ص٧٢ و ٧٥.

كما قال – (يوجد بينهم مقاما أمير المؤمنين.. والحسين، سيد الشهداء.. ولأن الشيعية «بين أشياء أخرى» عراقية)[٦١٦].

كذلك الأمر بالنسبة لسنة العراق، فهو عراق الإمام الأعظم أبي حنيفة، وعراق العلماء الذين أسسوا علوم القرآن والحديث والأصول والفقه. وعراق العباسيين. وعراق صلاح الدين الأيوبي، وعراق الشيخ عبد القادر الكيلاني.. وغير ذلك الكثير، ثم أنه – بشكل وبآخر – العراق الذي أسسوه في العصر الحديث. وينظر سنة العالم – خاصة اتباع الطرق الصوفية – إلى العراق بإكبار واحترام.

وهناك وحدة مشاعر وعواطف، آلام وآمال، تجمع عرب العراق أو سنة العراق وشيعته، إزاء القضايا العربية والإسلامية،ولم يحدث مرة أن اختلفت مواقفهما من أي من القضايا الوطنية، وهكذا كان الموقف موحداً مثلاً، من ثورة مايس ووثبة بوتسموث، وانتفاضة عام ١٩٥٢، وانتفاضة عام ١٩٥٦ ضد العدوان الثلاثي على مصر، ناهيك عن القضية الكبرى القضية الفلسطينية والعدوان الثلاثي على مصر وقضايا المغرب العربي وكل القضايا العربية[٦١٧].

أما ثورة العشرين (١٩٢٠)، فإن معظم الخسائر كانت من بين كل مناطق العراق الشيعية والسنية، من نصيب الفرات الأوسط حيث كانت ساحة الثورة الرئيسية. ومع ملاحظة أن بعض أو غالبية علماء السنة في العراق قد تحولوا ككل موظفي الحكم العثماني إلى موظفين عند سلطات الاحتلال. إلا أن المساهمة السنية في ثورة العشرين

٦١٦– بطاطو. العراق. الكتاب الأول. ص٥٩.

٦١٧– راجع مثلاً، مقدام عبد الحسن الفياض، تأريخ النجف السياسي ١٩٤١–١٩٥٨. بيروت ٢٠٠١، وأيضاً عثمان سعدي. الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، جزءان. بغداد ١٩٨١. وأيضاً محمد حسين الصغير. فلسطين في الشعر النجفي المعاصر. النجف ١٩٦٨.

كانت فعالة. و(كان ولسن يعتبر بغداد أهم مركز للمعارضة في العراق)[٦١٨]. ولا يمكن نسيان دور الضباط البغداديين المباشر في معارك الثورة. وقد (اشتهر من هؤلاء الضباط اثنان لما قاما به من أعمال باهرة في الثورة، أحدهما حسين علوان الدوري وكان مقره الكوفة.. والثاني هو سامي النقشلي وقد التحق بثوار بني حجيم في منطقة السماوة والخضر)[٦١٩].

و من بين قصص ثورة العشرين الرائعة، قصة تستحق أن نشير لها هنا. ومن يريد أن يفهم أن شيعة العراق وسنته، وخاصة عرب العراق، هم نسيج واحد، فليقرأ أو ليعد قراءة الجزء المخصص لثورة العشرين من كتاب الوردي الرائع (لمحات اجتماعية).

أما القصة، فقد كان الثوار قد غنموا مدفعاً بريطانياً، في إحدى المعارك، وقد احتاج استعماله إلى تعاون جهود مضنية من بغداد والنجف. لأن الإنكليز نزعوا عنه إبرته ومغلاقه الخلفي. (وكانت التجربة لا تخلو من مجازفة لعدم وجود عتلة الرمي. وقد اضطر (حسين علوان) الدوري أن يمسك الإبرة بإحدى يديه ويمسك بيده الأخرى مطرقة كبيرة من مطارق الحدادين، وحين أهوى بالمطرقة على الإبرة انطلقت النار من المدفع دليلاً على نجاح التجربة، فارتفعت أصوات الحاضرين بالصلاة على محمد وآل محمد، وتقدم علوان الحاج سعدون نحو الدوري يهنؤه على عمله، واغرورقت عيون الجزائري والكاشاني بدموع الفرح)[٦٢٠].

ان الكاشاني الوارد ذكره في هذه القصة وغيرها من أحداث ثورة العشرين، هو أبو القاسم الكاشاني الذي اشتهر اسمه في معركة تأميم النفط الإيراني عام ١٩٥١. (فلقد أمضى كاشاني وهو من مواليد أواخر القرن التاسع عشر، الجزء الاول من حياته في

٦١٨- الوردي. المرجع السابق. الجزء الخامس. القسم الأول. ص٧٩.

٦١٩- المرجع السابق. ص٢٨٧.

٦٢٠- المرجع السابق. ص٣٢٦-٣٢٧.

العراق. إذ كان والده قد اصطحبه معه إلى النجف وهو يافع السن، وتلقى علومه على يد اثنين من أبرز المجتهدين)[٦٢١]. وفي بيته بكربلاء في العراق، في أيار ١٩٢٠، عقد أهم اجتماع للمداولة في أمر القيام بالثورة، حضره أهم الزعماء الذين قادوا الثورة فيما بعد[٦٢٢]. وبعد قيام الثورة، كان الكاشاني يتنقل بين مضائف الشيوخ، لتحريضهم على الانضمام للثورة، وكان يدخل على الشيخ في مضيفه فيثير نخوته على الطريقة البدوية، فيقول له: (أليس من العار عليكم أن أدافع عن بلادكم وأنا من تبعة إيران، بينما أنتم من أبناء البلاد لا تدافعون عنها)[٦٢٣].

وكان الكاشاني قد أسس عام ١٩٢٠ (الجمعية الإسلامية العربية)، وقامت بنشاط ملحوظ ضد الاحتلال البريطاني غير أن شملها قد تشتت بعد ثورة العشرين[٦٢٤]، وقد عاد الكاشاني إلى إيران بعد أن أصدر البريطانيون عليه حكماً غيابياً بالإعدام[٦٢٥].

ويجب أن نشير هنا، إلى الشيخ ضاري الظاهر، فعندما وصله السيد جدوع أبو زيد، مندوب الثوار، حاملاً فتوى الشيخ محمد تقي الشيرازي زعيم ثورة العشرين، قال: (إني عربي ووطني وعراقي.. ولينعم العلماء وإخواني الزعماء عيناً)[٦٢٦]. وبعد أن قتل الشيخ ضاري القائد البريطاني ليجمن، وبعد معارك ضارية جرت بين بغداد والفلوجة، التجأ ضاري وعدد من رجاله إلى الفرات الأوسط، وأقام في كربلاء، وعندما اقتربت منها القوات البريطانية غادرها مع الآخرين إلى النجف، وبعد ذلك أخذ يتنقل بين

٦٢١- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠. مجموعة من الكتاب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ١٩٨٠. ص١٨٥-١٨٦.

٦٢٢- الوردي. المرجع السابق. ص١٢٨.

٦٢٣- المرجع السابق. ص٢٦٢.

٦٢٤- عبد الجبار الجبوري. الأحزاب والجمعيات في القطر العراقي ١٩١٨-١٩٥٨. بغداد ١٩٧٧. ص٥٦.

٦٢٥- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠. المرجع السابق. ص١٨٦.

٦٢٦- الوردي. المرجع السابق. القسم الثاني. ص٦٨.

القبائل، حتى وصل المطاف به إلى نصيبين. وفي عام ١٩٢٧ ألقي عليه القبض، وحكم بالإعدام،وتم تخفيف هذا الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. ولكن الشيخ ضاري مات في السجن، فجر الاول من شباط ١٩٢٨، أي بعد يومين من الحكم عليه(٦٢٧).

إنني أحلم أن تأتي حكومة رشيدة في العراق، وتقيم في ساحات بغداد، عشرين أو ثلاثين تمثالاً، لأبرز قادة ثورة العشرين وضباطها. وأتمنى أن يكتب تحت تمثال: (حسين علوان الدوري) بأنه استعمل يديه كعتلة في استخدام المدفع - كما مر بنا - مضحياً بهما وبحياته كلها. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل توجد دولة في العالم لا تكرم رموز ثورة بمستوى ثورة العشرين كما هو الحال في العراق؟ وإلا ما الذي يفسر ألا يكون هناك ما يحمل اسم شعلان أبو الجون أو الشيخ ضاري أو غيرهم؟ في الوقت الذي تحار فيه أجهزة الدولة في إيجاد اسم تطلقه على هذا الشارع أو المستشفى أو هذه الساحة أو المدرسة.. إلى آخره.

ولم تحدث في تاريخ العراق الحديث أية مذابح طائفية بين السنة والشيعة. أما معارك (الحارات) في بغداد، فكان يحدث مثلها حتى داخل المدينة ذات الطائفة الواحدة أيضاً، فمثلاً وحتى مجيء الاحتلال البريطاني، كانت مدينة السماوة مشغولة بمعارك الطرف الغربي برئاسة رباط آل سلمان، مع الطرف الشرقي برئاسة السيد طفار. وكذلك كان الأمر في النجف وغيرها.

كما لم يحدث في تاريخ العراق أي تباعد بين أبناء المذهبين بل وكمثال ذي دلالة، من بين الكثير والكثير من الأمثلة على العلاقة بين سنة العراق وشيعته، فإن الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء، المرجع الديني المعروف، والذي قاد الحملة في الثلاثينات ضد طائفية الحكم والمتوفى عام ١٩٥٤، وعندما يزور بغداد، كان يقيم في بيت صديقه

٦٢٧- المرجع السابق. ص٦٦-٧٤ و١٧٢-١٧٥.

الحميم الشيخ نعمان الأعظمي، إمام جامع الإمام الأعظم أبي حنيفة، رغم وجود كثيرين من الشيعة في بغداد المتلهفين لحلوله في بيوتهم. وقد تعمدت أن أذكر مثالاً عن عالمي دين، مع أن هناك مثالاً قد عشناه جميعاً، وهو أن تشكيلة الأحزاب السياسية في العراق كانت تضم اعضاء من الشيعة والسنة، وكانت على سبيل المثال عام ١٩٥٩ أغلب قيادة الحزب الشيوعي من السنة، بينما كانت أغلب قيادة حزب البعث من الشيعة. وهو ما يدحض ما ذهبت اليه محاولات متأخرة، لاحتساب الحزب الشيوعي على الشيعة وحزب البعث على السنة.

زعيم ثورة العشرين:

كان العراق محظوظاً بواحد من مراجع الشيعة العظام، والذي سبق عصره برؤيته المستقبلية وحكمته العميقة، فترك بصمته الواضحة على تاريخ العراق كزعيم لثورة العشرين، وهو الشيخ محمد تقي الشيرازي.

وإذ تكرم أية دولة عادة، رجلاً كهذا أو عائلته، وتمنحه جنسيتها وارفع الأوسمة لديها، تقديراً لخدماته واعترافاً بدوره، حتى أن كوريا الجنوبية مثلاً منحت مدرب فريقها لكرة القدم، الهولندي غوس هيدنيك جنسيتها - عام ٢٠٠٢ - تكريماً له على بلوغ فريقها المركز الرابع، في بطولة كأس العالم السابعة عشرة لكرة القدم، فإن طائفيي الحكم في العراق، قد تنكروا للرجل، فكان جزاؤه من آخرهم، أي من صدام حسين، أن هدم قبره تماماً عام ١٩٦٩، حتى لم يعد هناك ما يشير إليه.

ولا أظن أنهم قد قرؤوا عن الرجل، أو عن تاريخه، أو أنهم يعرفون عنه شيئاً، وربما كان كل ما أغاضهم منه، لقبه الشيرازي الدال على أصله الإيراني. رغم دفاعه المستميت عن هوية العراق العربية وعن إقامة (حكومة عربية) في العراق كما سنتطرق إليه بعد قليل. بينما لا تغيضهم ألقاب أخرى تدل على الأصل الإيراني أيضا، كالكيلاني والفارسي والسنوي.. وغيرها.. ناهيك عن العديد من زعماء العراق الملكيين والجمهوريين من الأصول غير العربية، والذين جاءت أغلب عوائلهم مع الجيوش العثمانية، أو جاءت الدولة

العثمانية بهم، من أواسط آسيا والقوقاز وجورجيا لتحكم بهم العراق[٦٢٨].

ففي ترجمة توفيق السويدي رئيس وزراء العراق الأسبق (ياسين الهاشمي) الذي كان وأخوه طه، أشد رجال العهد الملكي على الشيعة، وكانا يتبنيان الحصّان وكتابه، الذي قال فيه أن الشيعة فرس وليسوا بعرب ولا عراقيين. ورد ما نصه: (اسمه الأصلي ياسين حلمي، واسم أبيه السيد سليمان، وهو من مواليد بغداد في سنة ١٨٨٤ وقد اختلف الذين يعرفون عائلته في أصلها، فمن قائل أنه ينتسب إلى عشيرة (الكروية) والمعروف أن الكروية ليست من أصل عربي لأنها أتت من أجداد كان قد جلبهم السلطان مراد الرابع معه، من الأناضول فأقامهم في الطريق البري الذي كان يربط العراق بالأناضول.. وقد أصبح ياسين حلمي بعد ثورة الحجاز ودخول القوات العربية دمشق في سنة ١٩١٨ «ياسين الهاشمي») [٦٢٩].

إنني أشعر بالقرف وأنا أتحدث عن موضوع كهذا، وألعن الحكومات الطائفية الخرقاء والتي زجت بالناس في مثل هذه الأمور السخيفة، فالعراق كان قلب العالم القديم ومركزه، وقد مرت به واستوطنته عبر التاريخ موجات وموجات، وقد خلفت هذه الموجات أقليات وعوائل كثيرة اندمجت مع محيطها العربي، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه، حتى لم يعد من الممكن تمييزها عنه، ثم أن العراق بلاد مقدسة ومركز دراسي لكثير من المسلمين والذين سكنوه وأحبوه وتعلقوا به. وهكذا استقرت وتوطنت عوائل كردية وهندية وفارسية وتركية، من الشيعة حول مراقد الأئمة، ومن السنة في الاعظمية بجوار ابي حنيفة وفي باب الشيخ بجوار عبد القادر الكيلاني، والغريب أن تعتبر الدولة الطائفية الأخيرين عرباً عراقيين، بينما تعتبر الأولين أجانب متآمرين، وسنعود لهذه النقطة في فصل قادم.

وبالعودة إلى الشيرازي، والذي تولى المرجعية في ظرف خطير جداً، كان فيه العراق

٦٢٨- راجع بطاطو. العراق. الكتاب الأول. ص ٢١٢-٢١٨ و٢٤٦ وما بعدها.

٦٢٩- السويدي. المرجع السابق. ص٧١.

على مفترق طرق، وكان الاستعمار البريطاني يحاول اللعب بالمسألة الطائفية وبكل الثغرات المحلية، فقد زاره ويلسون الحاكم البريطاني للعراق، وعرض عليه، ترشيح رجل من الشيعة، ليعين بدلاً من المتولي السني لمراقد الشيعة المقدسة في سامراء. فرد عليه الشيرازي: (لا فرق عندي بين السني والشيعي، وان «الكليدار» الموجود رجل طيب، ولا أوافق على عزله)(٦٣٠).

وكانت فتواه المشهورة عام ١٩١٩: (ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين) وكما يقول الدكتور علي الوردي: (عاملاً مهماً في تطوير الوعي السياسي في العراق، فهي قد جعلت الدين والوطنية في إطار واحد، وهذا أمر جديد لم يكن الناس يألفونه من قبل. وبذا أصبح الوطني متديناً والمتدين وطنياً(٦٣١).

وكان يوصي العراقيين بما عرف عنه من حكمة وبعد نظر قائلاً: (فتظهروا أنفسكم دائماً بمظهر الأمة المتينة الجديرة بالاستقلال التام المنزه عن الوصاية الذميمة وأن تحفظوا حقوق مواطنيكم الكتابيين الداخلين في ذمة الإسلام وأن تستمروا على رعاية الأجانب الغرباء وتصونوا نفوسهم وأموالهم وأعراضهم محترمين كرامة شعائرهم الدينية)(٦٣٢).

وعندما يذكر الشيرازي فلابد أن يذكر ابنه الشيخ محمد رضا، والذي لعب دوراً خطيراً في الثورة، وكان متحمساً جداً للعروبة، ففي رسالة له إلى الأمير علي (ولي عهد الشريف حسين آنذاك)، يقول: (ان القطر العراقي كسائر الأقطار العربية.. وأزيدكم أنه أكثر تحمساً في سبيل الاستقلال التام، وأشد نعرة قومية، وأقرب إلى الوحدة العربية،

٦٣٠- الوردي. المرجع السابق. الجزء الخامس. القسم الأول. ص٦٥.
٦٣١- المرجع السابق. ص١٠٩-١٠٤.
٦٣٢- المرجع السابق. ص١٨٣.

وذلك لأنه مسكون بشعب عربي بحت ليس فيه دخيل يُخشى شره)[٦٣٣].

ولما اعتقل الإنكليز الشيخ محمد رضا وأبعدوه مع آخرين إلى جزيرة (هنجام) وكان ذلك قبيل اندلاع الثورة، قال والده الشيرازي: (ان ابني ومن معه، أبعدوا في سبيل القضية العراقية، فلا ينسيكم إبعادهم قضيتكم، ولا تشتغلوا بطلب عودتهم عن المطالبة بحقوقكم، وإياكم أن تجردوا سيفاً ولو رأيتموني بيد الإنكليز الا أن يسوق الإنكليز جيشاً لمحاربتكم بسبب إصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب، فهناك يجب الدفاع ولا تذكروا في دفاعكم الا القضية العراقية والاستقلال الناجز التام)[٦٣٤].

(كان الشيرازي برغم شيخوخته يولي الثورة اهتماماً بالغاً.. وكان أهل بيته يطلبون منه أن يبقي شيئاً لحاجات البيت فكان يرفض ذلك رفضاً باتاً ويصر على حمل النقود كلها إلى جبهات القتال.. أثرت نكسة الحلة والنكسات الأخرى التي أعقبتها على صحة الشيرازي.. دخل ذات مرة إلى صحن الحسين لأداء الصلاة فيه فشهد عدداً كبيراً من الجنائز التي جيء بها من جبهات القتال، فراعه ذلك، وظهر الألم على وجهه واضحاً. وكان ذلك أخر يوم يخرج فيه إلى الصلاة، ثم انهارت صحته بعدئذ، ولزم فراشه، ثم مات بعد أيام قليلة.. عند غروب الشمس في ١٧ آب ١٩٢٠)[٦٣٥].

الصورة الأخرى، في عراق يحكمه نظام طائفي، ما زال ينتصب حتى اليوم، في بغداد تمثال لعبد المحسن السعدون الذي (كان يعتقد أن الوطنية العراقية لا زالت غير متبلورة.. فالعراق مؤلف من عناصر مختلفة وغير منسجمة في الشعور والاتجاهات والميول، عدا التقاليد والثقافة والدين والمذهب، لذلك كان من رأيه أن تبقى بريطانيا تساند العراق وتلم شعثه)[٦٣٦]. وهذا هو منطق الأقلية التي تستقوي بالأجنبي لفرض سلطتها على

٦٣٣- المرجع السابق. ص٢٠٢.

٦٣٤- المرجع السابق. ص٢٣٦.

٦٣٥- المرجع السابق. ص٢٩٨-٢٩٩.

٦٣٦- السويدي. المرجع السابق. ص٦٤.

الأغلبية، ويبدو أن الرجل كان متأثراً بتجربة أهله، والذين حكموا الفرات الأسفل بسيف العثمانيين، وساموا أهله الذل والهوان، حتى ثاروا عليهم وقتلوهم شر قتلة.

وعن انتحاره، يقول صهره السويدي: (أما مأساة انتحاره.. لا يسعني أن أقول فيها شيئاً سوى أنها كانت نوبة عصبية مفاجئة لم تمهله لاسترداد رشده وعقله، فقضت عليه[٦٣٧]، وأظن أن وصيته المكتوبة باللغة التركية مختلقة، فقد جرت العادة في العراق، أن تنسب لبعض الحكام - عند موتهم - وصايا أو كلمات ذات مضامين وطنية.

الاضطهاد الطائفي:

مع ازدياد الهجرة إلى المدن، وانتشار التعليم، وتطور الحياة، وتوسع الاتصالات، وامتداد نشاط الحركات السياسية المعارضة، بدأ الناس يشعرون تدريجياً بوطأة الطائفية. ولكنهم كانوا يعزونها للاستعمار، ويتصورون أنها ستنتهي بمجرد قيام ثورة تحرر البلاد. بل وكان الكثير من الناس يحملون علماء الدين الشيعة، ما أصاب الشيعة من تمييز، أكثر مما يحملون (الحكومة)، بسبب فتاويهم بتحريم التعليم والوظيفة، أيام الانتداب البريطاني.

وقامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وجاء عهد عبد الكريم قاسم، فخف الشعور بالاضطهاد الطائفي، أو أنه اختفى. رغم أن (التركيبة الحكومية) من الناحية الطائفية، لم تختلف كثيراً عن الحكومات السابقة.

ثم جاء انقلاب شباط ١٩٦٣، فأصبحت الممارسات الطائفية بعده أشد وطأة من العهد الملكي، فشعرت الناس بالخيبة وقد جاء عهد جمهوري يفترض أنه مستقل عن الاستعمار، الذي كان يعزون إليه الطائفية في العهد الملكي. زد على ذلك أن ما راكمته الطائفية من تمييز واستبعاد وإهمال قد أصبح واضحاً للعيان. الأمر الذي أصبح معه

٦٣٧- المرجع السابق. ص٧٠.

الشعور بالاضطهاد الطائفي عاماً وشعبياً.

ولم يلتفت الحاكمون لمعالجة الأمور قبل أن تتفاقم. بل إن رجلاً مثقفاً وعقلانياً، كان الناس ينظرون إليه باحترام كبير، كالدكتور عبد الرحمن البزاز، أضاف إلى التهم التي كانت تساق إلى الشيعة تهمة جديدة، أو بالأحرى أنه ألبس تهمة قديمة ثياباً جديدة، إذ يقول: (الشعوبية لا تعني بحال من الأحوال عرقيا.. الشعوبية كما تعلمون تعني الذين بحجة المساواة يجيئون حتى من أصول عربية.. وللآن في العراق كنا نقاسي من الشعوبية أكثر مما قاسينا من الشيوعيين)[٦٣٨]. أي أن البزاز اعتبر المساواة بين أبناء الشعب الواحد فكرة شعوبية.

وجاء سبب مضاف، ليتصاعد معه الشعور العام بالاضطهاد الطائفي. فقد اندلعت الثورة الكردية عام ١٩٦١، والتي أخرجت الأكراد السنة تماماً من المعادلة الطائفية، فأصبح وكأن خمس السكان أو ربعهم هم الذين يحكمون كل الشعب العراقي، أي أن نظرية (التقاسم المذهبي المتعادل تقريباً)[٦٣٩] والتي قامت عليها الصيغة الطائفية، أو تذرعت بها، لم يعد لها موضوع أو أساس. وهي الصيغة التي اخترعها الإنكليز حيث (وضعوا الأكراد مع السنة العرب مقابل الشيعة العرب)[٦٤٠].

وأصبح استمرار الصيغة الطائفية التي صاغها الاحتلال البريطاني عام ١٩٢١، بعد ذلك مستحيلاً بدون سلطة فاشية. وهذا ما يفسر، من الناحية السياسية ما حدث بعد ١٧ تموز ١٩٦٨. ومما تجب الإشارة إليه أن سلطة سنية بالمعنى الديني أو الجماهيري، لم تقم يوماً من الأيام في العراق الحديث أبداً. فطائفية الحكم في العراق تعني أن القابضين على السلطة قد استبعدوا أمثالهم من الشيعة من المشاركة الحقيقية فيها، كما أنهم لم

٦٣٨- الأزري. المرجع السابق. ص٢٥٨.

٦٣٩- وفيق السامرائي. حطام البوابة الشرقية. الكويت. ١٩٩٧. ص٩.

٦٤٠- العلوي. المرجع السابق. ص٤٣.

يعاملوا مواطنيهم الشيعة بروح المواطنة والمساواة.

ان حل المشكلة الطائفية في العراق، هو أمرٌ بسيط وسهل جداً رغم أن نظام ١٧ تموز وبسبب مذابحه الدموية الواسعة ضد الشيعة، قد زادها تعقيداً. فسيادة القانون وتكافؤ الفرص للجميع، هو المدخل الحقيقي لحل هذه المشكلة، وهو المدخل لحل أغلب مشاكل العراق، وصولاً إلى إقامة حكم ديمقراطي حقيقي.

فالشيعة قد طالبوا - عند قيام ثورة العشرين وتأسيس العراق الحديث - بإقامة دولة عربية في العراق بزعامة أحد أنجال الشريف حسين، أي أنهم لم يطالبوا بحاكم شيعي أو عراقي، ولم يطالبوا بحكومة شيعية. وقد ساندوا - رغم اعتراضهم على الانتداب البريطاني ورغم سياسة الحكم الطائفية - الملك فيصل ومن بعده غازي، وكانت وفاة غازي فجيعة لهم، ثم ساندوا عبد الإله حتى قيام ثورة مايس والتي ساندوها بكل قوة، رغم أن دماء الفلاحين البسطاء في الفرات كانت لم تجف بعد، من على يد الكيلاني، زعيم الثورة.

وشارك الشيعة في المظاهرات ضد صالح جبر الشيعي، كما شاركوا فيها ضد نوري السعيد السني، وأحبوا - بعد قيام الجمهورية - الزعيم عبد الكريم قاسم، وبدرجة أقل الرئيس عبد الرحمن عارف. باختصار شديد لا توجد قضية للشيعة في العراق، إنما توجد أزمة حكم طائفي وضعت البلد على حافة الهاوية.

تعريف الشيعة:

سأتحدث هنا وبتبسيط شديد عن عقائد الشيعة، والتي تعاني من التباس شديد في ذهن الكثيرين من الذين لا يعرفون الشيعة.

ان الشيعة، هم المسلمون الذين يعتقدون بأن علياً وبنيه أفضل الناس على الإطلاق بعد رسول الله وأحقهم بالخلافة، بنص من رسول الله، أي أنهم لا يختلفون في الأصل مع بقية المسلمين الا في مسألة (الإمامة).

ولابن حجر العسقلاني تعريف طريف للشيعة إذ يقول: (والتشيع محبة علي وتقديمه

على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر، وعمر، فهو غال في تشيعه، ويطلق عليه رافضي[٦٤١].

وتسمية الرافضة، والتي اختلف الكتاب في أصلها، يقصد بها ذم الشيعة عادة. ويستعمل الآن اسم (الشيعة) للدلالة على الإمامية الاثني عشرية الجعفرية، ولم يعد يشمل الفرق الأخرى التي خرجت منها، كالكيسانية والذين توجد منهم بقايا قليلة جداً في السعودية[٦٤٢]، والزيدية، والاسماعيلية، والنصيرية (العلويين) وغيرهم. وتختلف الفرق الأخرى عن الشيعة في تعداد الأئمة وأشياء أخرى كثيرة.

والشيعة أقدم فرقة في الإسلام، وقد ظهرت في البداية كمجموعة من الصحابة الذين التفوا حول الإمام علي، كأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر وغيرهم. وتزايدت هذه المجموعة في عهد الخليفة عثمان حيث انضم إليها الكثيرون في مصر والعراق وغيرهما. وأصبحت تياراً. الا (ان الشيعة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق لم توجد في حياة علي، وإنما وجدت بعد موته بزمن غير طويل)[٦٤٣].

(والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبوة ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا ما تجاوزوا فيه الحد، وخرجوا عن القصد)[٦٤٤]، ويعتبرهم الشيعة بأنهم (ضلال كفار حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار وقضت الأئمة عليهم السلام

٦٤١- راجع محمود الزعبي. البينات في الرد على أباطيل المراجعات. الجزء الأول. ١٩٨٦ (مكان الطبع مغفل) ص١٩٦-١٩٧.

٦٤٢- حمزة الحسن. الشيعة في المملكة العربية السعودية. الجزء الأول. ١٩٩٣ (مكان الطبع مغفل) ص٦٧.

٦٤٣- طه حسين. الفتنة الكبرى-٢-علي بن أبي طالب وبنوه. بيروت ١٩٩٦. ص٦٠١.

٦٤٤- الشيخ المفيد. تصحيح الاعتقاد. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ (مكان الطبع يبدو أنه قم) ص١٣١.

عليهم بالاكفار والخروج عن الإسلام)[٦٤٥].

ويعد الفقه الشيعي (الكافر وضابطه كل من خرج من الإسلام أو انتحله، وجحد ما يعلم من الدين ضرورة، كالخوارج والغلاة)[٦٤٦] نجساً، بل (وكل مظهر للشهادتين.. يجوز تغسيله، عدا الخوارج والغلاة)[٦٤٧]. ويقصد بالخوارج هنا (أهل النهروان ومن قال بمقالتهم)[٦٤٨] وهو ما لا ينطبق على الخوارج المعاصرين كما يبدو.

المشكلة - وعن عمد أو جهل - يجري دائماً الخلط بين الشيعة والغلاة. وهو ما حاول الإعلام الرسمي لنظام صدام التركيز عليه. وقد تحدث صدام نفسه في لقاء مع صحفيين سعوديين، شاركوه بملاحظاتهم وإشاراتهم أفكاره كما يبدو، في نهاية عام ١٩٨٧، عن أشياء سخيفة نسبها للشيعة. وتفادياً للإحراج فإنه نسبها للشيعة العجم (كما سماهم)، وللإمام الخميني نفسه.

يكوّن الشيعة اليوم، عشر المسلمين في العالم، أو أكثر من ذلك، ويتوزعون أساساً في المشرق العربي ومناطق جنوب غرب آسيا. فهم يشكلون ٩٠٪ من الشعب الإيراني، والمذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة منذ القرن السادس عشر، أي منذ قيام الدولة الصفوية في ١٥٠١، والتي أدخلت التشيع إلى إيران[٦٤٩].

ويشكلون ١٧-٢٥٪ من الشعب الأفغاني وقد تعرض شيعة أفغانستان أيام (حكم طالبان) إلى مذابح طائفية جرى خلالها اغتصاب الكثير من النساء، وقد قتل قائدهم عبد العلي المزاري، إذ (اعتقلته قوات طالبان أواسط التسعينات أثناء تفاوضه معها.. ولكن

٦٤٥- المرجع السابق. ص١٣١.

٦٤٦- المحقق الحلي. شرائع الإسلام. شرحه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب. بيروت ١٩٨٨. الجزء الأول. ص١٤٧.

٦٤٧- المرجع السابق. ص٩٨ (حاشية).

٦٤٨- المرجع السابق. ص٣٤ (حاشية).

٦٤٩- إسحاق نقاش. شيعة العراق. قم ١٩٩٨. ص١٥.

رفاقه الطالبانيين في طائرة الهيلوكبتر لم يتحملوا رفقته فأعدموه على الطائرة[٦٥٠]. وللمزاري تاريخ نضالي طويل ضد حكم الشاه يوم كان لاجئاً في إيران إذ (اعتقل أكثر من مرة في طهران، وقضى مدداً طويلة سجيناً مع قادة كبار في الثورة الإيرانية)[٦٥١].

ويمثل الشيعة ٢٠٪ من الشعب الباكستاني. وتدير المخابرات الهندية، وربما غيرها أيضاً، حرباً دامية بمهارة، بين مجموعات سرية مسلحة من الشيعة والسنة. وقد ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، ووصل الأمر حتى تفجير المساجد والمدارس وقتل الأطفال.

ويشكل الشيعة ٢٠٪ من مسلمي الهند البالغ عددهم ١٦٠ مليوناً، وهناك في الهند قرى كاملة من (السادة). وهم أيضاً لا يزوجون نساءهم أحداً من غير السادة.

وينتشر الشيعة في بلدان آسيا الوسطى، والقوقاز، وخاصة في آذربيجان، وكانت في النجف أكثر من مدرسة تحمل أسماء مدن آذربيجانية، قدم منها طلبة العلوم الدينية، قبل قيام الحكم الشيوعي عام ١٩١٧، ويتواجد الشيعة في زنجبار، وحيث تتواجد جاليات لبنانية في أفريقيا، وحيث يتواجد مهاجرون عرب ومسلمون في أوروبا والأمريكيتين واستراليا.

أما في المشرق العربي، فهم يشكلون الطائفة الأكبر في لبنان، والذي رغم نظامه الطائفي، لا توجد فيه حتى الآن إحصائيات لطوائفه، وفي لبنان (وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ عقد الشيعة مؤتمراً لهم.. حضره علماء الشيعة وأعيانها.. وقرروا بالإجماع الانضمام إلى حكومة فيصل العربية ورفض الخضوع للحكم الفرنسي)[٦٥٢]، فحصدوا عداء

٦٥٠- هاني فحص. أفغانستان الوحدة والصبر. جريدة السفير. العدد ٩٠٣٦ في ٢٠٠١/١٠/٢٣. ص١٩.

٦٥١- المرجع السابق نفسه.

٦٥٢- الوردي. المرجع السابق. ملحق الجزء السادس. (قصة الأشراف وابن سعود). بغداد ١٩٨٠. ص١٤٤.

الفرنسيين الذين احتلوا لبنان وحقدهم، واستبعدوا هناك أيضا من المشاركة الحقيقية في الحكم لفترات طويلة. والغريب أنه حتى شيعة لبنان، يتهمهم البعض بأنهم بقايا فتوحات إيرانية قديمة[٦٥٣].

وفي سوريا بالإضافة إلى العلويين، فإن الشيعة يسكنون دمشق وقرى في حلب ودرعا وحمص ودير الزور، وفي الأردن، وفلسطين المحتلة، هناك قرى شيعية قليلة، انتقل أهلها من لبنان، يوم كانت سوريا الكبرى ولاية واحدة.

وفي الخليج العربي[٦٥٤]، وحسب تقديرات عام ١٩٨٤ فنسبتهم من المواطنين: ١٦٪ في قطر و٤٪ في عمان و١٨٪ في الإمارات، أما في الكويت فيقدرون بأكثر من ٢٤٪ من المواطنين، وتقوم الحكومة الكويتية باستمرار بتغيير المناطق الانتخابية لتقليل عدد النواب الشيعة في «مجلس الأمة» حتى لا يزيدون في أحسن الأحوال عن خمسة، أي حوالي ١٠٪ من أعضاء مجلس الأمة، بما فيهم الوزراء، الذين يعتبرون - حسب قانون مجلس الأمة الكويتي - أعضاء في المجلس بحكم مناصبهم، إلا أن شيعة الكويت يشعرون بالرضى عن حكومتهم، لأنها لا تتدخل في شؤونهم الدينية. ولعل الغنى والرفاه الذي تعيشه الكويت، هو السبب الحقيقي لهذا الرضى.

ويشكل الشيعة ٦٥٪ من أهل البحرين. وتحاول الحكومة هناك تقليل نسبة الشيعة باستمرار من خلال تجنيس عرب آخرين، بل وحتى إيرانيين سنة. وقد هاجرت أعداد كبيرة منهم - أي من الشيعة - خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بسبب الاضطهاد إلى إيران والعراق والأحساء والكويت[٦٥٥]. وما يعانيه شيعة البحرين من اضطهاد وتمييز يكاد لا يقل عما يجري في العراق، لولا الطبيعة الدموية لصدام، والفارق بين

٦٥٣- سمعت هذا الرأي من سياسي لبناني متشدد ضمني وإياه أحد سجون البلاد العربية.
٦٥٤- روجر هاردي. الجزيرة العربية بعد العاصفة. ترجمة حسين موسى. ١٩٩٤. ص٤٤.
٦٥٥- حمزة الحسن. المرجع السابق. ص٧٥-٧٦ و٨٠-٨١.

حجم البلدين، إذ أن مساحة البحرين تساوي نصف مساحة مدينة بغداد العاصمة فقط. ويتميز شيعة البحرين بالوعي والحيوية والمتابعة، وتبني القضايا العربية بقوة خاصة القضية الفلسطينية.

وفي السعودية يشكل الشيعة ٨٪ من المواطنين حسب تقديرات روجر هاردي[٦٥٦]. أما حسب تقديرات كاتب سعودي يضم إليهم الزيدية والاسماعيليين في المناطق الجنوبية والذين قدرهم بـ ٣٠٠ ألف نسمة، فإن نسبتهم تتراوح بين ١٢،٥-٢٥٪[٦٥٧]. ويعاني الشيعة في السعودية من اضطهاد بشع، بسبب رأي الوهابية المذهب الرسمي للدولة، والذي يعتبر الشيعة هراطقة يستحقون الموت[٦٥٨]. وقد جرى بعد الثورة الإسلامية في إيران، تنسيق مخابراتي شامل ضد الشيعة، بين البحرين والسعودية والكويت والعراق والأردن ومصر والمغرب وباكستان وبرعاية أميركية وغربية، وقد انتهى هذا التنسيق باحتلال الكويت عام ١٩٩٠.

أما في العراق، وحسب تقديرات بطاطو المستندة على إحصاء ١٩٤٧ فإن الشيعة يشكلون ٥٤٪ بينهم أكثر من ٣٪ من الفرس والتركمان والأكراد[٦٥٩]. وكان إحصاء بريطاني تقريبي قد احتسب نسبتهم عام - ١٩١٩- ٥٣٪ وعدلت هذه النسبة عام ١٩٣٢ إلى زهاء ٥٦٪[٦٦٠]. وقدر تقرير للسفارة البريطانية في بغداد سنة ١٩٦٤ نسبة الشيعة ٥٥٪ والسنة العرب ٢٠-٢٥٪ [٦٦١]. وهناك تقديرات للمخابرات العراقية بأن الشيعة ٤٨٪ والسنة العرب ٢٥٪ والأكراد ٢٠٪ أغلبهم من السنة، والتركمان والمسيحيين

٦٥٦- روجر هاردي. المرجع السابق. ص٤٤.

٦٥٧- الحسن. المرجع السابق. ص٨٨.

٦٥٨- هاردي. المرجع السابق. ص٤٥.

٦٥٩- بطاطو. المرجع السابق. الكتاب الأول. الجدول رقم ٣-١ ص٦٠.

٦٦٠- إسحاق نقاش. المرجع السابق. ص٢٣.

٦٦١- د. حامد البياتي. المرجع السابق. ص٩١-٩٢.

٧٪[٦٦٢]. ولا أستبعد أن هذه النسب قد تغيرت كثيراً بعد الحروب المتتالية والمجازر الكبرى وتهجير الملايين خارج العراق.

الشعائر الحسينية [٦٦٣]:

منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي في ١٠ محرم ٦١هـ (١٠ تشرين الأول ٦٨٠م)، والشيعة يداومون على زيارة قبره ونظم القصائد في رثائه. وكان بعض أهل الكوفة الذين كاتبوا الإمام الحسين ولم ينصروه، بل وشارك بعضهم في قتاله وعشية ثورتهم المشهورة بثورة التوابين سنة ٦٥هـ قد ذهبوا إلى كربلاء حيث ضريح الإمام الحسين، (وأقاموا عنده يوما وليلة يبكون ويتضرعون ويترحمون عليه وعلى أصحابه)[٦٦٤]. ومن ذلك اليوم، والشيعة يبكون الإمام الحسين ويحيون ذكرى استشهاده سنوياً.

وجاء الحجاج بن يوسف الثقفي فمنع إحياء عاشوراء (وحمل الناس على اتخاذ هذا اليوم عيداً.. واتخاذ صنوف الحلوى والافتنان فيها ومنها الحبوب المطبوخة باللبن[٦٦٥]. ولا زال الناس في بعض البلاد العربية كالشام مثلاً، يسمون أيام عاشوراء بالأيام البيض، ويطبخون طعامهم باللبن، دون أن يعرفوا أصل التسمية أو المناسبة. وقد أخذت هذه العادات بالانقراض.

٦٦٢- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص١٨٨-١٨٩.

٦٦٣- بالإضافة إلى المراجع التي ستذكر، راجع أيضا، نور الدين الشاهرودي. الحسين (ع) والحسينيون. طهران ١٩٩٩. ص٥١-٦٣.

٦٦٤- ابن الأثير. الكامل في التاريخ. إدارة المطبعة المنيرية بمصر. (سنة الطبع مغفلة) الجزء الرابع. ص١٧٨.

٦٦٥- ضياء الدخيلي. صدى مقتل الحسين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي. مجلة الموسم. العدد الثاني عشر. ١٩٩١. ص١١٨.

وقد هدم الخليفة الرشيد قبر الحسين، ثم أعيد على زمن ابنه المأمون[٦٦٦]، وفي سنة ٢٣٦ للهجرة (أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه)[٦٦٧]، ولما قتل المتوكل أعاد بناءه ابنه المنتصر[٦٦٨]. وفي حكم البويهيين، وسنة ٣٥٢ للهجرة (في هذه السنة عاشر المحرم أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة)[٦٦٩]. وفي مصر كان الفاطميون يفعلون الشيء نفسه، حتى مجيء الأيوبيين والذين اتخذوا عاشوراء عيداً[٦٧٠].

وفي العصر الحديث، تبنى الصفويون – منذ تشيعهم في القرن السادس عشر – إحياء ذكرى استشهاد الحسين وبقوة. أما في العراق، فقد منعها المماليك، وبعد عام ١٨٣١ سمح الوالي علي رضا بها، فانتشرت مجالس (التعزية الحسينية) والتي كانت تقام سراً سنوات المنع. ويبدو أن مجالس (التعزية) والتي كانت تعقد لإلقاء الشعر والتحدث بفضل أهل البيت، قد أخذت شكلها الحالي بعد عام ١٨٣١ أو قبل ذلك بقليل.

وظهرت بعد رفع المنع ممارسات لم تكن معروفة من قبل كالتطبير أو جرح الرؤوس بالسيوف، الذي ظهر أول مرة على يد موكب تركي قدم من القوقاز، لزيارة ضريح الإمام الحسين، وصادف يوم وصوله يوم عاشوراء فتجمعوا عند مرقد الحسين، وأخذوا

٦٦٦- السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة. بيروت ١٩٨٦، المجلد الأول. ص٦٢٧-٦٢٨.

٦٦٧- الطبري. تاريخ الأمم والملوك. القاهرة ١٩٣٩. الجزء السابع. ص٣٣٥.

٦٦٨- السيد محسن الأمين. المرجع السابق. ص٦٢٨.

٦٦٩- ابن الأثير. المرجع السابق. الجزء السابع. ص٧.

٦٧٠- المقريزي. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. بيروت (سنة الطبع مغفلة) ص٤٩.

يضربون رؤوسهم بسيوفهم والتي كانت سلاحهم خلال الرحلة[٦٧١]. وتزامن ذلك مع ظهور (الضرب على الصدور). وفي نهاية القرن الثامن عشر، انتقل الشبيه أي تمثيل معركة كربلاء في اليوم العاشر من محرم من إيران إلى العراق.

أما ضرب الظهور بالسلاسل، فقد انتقلت الى العراق ، والى النجف تحديدا ، من ايران ، عام ١٩١٩[٦٧٢].

ومع وجود حالات فردية باستمرار، فان ظاهرة السير إلى كربلاء مشياً على الأقدام، لم تنتشر الا بعد عام ١٩٧٠. أما بذل الطعام وبأصنافه، والتي تزداد سنوياً، فمن الصعب الحديث عن تاريخها، لأن بذل الطعام عادة عربية قديمة، ثم جاءت المناسبة الدينية لتضفي عليها خصوصيتها.

ولم تنتشر أكثر هذه الممارسات التي ظهرت بعد عام ١٨٣١ - كالتطبير وغيره - في صفوف العشائر، والتي ظلت تحرص بشدة على إقامة مجالس التعزية، وبذل الطعام، وزيارة مرقد الإمام الحسين، خاصة في يوم عاشوراء (أي العاشر من محرم والذي صارت تسمى به الأيام العشرة الأولى من محرم). والأربعين أي يوم عودة نساء أهل البيت من الأسر، ومعهم رأس الحسين والذي أخذ إلى يزيد في الشام، ليدفن في كربلاء، بعد أربعين يوماً من استشهاده، أي يوم ٢٠ صفر، وذلك حسب رواية انتشرت بين الشيعة من بين عدة روايات عن مدفن رأس الحسين[٦٧٣].

وقبل الثورة الإسلامية في إيران، وانتشار المد الديني في نهاية السبعينات، فإن الالتزام الديني لأغلب جماهير (الشعائر الحسينية)، وتحديداً الذين يمارسون الضرب على

٦٧١- طالب علي الشرقي. من تاريخ الشعائر الحسينية في النجف الأشرف-العراق. مجلة الموسم. العدد الثاني عشر ١٩٩١ ص٢١٢-٢١٤. وهذه المقالة ومقالة (ضياء الدخيلي) التي سبق ذكرها، أهم مراجعنا عن الشعائر.

٦٧٢- إسحاق نقاش. المرجع السابق. ص٢٠٩.

٦٧٣- السيد محسن الأمين. المرجع السابق. ص٦٢٦-٦٢٧.

الصدور والرؤوس والظهور، كان ضعيفاً. وكانت هذه الشعائر بالنسبة للقائمين عليها باباً عريضا للوجاهة والارتزاق. وقد ذهبت كل محاولات العلماء للسيطرة عليها أو تهذيبها هباءاً، فاضطروا إلى السكوت عنها أو مجاراتها. وقد قال أحد العلماء معلقاً على مجاراة بعض علماء الشيعة للعامة، معتبرا اياها الوجه الآخر لمجاراة علماء السنة للسلاطين: (ضاعت حقيقة الإسلام بجنايات علماء السنة والشيعة، علماء السنة سايروا السلطان، وعلماء الشيعة سايروا العوام). وكانت هذه الشعائر ليست ببعيدة عن استغلال الأحزاب أحياناً. وعموماً فإنها كانت تتأثر بشدة بالظروف السياسية والاجتماعية، وهكذا فإن معارك فلسطين والسويس والجزائر وهزيمة حزيران، ناهيك عن القضايا الوطنية، كانت أصداؤها تتردد بقوة في الشعائر الحسينية.

وحينما حرم المجتهد الأكبر محمد حسن الشيرازي (توفي عام ١٨٩٥)[٦٧٤] وفيما بعد السيد أبو الحسن الأصفهاني (توفي ١٩٤٦) (ضرب الرؤوس بالسيوف، ولطم الصدور، وضرب الظهور بالسلاسل، ودق الطبول)[٦٧٥] وكذلك السيد محسن الأمين (توفي عام ١٩٥٢)[٦٧٦] وغيرهم.. وغيرهم، لم يجد تحريمهم أية استجابة، بل صدرت الكثير من الشتائم من هنا وهناك، خاصة بحق الأخير.

وأشهر من حارب هذه الممارسات، هو المفكر الإسلامي الإيراني الدكتور علي شريعتي، والتي اعتبرها (مشاعر غلو وإفـراط)[٦٧٧] وبأنها (تنطوي على أفعال وممارسات لا تنسجم مع شرع أو سنة)[٦٧٨] وأتهم الصفويين باقتباسها من مسيحيي أوروبا آنذاك[٦٧٩].

٦٧٤- إسحاق نقاش. المرجع السابق. ص٢١٦.

٦٧٥- جعفر الخليلي. هكذا عرفتهم. الجزء الأول. قم وسنة الطبع مغفلة. ص١٠٦.

٦٧٦- المرجع السابق. ص٢٠٧.

٦٧٧- شريعتي. المرجع السابق. ص٢١٠.

٦٧٨- المرجع السابق. ص٢١٠.

٦٧٩- المرجع السابق. ص٢٠٧-٢٠٨.

واضطرت الثورة الإيرانية لاستعمال القوة لمنع هذه الظواهر والتي تبناها في المقابل رجال دين منشقون عليها. وكملاحظة عامة في العراق وإيران، فإن الذين يصارعون من اجل الحصول على لقب المرجع الديني، أو الذين لم تثبت مكانتهم في الحوزة العلمية، يحاولون كسب العامة من خلال تبني ما يحرمه غيرهم من هذه الشعائر، دون أن ننسى (أن الناس يدينون بما يألفون لا بما يعرفون)، كما يقول ميخائيل نعيمة. فالشعائر التي حرمها بعض العلماء وبسبب الجهل والتعصب وبحكم الاستمرارية أصبحت عقيدة في حد ذاتها، لها ناسها ومنظروها وأيضاً المستفيدون منها.

وجاء نظام صدام، وككل ما قام به، جعل المشكلة أكثر تعقيداً، إذ بدلاً من منع ما حرمه العلماء، كرر ما قام به الحجاج وغيره، فجعل الناس أكثر التصاقاً بها. وقد كاد بعض العلماء، وبسبب الظروف القائمة في العراق، ان يقول بوجوبها، أو أن الحض عليها قد أوصلها هذه الدرجة فعلاً.

لقد حاول صدام، إلغاء الحسين من الذاكرة العراقية كلياً، فهو لم يكتف بمنع جميع الشعائر، حتى زيارة مرقد الحسين، بل وحاول تحويل (يوم عاشوراء) إلى يوم فرح تقام فيه حفلات الزواج الجماعية، وتبث فيه الإذاعة أكثر الأغاني طرباً. ولم يكن أمام الشيعة سوى ممارسة بعض هذه الشعائر سراً، أو الاستماع إلى إذاعة إيران التي تبث برامج خاصة بمناسبة عاشوراء والأربعين عادة.

ان تحويل (يوم عاشوراء) إلى يوم فرح، كان استفزازاً لا يتحمله العقل العراقي أبداً. فجرى ذلك على جماجم الكثيرين من الذين خالفوا أوامر المنع، أو احتجوا عليها، مما زاد بالتالي الأمور سوءاً والشعور بالاضطهاد الطائفي تفاقماً. خاصة وأن الشيعة كانوا يلاحظون إخوانهم السنة، من أتباع الطرق الصوفية، وهم يمارسون طقوسهم – والتي هي ايضا موضع اعتراض البعض – بحرية تامة.

ثم ان استشهاد الحسين، هو رمز لمظلومية الشيعة في التاريخ ودمائهم ومآسيهم، وهي مرة وبشعة. ولن يفهم هذا الا من تعرض لمعاناة مماثلة، أو من قرأ التاريخ الإسلامي جيداً. فضلاً عن أن المحاولات المستمرة عبر التاريخ، لمنع إحياء ذكرى الحسين، والتي

بلغت حد العبث بقبره ومحاولة محو آثاره، وما عاناه الشيعة في هذا الخضم، جعلت الحسين الرمز الأول والأبرز للشيعة، دون أن يعني هذا عندهم تقديمه على جده رسول الله أو والده أمير المؤمنين أو والدته فاطمة الزهراء أو شقيقه الإمام الحسن.

وتبدو الشعائر الحسينية في وجهها الآخر، ومن الناحية التاريخية، كجلد للذات للتكفير عن الخذلان المتكرر لآل البيت، رغم أنه لا توجد طائفة في التاريخ كالشيعة، قاتلت مراراً وضحت كثيراً، إلا أن مشكلتهم أنهم واجهوا دولاً قوية. ثم أن أهل البيت كانوا دائماً مثاليين، في مواجهة دول كانت تستخدم كل الوسائل وبدهاء خطير.

وأوقف النظام منذ عام ١٩٧٣، إذاعة قصة استشهاد الإمام الحسين المعروفة بمقتل الحسين، وربما مات مسموماً قارئها الأشهر الشيخ عبد الزهراء الكعبي في السنة التالية.

المفارقة أن النظام بعد اندلاع الحرب مع إيران أخذ يذيع في يوم عاشوراء، نسخة قديمة ورديئة التسجيل من المقتل، وكان الرقيب بجهل وغباء وكما يفعل بالمجلات والصحف، قد قطّعها وحذف الكثير منها، رغم أنها رواية لأحداث جرت في القرن الأول الهجري. والسخيف جداً أن النظام كان يقوم بإذاعة المقتل في وقت مبكر جداً، حيث يكون الناس نياماً فلا يسمعه الا القليل.

وقد ظهر في العراق، خطباء حسينيون كبار، كانت لهم إسهامات جليلة في العلوم العربية والإسلامية، وساهموا بفعالية في محاربة الاحتلال البريطاني في عشرينات القرن العشرين، ثم في معارضة الأنظمة الفاسدة. وفي زمن صدام، انتهى مصير أغلبهم قتلاً أو نفياً. وشن النظام في عام ١٩٨٦ حملة كبرى بدس السم، لكل من يمتهن القراءة الحسينية، حتى المتعاون منهم معه.

ان (المجالس الحسينية مدرسة سيّارة) للشيعة (ومنها أخذوا أصول العقائد، ومعالم الدين، وأحكام الشرع)[٦٨٠]، ولكنها تعاني من المتطفلين وأنصاف الأميين. وعن

٦٨٠- عبد الزهراء الحسيني الخطيب. مقدمة كتاب من لا يحضره الخطيب. الجزء الثاني. بيروت ١٩٩١. ص١٣.

الأخيرين يقول الشيخ مرتضى مطهري - أبرز من حاول تنقية الشعائر الحسينية في إيران - وهو يتحدث عن كتاب كتب بالفارسية سنة (٩٠٨هـ): (ولما كان هذا الكتاب أول كتاب يتعرض لواقعة الحسين باللغة الفارسية لذلك فان قراء التعزية وهم غالباً ما يكونون من الأميين ممن يجهلون اللغة العربية[٦٨١] فإنهم كانوا يتناولون هذا الكتاب ويقرؤون منه مباشرة في المجالس الحسينية (....) وعليه فإن مجالس الروضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب (روضة الشهداء) للملا حسين الكاشفي: أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يعد أحد يراجع أو يطالع حقيقة الطف) [٦٨٢].

أما المثقفون الشيعة، والذين لم نأت على ذكرهم ابداً، فإلى عام ١٩٨٠، لا توجد شريحة يصح إطلاق هذه التسمية عليها، لأنهم توزعوا على التيارات الفكرية والسياسية، وصاروا ينتمون إليها أكثر من انتمائهم لمذهب أو طائفة دينية، وأخشى أن هذه الصورة، بعد المذابح الكبرى في الثمانينات والتسعينات وبعد كل ما جرى، قد اختلفت تماماً.

لقد تحدثنا بتطويل عن الشعائر الحسينية، لأن الحاكمين بسبب جهلهم وغبائهم، وعدم شعورهم بالمسؤولية، وربما أيضاً بسبب الحقد الطائفي الأعمى، قد فرضوا على البلاد بسببها ظروفاً استثنائية، وذبحوا الكثيرين، وخلقوا جرحاً في الوجدان الشعبي[٦٨٣]. وكانوا يطوقون المدن الشيعية أيام عاشوراء، وكأنها مدن محتلة، وتوضع القوات المسلحة وأجهزة القمع في أعلى درجات الاستنفار، وتستدعى ألوية مدرعة وقوات خاصة بحجة التدريب، وتعسكر بالقرب من مدينتي كربلاء والنجف، أيام عاشوراء، لتتدخل عند الحاجة. بينما لم تجر في تاريخ العراق قبل عام ١٩٦٨ أية مشاكل تذكر بين

٦٨١- أنظر إلى رئيس مجلس الثورة الإيراني يعتبر من يجهل اللغة العربية أمياً.. هذه هي الشعوبية!

٦٨٢- مرتضى مطهري. الملحمة الحسينية. الطبعة الثانية. قم ١٩٩٠. الجزء الأول. ص٤٣.

٦٨٣- كما جرى في شباط ١٩٧٧. وكما يجري في محرم والعشرين من صفر من كل سنة.

الشعب والحكومة بسبب عاشوراء، والتي كانت تمر أيامها بهدوء وسلام، ودون ان تتخذ الحكومات أية إجراءات غير عادية.

إن تطهير الحكم من الطائفية والعشائرية والمناطقية، شرط لازم حتى يثق الناس بنوايا حكوماتهم، وهي تتدخل لتنظيم الشعائر الحسينية. وقد سبق للزعيم عبد الكريم قاسم - والذي كان الناس يثقون به - أن طلب منهم التوقف عن إقامة (المواكب الحسينية) في اربعينية احدى السنوات فاستجابوا له.

الفصل السابع

سنوات الهرير
الخلاف مع سوريا

(ان ما يربط العراق وسوريا هو أكثر
مما يربط أية ولايتين أمريكيتين)
الرئيس حافظ الأسد – ١٩٨٠

الهرير، هي الليلة التي تقاتل فيها جيشا الإمام علي ومعاوية، في صفين سنة ٣٦هـ، حتى قيل (إنه لفناء العرب) وقيل (أكلتنا الحرب). إن الخلاف العراقي – السوري كان هريراً، امتد حوالي ثلاثين سنة، وألحق خسائر فادحة بالأمة، ولولاه – ربما – كان مجرى التاريخ في المشرق العربي في الربع الأخير من القرن الماضي مختلفاً.

وأرجو أن ينتبه القارئ جيداً، فهذا الفصل لا يقارن بين نظام ونظام، إنما هناك وقائع تحتاج إلى تفسير. فمعيار صدقية أي نظام يدعي أن فلسطين هي قضيته المركزية، هو تغليب الصراع القومي على الصراع الداخلي، مهما كانت الخلافات الحزبية، وحتى لو افترضنا أن الطرف الآخر هو المسؤول عنها.

حرب تشرين:

يقول الفريق الشاذلي عن المشاركة العربية، ومنها العراقية، في حرب تشرين ١٩٧٣: (يجب أن نعترف بأخطائنا ونتعلم منها، فقد كان الخطأ الأول هو التأخير الواضح في إرسال هذا الدعم العسكري إلى الجبهات المختلفة مما جعل الكثير من وحدات الدعم

تصل في وقت متأخر لا يسمح بأن يكون لها تأثير كبير على سير المعركة)[٦٨٤]. فقد وصلت القوات العراقية في اليوم التالي لاندلاع الحرب على عجل، بعد أن قطعت آلاف الكيلومترات. وقد دخلت بعض الوحدات المعركة على الفور بخرائط قديمة أو بدون خرائط. زد على ذلك مجمل أوضاع القوات المسلحة بعد انقلاب ١٧ تموز، والذي أفرغها من طاقات عسكرية مهمة. وأياً كان الحال فان القوات العراقية أبلت بلاء حسناً.

فعن السرب العراقي الذي وصل مصر في آذار ١٩٧٢ يقول الفريق الشاذلي: (كان أداء الطيارين العراقيين في ميدان المعركة رائعاً مما جعلهم يحوزون على ثقة وحداتنا البرية، ففي أكثر من مناسبة كانت تشكيلاتنا البرية عندما تطلب معاونة جوية ترفق طلبها بالقول «نريد السرب العراقي» أو نريد سرب «هوكر هنتر»)[٦٨٥].

ويقول الجنرال موشيه باركوخبا الذي قاد جيش العدو في مواجهة الجيش العراقي، في هضبة الجولان، في كتابه (المراكب الفولاذية): (شملت القوات العراقية المهاجمة على الفرق المدرعة الثالثة والسادسة ولواءي مشاة، ووحدات كوماندوز، وبلغ قوام تلك القوة خمسمائة دبابة، وسبعمائة ناقلة جنود مدرعة، وثلاثين ألف جندي، ولو أن هذه القوة تأخرت في الوصول ما بين اثنتي عشرة ساعة حتى أربع وعشرين ساعة، لتمكنت القوات الإسرائيلية من السيطرة على مناطق واسعة في عمق الأراضي السورية باتجاه دمشق. لقد تمكنت القوات العراقية من إيقاف تقدم القوات الإسرائيلية)[٦٨٦].

واعتقد أن القوات العراقية لو وصلت إلى الجبهة السورية، قبل مدة كافية، لما أوقفت تقدم القوات الإسرائيلية فحسب، بل ولكانت ردتها على أعقابها. فقيام جبهة شرقية من العراق وسوريا، مماثلة للقوة المصرية (الجبهة الغربية) كانت ستحقق نتائج أفضل في

٦٨٤- الشاذلي. المرجع السابق. ص٣٠٤.

٦٨٥- المرجع السابق. ص٢٩٠.

٦٨٦- نقلاً عن نكديمون. المرجع السابق. ص٢٧٧-٢٧٨.

حرب تشرين. أما لو حشد العراق لها، ما حشده فيما بعد لحربه مع إيران، أو أقل من ذلك، لتغير مجرى التاريخ تماماً في المنطقة. فالعراق هو البلد العربي الوحيد الذي يملك ثروة وعدداً من السكان متناسبين، والذي يستطيع بناء قوات مسلحة، قادرة هي والقوات المصرية والسورية – ونحن بصدد الحديث عن سنوات السبعينات – على الإطباق كفكي كماشة على العدو وإجباره على الانسحاب من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. وقد كان خروج العراق من الجبهة الشرقية – مهما فسر ذلك – الخطوة الأولى التي حقق العدو في ظلها ما حقق، إذ استفرد بالدول العربية واحدة بعد الأخرى وبالطريقة التي تمت.

ووصل اللواء يوسف شكور رئيس هيئة الأركان السورية، مع مرافقه الملازم أول هشام بختيار (رئيس المخابرات العامة حالياً) إلى بغداد، (طالباً الموافقة على إبقاء القوات لبضعة أيام، كي لا يحدث انسحابها ثغرة في الدفاع عن دمشق، الا أن صدام أصر، أمام البكر، على سحبها) (٦٨٧).

ويجب الإشارة إلى الحماس الشعبي العارم في العراق ابان حرب تشرين. إذ تقاطر الشبان والضباط المتقاعدون، في حالة نادرة، على مراكز التجنيد، والتي قالت لهم إنها ستدعوهم عند الحاجة. وكانت وحدات الجيش تتنافس وكذلك الضباط والجنود على الذهاب إلى الجبهة. وعاتب عدد من الشباب في اليوم التالي للحرب أحد العلماء وكان الرجل لا يقل عنهم حماساً، على عدم دعائه للمقاتلين في الجبهة. إذ ان فلسطين في الوجدان العراقي هي القضية المركزية، التي لم ترق إلى مركزيتها قضية ابداً. وتتملكني الخشية اليوم، أن مأساة بحجم مأساة العراق، قد أشغلت الشعب العراقي بجراحه عن أي جراح أخرى، ولو بقدر ما. وهذا تماماً ما تريده الصهيونية، أن ننشغل بشجوننا وتستفرد هي بالشأن الفلسطيني.

الغريب ونحن نتحدث عن السبعينات، ان العراق عزز علاقاته مع الأردن (فوقعت في

٦٨٧- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص٤٧.

سنة ١٩٧٥ اتفاقات بينهما لتعزيز التعاون الاقتصادي والتجاري والثقافي وشكلت لجنة مشتركة لتنسيق النشاطات الثقافية والسياحية بين البلدين ولما كان العراق في حاجة إلى موانئ عميقة في البلدان المجاورة فإنه عرض معونة مالية لتطوير ميناء العقبة الأردني[٦٨٨]. وأمد تونس بورقيبة - في نيسان ١٩٧٥- بمبلغ ٢٥ مليون دولار كمساعدة لها[٦٨٩]، وفي شهر آذار ١٩٧٥ زار السادات بغداد حيث (قدم العراق مليون طن من النفط المؤمم هدية للشعب المصري بالإضافة إلى ٣٥ مليون دولار للبناء والتعمير، ومع أن العراق لم يرض عن اتفاقات سيناء فإنه امتنع عن انتقاد حملة مصر للوصول إلى تسوية سلمية للنزاع العربي - الإسرائيلي)[٦٩٠].

في مقابل ذلك، وبدلاً من الوقوف مع سوريا، لتصليب موقفها في وجه الضغوط الأميركية والصهيونية، والتي كانت تريد أن تأخذها في الطريق الذي أخذت فيه مصر، خاضت الحكومة العراقية مفاوضات مريرة مع سوريا حول تحديد الرسوم المستحقة على مرور النفط العراقي عبر الأراضي السورية.

أبو نضال:

المفارقة الأخرى في علاقاته العربية، أن علاقة النظام مع منظمة التحرير الفلسطينية لم تتحسن الا في الثمانينات، أي بعد أن بدأت قيادة المنظمة بدخول نفق التسويات مع اسرائيل. أما قبل ذلك، فقد دعم النظام التصفيات الدموية التي قامت بها المنظمة المشبوهة التي يقودها أبو نضال، والتي تأسست في العراق عام ١٩٧٤. (في هذه المرحلة كانت لجنة أبو نضال العسكرية تبدو تكويناً عراقياً خالصاً. فقد كان ينفذ أوامر العراق

٦٨٨- خدوري. العراق الاشتراكي. (مرجع سابق) ص٢٧٢.
٦٨٩- المرجع السابق. ص٢٧٣ (حاشية).
٦٩٠- المرجع السابق.ص ٢٧٣-٢٧٤.

وكان يكافأ بحرية الوصول إلى الأموال العراقية، والخطوط الجوية، والسفارات والحقائب الدبلوماسية)[٦٩١].

وبتحريض من النظام قام أبو نضال بحملة إرهابية ضد سوريا شملت عام ١٩٧٦ مهاجمة مكاتب الخطوط الجوية السورية في أكثر من عاصمة، واقتحام فندق سميراميس بدمشق واحتجاز تسعين رهينة، ومهاجمة السفارات السورية في إسلام آباد وروما وأنقرة، وتفجير صناديق القمامة في دمشق والتي نتج عنها إصابات قبيحة.. وغيرها[٦٩٢].

وقد قُتل الكثير من كوادر الثورة الفلسطينية[٦٩٣] - بعد عام ١٩٧٤- بعضهم برصاص الموساد، وبعضهم الآخر برصاص أبى نضال. فقد قتل في ٣ كانون الثاني ١٩٧٧، محمود صالح ممثل منظمة التحرير في باريس برصاص الموساد. وفي ٤ كانون الثاني ١٩٧٨، قتل سعيد حمامي ممثل المنظمة في لندن برصاص أبي نضال، كما قتل برصاصه أبو علي ياسين ممثل المنظمة في الكويت، وأيضا (وفي يوم ٣ أغسطس ١٩٧٨ قتل في باريس عز الدين قلق، مندوب المنظمة في فرنسا، وكان رجلاً مثقفاً، جذاب الحديث، مخلصاً، أثر بشكل ملحوظ على الرأي العام في فرنسا، وبعد ذلك بيومين في ٥ أغسطس هاجم مسلحان مكتب المنظمة في إسلام آباد، فقتلوا أربعة رجال لكنهم أخطئوا يوسف أبو حنتاش مندوب المنظمة هناك)[٦٩٤]. وفي ٢٢ يناير ١٩٧٩، قتل الموساد علي حسن أبو سلامة قائد القوة ١٧، بسيارة ملغومة ببيروت.

ونجا أبو أياد عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وأحد خمسة أسسوا حركة فتح، من عدة محاولات اغتيال، وقد قتل فيما بعد برصاص أبي نضال. وفي تموز ١٩٧٩، وبنيس

٦٩١- باتريك سيل. أبو نضال بندقية للإيجار. القاهرة ١٩٩٢. ص١٥٤.

٦٩٢- المرجع السابق. ص ١٥٦-١٥٧.

٦٩٣- المرجع السابق. ص٧٧-٨٣ وص٢٣١ وما بعدها.

٦٩٤- المرجع السابق. ص٢٣١-٢٣٢.

في فرنسا، قتل زهير محسن قائد منظمة الصاعقة الفلسطينية الموالية لسوريا. وتصور الجميع أنه قتل برصاص الموساد، ثم ظهر أنه قُتل برصاص أبي نضال، وبتحريض مباشر من العراق. وفيما بعد ولاسترضاء سوريا، عرض أبو نضال اغتيال قائد (جبهة التحرير العربية) الموالية للعراق، ولكن السوريين رفضوا العرض[٦٩٥]. الجدير بالذكر، أن جبهة التحرير العربية، رغم الدعم العراقي اللامحدود، واعتبار الالتحاق بها خدمة عسكرية في الجيش العراقي، فانها لم تقم بأية عملية فدائية إطلاقا.

وفي ١ يونيو حزيران ١٩٨١، قُتل نعيم خضر ممثل منظمة التحرير في بروكسل، برصاص أبى نضال. وبعد أشهر نجا سليمان الشرفا ممثل فتح في ليبيا من محاولة مماثلة وقتل رجل آخر خطأ. وفي اليوم التالي، قتل ماجد أبو شرار أمين سر حركة فتح بقنبلة إسرائيلية في روما. الأمر الذي دفع كثيرين إلى التشكيك بوجود اختراق إسرائيلي لمنظمة أبى نضال. (وليست هذه المرة الأولى في التاريخ التي يستغل فيها عملاء أجانب الراديكاليين، بطرق لا يمكنهم أنفسهم أن يفهموها)[٦٩٦]، وعلق مسؤول فلسطيني كبير: (في مناسبات عديدة لم نكن متأكدين من المسؤول: هل هو أبو نضال أم الموساد[٦٩٧].

ومما يثير الحيرة، أن العراق راعي منظمة أبي نضال وأبا نضال، كلا على حدة، قد أنكرا العلاقة بتلك العمليات ما عدا قتل حمامي[٦٩٨]. الأغرب من ذلك، أن أبا داود القائد الفلسطيني الشهير في السبعينات، تعرض لمحاولة اغتيال في ٢٧ يوليو تموز ١٩٨١ في بولندا، على يد أحد عناصر أبي نضال (الذي جندته الموساد في باريس، وأرسلته أولا إلى إسرائيل للتدريب، ثم إلى مدرسة الاستخبارات الأميركية في المغرب، حيث تعلم

٦٩٥- المرجع السابق. ص٣٩٨.

٦٩٦- المرجع السابق. ص٢٣٠.

٦٩٧- المرجع السابق. ص٢٤٤.

٦٩٨- المرجع السابق. ص٢٣٣-٢٣٤.

نظريات أبي نضال ورطانته.. ومن ثم أرسل إلى باريس حيث التقطه رجال أبو نضال وجندوه)[٦٩٩].

أما مدرسة المغرب (حيث تدير حكومة المغرب، ووكالة الاستخبارات المركزية مدرسة متخصصة في الشؤون الفلسطينية التي تعمل بتعاون وثيق مع إسرائيل في خصوص الشؤون الفلسطينية والطلاب في غالبهم من الشباب الشمال أفريقي، تم تجنيدهم في أوروبا. ثم أعيدوا إلى المدرسة المغربية كي يدربوا كجواسيس.. وبمجرد انتهاء الدورة يعود الشباب إلى أوروبا ليعطى تعليمات مفادها أن يحوم حول المقاهي، ويقابل باقي العرب.. بأمل أن تلتقطه في النهاية الفصائل الفلسطينية التي تعلموا كيف يقلدونها.. لقد أصبح بعض خريجي المدرسة مخبرين، وبعضهم مخططين لعمليات، بل وبعضهم أصبح منظرين أيديولوجيين للفصائل التي زرعوا فيها، كما أن البعض منهم أصبح قتلة[٧٠٠].

وبعد اغتيال أبي علي ياسين في الكويت كما أشرنا (قامت فتح بإطلاق الصواريخ على السفارة العراقية في بيروت يوم ١٧ تموز ١٩٧٨، وبعدها بيومين اقتحموا مكتب أبي نضال في طرابلس بليبيا، وقتلوا رجلين من أعضائه، وفي يوم ٢٤ يوليو زرعت فتح قنبلة خارج السفارة العراقية في بروكسل، وفي يوم ٢٨ يوليو نجا السفير العراقي في لندن من محاولة لقتله، وفي ٣١ يوليو حاول أحمد شقيق سعيد حمامي احتلال السفارة العراقية في باريس، وفتح النيران على أعضائها فقتل مفتشاً فرنسياً)[٧٠١].

وقد قامت المخابرات العراقية باغتيال عدد من العراقيين العاملين مع منظمة التحرير الفلسطينية. فاغتالت يوم ٢٠ حزيران عام ١٩٧٩ عادل عبد الجليل وصفي (خالد العراقي)، نائب رئيس تحرير (فلسطين الثورة) النشرة المركزية لمنظمة التحرير

٦٩٩- المرجع السابق. ص٢٤٨.

٧٠٠- المرجع السابق. ص٢٤٥.

٧٠١- المرجع السابق. ص٢٣٢.

الفلسطينية والتي تصدر في بيروت. واغتالت تحسين علي عزيز الشيخلي بمسدس كاتم للصوت بالقرب من مكتب منظمة التحرير بكورنيش المزرعة ببيروت في ١٩٨٠/٣/٢٤، واغتيل داغر هاشم (أبو سلام العراقي) في صيدا بجنوب لبنان يوم ١٩٨٠/٦/١٣، وعبد الجبار عبد الله ببيروت عام ١٩٨١، وأبو الفهود مطر لازم وزهير ناصر كمال الدين (فهد العراقي) ببيروت في ١٩٨٢/١/٢٨ (٧٠٢).

وتبقى عملية اغتيال السفير الإسرائيلي في بريطانيا، في ٣ حزيران ١٩٨٢، العملية الأكثر غموضاً لمنظمة أبي نضال، والتي اتخذتها إسرائيل بعد يومين مبرراً لغزو لبنان وإجلاء منظمة التحرير عنها. فهناك افتراض بأن العراق هو الذي خطط لقتل السفير الإسرائيلي، لخلط الأوراق لعله يجد مخرجاً لحربه الضروس مع إيران. وهناك من يفترض دوراً للموساد لمد إسرائيل بالحجة لغزو لبنان(٧٠٣).

ثم ارتكب ابو نضال سلسلة من الاخطاء القاتلة، فبالإضافة إلى مهاجمته أهدافاً أردنية، فجر أبو نضال - لابتزاز الأموال - في ٢٣ أيلول ١٩٨٣، طائرة إماراتية راح ضحيتها المسافرون البالغ عددهم ١١١ والطاقم. كما قام بقتل عدد من الدبلوماسيين الكويتيين. و(كانت الإمارات أحد الممولين للعراق في الحرب العراقية - الإيرانية، بينما كان ميناء العقبة الأردني قد أصبح خط الحياة لها مع العالم. ووقعت العراق تحت ضغط شديد للتخلص من أبو نضال مرة واحدة وللأبد) (٧٠٤). فطرد أبو نضال في ٤ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٣.

منذ طرده من العراق (أراد أبو نضال أن يرتبط بإيران فعرض على إيران معلومات عن المواقع العسكرية العراقية وأراد إغراءها بصفقات السلاح.. ولكن الإيرانيين لم يبتلعوا

٧٠٢- المنظمات الشعبية العراقية. حول انتهاكات النظام الفاشي العميل لحقوق الإنسان في العراق. مؤسسة صوت الرافدين للنشر، ١٩٨٤. ص١٩٣-١٩٥.

٧٠٣- باتريك سيل. المرجع السابق. ص٣٠٥-٣٠٧.

٧٠٤- المرجع السابق. ص١٧٨.

ذلك الطعم، ولم تأت الدعوة التي انتظرها طويلاً أبو نضال لزيارة طهران أبداً[٧٠٥].

وبعد طرد أبي نضال من ليبيا فيما بعد، ادعت منظمته أن لديها معلومات أكيدة عن دور ليبيا في تفجير الطائرة الأميركية فوق لوكربي في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٨، وأنها مستعدة للشهادة بذلك أمام المحكمة الاسكتلندية التي عقدت جلساتها بهولندا سنة ٢٠٠١، ولكن المحكمة لم تلتفت إلى هذا الادعاء. وقد ظهرت معلومات فيما بعد، أدلى بها عاطف أبو بكر القيادي السابق في تنظيم أبي نضال، (كشف فيها أن زعيم التنظيم صبري البنا (أبو نضال) تبنى عملية تفجير الطائرة المدنية الأميركية فوق لوكربي[٧٠٦].

فجأة وبعد أن انقطعت أخبار أبي نضال طويلاً، وشاعت روايات مختلفة عن مكان وجوده أو حالته الصحية أو حتى وفاته، أعلن في العراق عن انتحار أبي نضال في بغداد، عصر الجمعة يوم ٢٠٠٢/٨/١٦. كانت الرواية العراقية - كما هي العادة في مثل هذه الأحوال - ضعيفة ومهلهلة. وادعت بأنه دخل العراق بدون علم حكومته منذ عام ١٩٩٩، وأن السلطات الأمنية حاولت تقديمه للعدالة لدخوله البلاد بصورة غير شرعية، فأقدم على الانتحار. وقد اكتشفت السلطات العراقية خلال التحقيق أنه كان ضالعاً في نشاطات معادية للعراق بالتعاون مع دولة أخرى رفض العراق الإفصاح عن اسمها، وذلك حسب رواية مدير المخابرات العراقي.

❖ ❖ ❖

وطيلة السنوات التي أقام النظام فيها علاقته بأبي نضال، كان يطرح أكثر الشعارات تطرفاً، في خضم تنافسه مع سوريا، أو بالأحرى حتى يبقى لقاؤه مع سوريا مستحيلاً،

٧٠٥- المرجع السابق. ص٣٨٠.

٧٠٦- صحيفة الحياة. العدد (١٤٤٠١) في ٢٠٠٢/٨/٢٤.

وهذا ما فعله قبلاً مع الرئيس جمال عبد الناصر.

وباستثناء الأيام القليلة لحرب تشرين، رفض النظام اللقاء مع سوريا وكان دائماً يصعد من خلافاته معها. أما سوريا فكانت بحاجة ماسة أن يقف العراق معها، خاصة بعد خروج مصر السادات من الصراع العربي – الصهيوني تماماً. ولذلك حاولت إصلاح ذات البين مع العراق مراراً. وكانت أهم هذه المحاولات مبادرة الرئيس هواري بومدين عام ١٩٧٦، والذي واجهه العراق بمزايدات سخيفة وبرفض أي لقاء مع دمشق. بينما كانت علاقة النظام بالسادات، والذي أبرم للتو اتفاقية فصل القوات الثانية مع إسرائيل، على أحسن ما يكون. بل وفتح أبواب العراق، للعمالة المصرية، والتي تساهم عائداتها من العملة الصعبة في تخفيف أزمة نظام السادات الاقتصادية آنذاك. وقد توافدت أيضاً على العراق أيد عاملة هندية وبنغالية، الأمر الذي كان يجب أن تستفيد منه سوريا، والتي كانت تعاني من ضغوط شديدة لدفعها في الطريق الذي سار فيه السادات.

ومن بين أمثلة كثيرة على الضحايا البريئة للخلاف مع سوريا، لابد من الوقوف عند حادثة شهيرة. فقد كلف التسلل الى العراق بحثا عن العمل، شاباً سورياً هارباً من الخدمة العسكرية حياته. إذ قبض عليه عند الحدود، واتهم على الفور بالعمل لصالح المخابرات السورية، وتعرض لتعذيب شديد، كان قاسياً وغريباً بالنسبة لشاب غر وساذج مثله. وقد تصادف القبض عليه – لسوء الحظ – مع مظاهرات الاحتجاج العارمة لأهالي النجف على منعهم من إحياء الذكرى السنوية لأربعين الإمام الحسين. والتي اضطر فيها النظام إلى إنزال الجيش وفرض حالة طوارئ شاملة على العراق. ولكي يصرف النظام – كعادته – الأنظار عما جرى، عرض التلفزيون العراقي، الشاب السوري السجين، المدعو محمد علي نعناع[٧٠٧]، ليعترف بأن المخابرات السورية أرسلته ليفجر ضريح الإمام

٧٠٧- من المصادفات غير المتوقعة، انني اكتشفت بعد زواجي عام ١٩٩٧،أن هذا الشاب، هو ابن عمة عديلي الأخ هشام شهلا.

الحسين. ويبدو أن النظام كان محرجاً ومرتبكاً للغاية، إذ داهمته الاحتجاجات على حين غرة، فاستعجل في إخراج هذا الاعتراف الساذج وغير المعقول. وحكمت المحكمة الخاصة بمحاكمة المشاركين بالاحتجاجات بالإعدام على نعناع، واختفت آثار الشاب بعدها. ولم يحصل والده الذي ذهب إلى العراق، على أية معلومات عنه، فقفل راجعاً.

الوحدة السورية - العراقية:

المؤلم أن أغلب المنادين بالوحدة العربية، هم الأكثر خيانة لها، على الأقل بقدر ما يتعلق الأمر بالعراق. وقد مر بنا، كيف قتلوا الزعيم عبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣ باسم الوحدة، ولكنهم بعد أسابيع من ذلك، وما إن طرحت الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، حتى كان الرد: (بأنهم ما كانوا يريدون وحدة أو اتحاداً حيث أن للعراق مشاكله الكبرى التي يريدون التفرغ لحلها)[٧٠٨]. وخلال مفاوضات الوحدة عام ١٩٦٣ (ثمل علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء وعضو الوفد المفاوض في إحدى المراقص المصرية وكانت بجواره إحدى الفنانات فسخر من الوحدة وسخف المفاوضات)[٧٠٩]. وان (اللواء محمود شيت خطاب كان يلح في ضمه للوفد بحجة براعته في المناورة وقدرته على خداع عبد الناصر)[٧١٠].

واستخدم البعثيون في رفضهم للوحدة طروحات الشيوعيين الذين ذبحوهم باسمها، أو غيرهم من المتحفظين على الوحدة، وكان أبرزها (أن رواسب التجزئة التي تراكمت خلال قرون طويلة من الظلام لا يمكن أن تمحى بإجراء دستوري)[٧١١]، كما قالت صحيفة (الجماهير) الناطقة بلسان حزب البعث أيام حكمهم الأول عام ١٩٦٣. (وفي

٧٠٨- هويدي. المرجع السابق. ص٥٥.

٧٠٩- فرحان. المرجع السابق. ص ١٠٨ (حاشية).

٧١٠- المرجع السابق. ص١٠٨ (حاشية).

٧١١- هويدي. المرجع السابق. ص٥٨.

يوم ١٩٦٣/٣/٢٤، أصدر مسارع الراوي وزير الإرشاد تعليماته للصحف بعدم الإشارة إلى أية أخبار تتعلق بموضوع الوحدة)[٧١٢]. بل واتخذوا من الإجراءات والقرارات ما لم يتخذه الزعيم عبد الكريم قاسم أو أي حاكم آخر.

ولما انفرد عبد السلام عارف بالسلطة بعد تشرين الثاني ١٩٦٣ (أخذ يضعف أيضا ارتباطه الشديد بالوحدة العربية التي استمر في تأييدها ظاهرياً، وعلى الرغم من وده الظاهري لعبد الناصر فإنه كان كثيراً ما يبدي سراً ملاحظات مهينة له وذهب في ذلك إلى درجة راح معها يظهر كرهاً له يزيد على كرهه لقاسم)[٧١٣]. (كما دأب على مهاجمة الجمهورية العربية كلما زاره وفد فلاحي أو عمالي في القصر.. ومرة ذكر أن المجتمع المصري مجتمع فاسد يعج بالفنانات وبنات الهوى وأخرى أبدى استغرابه في تلهف القوميين أمثال فلان وفلان على الوحدة مع مصر)[٧١٤].

اما انقلاب ١٧ تموز، فكما اخذ العراق بعيداً عن الساحة الحقيقية للصراع العربي – الصهيوني، فإنه أخذه بعيداً عن الوحدة، وقد أشرنا إلى خلافاته المريرة والمفتعلة مع الرئيس جمال عبد الناصر، ومع سوريا أيضا. بينما كانت علاقته تزدهر وتتطور مع الأردن والسعودية وإمارات الخليج وتونس.. وغيرها، أي مع البلدان المتحفظة على الوحدة، والبعيدة عن الصراع العربي – الصهيوني.

وبعد حوالي عام من زيارة السادات للقدس، بدا نظام ١٧ تموز للجميع، كذاباً وعاجزاً عن القيام بأية خطوة للرد على الزيارة، خاصة بعد انسحابه من (الجبهة القومية للصمود والتصدي)، حتى وإن كانت تجمعاً شكلياً، والتي كانت تضم سوريا، ليبيا، الجزائر، اليمن الجنوبية، منظمة التحرير الفلسطينية. وبدا أن هجومه المستمر على

٧١٢- المرجع السابق. ص٥٧-٥٨.

٧١٣- خدوري. المرجع السابق. ص٢٨. (حاشية).

٧١٤- فرحان. المرجع السابق. ص١٦٩.

سوريا وقطيعته معها غير منطقي، إلى الحد الذي لم يعد نظام بغداد بكل لا عقلانيته وبكل خطواته العصية على التفسير قادراً على المضي في ذلك. أو أن كوادره وبعض قياداته آنذاك، لم تعد تحتمل السكوت عليه، وسيدفعون حياتهم بعد عام ثمناً لهذا التوجه.

ولعل النظام قد فكر بالإقدام على خطوة ما، تعطيه وقتاً ريثما يتبين ما يسفر عنه القادم الإيراني المجهول، والذي صار يهز المنطقة هزاً، إيذاناً بما سماه ديان فيما بعد بالزلزال.

ومهما كان الأمر، قرر البكر وصدام – فجأة – في الأول من تشرين الأول ١٩٧٨، طرح مشروع للوحدة مع سوريا، رداً على رسالة الرئيس حافظ الأسد والتي وصلت قبل أيام، ويدعو فيها العراق للحوار والتفاهم والاتحاد ضد العدو الصهيوني.

وجاء الرئيس حافظ الأسد على الفور إلى بغداد، ووقع مع البكر ميثاقاً للوحدة بين سوريا والعراق، وتبادل بعدها المسؤولون في البلدين الزيارات. وصار المواطنون ينتقلون بين البلدين بالهوية الشخصية، ونشطت التجارة بين البلدين، وجاءت الأيدي العاملة السورية إلى العراق. فقد تطورت العلاقات بين البلدين خلال عام من الميثاق، تطوراً كبيرا. وانعقد في بغداد مؤتمر القمة العربي العاشر والذي رفض مبادرة السادات، وقدم مساعدات مالية كبيرة لسوريا والأردن والفلسطينيين. وما كان هذا المؤتمر لينعقد لولا الاتفاق السوري – العراقي.

لقد كانت فرصة حقيقية – لو صدقت النوايا – لم تسنح للعرب من قبل أبداً، حتى في وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا. فالعوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية جعلت التداخل والترابط بين العراق وسوريا شديداً جداً. ناهيك عن الخطر الصهيوني ومجمل ظروف الربع الأخير من السبعينات وما بعدها، ومن ضمنها تصاعد التعاون التركي الإسرائيلي والتعسف التركي في مسألة المياه، وما كان يجب أن تواجهه مبادرة السادات من رد حاسم.

ولنتحدث قليلاً عن الروابط التاريخية والاقتصادية بين البلدين، مع ضرورة التأكيد على ما هو أولي هنا، إذ إن ما يجمع البلاد العربية –عموماً – هو الكثير، وأكثر مما جمع

ولايات الولايات المتحدة، وبالطبع أكثر بكثير مما يجمع أوروبا والتي على وشك أن تتوحد. ومن يتابع ويلاحظ بدقة وبعقلية علمية سيجد أن عادات قبائل شنقيط (موريتانيا) تتشابه في الكثير مع قبائل العراق. وهذا لا يلغي الخصوصية المحلية لكل إقليم، ولكل منطقة، ولكل مدينة، بل وأحياناً لكل حارة في مدينة، وأيضاً لكل طائفة أو فرقة أو طريقة صوفية. وأعتقد أن الفكر القومي عندما كان كلياً - أي عندما حوّل العروبة من انتماء، إلى عقيدة تتصارع مع العقائد الأخرى وتتهم وتحارب وتستبعد - قد ألحق الكثير من الأضرار بالوحدة العربية.

لقد عمل الكثير من العراقيين في الإدارة العثمانية في سوريا، ثم في حكومة الملك فيصل وجيشها في دمشق عام ١٩٢٠. وقد تبنى المؤتمر السوري العام القضية العراقية - عام ١٩٢٠- بنفس درجة تبنيه للقضية السورية. وجاء الكثير من السوريين مع الملك فيصل إلى العراق عام ١٩٢١ وما بعده، وبينهم الكثير من الضباط الذين عملوا في الجيش العراقي، وجاء المدرسون والطلاب السوريون وكان أغلبهم من لواء الاسكندرون، في الثلاثينات والأربعينات، للتدريس في العراق أو الدراسة فيه، ومن أبرز هؤلاء، زكي الأرسوزي المدرس بالثانوية المركزية ببغداد عام ١٩٤٠، والذي يعتبره السوريون مؤسس حزب البعث بينما يعتبر العراقيون عفلقاً هو المؤسس.

وفي الثلاثينات والأربعينات، قبل أن تأخذ بيروت ومن بعدها القاهرة هذا الدور، كان كل من العراق وسوريا، منفى لسياسيي القطر الآخر ومنتجعاً لهم. وقد أدخل العراق الملكي يده في السياسة السورية كثيراً. وتداخلت القوى السياسية بين البلدين جداً، حتى أن فائز إسماعيل والذي كان طالباً في العراق آنذاك والذي أصبح فيما بعد زعيماً لحركة الوحدويين في سوريا يرى (أن البعث في العراق نما وترعرع قبل الميلاد ووجد رسمياً مع ميلاد البعث في سوريا) [٧١٥].

٧١٥- فائز إسماعيل. بدايات حزب البعث العربي في العراق. دمشق ١٩٩٧. ص١٢٩.

اما العلاقات القبلية الحميمة بين سوريا والعراق، فهي لا تقتصر على المنطقة الشرقية من سوريا والمنطقة الغربية من العراق، أي ما يعرف في العراق وسوريا بمنطقة الجزيرة. بل هي أوسع من ذلك بكثير، ففي ريف حماة وحمص وحلب ودرعا والجولان وريف دمشق.. وغيرها، فروع من نفس القبائل الموجودة في العراق. وفي حالة ليست نادرة كان يوسف زعين رئيساً لوزراء سوريا عام ١٩٦٩، بينما كان ابن خالته الدكتور عزت مصطفى وزيراً للصحة في العراق.

وكانت الروابط الاقتصادية بين العراق وسوريا - قبل انقلاب ١٧ تموز - أقوى من علاقة كل من البلدين بأي بلد آخر. وكانت تجارة العراق مع العالم تمر عبر سوريا عادة، ولكن الانقلاب أخذ ينقلها لتمر عبر تركيا تدريجياً. وكان أنبوب النفط العراقي الرئيسي والوحيد يمر عبر سوريا أيضاً، إلا أن العراق - وبعد الانقلاب - بدأ تصدير النفط عبر تركيا في أيار ١٩٧٧[٧١٦]. (وهو ما يؤمن لتركيا ثلث احتياجاتها من النفط، فضلاً عن ٣٠٠ مليون دولار تدخل خزينتها سنوياً على شكل رسوم للسماح بتدفق النفط العراقي عبر أراضيها)[٧١٧] وذلك حسب عام ١٩٨٤. لقد بدا غريباً، أن يربط نظام قومي اقتصاد بلاده بدولة أطلسية متحالفة مع إسرائيل، وبما يلحق الضرر باقتصاد بلد عربي آخر (سوريا). بل وأصبح العراق تحت رحمة الضغوط التركية والتي أرسلت عام ١٩٨٤ (وزير خارجيتها إلى بغداد لإبلاغها بوجوب وقف محادثات الحكم الذاتي مع الأكراد، وإلا فإن أنقرة ستغلق خط أنابيب النفط العراقي)[٧١٨].

وفيما بعد، استغلت أميركا وجود خط الأنابيب عبر تركيا، فاشترطت على العراق في اتفاقه مع الأمم المتحدة الشهير بـ (النفط مقابل الغذاء) عام ١٩٩٦، تصدير نفطه

٧١٦- مير بصري. أعلام التركمان والأدب التركي في العراق الحديث. لندن ١٩٩٧. ص١٨٩-١٩٠.
٧١٧- راندل. المرجع السابق. ص٣٠٠.
٧١٨- المرجع السابق. ص٣٠٠.

حصراً عبر تركيا، مما حرم سوريا من فوائد هذا الاتفاق.

لقد أبرم اتفاق العراق مع تركيا على مد خط أنابيب النفط، ومشكلة المياه مع تركيا في ذورتها، وظهر ان المسؤولين العراقيين لم يفكروا قط في الاستفادة من الربط بين الأمرين لحل هذه المشكلة الخطيرة، أو للتخفيف من آثارها. واندفعت تركيا في ظل الحرب العراقية - الإيرانية وتصاعد الخلاف العراقي - السوري، في الثمانينات لتنفيذ (مشروع جنوب شرق الأناضول) الهادف إلى إنشاء أكثر من عشرين سداً على نهري دجلة والفرات من دون التشاور مع العراق وسوريا، (وان الخبراء الدوليين توقعوا ألا تحصل سورية عند إتمام هذا المشروع، إلا على ٤٠ في المائة من حصتها المعتادة من المياه، في حين لن يحصل العراق الا على ٢٠ في المائة من حصته) (٧١٩).

ان هذا المشروع التركي يضع الأمن المائي لسوريا والعراق، بل مستقبلهما على حافة سكين. رغم إنه يفوق قدرة تركيا وحاجاتها، ناهيك عن خرقه للقانون الدولي المتعلق بحقوق الدول المشاطئة على الأنهار الدولية. وثمة دلائل تدفع المرء للربط بين التعاون التركي -الإسرائيلي وهذا المشروع، فسياسة التعاون التركي - الإسرائيلي والتي بلغت ذروتها باتفاق التعاون العسكري في العام ١٩٩٦ (مثلت إحياء لـ «سياسة المحيط» القديمة من جانب إسرائيل، التي سعت هذه المرة إلى استخدام تركيا للضغط على عدوتها القديمة، دمشق، وعلى حليفتها السابقة، إيران) (٧٢٠).

والغريب - وقد كثرت غرائب النظام العراقي - ويتعلق الأمر هنا بنهر الفرات حيث ركز النظام في السبعينات بشدة على سوريا، متناسياً الدور التركي في المشكلة تماماً. فقد أقامت سوريا سنة ١٩٦٦ سداً على نهر الفرات، وعندما قامت في منتصف السبعينات بملأ خزان بحيرة (الأسد) بالمياه - عند الانتهاء من المرحلة الأولى من بناء السد - أثر

٧١٩- المرجع السابق. ص٣٥٩.

٧٢٠- المرجع السابق. ص٣٥٩.

ذلك على حصة العراق من المياه، بسبب ما كانت تحتجزه تركيا أصلاً من كميات المياه آنذاك[٧٢١].

ومما فاقم المشكلة، إهمال الحكومة العراقية إنشاء سد على الفرات في محافظة الرمادي، والذي أقترح منذ أواخر الحكم العثماني، وقد نفذ هذا السد في النصف الثاني من الثمانينات، بعد أن تضاعفت كلفة إنشائه عدة مرات.

وبعد مفاوضات ومساومات ووساطات، وقّع العراق وسوريا عام ١٩٩٠ اتفاقية لاقتسام مياه الفرات بنسبة ٥٨٪ للعراق و٤٢٪ لسوريا[٧٢٢]. ولكنها لم تكن ذي قيمة، لأن تركيا مضت في سياستها المائية التعسفية، حتى شحت حصة سوريا والعراق معاً. ولو احترمت تركيا حقوقهما، لكان سد الفرات في سوريا والذي يروي حوالي ٦٠٠،٠٠٠ كم٢[٧٢٣] من الأراضي، كافياً لسد حاجة العراق وسوريا تقريباً. شريطة أن يكون هناك تعاون عراقي - سوري، وهو ما يحتاجه اقتصاد البلدين في كل المجالات، الامر الذي يقلل من كلفة الإنتاج والنقل والتصدير.

لقد حُرم البلدان من هذا التعاون، عندما كانت ظروفهما الاقتصادية مثالية، لتحقيق نهضة اقتصادية متينة، حيث الفورة النفطية وإيراداتها العالية، وعدد سكانهما مناسب، وديونهما قليلة بل ولم تكن هناك أية ديون على العراق، وكانت كلفة التنمية أقل منها الآن، بينما الخيارات أمام البلدين كانت أكثر وأيسر.

وكما كانت الخطوة الوحدوية مفاجئة للجميع، فوجئ الجميع بعد أقل من عام منها، باستقالة البكر من رئاسة الجمهورية، والإعلان بعد أيام من ذلك عن (مؤامرة) أطاحت برؤوس المسؤولين المتحمسين للوحدة، وبالوحدة معاً.

٧٢١- خدوري. المرجع السابق. ص٢٦٥.

٧٢٢- د. رشيد الظالمي. الزراعة في العراق. لندن ٢٠٠١ ص١٧٤.

٧٢٣- خدوري. المرجع السابق. ص٢٨٧.

لقد عاش الناس عاماً تقريباً في أجواء الوحدة، وبينما كانت العيون مشدودة هناك باتجاه الغرب، حيث فلسطين، فجأة وباستدارة كاملة، يصبح الحديث عن الوحدة مع سوريا جريمة ثمنها الإعدام أو السجن. وأصبح النظام وبكل قواه يحاول أن يشد الأنظار باتجاه الشرق، باتجاه عدو جديد سيحل لعقد كامل محل إسرائيل كعدو قومي.

ويبدو أن جهاتٍ دولية سربت لصدام مباشرة، عن طريق الملك حسين الذي كانت علاقته الحميمة مع صدام قد بدأت للتو، بأن هناك مؤامرة سورية، فوجدها صدام في الناس المتحمسين للوحدة، أو الرافضين لاستقالة البكر. وللمخابرات الدولية الكثير من هذه المحاولات، إذ سرب الموساد إلى (أنور السادات) عن طريق جهة ثالثة، بأن هناك مؤامرة ليبية، فقام السادات متأثراً بهذه الدسيسة بالعدوان على ليبيا عام ١٩٧٧.

إن احتمالاً كهذا لا يلغي أن صدام قد لجأ إلى ألاعيب كهذه في الماضي، فاخترع جواسيس ومؤامرات وطرح مشاريع واتفاقيات غير جادة، كما اختلق أشياء لإشغال المواطنين عن قضايا كبرى، كما جرى في استدعاء مصارع أميركي من أصل عراقي، وقد شغلوا الناس ببطولاته ثم اختفى فجأة.

المؤامرة المزعومة:

إن الرواية الرسمية لمؤامرة عام ١٩٧٩ مهلهلة وسخيفة، وقد جرى تحوير أجزاء منها وإضافة أشياء إليها فيما بعد. وفي الحقيقة لا توجد رواية رسمية بالمعنى الدقيق للكلمة، إنما هناك رواية برزان التكريتي (أخو صدام ورئيس مخابراته) للأحداث[٧٢٤]. وهناك أيضا القليل الغامض الذي نشر في الإعلام الرسمي. وأورد كاتب سيرة صدام شبه الرسمية، فؤاد مطر، رواية منقحة عن الرواية الرسمية[٧٢٥]. وتسربت نسخ

٧٢٤- برزان التكريتي. المرجع السابق. ص١٣٩-١٦٠.

٧٢٥- فؤاد مطر. المرجع السابق. ص٦٦.

من شريط فيديو مرتب بعناية للعرض على التنظيمات الحزبية، فضلاً عن القليل من المعلومات هنا وهناك، رغم أن أدقها يقول (لا أحد يعرف شيئاً عما حدث، لأن شيئاً حقيقياً لم يكن قد حدث)[٧٢٦].

وتدور الرواية حول تكتل نشأ داخل الحزب مع بداية عام ١٩٧٥ وكان على علاقة بسوريا[٧٢٧]. والرواية لحد الآن مقبولة. ثم تتصاعد الرواية، وتدعي بأن محمد عايش (عضو مجلس قيادة الثورة) قد رتب أمور الاتصال مع النظام السوري، عند سفره إلى الموصل عام ١٩٧٥ والتقائه هناك مع أحمد ذنون (مسؤول مكتب شؤون العراقيين في القامشلي) على الحدود العراقية – السورية، حيث سلمه عايش رسالة موجهة من اللجنة السرية إلى الرئيس حافظ الأسد[٧٢٨].

وتمضي الرواية في تصاعدها وتقول (استمرت قيادة اللجنة السرية، بتسلمها لتوجيهات النظام السوري ودعمه المالي، بواسطة العقيد حسين «مسؤول مخابرات السفارة السورية»)[٧٢٩]. فمحمد عايش (كان يستلم من ضابط الاتصال السوري في كل وجبة مبلغ يتراوح ما بين (٣٠) ألفاً و(٥٠) ألف دينار)[٧٣٠]. ونسي كاتب الرواية هنا أنه يتحدث عن أعضاء في (مجلس قيادة الثورة)، ووزراء، ووكلاء وزراء، ومحافظين، وقادة عسكريين، ومدراء عامين، وكوادر حزبية عليا، كانت تحت أيديهم – بحكم مناصبهم – ملايين الدولارات فما حاجتهم لمائة ألف دولار أو أضعاف ذلك. فقد أنفق محمد عايش، والذي ورد ذكره في رواية المؤامرة كثيراً بسبب موقفه الشجاع بعد اتهامه بالمؤامرة،على

٧٢٦- العلوي. العراق دولة المنظمة السرية. (مرجع سابق). ص٩٢.
٧٢٧- التكريتي. المرجع السابق. ص١٤٣.
٧٢٨- المرجع السابق. ص١٤٥-١٤٦.
٧٢٩- المرجع السابق. ص١٤٧.
٧٣٠- المرجع السابق. ص١٥٠.

مائدة قمار عشرات الآلاف من الدولارات في إحدى زياراته للقاهرة. أما زوجته[٧٣١] – وهي سيدة فاضلة استطاعت أن تغير فيه الكثير رغم أنه دميم وبليد – فقد تحدت النظام بعد إعدام زوجها، فسجنها في زنزانة انفرادية لا يدخلها النور ثماني سنوات، وخرجت من السجن وقد أصيبت بعدة أمراض وتساقطت أسنانها.

ثم ما الذي يدفع وزراء بعثيين قدامى وضباط كبار لاستلام أوامر من ضابط مخابرات – كما تقول الرواية – يخضع عادة لرقابة مشددة.

وقد أضيف إلى المؤامرة (عبد الخالق السامرائي) عضو مجلس قيادة الثورة سابقاً، والذي يقبع في زنزانة انفرادية في سجن المخابرات الرهيب منذ تموز ١٩٧٣، و(لم يكن وقد سأل أمه التي سمح لها برؤيته بعد ثلاث سنوات يعرف في أي شهر وفي أي عام هو[٧٣٢]. ورغم أن المتهمين الرئيسيين بالمؤامرة المزعومة قد (شاركوا صدام في إزاحة عبد الخالق السامرائي)[٧٣٣]، فان رواية المؤامرة زعمت أنه مرشحهم للرئاسة.

وتبدو من كل رواية المؤامرة، قصة عدنان الحمداني المقرب جداً من صدام هي الأكثر غرابة. إذ أرسله صدام ليبلغ الرئيس الأسد نفسه بالمؤامرة، أو باعتراف المتآمرين عن علاقتهم بسوريا. ولما عاد من سوريا، قبض عليه باعتباره من قادة المؤامرة. وللمرء أن يتساءل كيف يرجع الرجل من سوريا إذا كان على علاقة بالمؤامرة والتحقيق مع المتهمين بها على أشده والاعتقالات كانت تتوالى؟ (وأعلن في قرار التجريم أن عدنان الحمداني كان يستلم راتباً شهرياً من حافظ الأسد مقداره (٢٠٠ دينار) وعدنان الحمداني كما يعرفه العراقيون كان هو الذي يمنح القروض للدولة ويوقع على صفقات النفط الكبرى

٧٣١- فوزي الراوي. عدة مقابلات سبق ذكرها.
٧٣٢- العلوي. المرجع السابق. ص١٧٨.
٧٣٣- المرجع السابق. ص١٧٨.

وتحت تصرفه مخصصات مناهج الاستثمار وعقود الشركات العالمية)[٧٣٤].

وقد احتج منيف الرزاز - الرجل الثالث في الترتيب الحزبي وأمين الحزب العام سنة ١٩٦٥- على إعدام المتهمين بالمؤامرة، فألقي به في السجن، وأضيف اسمه إلى رواية المؤامرة فيما بعد[٧٣٥]. وتقول إحدى الروايات: (أعلن أرشد ياسين وهو نائب ضابط سابق في الشرطة ومن مساعدي الرئيس صدام حسين أنه كلف باعتقال الرزاز، وعند إدخاله في السيارة ضربه بأخمص المسدس على رأسه ضربة قاتلة)[٧٣٦].

المفارقة أن أغلب المتهمين في هذه المؤامرة كانوا من المحسوبين على صدام شخصياً، وكان هو وراء صعودهم حزبياً ووظيفياً. الا ان (صدام حسين لا يثق بأن أحداً يحبه.. ولهذا فهو يفاجئ الذين حوله بالانقضاض عليهم وهم في حالة الحب إليه كعدنان الحمداني مثلا)[٧٣٧]، ويقول مدير استخباراته السابق أن (بعضهم رفض استقالة البكر وترشيح صدام، أما الآخرون فقد سبق أن سجل عنهم صدام ملاحظات شخصية تدل على عدم قناعتهم به)[٧٣٨].

فواحد من المتهمين هو (محمد مناف الياسين) المدير العام لوكالة الأنباء العراقية، والذي كتب في مجلة الوطن العربي الباريسية يوم كانت موالية لنظام صدام بتطرف، قبل أن تحول ولاءها بدءاً من يوم غزو الكويت إلى السعودية وتعادي نظام صدام بتطرف أيضا، داعياً إلى وحدة حقيقية بين العراق وسوريا تتحالف بقوة مع الثورة الإيرانية لمواجهة الكيان الصهيوني. ويبدو أن هذه المقالة أو ان هذا التوجه كان كافياً، ليجد له

٧٣٤- المرجع السابق. ص١٨١.

٧٣٥- التكريتي. المرجع السابق. ص١٥٢-١٥٣.

٧٣٦- عدنان الأمير. بقية الصوت، حسن العلوي.. الإجابات المؤجلة. دار الزوراء قبرص ٢٠٠٠. ص١٩٨.

٧٣٧- المرجع السابق. ص٣٩.

٧٣٨- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص٤٢.

صدام دوراً في (المؤامرة)، ويحكم عليه بعشر سنوات من السجن، حيث اختفت آثاره نهائياً.

وأعدم المحكومون من المتهمين بالمؤامرة ببشاعة، إذ جيء بهم وقد خارت قواهم من التعذيب، بل حتى الذين ماتوا من التعذيب فعلاً جاؤوا بهم أيضا، وربطوهم جميعاً على أعمدة، وكمموا أفواه الأحياء منهم بشرائط لاصقة، وكان النظام قد أمر أن ترسل كل شعبة حزبية، عضوين منها، للمشاركة بإعدام المتآمرين. وابتداء من حفلة الإعدام الجماعية هذه، سيشرك صدام أكبر عدد من الكوادر الحزبية ومسؤولي الدولة في عمليات الإعدام القادمة. وأصبحت المساهمة بهذه المجازر، إلزامية لكل رجل أمن ولكل عضو حزبي يصل درجة عضو شعبة فما فوق، ومن يرفض ذلك أو يبدي تبرماً منه، ينفذ حكم الإعدام به مع نفس المجموعة التي يكلف بإعدامها.

ولكي تكتمل الصورة عما جرى عام ١٩٧٩، فإن حسن العلوي رئيس تحرير مجلة ألف باء (شبه الرسمية) والمقرب من صدام، والذي أرسل من لندن - حيث كان يقضي إجازته عند الإعلان عن المؤامرة - برقية تأييد حارة لصدام قال فيها: (انتصاركم على المؤامرة الخيانية الغادرة الأخيرة التي استهدفت الحزب وقيادته العظيمة انتصار للأمة العربية وقضاياها ومستقبلها المشرق.. إن أمتنا التي علمتنا الرجولة والفروسية والوفاء هي الآن أمام امتحان صعب وخطير لهذه المبادئ والقيم التي يراد لها أن تنتهك لكنكم الأقدر على تصحيح المسار ووضع الأمة في مكانها التاريخي)[٧٣٩]. وعند عودته للعراق، اعتقل مباشرة في المطار وأرسل إلى السجن. ويبدو أن اعتقاله لا علاقة له بكونه صهر عدنان الحمداني وابن خاله، فعلاقة الرجلين - وهو ما يعرفه صدام جيداً - لم تكن على ما يرام غالباً[٧٤٠]. إنما الأمر قد يتعلق بحماس العلوي للوحدة بين

٧٣٩- مجلة ألف باء. العدد (٥٦٧) ٨ آب ١٩٧٩. ص٤.

٧٤٠- العلوي. المرجع السابق. ص١٨١.

سوريا والعراق، والذي ظهر بوضوح عند تغطيته الصحفية لزيارة صدام لدمشق في بداية عام ١٩٧٩.

زرع صدام - بعد المؤامرة - الخوف في الجميع. وأخذ يشكل (القيادات الحزبية العليا) و(مجلس قيادة الثورة) على هواه ودون النظر إلى أية اعتبارات أو شكليات كما كان يفعل في السابق. وصار يتخذ أي قرار يتعلق بمصير العراق والأمة دون الرجوع إلى أحد. فهو يقرر وعلى الآخرين أن ينفذوا، ومن يناقش فمصيره كمصير الدكتور رياض إبراهيم حسين وزير الصحة، الذي استدعاه صدام إلى غرفة مجاورة لاجتماع مجلس الوزراء، وسحب مسدسه وأفرغه في رأسه.

وصعّد صدام - بعد المؤامرة المزعومة - خلافه مع سوريا إلى مستوى (حرب سرية)، وكعادته عندما يختلف مع الآخرين فلا يترك شيئاً إلاّ ويستخدمه، استخدم كل العوامل القطرية والطائفية ودخل في تحالفات مشبوهة.

وأصدرت الأمن العامة في بغداد كتاباً يكفر (العلويين) أشرف عليه فاضل براك مدير الأمن العام، ووضع على الكتاب اسماً لمؤلف شيعي مختلق. وصدرت - في الوقت نفسه - كتب مماثلة في السعودية والأردن. باختصار شديد، ان تصاعد الخلاف مع سوريا، أسقط كل المحرمات، إذا كانت هناك محرمات فعلا في السياسة العربية.

كان النظام - بعد منتصف السبعينات - يدعم كمال جنبلاط والحركة الوطنية اللبنانية، الرافضين للتدخل السوري في لبنان، ولا أريد هنا أن أناقش آراء كمال جنبلاط والتي نشرت في مذكراته المشهورة، الصادرة بعد مقتله، والتي بدت فجة في طائفيتها واقليميتها، خلافاً لما كان يظهره الرجل في حياته. ولما انتقلت الحركة الوطنية إلى التحالف مع سوريا، حوّل النظام دعمه إلى الجبهة اللبنانية المعادية لسوريا، والمتحالفة مع إسرائيل، وقد بلغ هذا الدعم ذروته، بعد أيلول ١٩٨٨، بتزويد العماد عون بصواريخ أرض - أرض تطال دمشق.

أما عفلق الأمين العام لحزب البعث، فقد أصبح أسيراً لدى صدام، والذي رفض

السماح له بالسفر للعلاج في فرنسا[٧٤١]، ولم يسمح له بالسفر بعدها أبداً، وقد سافر (وليد الطالب) القيادي البعثي السوري واللاجئ في العراق إلى فرنسا فعاد من هناك إلى سوريا، وفضح كل ما يعرفه عن جرائم صدام.

وكان من الأفضل لعفلق أن يعتزل السياسة، مذ أصبح حزبه رهينة لعسكر وعشائر وطوائف، وأداة بيدها لقهر شعوبها، وكان عليه أن يظل كاتباً ومفكراً - بغض النظر عن مدى كونه مفكراً وعما طرحه من آراء - لا أن يصبح جزءاً من مشاريع القتل والتعذيب والمؤامرات. بل ومنظراً للعنف والدماء. (فان فشله ثلاث مرات في الانتخابات البرلمانية أثبتت عقم الوسائل الديمقراطية بتحقيق أهدافه.. وبعدها لم يرشح نفسه قط لأي مركز انتخابي، بل راح علناً يحبذ استخدام العنف من أجل تحقيق تغيير اجتماعي وسياسي[٧٤٢].

وقد بدا دوره مشبوهاً وهو ينظّر - في ذروة الحرب الباردة - بأن الشيوعية هي الخطر الرئيسي على الأمة العربية، في الوقت الذي كانت فيه الصهيونية تنشب مخالبها في قلب الوطن العربي. وقد فعل تلميذه صدام الأمر نفسه في الثمانينات، عندما أدار ظهره للخطر الصهيوني ودخل في حرب طاحنة مع الخطر الإيراني المزعوم.

إن المهمة الوحيدة التي بقيت لعفلق في العقدين الأخيرين من حياته، هي تحوله إلى مداح لصدام ونظامه. وذلك بسبب جبنه الشديد والذي طبع حياته السياسية، منذ تنازله الشهير في السجن لحسني الزعيم في ١٩٤٩/٦/١١ والذي قال فيه: (وأعتقد أن مهمتي قد انتهت، وأن أسلوبي لم يعد يصلح لعهد جديد، وأن بلادي لم تجد من عملي السياسي أي نفع بعد اليوم)، وهكذا أطاح مدحه لصدام تماماً بصورته المهزوزة اصلاً عند الجماهير

٧٤١- وليد الطالب عضو مجلس الرئاسة السوري في منتصف الستينات، في مقابلة مع إذاعة دمشق في ٢٢ أيلول ١٩٨٠.

٧٤٢- د. مجيد خدوري. عرب معاصرون. بيروت. ١٩٧٣. ص٣٧٨.

العراقية، والتي اعتبرته مسؤولاً عن كل مآسيها، ومنظراً للدوامة التي تعيش فيها.

وقد لحق بعفلق ما لحق بالقومية العربية، التي اعتبرها المسيحيون العرب فكرة إسلامية. واعتبرها المسلمون العرب صناعة تبشيرية، فبعد محاضرته الشهيرة (في ذكرى الرسول العربي) أطلق عليه بعض مسيحيي دمشق تهكماً (محمد عفلق) بينما قيل عنه في بغداد، أنه تعهد للبابا، أو أن البابا شكره - على اختلاف الروايات -[٧٤٣] إذ صرف المسلمين عن عقائدهم، مع أن عفلق مسيحي أرثوذكسي، لا علاقة له بالكنيسة الكاثوليكية التي يرأسها بابا الفاتيكان.

إلا أنه ظل أسيراً لثقافته الأوروبية وبعيداً عن الواقع العربي، إذ (ينقطع ميشيل عفلق عن تراث الأمة فلم ترد له في جميع كتاباته استشهادات تاريخية أو أدبية ولم يجعل التاريخ العربي مرجعاً لكتاباته)[٧٤٤].

الحركة الشيوعية:

خلافاً لكثيرين لا أعتقد بأن الشيوعيين هم أول من أدخل العنف إلى الساحة السياسية في العراق، الا أنهم ألبسوه (شرعية ثورية) في زمن كان فيه الهوس الثوري قد بلغ أقصى مداه.

ان من أدخل العنف في السياسة العراقية، هما عبد الإله - نوري السعيد منذ ١٩٤١، اذ أعدم الحكم الملكي بعد ثورة مايس العقداء الأربعة ويونس السبعاوي، واعتقل الآلاف ونكل بهم. وقد ذهب عبد الإله إلى تركيا وساومهم ليسلموه صلاح الدين الصباغ، وكان قد مضى على ثورة مايس أكثر من أربعة سنوات، وكان على عبد الإله ومنذ البداية أن يحاول رتق الجرح لا توسيعه، ولكنه أصر على تعليق العقيد صلاح الدين الصباغ على

٧٤٣- انظر مثلا رواية العلوي. المرجع السابق. ص٦٨.

٧٤٤- المرجع السابق. ص٦٨.

باب وزارة الدفاع. الامر الذي سيكرره الضباط معه شخصياً، يوم ١٤ تموز١٩٥٨، حيث علقوا جثته بنفس المكان، والتي قطعتها الدهماء حتى لم يبق لها أثر.

وفي نهاية الأربعينات قام الحكم الملكي بإعدام أربعة من القادة الشيوعيين، ونكل بالآلاف منهم وقتل كل من تمرد منهم في السجون التي كانت ظروفها قاسية جداً وبشعة.

وانطلق العنان للإرهاب الشيوعي بعد ثورة ١٤ تموز، والذي سيواجهه إرهاب بعثي أشد بعد انقلاب شباط ١٩٦٣. ولكن - باستثناء الفترة البعثية القصيرة عام ١٩٦٣- ان كل ما جرى قبل انقلاب تموز ١٩٦٨ لا يذكر إزاء ما سيجري بعده.

تعامل النظام لعشر سنوات (١٩٦٨-١٩٧٨) مع الحزب الشيوعي بلغة الحوار والرصاص معاً. فبينما كانت الحوارات مستمرة بين النظام والشيوعيين، كان الرصاص يحصد المتشددين من قيادة الحزب الشيوعي. وتعرض الكثيرون من الشيوعيين للاعتقال والتعذيب الوحشي، إلا أن قيادة الحزب الشيوعي كانت ترى في علاقات النظام المتنامية مع الاتحاد السوفييتي عزاء للصبر على كل ذلك.

وكان الحزب الشيوعي، الحزب العراقي الوحيد، الذي اعتبر النظام نظاماً وطنياً، ربما لأنه اعترف بجمهورية ألمانيا الديمقراطية والتي انهارت بعد عشرين سنة من ذلك ولم يعد لها وجود. كما أنه الحزب العراقي الوحيد الذي رحب بالاعدامات التي قام بها النظام أكثر من مرة. كان ذلك عند إعدام المتهمين بالمؤامرة المزعومة في كانون الثاني ١٩٧٠، خاصة إعدام رشيد مصلح. وعند إعدام ناظم كزار ومساعديه.

وكان الشيوعيون يرددون بأن صدام قائد يساري، وكان بعضهم -ولفترة قصيرة - يلمح إلى احتمال تحول صدام إلى الماركسية - اللينينية كما تحول كاسترو من قبل. أما صدام فكان يردد أمامهم: (أنا اليسار واليمين) [٧٤٥]. وقد لعب الحزب الشيوعي دوراً

٧٤٥- مجلة الوسط. العدد ٢٨٧ في ١٩٩٧/٧/٢٨. (مقابلة مع عزيز محمد الأمين العالم للحزب الشيوعي حتى عام ١٩٩٣). ص١٤.

كبيراً، في تسويق النظام وتبييض سمعته، لدى اليسار العربي والدولي، وفي تبديد أية (وجهات نظر) لا تراه نظاماً وطنياً، مستغلاً علاقاته الواسعة في تلك المرحلة، حيث الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية وانتصارات فيتنام ولاوس وكمبوديا وأفريقيا، وحيث المد اليساري في العالم الثالث، وصعود الأحزاب الاشتراكية في أوروبا الغربية.

وفي عام ١٩٧٣، وبعد مؤامرة ناظم كزار، وعشية الصراع الدامي مع الحركة الكردية، ومحاكاة لتجربة (الجبهة الوطنية) في سوريا، أقيمت (الجبهة الوطنية) في العراق بين حزب البعث والحزب الشيوعي، في ١٧ تموز ١٩٧٣. وكان واضحاً للجميع - الا قيادة الحزب الشيوعي كما يبدو - أنها صيغة مؤقتة لاستخدامها في الصراع مع الحركة الكردية. و(قد اشتركت.. قوة من الحزب الشيوعي تحت اسم قوات الجبهة الوطنية في العمليات العسكرية)[٧٤٦]. وما أن انتهت الحركة الكردية، حتى بدأ التضييق على الحركة الشيوعية، والذي تصاعد مع وقوع انقلاب شيوعي في أفغانستان في نيسان ١٩٧٨، ونفذ النظام أحكاماً بالإعدام على ثلاثين من المجندين والعاملين في القوات المسلحة بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي. وكانت قضية مفتعلة لإرهاب الشيوعيين وتهديدهم.

وشن النظام في عام ١٩٧٩ حملة شاملة ضد الشيوعيين في كل العراق، فارضاً على كل من ينتمي للحزب الشيوعي البراءة منه والإدلاء بمعلومات مفصلة عن علاقته به. أما الذين رفضوا ذلك -والذين لم يتوقعوا أن ثمن ذلك هو الموت - فقد اختفت آثارهم منذ ذلك الحين بينما اختفى الآخرون في الداخل أو هربوا إلى الخارج.

وأنشأ الحزب الشيوعي قواعد له في أعالي الجبال بكردستان العراق، ابتداء من أول كانون الثاني ١٩٧٩، وكان أغلب الملتحقين بها من الطلبة وأغلبهم من الأكراد[٧٤٧].

٧٤٦- عجينة. المرجع السابق. ص١٢٥.

٧٤٧- المرجع السابق. ص١٧١ وما بعدها.

وقد سقط منهم المئات حتى حزيران ١٩٨٣ برصاص السلطة وأعوانها وبرصاص جماعة جلال الطالباني[٧٤٨]. وحصلت حالات اندساس واسعة بينهم من قبل قوى الأمن.

أصبح الحزب الشيوعي، ومنذ عام ١٩٦١، حزب (القضية الكردية)، ولم يستطع في المقابل أن يتخذ موقفاً متوازناً من مسألة الوحدة العربية، فهو يعتبر (أن قضية الشعب الكردي بملايينه العديدة ووطنه المجزأ (كردستان) بين دول تركيا وإيران والعراق، هي قضية ديمقراطية عادلة لأنها قضية أمة مزقت أوصالها وحرمت من حقوقها رغماً عنها وخلافاً لإرادتها. أمة لها الحق في أن تقرر هي وحدها شأن سائر الأمم كيف ينبغي لها أن تعيش وعلى أية صورة يجب أن يكون كيانها السياسي وعلاقتها بالبلدان والشعوب المجاورة لكردستان)[٧٤٩].

في مقابل ذلك، يتحفظ الشيوعيون العراقيون على الوحدة العربية دائماً بالقول: (لقد حذر الشيوعيون في البلاد العربية بأن وحدة لا تقوم على أساس ديمقراطي ولا تأخذ بعين الاعتبار المميزات الخاصة لكل قطر عربي لا يمكن أن تكون وحدة راسخة)[٧٥٠]. بل ولم يتبن الحزب الشيوعي النضال ضد الطائفية، معضلة العراق الأساسية، وكان يتناولها بحذر شديد.

كان ولاء الحزب الشيوعي المطلق للاتحاد السوفييتي باعتباره (الوطن الأم) لكل الشيوعيين في العالم، قد ألحق به - أي بالحزب - أفدح الأضرار، كما في موقفه من التقسيم ومن القضية الفلسطينية عموماً، وموقفه من الصين أو أي اتجاه شيوعي يختلف مع الاتحاد السوفييتي، مع الإشارة هنا أن موقف الصين كدولة شيوعية من انقلاب عام ١٩٦٣ كان مخزياً جداً. ويبدو هذا الولاء مضحكاً في سنوات غورباتشوف وطروحاته حول

٧٤٨- باقر إبراهيم. صفحات من النضال. بيروت ١٩٩٧. ص٦٢.
٧٤٩- زكي خيري وسعاد خيري. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي ١٩٨٤. ص٣١٣.
٧٥٠- المرجع السابق. ص٢٨٨.

(البيرويسترويكا) أي إعادة البناء (والغلاسنوست) أي الانفتاح، والتي ركض الشيوعيون العراقيون وراءها، وعندما وجدوا أنها أخذت الاتحاد السوفييتي وأخذتهم معه خارج الشيوعية بل وبعيداً عن الاشتراكية، ارتدوا عنها. ولو كان هذا الولاء ولاء عقائدياً لا تبعية سياسية لكان مفهوما. فللاتحاد السوفييتي كدولة عظمى التزامات دولية، لم يكن مسوغاً لحزب في بلد من العالم الثالث أن يربط نفسه بها، ناهيك ان للعراق ولكل بلد في العالم خصوصيته وقضاياه ومشاكله ودرجة تطوره، والتي يفترض ان الحزب الشيوعي العراقي هو الأدرى بها.

وبسبب الاقطاع في العراق، وانتشار الفقر فيه رغم أنه بلد نفطي غني، ولأن الهيمنة البريطانية كانت - في العهد الملكي - واضحة للعيان في كل جانب من أوضاع البلد، فقد انتشر الحزب الشيوعي انتشاراً واسعاً في كل مدينة وقرية. إلا أن قيادة الحزب الشيوعي ظلت تناقش الواقع العراقي بقوالب جاهزة، ويبدو ذلك ناشزاً في تفسيرهم للأحداث التاريخية.

وعموماً أنها إشكالية المتعلمين العرب، بل وكثير من المثقفين، إذ قرؤوا الأدب والتاريخ الأوروبيين، ولم يقرؤوا الأدب والتاريخ العربيين بنفس الأهمية والعمق. ولما صعد التيار الديني في الثمانينات، عاد بعضهم إلى قراءتها ولكنهم قرؤوها بعيون استشراقية، دون أن أقصد التقليل - كما يحاول الكثيرون - من أهمية ما أبدعه المستشرقون.

وحاول الجناح المنشق، القيادة المركزية، أن يكون أكثر تمثلاً للعوامل المحلية، وأكثر توازناً في التزامه بالقضية الكردية وبالوحدة العربية، وأكثر استقلالية عن الحركة الشيوعية العالمية، وتبنى موقفاً جذرياً من القضية الفلسطينية. وقد شن انقلاب ١٧ تموز حملة إبادة شرسة ضد هذا الجناح راح ضحيتها المئات.

الوجه الآخر للعملة:

واصل النظام - منذ انقلاب ١٧ تموز - وبقسوة تفكيك وتدمير قواعد المعارضة، والتي بدأ مبكراً وبنجاح مذهل باختراقها أمنياً. حتى أن علي صالح السعدي، زعيم

(حزب العمال العربي الثوري) في العراق، التفت مبكراً لهذه النقطة أي الاختراق، وطلب من رفاقه حل الحزب، ما دام أن كل ما يدور داخله يصل أولاً بأول إلى جهاز الأمن.

وهكذا كثرت الخيانات والارتـدادات، وانهارت الحركات السياسية في البلد تحت الضربات المتواصلة لأجهزة الأمـن، الأمـر الذي أدى - مع كل العوامل الأخـرى - إلى استفراد التيار الإسلامي بالشارع السياسي.

وفي النصف الأول من السبعينات، كان أحمد العزاوي، الرجل الأبرز في المعارضة التي خرجت إلى المنفى، والتي تكوّن من الأفراد القليلين من بقاياها الموجودة في الخارج (التجمع الوطني العراقي) في دمشق عام ١٩٧١. ويسجل لأحمد العزاوي أنه لم يكن عشائرياً أو طائفياً أو مناطقياً. ويسجل له أيضاً ترفعه عن كل ما يشين السياسي، فلم يتخذ كعادة السياسيين العرب خليلة، ولم يشرب الخمر أو يلعب القمار، إلى غير ذلك[٧٥١]. ويسجل عليه أنه لم يستطع أن يتخلص من العنف الذي طبع سلوكه كثيراً. فدخل في كثير من المصادمات مع رفاقه، وكانت أبرزها إطلاقه النار على النقيب عدنان الجبوري وقتله، والذي كان مخموراً فتهجم على العزاوي في بيته بالسب والشتم.

وعموماً، فإن تحوله إلى اليسار مع علي صالح السعدي وآخرين عام ١٩٦٤، مع التشديد هنا بان هذا التحول ظل لفظياً لا فعلياً، لم يستطع أن يمحو من الذاكرة دوره الاجرامي بعد انقلاب شباط ١٩٦٣[٧٥٢]. وبعد عدة محاولات اغتيال فاشلة، قتل في ١٠ تموز ١٩٧٦ حينما كان يفتح جرار مكتبه، وكان عمره ٣٦ سنة[٧٥٣].

وكان باقر ياسين احمد التميمي، المولود في البصرة عام ١٩٣٩، وخريج كلية الآداب

٧٥١- فوزي الراوي. عدة مقابلات.

٧٥٢- راجع المنحرفون (مرجع سابق) ص٢٣، ٣٤، ٤٦، ٨٠، ١٢١، ١٧١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٩، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١ وراجع أيضاً صالح مهدي دكلة. من الذاكرة. دمشق ٢٠٠٠ ص٩٧.

٧٥٣- راجع حزب البعث العربي الاشتراكي. العزاوي شهادة وقضية. دمشق ١٩٧٧.

بجامعة بغداد عام ١٩٦٢، الشخص الذي يلي العزاوي مكانة إلا أنه يفوقه ثقافة. ورغم أنه أبعد الجميع عن العنف، فهناك من يتهمه باضطهاد رفاقه وإبعاد عدد منهم إلى العراق.

ظهر على المسرح (جبار الكبيسي) الذي تصرف بنزق وقسوة مع الكثيرين، واستبعد وبحملات إعلامية شعواء كل الوجوه المعروفة في الستينات والسبعينات، وبلغت قسوته أقصى مداها، فأعدم وبدون علم الحكومة السورية أكثر من ١٣ شخصاً. يعاونه أحمد ذنون (أبو مدين) والذي ورد ذكره في المؤامرة المزعومة عام ١٩٧٩، والاخير طالب سابق في الكلية العسكرية، هارب لما ارتكبه في مدينته الموصل من أعمال تعذيب فظيعة عام ١٩٦٣. وكان يقوم وبمساعدة الحاج دحام اليزيدي (وهذا اسم حركي لأحد اليزيدية الذين جندهم الكبيسي) بتعذيب ضحاياه - موضوع حديثنا - بأساليب وحشية، مستخدماً في ذلك ذئباً كان لديه، والذي يقوم بالتهام جثث الضحايا، بينما يلقى بالجثث الأخرى في نهر دجلة. وتكون تهمة الضحايا عادة هي العمل مع المخابرات العراقية، حيث لا مفر للضحية من الاعتراف بذلك خاصة عندما يكون وجهاً لوجه مع ذئب بومدين.

وأبرز أولئك الضحايا بالإضافة إلى أم وابنتها المراهقة، وهاب كريم (٤٠ سنة)، وهو من مدينة الخالص، ومن أقرباء الأديب المعروف فؤاد عباس. وقد استدرجه جبار الكبيسي من مدينة دمشق عام ١٩٨٤ لتختفي آثاره في أوكار بومدين. وقيل أنهم ألقوا بجثته في نهر دجلة[٧٥٤].

الغريب أن أحد الضحايا، والذي يبدو أنه فعلاً على علاقة بالأمن العراقي، اعترف بأن الضابط الذي جنده أعطاه تعليمات باللجوء إلى محمد المشهداني عند الضرورة القصوى[٧٥٥].

٧٥٤- مصدر طلب عدم ذكر اسمه.

٧٥٥- المصدر السابق نفسه.

والمشهداني هذا كان يعمل مع الأمن العراقي، وادعى أكثر من شخص أنه حقق معهم وعذبهم عندما كانوا سجناء في الشعبة الثانية بالأمن العراقي. وجاء عام ١٩٧٤ إلى لبنان، ليسلم عدداً من المعارضين رسائل من الأمن العراقي تدعوهم للعودة إلى العراق.

التحق المشهداني بالكبيسي - عام ١٩٧٩ - وأصبح أقرب مساعديه وأمين أسراره. ولعب فيما بعد أدواراً متعددة، فقد قدم للسفارة الكويتية عام ١٩٩٠ معلومات كثيرة عن العراق، لقاء مبلغ كبير، اشترى به بيتاً في حلب وأرضاً في القامشلي وسيارة حديثة قبل أن يخسرها جميعاً، وقد التجأ إلى أميركا عام ٢٠٠٠ وهناك إشاعة بأنه يعمل الآن مع المخابرات الأميركية.

كان الكبيسي وفي محاولة لإثبات أن له أنصاراً في العراق، يصدر بيانات باسم (الجبهة الثورية لتحرير العراق) يتبنى فيها عمليات كان الإسلاميون يقومون بها ضد رجال النظام خلال الأعوام ١٩٧٩-١٩٨١، كما جند الكثير من اليزيدية، في عمليات ضد النظام، في محافظتي دهوك والموصل.

وبعد علاقة قوية بالدولة الإيرانية وبرموز إيرانية كثيرة، أصيب الكبيسي بالهلع من إقامة (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) وانعكس هذا الهلع مرارة طائفية ضد كل ما هو شيعي، إيرانياً أو عراقياً أو لبنانياً. بل وصارت الطائفية عنده مقياساً للأشخاص والأحداث والأفكار، ولم تسلم منه حتى رموز أدبية أو علمية.

وحاول أن يعيد علاقته مع إيران، فلوح لوزير الاستخبارات الإيراني محسن رفيق دوست، عام ١٩٨٦، بقدرته على تنظيم عمليات مسلحة انطلاقاً من منطقة القامشلي السورية، لإشغال القوات العراقية، الأمر الذي عارضه الرئيس حافظ الأسد وبشدة، ورفض مناقشته تحت أي ظرف كان[٧٥٦].

وهناك شائعات بأنه سرب إلى العراق، عن طريق مكتب منظمة التحرير في دمشق

٧٥٦- المصدر السابق نفسه.

عام ١٩٩٥، معلومات عن تسلل محمد عبد الطائي (أبو يوسف) سراً إلى العراق، في مهمة حزبية، فقبضوا على الرجل والمجموعة التي اتصل بها، واعدموهم جميعاً.

وبعد ثروة كبيرة حصل عليها من دعم ليبيا وسوريا وإيران للمعارضة العراقية، وقد حصل في منتصف التسعينات على دعم مالي محدود من العراق لتحالفه الوطني الصغير، الداعي للمصالحة الوطنية مع النظام، وذلك بواسطة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق، كما حصل حلفاء له على مبالغ أقل بواسطة مكتب منظمة التحرير في براغ. نقل نشاطه من دمشق إلى باريس منذ عام ١٩٩٧ وأخذ يدعو علناً للصلح مع النظام.

وبالإضافة إلى ما قام به الكبيسي، هناك معلومات لا أعرف مدى صحة بعضها عن عمليات قتل أخرى، قام بها آخرون من الذين تزعموا هذا الفصيل المعارض أو ذاك ضد رفاق لهم لسبب أو لآخر. إذ قتل إبراهيم علاوي والذي كان يقود فصيلاً صغيراً من بقايا جناح القيادة المركزية - عام ١٩٧١ - اثنين من رفاقه لعدم إطاعتهما لأوامره. وقتل محمد عبد الطائي والذي كان مسؤولاً في الثمانينات لمقر حزب البعث اليساري في كردستان العراق، أحد عناصره بتهمة العمل مع المخابرات العراقية، وألقى بجثته في بئر مهجور مجاور.

الفصل الثامن

١ - الزلـزال

(لقد جاءنا الزلزال الإيراني)

موشيه ديان

بعد أربعين يوماً من استشهاد ولده الأكبر والنشط، السيد مصطفى، في ١٩٧٧/١٠/٢٣ بمدينة النجف بالعراق، والذي قيل أن أفغانياً من طلبة العلوم الدينية، يعمل لصالح السافاك الإيراني قد دس له سماً، أعلن الإمام الخميني: (من الآن فصاعداً لن أتقبل أية تعزيات، فما نحتاج إليه الآن هو العمل). وفي ٩ كانون الثاني ١٩٧٨، من مدينة قم، ومن المدارس الدينية تحديداً، انطلقت الثورة في إيران، على إثر مقال مسيء للإمام الخميني نشرته صحيفة (اطلاعات) شبه الرسمية.

لقد انطلقت الثورة في إيران في الوقت الذي ساد فيه اعتقاد (أن «الثورة الشعبية» بالمعنى الحرفي لهذا التعبير قد فات زمانها)[٧٥٧]. ثم إنها - بعد ذلك كله - ذات طابع يختلف كثيراً عن المألوف في العصر الحديث.. الثورة دينية. على وجه التحديد إسلامية[٧٥٨]. زد على ذلك، أن الرئيس الأميركي كارتر، وكما بدت صورة إيران أمامه، شأنه شأن الجميع، قال في الأول من كانون الثاني ١٩٧٨: (ان إيران تحت قيادة الشاه

٧٥٧- محمد حسنين هيكل. مدافع آية الله. الطبعة الثالثة. بيروت ١٩٨٣. مقدمة الطبعة العربية. ص٧.
٧٥٨- المرجع السابق. ص٨.

العظيمة هي جزيرة استقرار في واحدة من أكثر المناطق اضطراباً في العالم)[٧٥٩]. وكان ذلك قبل انطلاق الثورة ببضعة أيام، ويمكن القول أن لا أحد كان يتوقع ثورة بهذا الحجم، الا زعيم الثورة والذي قبل عشر سنوات من انتصار الثورة، قال عام ١٩٦٩ بالنجف: (الأفكار تبدأ صغيرة ثم تكبر، ثم يتجمع من حولها الناس، ثم تكتسب القوة، ثم تأخذ زمام الأمور. ولم تكن القوة - كما ترون - حليفة الأفكار من أول يوم.. ويتم تدريجياً استقطاب الجماهير كل الجماهير، ويتم الوصول بعدها إلى الهدف)[٧٦٠].

وقبل هذا وبعد هذا، كان انطلاق الثورة في اللحظة التي بدا فيها أن الطريق أمام شعوب المنطقة مسدود. فالأفكار القومية والاشتراكية أخفقت على يد ثوار وساسة تحولوا إلى تجار أو جلادين، والذين كانوا يفتقرون إلى الموهبة السياسية والمعرفة العميقة بأحوال المنطقة والخيال الخلاق. وقد انهزموا أمام إسرائيل وسلموها مفاتيح المنطقة، أو إنهم عجزوا عن الوقوف بوجهها. وفشلوا في إنجاز التنمية. واضطهدوا شعوبهم أكثر مما اضطهدها الاستعمار وسلاطين الدولة العثمانية. فأصبحوا عبئاً على بلدانهم.

في هذه اللحظة تماماً، انفجرت الثورة الإسلامية في إيران، لتغير كل شيء، فانقلبت الأولويات وتداخلت الجبهات وتغيرت المسميات، وتضاءلت تيارات وصعدت أخرى، وفقدت الكثير من الأفكار والنظريات بريقها.. فعلا لقد كان هناك زلزال إيراني غير مجرى الأحداث في المنطقة، وأدخل عاملاً جديداً في السياسة الدولية. كان الزلزال الإيراني - باختصار شديد - هو انبعاث الإسلام.

ان تاريخ إيران الحديث هو تاريخ الصراع بين الإسلام من جهة والنفوذ الاستعماري والطغيان المحلي من جهة أخرى. فلقد تجمع الإيرانيون حول الإسلام، أو لنقل التشيع كما

٧٥٩- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠. مجموعة من الكتاب. بيروت ١٩٨٠ ص١٠٠.

٧٦٠- الإمام الخميني. الحكومة الإسلامية. طهران. سنة الطبع مغفلة. ص١١٩-١٢٠.

يرغب البعض، منذ ثورة التنباك، ليشكلوا هويتهم الوطنية. (فالوعي الوطني الإيراني ما زال مقترناً بالشيعة بالرغم من كافة انتهاكات العصر الحديث، وعندما تعتبر سيادة الأمة مهددة من قبل حكم استبدادي داخلي وهيمنة أجنبية، ستنطلق الاحتجاجات بصيغ دينية وستظل نداءات رجال من أمثال آية الله الخميني تحظى باستجابة واسعة النطاق)[٧٦١]. وان هذا النص جزء من محاضرة نشرت عام ١٩٧٢ ومن هنا تأتي قيمته التاريخية.

وحسب التقاليد الشيعية، فان الإسلام يتجسد في علمائه، والذين يجب أن يكونوا مستقلين عن أي نفوذ حكومي وألا يخضعوا الا لله. ويقاس تقواهم – وهو شرط لابد منه إلى جانب العلم لإتباعهم – بمقدار بعدهم عن الحكام وقربهم من المؤمنين أي جماهير الشعب. فكان الإسلام ملجأ الشعب للدفاع عن مصالحه المهددة أساساً من (الامتيازات الغربية) و(فساد الحكام). (وبذلك أصبح لمعارضة العلماء هدف مزدوج: السيطرة الأجنبية والطغيان المحلي)[٧٦٢].

وهكذا كانت المعركة ضد (امتيازات روتر) عام ١٨٧٢، وثورة التنباك عام ١٨٩٠، ومعركة الدستور عام ١٩٠٥ والتي عرفت في تاريخ المرجعية الدينية بـ (المشروطة والمستبدة) أي الحكومة المقيدة بالدستور والحكومة المستبدة. وأيضاً المعركة الدامية ضد إجراءات الشاه رضا بهلوي التي بدأت عام ١٩٢٨، عندما حاول تقليد سياسة أتاتورك بإدخال العادات الأوروبية، وإلغاء الإسلام من الحياة الإيرانية. ومما له دلالته الكبيرة، انه وفي مواجهة القوات البريطانية والسوفييتية التي جاءت لعزل الشاه رضا

٧٦١- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠ (مرجع سابق) ص٢٠٠. والكاتب هو حامد الغار. أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة. والمقالة عبارة عن دراسة قدمت للمرة الأولى، في مؤتمر حول بنية القوى في إيران، في جامعة كاليفورنيا، في حزيران ١٩٦٩.

٧٦٢- المرجع السابق. ص١٨٠.

بهلوي المتعاطف مع ألمانيا (لم تدم المقاومة الفارسية الضعيفة للغزو الا يومين.. (لأن) رجال الدين الذين يؤثرون في الشعب لم يكن لديهم أي ميل لحث الجماهير للتظاهر من أجل الشاه)[٧٦٣].

وفي عام ١٩٤٩ بدأت المعركة مع الشاه محمد رضا بهلوي. (حيث تعود جذور ثورة ١٩٧٧-١٩٧٨ إلى عام ١٩٤٩ حيث بدأ الشاه، آنذاك، العملية الطويلة الهادفة إلى إنشاء دولة أوتوقراطية تخمد كل أنواع المعارضة.. وتسعى لإعادة تكوين المجتمع على صورته أو بالأحرى على صورة والده الديكتاتور الراحل)[٧٦٤]. فقد عاد الشاه إلى سياسات والده المعادية للإسلام. ومما زاد النقمة عليه، الفساد المستشري، وتغلغل النفوذ الأميركي الذي بدأ مع بداية الحرب الباردة.

وساند العلماء، بقيادة آية الله أبي القاسم الكاشاني، معركة تأميم النفط عام ١٩٥١، ولما (انسحب الجناح الديني بقيادة كشاني (كاشاني)، من الجبهة الوطنية متهماً مصدق «بخيانة الإسلام»)[٧٦٥] فشلت معركة التأميم. وكانت من بين أسباب الخلاف، تخفيف المراقبة على المشروبات الكحولية، وتعيين مثقفين معادين للدين كوزراء للعدل والتربية، وإقامة تحالف ولو ضمني مع حزب تودة الشيوعي. الذي كان ينتقد الدين الإسلامي علناً، ويتحالف مع روسيا التي كانت مصدر خطر حقيقي على استقلال ووحدة إيران في الأربعينات.

و(في سنة ١٩٤٨ بدأت حياة كاشاني السياسية لفترة ما بعد الحرب، وذلك عندما قام بتنظيم مظاهرات ضد إقامة دولة يهودية في فلسطين، وراح يجمع المساعدات المالية

٧٦٣- جرهارد كونسلكان. سطوع نجم الشيعة. ترجمة محمد أبو رحمة. القاهرة ١٩٩٢. ص١٣٣.

٧٦٤- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠ (مرجع سابق) ص١١٧. بحث يرفند ابرهميان (القوى السياسية في الثورة الإيرانية).

٧٦٥- المرجع السابق. ص١٢٠.

للقضية العربية، بل حاول أيضاً إرسال متطوعين إلى فلسطين)[٧٦٦].

وقد انتقد الإمام الخميني فيما بعد، موقف السيد أبي القاسم الكاشاني في معركة تأميم النفط قائلاً: (لقد ارتكب الكاشاني بعض الأخطاء، لأن هدفه كان يجب أن يكون الإسلام وليس البترول، لأن كل ثمار الأرض بما فيها البترول، تدخل في نطاق الإسلام[٧٦٧].

كانت معركة الدفاع عن الإسلام قد بدأت في إيران فعلاً، إذ أن الشاه، أو بالأحرى القوميين المتطرفين والمتحمسين له، قد بدؤوا هجومهم علناً على الإسلام. وقد أسس أحد علماء الدين الشباب، وهو نواب صفوي، منظمة (فدائيين - إسلام)، اثر إصدار (كسروي) كتاباً يهاجم الإسلام، (وكان (كسروي) الذي كان يعمل محامياً بالإضافة إلى كونه صحفياً، أول ضحايا صفوي، وقد اغتاله أربعة من رجاله عام ١٩٤٩، داخل المحكمة حيث يترافع.. وأرسل آية الله كاشاني لهم يبارك عملهم)[٧٦٨]. ولمواجهتها أنشأت الدولة منظمة سرية تسمى (فدائيان - شاه).

ارتبط صفوي بعلاقة وثيقة بالإخوان المسلمين، وعندما جاء إلى العراق عام ١٩٥٣، أقاموا له احتفالاً تكريمياً في جامع الإمام الأعظم[٧٦٩]. وقال الرئيس ياسر عرفات فيما بعد، إن علاقة صداقة جمعته يوماً ما مع نواب صفوي. ربما عندما كان الاخير لاجئاً في القاهرة. وقد أعدم صفوي مع ثلاثة من رجاله عام ١٩٦١.

وعندما تذكر معركة الإسلام مع الشاه، لابد أن يذكر الدكتور علي شريعتي، والذي يقول: (اكتفت الشعوبية بتحفيز المشاعر الوطنية الكامنة في نفوس الإيرانيين

٧٦٦-المرجع السابق. ص١٨٦. (مقالة حامد الغار التي سبق الإشارة إليها).

٧٦٧- هيكل. المرجع السابق. ص١١٥.

٧٦٨- المرجع السابق. ص٧٩.

٧٦٩- حسن شبر. العمل الحزبي في العراق ١٩٠٨-١٩٥٨. بيروت ١٩٨٩. ص٢٥٣.

وتمجيد الأكاسرة وتجديد الدعوة لقيم ومعايير اسقط الإسلام - من قبل - اعتبارها وقيمتها. ولذلك لم تنجح الشعوبية الا على نطاق جزئي محدود)[٧٧٠]. وشريعتي يرى (أن الظاهرة القومية «الشوفينية» هي إطار عرقي للجماعات يعمل دائماً على تقطيع أوصال الإطار الذي يجمع الأمة عقائدياً)[٧٧١]. ويتهم الدكتور علي شريعتي الدولة الصفوية - والتي يراها أكثر من مجرد دولة مرت في التاريخ - بأنها طريقة تفكير ونزعة عقائدية إذ (تمكنت الصفوية من توظيف المشاعر الصادقة وأحاسيس المذهب الشيعي في خدمة أهداف حركة شعوبية فرضت على إيران طوقاً من القومية عزلها عن العالم الإسلامي)[٧٧٢].

أثار علي شريعتي جدلاً واسعاً في حياته (حول إعادة تفسير التشيع كي يصبح أيديولوجية ثورية غير مساومة)[٧٧٣]. ولكنه (كان له دور بناء في جذب الطاقات الشابة المتعلمة نحو الإسلام الأصيل، واجتذب قلوباً كثيرة نحو الثورة الإسلامية)[٧٧٤]، كما يقول الدكتور محمد حسين بهشتي أحد قادة الثورة.

ولد علي شريعتي[٧٧٥] في إحدى قرى خراسان في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٣٣ ابناً لأحد كبار المفكرين والمجاهدين (الإسلاميين). وأصبح علي معارضاً نشطاً منذ مطلع شبابه، وقد سجن سنة ١٩٥٨ لستة أشهر. وبعد أن تخرج من كلية الآداب بامتياز سنة ١٩٥٩، أكمل دراسته في فرنسا ونال الدكتوراه في علم الاجتماع الديني، كما نال

٧٧٠- الدكتور علي شريعتي. التشيع العلوي والتشيع الصفوي (مرجع سابق). ص١٢١-١٢٢.
٧٧١- المرجع السابق. ص١٣٨.
٧٧٢- المرجع السابق. ص١٣٩.
٧٧٣- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠ (مرجع سابق) ص١٢٣. ابراهيميان (بحث سبقت الإشارة إليه).
٧٧٤- شريعتي. المرجع السابق. ص٦.
٧٧٥- المرجع السابق. راجع المقدمة بقلم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا الأستاذ بجامعة القاهرة.

الدكتوراه في تاريخ الإسلام. وفي فرنسا واصل نشاطه السياسي، فأسس هناك فرع أوروبا لحركة تحرير إيران. وشارك مشاركة فعالة في دعم الثورة الجزائرية، وتعرف على مناضلي العالم الثالث. وقد سجن في فرنسا لثلاثة أيام لاشتراكه في المظاهرات التي اندلعت احتجاجاً على مصرع لومومبا.

وفي منتصف الستينات عاد إلى إيران، وعلى الحدود ألقي القبض عليه، وبعد إطلاق سراحه عمل أستاذاً في الجامعة. وفي منتصف سنة ١٩٧٣ اعتقل ووالده، وبقي في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لصنوف التعذيب. (ثم أطلق سراحه عام ١٩٧٦ بطلب من الحكومة الجزائرية وغادر إلى أوروبا)[٧٧٦].

(ولكنه توفي فيما بدا أنه أزمة قلبية بعد وصوله إلى بريطانيا بأيام، وأدت الظروف غير الطبيعية التي أحاطت بوفاته إلى سريان إشاعات حول لعبة قذرة قام بتنفيذها عملاء السافاك، وأصبح علي شريعتي -بالنسبة لملايين الإيرانيين - بطلاً أسطورياً، وشهيداً ثورياً وفيلسوفاً)[٧٧٧]. وكانت وفاته في أواخر أيار (مايو) ١٩٧٧. ولم تسمح حكومة الشاه بدفنه في إيران، فدفن في دمشق بالقرب من مقام السيدة زينب.

❖ ❖ ❖

كانت هناك في إيران، ثلاثة اتجاهات إسلامية - والكلام هنا عن النخبة لا عن الشعب - فالاتجاه الأول، التقليدي، الذي يرى أن إحدى مقومات الهوية الإيرانية هو البعد الإسلامي. ويضم هذا الاتجاه القوى الإسلامية الليبرالية واليسارية والوطنية. وهو

٧٧٦- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠ (مرجع سابق). ص١٢٣. ابرهميان (بحث سبقت الإشارة إليه).

٧٧٧- المرجع السابق. ص٢٠٧. من بحث لمنصور فرهانق (سفير إيران الإسلامية عام ١٩٧٩ لدى الأمم المتحدة) بعنوان مقاومة الفراعنة في كتابات علي شريعتي عن الاضطهاد.

ما يماثل عربياً موقف البعث والناصرية والحركات الليبرالية والوطنية من الإسلام.

أما الاتجاه الثاني، وهو أقرب إلى الاتجاه الثالث الذي سنشير إليه بعد قليل، فيرى الجمع بين الهوية الإيرانية والإسلام في هوية إسلامية إيرانية. ويبدو أن هذا الاتجاه هو الذي ساد في إيران بعد رحيل الإمام الخميني، أو أن تيار (الإصلاحيين) الحالي في إيران يمثله أفضل تمثيل.

ولا يرى الاتجاه الثالث الا (الهوية الإسلامية)، فلا هوية إيرانية أو عربية أو تركية أو أفغانية.. إلى آخره. وأوضح ما يكون هذا الاتجاه في كتابات شريعتي، الذي يعتقد (أن إيران لا تملك سوى حضارة الإسلام ولا علماء ولا شعراء ولا فلاسفة، ولا أدباء فيها الا أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام)[٧٧٨].

ويؤمن هذا الاتجاه بالوحدة الإسلامية. إذ يقول الإمام الخميني: (جزأ الاستعمار وطننا، وحول المسلمين إلى شعوب. وعند ظهور الدولة العثمانية كدولة موحدة سعى المستعمرون في تفتيتها)[٧٧٩]. ونجد الإمام الخميني، قائد هذا الاتجاه، (في كتابه «الحكومة الإسلامية» يتحدث عن «الطائفة أو الجماعة الإسلامية»، لا عن «الشعب الإيراني»، وإذا ذكر أئمة الشيعة علياً والحسين فإنه يبدي دوماً كل احترام، ولكنه يتكلم عن «أكوام من العظام المهترئة» فيما يخص من تبقى من الملوك الأخمينيين، داريوس وكسرى)[٧٨٠]. وقد أخذ الإمام الخميني فيما بعد وتكريماً للتضحيات الكبرى في الثورة والحرب، يتحدث عن الشعب الإيراني بكل اعتزاز وتمجيد.

٧٧٨- شريعتي. المرجع السابق. المقدمة.

٧٧٩- الإمام الخميني. المرجع السابق. ص٣٤.

٧٨٠- مرتضى كتبي وجان ليون فاندورن. المجتمع والدين عند الإمام الخميني. إيران ١٩٠٠-١٩٨٠ (مرجع سابق) ص٢١٩.

ويعتبر هذا الاتجاه (إسرائيل غدة سرطانية لابد من استئصالها) كما يقول الإمام الخميني. إذ (لم يكن في ميسور حفنة من اليهود احتلال أراضينا وتخريب مسجدنا الأقصى وإحراقه من غير أن يقابل ذلك بأية مقاومة. وكل ذلك إنما تم كنتيجة حتمية لتقاعس المسلمين عن تنفيذ حكم الله)[٧٨١]. وقد أعلن الإمام الخميني عام ١٩٦٩: (وبما أن إسرائيل في حالة حرب مع المسلمين فكل من يساعدها ويساندها يكون هو بدوره في حالة حرب مع المسلمين)[٧٨٢].

(ويتبين لنا من دراسة كتابات الخميني أنه كان لا يثق في اليهود من الزمن البعيد.. وعندما أعلنت دولة إسرائيل هاجمها الخميني في الحال، وقد ساهم هذا الموقف، وتبنيه للقضية الفلسطينية واهتمامه الشديد بوضع القدس في وقوفه في صف الدول العربية. وقد كان لهذا الوضع نتائجه الهامة فيما بعد لأن الشاه كان يحاول أن يجتذب شعبه بعيداً عن جيرانهم العرب وبالتالي عن حركة التضامن الإسلامية، عن طريق التطلع للوراء لأيام قورش العظيم وماضي إيران قبل الإسلام)[٧٨٣].

وفي كلمة مشهورة له بمناسبة يوم عاشوراء (سنة ١٩٧٠)، تحدث الشهيد مطهري- رئيس مجلس الثورة فيما بعد - عن القضية الفلسطينية مطولاً[٧٨٤]، ومما قاله: (والله والله أقسم بأننا مسؤولون تجاه هذه القضية، وأقسم بالله بأننا رغم ذلك غافلون، وأقسم بالله بأن القضية التي تدمي قلب النبي الأكرم (ص) - وهو في قبره - هذه الأيام هي هذه القضية). وقال أيضاً: (لو أن الفرد الإيراني وحده، والذي يشكل فيه المسلمون نسبة (٩٨٪) قرر المساهمة في مساعدة الفلسطينيين بريال واحد، في السنة، لبلغ مقدار

٧٨١- الإمام الخميني. المرجع السابق. ص٣٢.

٧٨٢- المرجع السابق. ص١١٤.

٧٨٣- هيكل. المرجع السابق. ص١١٧ (حاشية).

٧٨٤- الشهيد مطهري. الملحمة الحسينية. الطبعة الثانية. قم ١٩٩٠. الجزء الثاني. ص١٤٥-١٥٤.

ما يقدمه الشعب الإيراني.. ما يقارب التسعين مليون تومان سنوياً أي ما يقارب العشرة ملايين دولار)، واضاف: (ان هذا الإنفاق في هذا الباب واجب، وتكليف الهي، كما الصلاة والصوم واجبان).

ويبدو أن الهدف الذي سعى إليه الذين خططوا للحرب العراقية -الإيرانية هو كسر هذا الاتجاه وإضعافه، لترتد الثورة داخل حدودها، ولكي تنشغل بنفسها عن تبني القضايا الإسلامية. والمقصود هنا طبعاً القضية الفلسطينية. تماماً كما كان الهدف الأول من حرب حزيران ١٩٦٧ هو إخراج مصر من الصراع العربي - الصهيوني، الأمر الذي تحقق بعد عشر سنوات بزيارة القدس.

❖ ❖ ❖

و(بسبب ولاء جماهير الشعب العاطفي للإسلام، وبسبب المكانة التوجيهية للعلماء[٧٨٥] كانت مهمة الإسلاميين الإيرانيين في التصدي للحملات المعادية للإسلام، تجد التأييد الشعبي المتزايد، رغم ما عاناه الإسلام - قبل ثمانينات القرن العشرين - من انحسار نفوذه في كل العالم الإسلامي. ورغم الإشكالية الكبرى التي كان يضج بها التاريخ الإسلامي بعد عصر الراشدين. أي الاضطهاد الذي تعرض له غير العرب (الموالي) على يد الدولة الأموية. وكان الفرس أساساً هم ضحايا الاضطهاد وموضوعه. والذي كان خلافاً لمبادئ الرسول وسياسة الراشدين، وكان جزءاً من ممارسات كثيرة غير إسلامية. إلا أنه كان مادة جيدة للحرب على الإسلام. وهكذا (بدأ بعض الأفراد.. حرباً ضد الإسلام باسم الدفاع عن القومية الإيرانية وقد أهان هؤلاء المقدسات الإسلامية

٧٨٥- إيران ١٩٠٠-١٩٨٠ (مرجع سابق) ص١٨١. بحث لحامد الغار سبقت الإشارة إليه.

بعنوان الكفاح ضد العروبة)[٧٨٦].

المفارقة الكبرى، أن التعصب القومي الفارسي يردد نفس أفكار التعصب القومي العربي، حول الإسلام والهوية الإسلامية والتاريخ الإسلامي، رغم أن لكل منهما أهدافه المتناقضة مع أهداف الآخر، أو أن كلاً منهما كان يستخدم هذه الأفكار بالضد للآخر.

فكلاهما يتحدثان عن الإسلام كدين عربي، ويصوران المعارك الإسلامية الكبرى بأنها معارك قومية وفتوحات عربية. رغم إن تصوير القادسية كمعركة انتصر فيها العرب على الفرس، هو تصوير مفتعل وإلا بماذا نصف معارك بدر وأحد والخندق وحروب الردة.. وغيرها، ثم انه يخدم ادعاء أغلبية المستشرقين بأن الإسلام دين انتشر بالسيف، بينما يعترف كاتب ماركسي لا يتعاطف مع الإسلام أبداً ويقول: (ان كافة الأدلة المتوفرة تشير إلى أن العرب فتحوا إيران بسهولة بالغة لأن جمهرة السكان الإيرانيين رحبت بهم)[٧٨٧]. وأظن أن هذه المقولة - ناهيك عن دقتها التاريخية - هي الأجمل للفرس والعرب معاً، الفرس الذين قبلوا الإسلام طواعية، والعرب الذين نشروا الإسلام وأطاحوا الحكومة الساسانية التي كانت عبئاً على الأمة الفارسية[٧٨٨].

ان التشكيك بإسلام المسلمين غير العرب، والحديث عن التاريخ الإسلامي كتاريخ إمبراطوري، وكما لو كان تاريخ الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس، وإضعاف الجانب الأممي في الإسلام، هي النقاط الأبرز التي تقاطع فيها (التعصب القومي العربي) و(التعصب القومي الفارسي) فيما يتعلق بالإسلام.

يقول مطهري في محاضرة بتاريخ ٨ محرم ١٣٩٠ (١٩٧٠) حول استعمال الأسماء

٧٨٦- مرتضى مطهري. الإسلام وإيران. ترجمة محمد هادي اليوسفي الغروي. الجزء الأول. سنة الطبع مغفلة. ص٥١-٥٢.

٧٨٧- فريد هوليداي. مقدمات الثورة في إيران. ترجمة مصطفى كركوتي. بيروت ١٩٧٩. ص٨٥.

٧٨٨- راجع مطهري. المرجع السابق. ص٨٧.

الفارسية القديمة: (إنهم لا يعرفون الخجل حقاً! كيف يتجرؤون هكذا على محاربة الحسين بن علي، ويصنعون الأبطال مقابله؟! تراه للأسف بدلاً من افتخاره بتسمية ابنه بأسماء إسلامية كالحسين وغيرها يسميهم بابك، ومازيار، وجمشيد، وخورشيد، خجلاً من الأسماء الإسلامية! والله إن كل هذه التحركات والتصرفات ما هي الا حرب ضد الإسلام، وإماتة للإسلام، ولهذا فإن علينا جميعاً أن نحيي شعائر الدين، وإحدى الشعائر هي الأسماء..)[٧٨٩].

ويقول عن اللغة العربية: (ان هذه الحرب العلنية التي تشهدونها اليوم ضد اللغة العربية، ينبغي أن تكون ناقوساً لإعلان الخطر عليكم.. فوالله إنها الحرب ضد الإسلام.. قسماً بالله إن علينا واجب أمام اللغة العربية، وما ينبغي أن نقوم به هو حفظ هذه اللغة وصيانتها، ومن يستطيع الوقوف ضدكم؟ شكلوا معاهد تدريس اللغة العربية في كل مكان وأشرعوا في تعليم أبنائكم، وأنفسكم، وأزواجكم.. وصدقوني إذا ما تعلمتم هذه اللغة فإنكم ليس فقط لن تخسروا شيئاً، بل أنكم ستستفيدون أيضاً لأنكم كسبتم لغة حية من لغات الدنيا)[٧٩٠].

لقد حارب صدام هذه الروح.. وكان معه العرب الموالون لأميركا، بكل ما يملكون وبكل ما يستطيعون، وقد كتب الصحفي المعروف محمد جلال كشك قائلا: (أيها العرب لا تخافوا.. إنها فاطمة بنت محمد وليست بنت يزدجرد هذه التي يقدسها الإيرانيون[٧٩١]. وأحسب أن الإيرانيين لو كانوا يقدسون بنت يزدجرد لكانوا أقرب إلى عرب أميركا.

فلو لم تكن الثورة إسلامية، ولم تكن فلسطين قضيتها المركزية، لوجدت لها الكثير من الأصدقاء في الدول العربية. ان من الجرائم الكبرى في التاريخ العربي المعاصر، أن

٧٨٩- مطهري. الملحمة الحسينية (مرجع سابق). الجزء الثاني. ص٦٧.

٧٩٠- المرجع السابق. ص٦٨.

٧٩١- مجلة الحوادث اللبنانية. عدد ١٤ شباط ١٩٧٩.

تكون مهمة الدول العربية مواجهة الزلزال الذي خافت منه إسرائيل. وأن يكون الشاه صديقهم، وأن توصم الثورة الإسلامية بالتعصب القومي والطائفي وبالشعوبية، ليغطوا أقذر حرب في التاريخ.

ووصلت الحملة الصدامية ضد إيران حد الهذيان. فصدام الذي هو دائماً، ابن (اللحظة) التي يعيشها، دون أن يفكر بما قبلها وما بعدها، وهو ما يعتبره علماء النفس أبرز أعراض (السايكوباثية) التي يبدو أن الرجل يعاني منها. فضلاً عن افتقاره إلى الشعور بالمسؤولية التاريخية. أخذ يردد في الثمانينات بأن غير العرب غير قادرين على فهم الإسلام والاجتهاد فيه. الأمر الذي يعني حذف المئات من الرموز الإسلامية، من أصحاب المذاهب وعلمائها، من السنة والشيعة. وتبدو هذه المقولة من بين ما شاع في الثمانينات وأصبح على الجميع ترديده تحت طائلة الموت هي الأقل حدة. فقد كتب خير الله طلفاح والد صدام بالتبني ووالد زوجته، والشخص الأكثر تأثيراً عليه في شبابه، والذي كون ثقافته وتوجهاته اللاحقة – في عام ١٩٨١– ما نصه: (ثلاثة كان يجب على الله ألا يخلقهم الفرس واليهود والذباب) ويضيف عن الفرس ما نصه: (إنهم أحط المخلوقات، لأنهم في الحقيقة حيوانات خلقها الله على هيئة بشر)![٧٩٢]

ويجد هذا الموقف جذوره في نزعة طائفية –عنصرية أنتجها الصراع الصفوي – العثماني الدامي على الجانبين. وتغطت هذه النزعة في العراق بعد اختفاء الدولة العثمانية بالقومية العربية. وتذكرنا توجهاتها الطائفية، بطروحات نجيب عازوري في مطلع القرن العشرين. إذ دعا إلى وحدة الأمة العربية – وكان يقصد بها المشرق العربي فقط، أي الجزيرة والهلال – بقيادة الهلال الخصيب، وعلى رأسه سوريا، وعلى رأس الجميع المسيحيون العرب. ولعل عازوري – لو امتد العمر به إلى اليوم – كان سيؤمن

٧٩٢– سيمر الخليل. جمهورية الخوف. القاهرة ١٩٩١. ص٨٨. (حاشية رقم ٢٤).

بالأمة اللبنانية بقيادة المسيحيين وعلى رأسهم الطائفة المارونية، ولنسي الأمة العربية. لأن المنطق الطائفي يقود حتماً إلى نتائج كهذه. وقد حدث الأمر نفسه في العراق، إذ حاولوا أن يكون العراق بقيادة الطائفة السنية، وعلى رأسها تكريت، وفوقها عشيرة صدام، وعلى رأس الجميع صدام وأولاده. وقد تخلخلت هذه الصيغة الطائفية – المناطقية – العشائرية، بسبب حماقات صدام ودمويته المتطرفة، فامتد الانشقاق إلى داخل أسرته، فعزل إخوانه وذبح أزواج بناته.

وقد تعامل صدام مع الإسلام، ومع كل العقائد والأفكار والقيم، كأشياء يستعملها كما يريد، ففي السبعينات والثمانينات جرى التأكيد على علمانية الدولة ، وبان عقيدة البعث (ليست حصيلة جمع كل ما يحمله الماضي والدين) (٧٩٣).

وشن النظام حملة معادية للدين. ثم لأخذ الشباب بعيداً عن السياسة، أكثر النظام من حفلات الغجر (الرسمية) والتي يحضرها كبار المسؤولين. وافتتح حانات للخمور في كل مكان، وبالغ التلفزيون في بث الأفلام الخليعة. وترافق ذلك مع انتهاك للشعائر الدينية، ومع التقليل من شأن علماء الدين واحتقارهم، وغير ذلك. وللمرء أن يدرك مدى حماقات النظام وتقلباته، إذا ما قارن هذه الإجراءات مع الحملة الإيمانية الكبرى التي سنتحدث عنها بعد قليل. ولتأكيد علمانيته رفض العراق الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، وظل – شأنه شأن تركيا – عضواً مراقباً فيها حتى سنة ١٩٧٦.

ثم أعلن النظام – عشية الصراع مع الحزب الشيوعي – أنه (ليس حيادياً بين الإلحاد وبين الإيمان وإنما هو مع الإيمان) (٧٩٤). أما في مواجهة الحركات الإسلامية، فاعتبر النظام أن الإسلام السياسي (يؤدي في النهاية إلى إثارة الانقسامات الدينية والطائفية في المجتمع العربي مما يضعفه كثيراً ويشغله عن النهضة والتقدم.. ومن هنا تستفيد

٧٩٣- صدام حسين. نظرة في الدين والتراث. بغداد ١٩٧٨. ص١٨.

٧٩٤- المرجع السابق. ص٥.

القوى والدوائر الاستعمارية من هذه الظاهرة)[٧٩٥]. وكان صدام - قبل عام من هذا الكلام - قد أعلن في خطاب له اختار أن يكون في مدينة قريبة من الحدود السورية بأنه يدعم الحركات الإسلامية المعارضة لحكوماتها وكان يقصد بذلك سوريا. بل وصرح لكاتب سيرته غير الرسمية فؤاد مطر قائلاً: (اننا نفرح عندما نرى شباباً مؤمناً يحمل الدعوة الإسلامية ومستعداً للاستشهاد والموت ضد الفساد ونشعر بالتعاطف معه)[٧٩٦].

وهكذا يتنقل النظام في موقفه من الدين من الشيء إلى نقيضه. ففي مواجهة محاولة أميركا لاحتوائه بعد انتهاء الحرب الباردة، فإن صدام يقود (الحملة الإيمانية الكبرى)، ويبني الجوامع الفخمة، ويمنع الخمور، ويذبح المومسات، ويأمر كوادر حزبه بتعلم الأحكام الدينية، ويأمر المدارس بتدريس القرآن الكريم.. إلى آخره. بل وأعلن إسلام ميشيل عفلق بعد وفاته، وأجبر المواطنين على التبرع لإقامة ضريح له على الطراز الإسلامي، فأساء بذلك إلى الرجل والى العرب المسيحيين، ولم يصدقه أحد.

وأخطر ما تعامل به صدام مع الإسلام، هو طرحه في مواجهة الثورة الإسلامية في إيران، بأن الإسلام دين العرب ولا يفهمه الا العرب، وهو ما يترتب عليه أمران خطيران:

الأول: إخراج العرب المسيحيين من العروبة لأنهم غير مسلمين. ومجرد تصور ذلك هو مما يحبس الأنفاس في فجاجته، ويقزز البدن من سخافته. فهل يمكن أن يخرج من العروبة أو هل ترضى العروبة أن يخرج منها؟ إلى آخر هذه الأسئلة المستحيلة.. بل وهل هناك عروبة أصلاً بدون الدكتور جورج حبش، والدكتور وديع حداد، وناجي علوش، وجول جمّال، والدكتور قسطنطين زريق، والمطران هيلاريون كابوتشي؟ وقد ذكرت هذه الأسماء

٧٩٥- التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع المنعقد في حزيران ١٩٨٢. بغداد ١٩٨٣. ص٢٧٤-٢٧٥.

٧٩٦- مطر. المرجع السابق. ص٣٠٢.

على سبيل المثال وكما تداعت في ذهني الآن، وإلا فإن قائمة رموزنا القومية والاستشهادية والأدبية والفكرية والدينية وغير ذلك من العرب المسيحيين طويلة جداً.

الثاني: وهو ما يقصده صدام من ذلك، أي إخراج غير العرب من الإسلام. وهو يقصد بذلك طبعاً الثورة الإسلامية في إيران، والشعب المسلم الإيراني الذي اتهمه بكل سخافة بالمجوسية والكيد للإسلام، وهذا يمتد بالضرورة إلى كل العلماء من غير العرب – وأغلبهم من الفرس – رغم ما قدموه من خدمات جليلة للإسلام وللغة العربية وللعرب منذ صدر الإسلام حتى اليوم. زد على ذلك أن بعضهم كأبي حنيفة رموز دينية مقدسة.

وقبل أن نمضي مع تصاعد الأحداث، لابد من الكلام عن (الدائرة الإسلامية)، والتي فرط بها العرب غير مبالين بعمقهم الإسلامي. حتى الرئيس جمال عبد الناصر وهو صاحب نظرية الدوائر (العربية، الإسلامية، الأفريقية)، تراجع اهتمامه بالعالم الإسلامي، و انتهى دور (منظمة المؤتمر الإسلامي) المصرية التي أسسها في الخمسينات وعين السادات رئيساً لها، منذ تبنيه الاشتراكية في مطلع الستينات، أو منذ تبلور عالم عدم الانحياز والذي كان هو من أعمدته الثلاثة إلى جانب نهرو وتيتو. ومن المهم أن نشير أن مشروع (الحلف الإسلامي) الذي طرحه الملك فيصل في منتصف الستينات، وكل المشاريع المماثلة، والتي كان يراد بها تطويق الاتحاد السوفييتي، أو إحباط جهود الرئيس عبد الناصر لتوحيد الأمة العربية، هي خارج موضوعنا هذا. وأيضاً فإن الدور العربي في أفغانستان، والبوسنة، والشيشان، وكوسوفو، هو خارج هذا الموضوع أيضاً، لأن السياسة الغربية وظفت هذا الدور، أو أنها استغلت مشاعر صادقة، في صراعها مع الاتحاد السوفييتي في أفغانستان وفي محاولة رسمها الخريطة الدولية فيما بعد، ولو ان هذه (المشاعر) ما لبثت ان انقلبت على الغرب شر انقلاب.

ان على العرب – وبحكم عوامل كثيرة – مسؤولية كبرى تجاه هذا (العالم الإسلامي) الذي ترنو عيون شعوبه إليهم، وتتفاعل مع أحزانهم وأفراحهم، وترى في كعبتهم ومدينتهم وقدسهم وطناً أمّاً. ويعتبرون اللغة العربية لغتهم (إذ أنهم لم يكونوا يعدون

العربية لغة العرب فحسب بل لغة الإسلام والمسلمين عامة)[٧٩٧]. والطريف أن هيكل يقول بأن الشيخ منتظري مساعد الإمام الخميني حتى عام ١٩٨٧ أصيب بالذعر عندما سمعه والدكتور إبراهيم يزدي وزير خارجية إيران آنذاك يتكلمون بالإنجليزية وقال لهما: (هل تستخدمون لغة المشركين، هل نسيتم أن لغة القرآن هي العربية؟ هل نسيتم أن لغة الملائكة هي العربية؟ إن أهل الجنة يتكلمون العربية)[٧٩٨].

وقد تخلى المسلمون غير العرب عن تاريخهم ما قبل الإسلام، وعن رموزهم غير الإسلامية، ولم يعد لهم تاريخ أو رموز أو مفاخر خارج الإسلام. في الوقت الذي ابتعد فيه العرب عن الإسلام والذي جرى اعتباره يوماً ما رمزاً للتخلف والعيش في الماضي.

ويعتب المسلمون على العرب لأنهم أقل التفاتاً لقضايا الشعوب الإسلامية. بل وخذلوها أحياناً. وأشهر مثال على ذلك هو موقف عبد الناصر في الستينات من قضية الأتراك في قبرص. والمفارقة في لبنان (أن الخلاف بين المطران مكاريوس والأتراك.. استقطب المسلمين في ذلك الحين لجهة مكاريوس المتعاطف مع عبد الناصر بينما تعاطف المسيحيون مع الأتراك لأنهم في معسكر الغرب)[٧٩٩]. ومن نافل القول أن الموقف العربي المطلوب هنا هو مناصرة الحقوق المشروعة للشعوب الإسلامية وقضاياها العادلة لا الاصطفاف مع موقف اسلاموي ظلامي معادي لكل الشعوب والأديان والثقافات الأخرى.

وحدّث زعيم بنغلاديش الراحل الشيخ مجيب الرحمن الأستاذ هيكل بأن الحدث الذي زج به في السياسة، هو إصابته بجراح في مظاهرة احتجاجية على العداون الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. ثم عتب على عدم اهتمام مصر والبلاد العربية ببنغلاديش والشعوب

٧٩٧- مطهري. الإسلام وإيران. (مرجع سابق) ص٩٦.

٧٩٨- هيكل. المرجع السابق. ص٢٧١.

٧٩٩- مسعود يونس. (طائفة إسلامية) جديدة في لبنان. جريدة السفير. العدد ٩٠٦٩ في ٢٠٠١/١٢/١ ص٢٣.

الإسلامية، رغم تبني هذه الشعوب للقضايا العربية.

المؤلم أن إسرائيل استطاعت أن تتسلل إلى الدول الإسلامية في أفريقيا، وتقيم علاقات قوية معها، بما فيها تلك البلدان التي تحكمها أنظمة ثورية وترتبط بعلاقات قوية مع الرئيس عبد الناصر، مثل غينيا أحمد سيكوتوري، وقد قطع الرئيس سيكوتوري علاقات بلاده الدبلوماسية بإسرائيل بعد عدوان حزيران ١٩٦٧. حيث كانت غينيا البلد الأفريقي والإسلامي الوحيد - إلى جانب الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية - التي تقطع علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل بعد العدوان. ويسجل للرئيس القذافي عام ١٩٧٢ أنه استطاع أن يقنع أغلب الدول الأفريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع العدو.

والحقيقة أنني عاجز عن تفسير الغفلة العربية عن النفوذ الصهيوني في أفريقيا آنذاك. وعموماً فإن الكيان الصهيوني انتبه مبكراً إلى تعلق المسلمين بالعرب، فحاول اقتطاع المحيط الإسلامي عن الوطن العربي، ونجح في ذلك كثيراً. ولم يعر العرب ذلك اهتماماً، حتى عندما صوتت دول إسلامية قليلة إلى جانب العدو، ووقفت أخرى أكثر عدداً على الحياد عند التصويت على سلسلة من القرارات في الأعوام ٦٧، ٦٨، ١٩٦٩ في الجمعية العامة للأمم المتحدة حول مشكلة اللاجئين وحقوق الشعب الفلسطيني خاصة القرار ٢٥٣٥ في ١٩٦٩/١٢/١٠ والذي وردت فيه أول إشارة عن حقوق شعب فلسطين الثابتة[٨٠٠].

إن الأنظمة العربية، وأظنها لا زالت كذلك، لا تحسب لأصوات البلدان الإسلامية في المحافل الدولية حساباً، ولا تحاول التنسيق معها لمصلحة القضايا العربية والإسلامية إلا في حالات قليلة. أي أنها لا تستفيد من سلاح كهذا، في حين تسعى إسرائيل لتوظيفه بكفاءة عالية، مستفيدة من الدعم الأميركي والغربي الهائل لها.

وتعتبر إسرائيل العالم الإسلامي، وخاصة ما يقع بين الهند والعراق، أي باكستان

٨٠٠- راجع عن القرار، د. عزيز شكري. ود. فؤاد ديب. القضية الفلسطينية والمشاكل المعاصرة. دمشق ١٩٩٠ ص١٤٦.

وأفغانستان وإيران، عمقاً استراتيجياً محتملاً في الصراع العربي – الصهيوني، لذلك فإنهم في أي تقدير استراتيجي للأخطار المستقبلية، يضعون هذه المنطقة في الدائرة الثالثة من اهتماماتهم، وفي العقدين الاخيرين – وبعد دعم الثورة الإسلامية لحزب الله وحركتي حماس والجهاد – وضعوها في دائرة اهتمامهم الأول.

أما العرب فإنهم في غفلة عن أصدقائهم وأعدائهم على السواء فلا يحسبون حساباً لا لصديق ولا لعدو.

❖ ❖ ❖

عندما كان الخلاف بين نظام ١٧ تموز والشاه محتدماً، وبسبب طبيعة النظامين المتشابهة، وما بدا أنه خلاف منضبط، فإن القوى اليسارية والإسلامية ظلت بعيدة ومستبعدة منه. فعلاقة إيران بالمعارضة العراقية اقتصرت على بعض الإقطاعيين وبضعة أفراد من العسكريين المتقاعدين. أما العراق فقد استضاف الجنرال بختيار، أقرب مساعدي الشاه، ورئيس السافاك ورجل إسرائيل في إيران حتى عام ١٩٥٨[٨٠١]. وقد قام السافاك باغتيال بختيار في رحلة صيد خارج بغداد. وأفلت القتلة الذين رافقوه في رحلة الصيد وغادروا بغداد قبل أن تعثر السلطات على جثته. ويورد مدير الاستخبارات العراقي رواية غريبة تتعلق باغتيال بختيار إذ يقول: (وفي ذات يوم وصلتنا معلومات بأنه سيتم تدبير عملية خطف طائرة (مفتعلة) من قبل السافاك إلى بغداد، للقيام بعمل ما بعدها.. وعلى أية حال حصلت حادثة اختطاف الطائرة، والتحق الخاطفون بجماعة بختيار ولم يلبث أن تم اغتياله أثناء خروجه للصيد من قبل أتباعه الذين هربوا إلى إيران بعد الاغتيال مباشرة)[٨٠٢].

٨٠١- راجع نكديمون. الموساد في العراق ودول الجوار. (مرجع سابق) ص٧٨، ٧٤ وغيرها.

٨٠٢- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص٣٨.

وعندما اشتعلت الثورة الإيرانية وتصاعدت كان يُفترض بالنظام العراقي ولأسباب عديدة أن يكون الأكثر معرفة بالواقع الإيراني والاكثر قدرة على التنبؤ بمستقبله. ولو أن هذه الملاحظة تبدو غير ذات معنى لأن أصحاب القرار في بغداد - وربما يتصور بعض القراء أن هذه محض شتيمة - أميين تماماً وغير مستعدين لسماع الرأي الآخر في آن معاً. فقد صرح صدام وكان عندها نائباً للرئيس وبثقة: (الشاه باق.. باق.. باق). والطريف وفي موقف مماثل قدمت البعثة العسكرية الأميركية في إيران تقريراً سرياً بتاريخ ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ يقول: (بأن الشاه لا يواجه أي مخاطر حقيقية لمدة عشر سنوات على الأقل، لأنه ليس هناك من يتحدى الجيش وهو أساس شرعيته)[٨٠٣].

وجاءت الشهبانو فرح (زوجة الشاه) إلى العراق، بترتيب من النظام، لتوسط علماء النجف لدى الإمام الخميني، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا لها شيئاً إزاء إصراره بالمضي في الثورة قدماً حتى إقامة الجمهورية الإسلامية. وكانت فرح هذه قد تساءلت بجهل وغرور عند بدايات الثورة الإسلامية قائلة: (بحق الله، من يكون ذلك الخميني؟)[٨٠٤]. وكان مجيء فرح علامة فارقة على الدور العراقي في وجه الثورة المتصاعدة.

(ثم وقعت حادثة شنيعة.. فقد شب حريق في سينما مزدحمة بعبادان مدينة البترول ومات ٤٣٠ حرقاً وثارت الشكوك في الحال بأن الحريق متعمد، إذ قيل أن أبواب السينما قد أغلقت لمنع أي شخص من الهروب، وإن فرق الإطفاء استغرقت وقتاً طويلاً بشكل غير عادي للوصول إلى مكان الحادث. وألقى رئيس بوليس المدينة مسؤولية الحادث على عاتق من سماه (بالعناصر الإسلامية الماركسية) ولكن الرأي الشائع أن السافاك هي التي دبرت الحادث. فقد استقر الرأي على أن السافاك أرادت أن تدخل الرعب في

٨٠٣- هكيل. المرجع السابق. ص١٩٩.

٨٠٤- المرجع السابق. ص١٦٥.

قلوب الطبقة المتوسطة واختارت هذا الأسلوب لتنفيذ فعلتها)[٨٠٥]. وللتغطية على هذه الفضيحة وبالتنسيق كما يبدو مع السافاك، ادعى الأمن العراقي أنه ألقى القبض على مدبر حريق عبادان وهو يهرب إلى البصرة في العراق.

وجاءت الخطوة الأكثر غباءً، فرغم أن الشاه كان يترنح، وإن الغرب بدأ ينفض يده منه. إذ (أن في رأيهم أن أحداث أيلول وتشرين الأول (سبتمبر وأكتوبر) تعني أن سلطة الشاه الأوتوقراطية قد انتهت)[٨٠٦]. وقبل ذلك وفي أوائل أيلول (كانت التقارير جميعاً تقول إن الشاه كان مكتئباً من عجزه عن إعادة النظام، وغير متأكد مما سوف يفعله بعد ذلك)[٨٠٧]. قام العراق - وبطلب من الشاه - بتسفير الإمام الخميني. فقد ذهب سعدون شاكر مدير المخابرات إلى الإمام وطلب منه (إما أن يتوقف عن دعوته للثورة أو أن يرحل عن البلاد)[٨٠٨]. وفي ١٩٧٨/١٠/٦ وصل الإمام إلى باريس. ويعلق على ذلك وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس قائلا: (وأنتجت محاولة لإسكات الخميني بطرده تأثيراً عكسياً. فقد ذهب آية الله إلى باريس واستخدم استخداماً كاملاً وسائل الاتصال الممتازة المتاحة في باريس ليسيطر على المظاهرات في إيران)[٨٠٩].

وكان برزان التكريتي - والذي كان نائباً لمدير المخابرات آنذاك - قد كتب لأخيه صدام عشية نفي الإمام الخميني من العراق: (إن آية الله الخميني ليس له مستقبل سياسي لذلك لا خوف من طرده خارج العراق)[٨١٠]. ومما يلفت الاهتمام هنا، أن موقف الرأي

٨٠٥- المرجع السابق. ص٢٠١-٢٠٢.

٨٠٦- مذكرات سايروس فانس. خيارات صعبة. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٨٤. ص١٨٦.

٨٠٧- المرجع السابق. ص١٨٤.

٨٠٨- هيكل. المرجع السابق. ص١٨٦.

٨٠٩- مذكرات فانس. المرجع السابق. ص١٨٦.

٨١٠- طالب الحسن. حكومة القرية. الجزء الأول. بيروت ٢٠٠٢. ص٥٨.

العام العراقي لا يدخل أبداً في (تقديرات) المخابرات العراقية. وفي المرات النادرة التي يجري فيها تقدير للرأي العام العراقي، فإن النتيجة التي يخلص إليها النظام - كأي نظام فاشٍ - هو أن الشعب ملتف حول قيادته، وأن الجبهة الداخلية متماسكة، وأن أي حركة معارضة ما هي إلا حركة عميلة للأجنبي.

إن الإمام الخميني ليس رجلاً عادياً يمكن إبعاده من العراق دون أن يثير ذلك نقمة الشعب العراقي. فهو واحد من ثلاثة من أكابر علماء النجف، وليس للدين جنسية أو قومية أو وطن. وهو أيضاً زعيم ثورة استقطبت حب وتأييد غالبية شعوب العالم وحركاته الثورية. وكان العراقيون الأكثر حماسة للثورة من بين كل العرب والمسلمين. ثم ما مصلحة العراق في هذه الخطوة الحمقاء؟

كتب عمر بن الخطاب لواليه على الكوفة، أبي موسى الأشعري، يقول: (قل للأقرباء يتزاوروا ولا يتجاوروا). فللجوار بين الأقرباء اشكالاته التي تنشأ بحكم طبائع الأشياء، وتتساوى في ذلك علاقات الأفراد وعلاقات الدول. وقد تتحول هذه الإشكالية التي يمكن أن نسميها (حساسية الجوار) بحكم ظروف تاريخية معينة إلى (عقدة)، وربما يفشل الطرفان في إدارتها فتتحول إلى (صراع). وقد يأتي من يستغلها ويحولها إلى حريق.

هكذا بتبسيط شديد استغلوا شعور (النظام في بغداد بأن سقوط الدكتاتورية في إيران سيقود إلى إسقاط الديكتاتورية الأكثر ظلماً وإجراماً في العراق.. وإذا لم تنقل التوترات مع النظام الإيراني المتطرف إلى داخل إيران، فإنها قد تنتقل إلى داخل العراق)[٨١١] كما يقول ضابط استخبارات النظام المسؤول عن الشؤون الإيرانية.

٨١١- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص٤١.

ويقول وزير الخارجية الأميركي آنذاك سايروس فانس: (إن الانبعاث السريع للعداء التاريخي بين العراق وإيران وما تلاه من اختيارات كلا الجانبين ومن حدة الانقسامات في العالم العربي، وهكذا فإن سقوط الشاه لم ينتج ائتلافاً إسلامياً راديكالياً جديداً معادياً للغرب ومعادياً لإسرائيل)[٨١٢]. ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل: (لقد جاءت الثورة الإيرانية بطرح جديد فاستُعملنا في ضربها.. وكانت الحرب العراقية الإيرانية)[٨١٣] مشيراً بذلك إلى دور الأنظمة العربية في التآمر على الثورة الإيرانية.

❖ ❖ ❖

(إن الأردن طرف في ترتيب إقليمي يضم أربع دول هي الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا والأردن، وهذا الترتيب هو المدير المقيم للأمن في المنطقة، وكل من عداهم مساعد أو مشارك وفق مواقع الأزمات! ولذلك فإن دور الملك «حسين» في هذا الترتيب كان أهم الأدوار العربية)[٨١٤].

وقد لعب الملك حسين أخطر دور للتحضير للحرب العراقية -الإيرانية. إذ رتب لقاء على الحدود العراقية - الأردنية بين صدام وزبجينو برجينسكي مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي آنذاك جيمي كارتر، والذي كان في (خريف ١٩٨٠ هو المحرك للسياسة الخارجية الأميركية)[٨١٥]. وكان أخطر من تولوا هذا المنصب إذا استثنينا هنري كيسنجر.

٨١٢- فانس. المرجع السابق. ص٢١٥.

٨١٣- روز اليوسف. العدد (٣٦٣٦)، ١٦ فبراير ١٩٩٨، ص٨.

٨١٤- محمد حسنين هيكل. كلام في السياسة. القاهرة ٢٠٠٠. ص١٤٠.

٨١٥- جرهارد كونسلمان. سطوع نجم الشيعة. (مرجع سابق) ص٢١٦.

بالنسبة لبرجينسكي (كانت هناك مشكلة تلح عليه ويجب العثور على حل لها: فقد كان دبلوماسيون وموظفون في السفارة الأميركية لا يزالون رهائن في قبضة الإيرانيين. وكانت معاناة الشعب الأميركي من هذه المهانة تزداد باستمرار وتهدد الوجود السياسي لجيمي كارتر. وكان مستشار الأمن القومي أيضا خائف على منصبه: فإذا لم يتم تحرير الرهائن فإنه سيكون قد فشل في مهمته وسيعتبره الأميركيون فاشلاً حقيراً.. فإذا ما كسب صدام حسين الحرب فيمكن توقع خلع آية الله فيتم الإفراج عن الرهائن في السفارة الأميركية بطهران قريباً بالتأكيد) [٨١٦]. وكان هذا هو الهدف المباشر لأميركا من الحرب العراقية – الإيرانية. أما استراتيجياً، وقبل أن تبدأ مشكلة الرهائن، بل وقبل أن تنتصر الثورة وتتسنم الحكم، كان للولايات المتحدة (خطط للعمل ضد الثورة الإيرانية بما يمنعها من تثبيت حكمها في طهران) [٨١٧]، ولمنع امتداد تأثيراتها في محيطها[٨١٨].

وقد ظل الرأي العام (الشعبي) في العراق يردد طيلة سنوات الحرب العراقية – الإيرانية بأن الملك حسين – وثأراً لمجزرة قصر الرحاب التي قضت على العائلة المالكة في العراق يوم ١٤ تموز ١٩٥٨. حيث مثلت الجماهير بوحشية بجثة ولي العهد وخال الملك عبد الإله – أقسم أن يجعل في كل بيت عراقي نائحة. وربما لم يكن هذا بعيداً عن تفكير الملك حسين الذي قال فيما بعد عن مقتل الملك فيصل الثاني: (إنني أعتقد بأن الكثير من العراقيين.. قد شعروا بالخزي الشديد للطريقة الوحشية التي أغتيل بها، وإن السبعة عشر عاماً التي مضت منذ وفاته لم تمحُ بعد هذا الخزي) [٨١٩].

٨١٦- المرجع السابق. ص٢١٦.

٨١٧- محمد حسنين هيكل. المفاوضات بين العرب وإسرائيل. الكتاب الثاني. الطبعة الخامسة. القاهرة ١٩٩٦. ص٤٤٢.

٨١٨- المرجع السابق. ص٤٤٠.

٨١٩- الحسين. مهنتي كملك. نشرها بالفرنسية فريدون صاحب جم. ترجمة غالب عارف طوقان. (سنة ومحل الطبع مغفلان) ص١٥٧.

(وقد حاول الملك حسين الثأر لذلك دائماً. فقيل عنه في انقلاب الانفصال عام ١٩٦١ أنه (مدبر ذلك الانقلاب لطرد مصر من سوريا عقاباً لها على تأييدها لانقلاب العراق (١٤ تموز ١٩٥٨)[٨٢٠].

لكن دور الملك حسين في الحرب العراقية - الإيرانية أكثر من مجرد ثأر. إذ (كان اسم الملك «حسين» على قائمة المرتبات السرية في وكالة المخابرات المركزية الأميركية[٨٢١]. وهذا ما يفسر أدواره العصية على التفسير في أحداث المنطقة.

فهو يفسر دوره الغامض والمفاجئ في حرب حزيران ١٩٦٧. إذ (إن الملك «حسين» قابل ضباطاً إسرائيليين على مستوى عال في الأردن يوم ٢٦ مايو ١٩٦٧ وأنهم أبلغوه بشكل ما هو قادم دون تفاصيل)[٨٢٢]. وقد ارتد هذا الدور على الملك حسين نفسه، فاحتلت إسرائيل الضفة الغربية من مملكته فقد (كان إغراء حلم أرض إسرائيل أكبر من أن يقاوم)[٨٢٣] بالنسبة للكيان الصهيوني خاصة أن العرب جميعاً قد انهزموا.

وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب علني ذات مرة، أن وصفي التل رئيس وزراء الأردن - والذي اغتالته المقاومة فيما بعد عام ١٩٧٢ - يقوم بنقل أسرار الاجتماعات العربية إلى الولايات المتحدة. وقد ظهر فيما بعد، أن من يقوم بهذه المهمة، القصر الملكي الأردني أي الملك حسين نفسه[٨٢٤].

(ان الملك «حسين» ذهب - يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣ - إلى مقابلة سرية مع رئيسة وزراء إسرائيل (قبل أيام من ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وحذر «جولدا مائير» من أن مصر وسوريا

٨٢٠- هيكل. كلام في السياسة (مرجع سابق). ص١٢٤.
٨٢١- المرجع السابق. ص١٣٥.
٨٢٢- المرجع السابق. ص١٣٠.
٨٢٣- المرجع السابق. ص١٣١.
٨٢٤- المرجع السابق. ص١٣١.

تدبران لشن معركة مفاجئة ضد القوات الإسرائيلية في سيناء والجولان)[٨٢٥]. إن هذه الأدوار تفسر تماماً دور الملك حسين في الحرب العراقية - الإيرانية وأيضا دوره في أزمة الكويت بعد عشر سنوات منها.

لقد أشرنا في الفصل السابق إلى تحسن العلاقات الأردنية - العراقية. إلا أن الانقلاب الكبير في هذه العلاقات، حدث عامي ١٩٧٨-١٩٧٩، أي بالتزامن مع انطلاق الثورة الإيرانية. فبعد علاقات تحالفية - كانت تثير حنق العراق - بين سوريا والأردن، وكان الموالون لسوريا يبررونها بتحالف (الكومننتانج)، حتى أن الحكومة السورية حضرت بكل أعضائها إلى جانب الرئيس حافظ الأسد في مراسم تشييع الملكة علياء طوقان زوجة الملك حسين، والتي ماتت ربما بشكل غامض عام ١٩٧٧. أدار الملك حسين ظهره لسوريا فجأة، واتجه صوب بغداد. وقدم دعماً بلا حدود للإسلاميين السوريين في صراعهم الدامي مع الحكومة السورية. وقد اعترف بذلك علناً في اعتذاره الشهير للرئيس حافظ الأسد فيما بعد في سنة ١٩٨٦.

إن المشهد بدا خطيراً جداً عام ١٩٨٠، وصارت الطائفية عنواناً لتحالفات ومواقف وحروب. ولعب الملك حسين أخطر دور في هذه اللعبة، رغم أنه لا يوجد ثمة شيء يربطه بالإسلام السني أو الشيعي. ان هذا الدور والذي كان يريد ان يدفع بالمنطقة الى حروب طائفية دامية، هو ما يفسر دعمه لهذا الإسلامي في سوريا من جانب، وتسليمه لإسلامي آخر إلى المقصلة في بلاده العراق أو السعودية من جانب اخر، حيث سلم أحد أبرز قادة حزب الدعوة الإسلامية محمد هادي السبيتي إلى العراق عام ١٩٨١ لتختفي آثاره نهائياً.

والى جانب الملك حسين، كان هناك دور أنور السادات الذي (شجع قيام حرب بين العراق وإيران أنهكت قوى المنطقة كلها، ووضعت أطرافها جميعا على حافة الإفلاس[٨٢٦].

٨٢٥- المرجع السابق. ص١٣٢.

٨٢٦- هيكل. المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (مرجع سابق). الكتاب الثاني. ص٤٦٠.

وكان الرئيس كارتر قد بعث مستشاره للأمن القومي «زبجينو برجينسكي» إلى السادات من أجل (بحث خطط مشتركة بين مصر والولايات المتحدة للعمل السري، سواء ضد الثورة الإسلامية في إيران أو ضد تأثيراتها في النطاق المحيط بها والذي بدأ يتفاعل مع نداءاتها) (٨٢٧).

وكان هناك دور من بعيد، بالمشورة والنصيحة والمساعدة، لملك المغرب الحسن الثاني، والذي جمح به الحماس فأطلق تصريحه الشهير: (يجب أن نقاتل هؤلاء الشيعة بالأيدي والأظافر والأسنان) وكان يقصد بذلك إيران والتي كانت تربطه بها علاقة حميمة أيام الشاه فكانت أقرب إليه من أي بلد عربي.

وبعد وفاة الحسن الثاني بأيام كتب إريك سيلفر وهو واحد من أشهر الصحفيين الإسرائيليين مقالاً في جريدة (الإندبندنت) البريطانية جاء فيه: (كانت المخابرات الإسرائيلية هي التي أشرفت على تنظيم المخابرات المغربية وتدريب عملائها. ولمدة أربعين سنة فإن العلاقات بين الجانبين كانت علاقات غير عادية وبخاصة في مجال المخابرات وضد أعداء مشتركين في الشرق الأوسط) (٨٢٨).

وقد أعطى الحسن الثاني (للموساد ولغيرها من أجهزة الأمن الإسرائيلي الإذن بأن تتسمع على مناقشات ومداولات مؤتمرات عربية وإسلامية على مستوى القمة) كما جاء في صحيفة (النيويورك تايمز) كبرى الصحف الأميركية(٨٢٩).

(ثم جاء أخيراً تكريم الملك «الحسن» إسرائيلياً على نحو لم يسبق له مثيل، فقد أعلن رسمياً يوم ٣٠ أغسطس ١٩٩٩ عن تشكيل لجنة على مستوى عال في إسرائيل للبحث في خطة تكريم «لا ينسى» للملك «الحسن». وكانت اللجنة برئاسة «ايهود باراك» رئيس وزراء

٨٢٧- المرجع السابق. ص٤٤٠.

٨٢٨- هيكل. كلام في السياسة. (مرجع سابق). ص٣٣٠.

٨٢٩- المرجع السابق. ص٣٣٢.

إسرائيل.. وكان أول اقتراح تقدمت به اللجنة وجرت الموافقة مبدئياً عليه هو تسمية ٧٠ موقعاً (ميادين وشوارع ومنتزهات وحدائق) باسم الملك «الحسن». والى جانب ذلك فقد طلبت اللجنة أن يحمل طابع البريد التذكاري الاول سنة ٢٠٠٠ صورة للملك الحسن(٨٣٠).

وقد علق الأستاذ هيكل على قلاقة «الحسن الثاني» بإسرائيل، قائلاً: (لقد كانت التعليقات التي تكررت في الصحف الغربية كلها.. وكذلك في الصحف الإسرائيلية.. تذهب جميعاً إلى رأي مؤداه أن الدليل الحي على غياب - أو غيبوبة - الرأي العام العربي هو ذلك الفارق الهائل بين المعلومات المثيرة التي نشرت في العالم بعد إعلان وفاة الملك «الحسن» - مركزة على علاقاته مع إسرائيل وبالذات جهاز الموساد - وبين العناوين المؤثرة التي ظهرت عن جنازته وسالت دموعاً ساخنة على صحف العالم العربي، وموجات اذاعاته، وشاشات تلفزيوناته وفضائياته) (٨٣١).

أما دول الخليج فقد تعهدت كل من الكويت والسعودية بتمويل الحرب. وخصصتا للعراق - بعد أن طالت الحرب - عوائد نفط (المنطقة المحايدة) الواقعة بينهما والتي كان البلدان (السعودية والكويت) قد تقاسماها مناصفة وأبقيا نفطها شراكة بينهما. والذي كانت عوائده اليومية بأسعار النفط لسنة ١٩٨٢ تتراوح بين ٦ أو ٧ مليون دولار. وقد حدث خلاف فيما بعد بين الكويت والعراق حول إذا ما كانت هذه العوائد ديناً على العراق أو هبة له.

وقدم البلدان للعراق مساعدات غذائية وعينية هائلة، كما دفعا فواتير كبيرة لصفقات أسلحة كثيرة كانت تجد طريقها إلى العراق عبر الكويت أو السعودية. وليقارن المرء المساعدات السعودية للحرب مع إيران، وما قدمته أيضاً من مساعدات للجهاد في

٨٣٠- المرجع السابق. ص٣٣٣.

٨٣١- المرجع السابق. ص٣٩١.

أفغانستان والتي بلغت ٢٢ مليار دولار خلال عشر سنوات. وليس بعيداً عن هذا المعنى أيضا، قيمة تحويلات العمالة الأجنبية في السعودية والتي تبلغ ٢٥ مليار دولار سنوياً، تذهب أغلبها إلى دول أجنبية وتحديداً آسيوية. لنقارن كل هذا مع ما قدمته السعودية للصراع مع العدو الصهيوني. فعندما طلبت مصر عام ١٩٦٩ من الملك فيصل – والذي سماه ياسر عرفات بشهيد القدس – مبلغ عشرين مليون جنيه إسترليني – وكانت في حاجة ماسة له – لشراء نوع خاص من قوارب العبور، (وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع طلبها من الملك «فيصل» اعتذر مبرراً اعتذاره بسببين أولهما أن المملكة تواجه أزمة سيولة مالية) (٨٣٢).

وقد أعفت السعودية عام ١٩٨٩ وبعد انتهاء الحرب – في خطوة ذكية وعاقلة – العراق من مديونيته لها. أما الكويت فقد حاولت مقايضة ديونها على العراق والبالغة ١٦ مليار دولار بتخطيط الحدود. الأمر الذي اعتبره العراق غدراً به ونكراناً لما قدمه من دماء غزيرة في حرب خططت لها معه دول الخليج والتي عليها أن تشاركه تحمل خسائر هذه الحرب، التي طالت أكثر بكثير مما كان مخططاً لها. خاصة أن هذه الدول كانت الأقرب لخط النار لو أن النتائج كانت مختلفة. وتفادياً لضغوط العراق، وربما كان ذلك بمشورة من خارج المنطقة، وفي خطوة بدت متغطرسة وغبية، قامت الكويت ببيع ديونها على العراق إلى شركة أميركية، وهو ما أسس لحرب قادمة، دفع فيها كل من العراق والكويت والمنطقة أضعافاً مضاعفة لقيمة الدين المذكور. وهو موضوع فصل قادم من هذا الكتاب.

وأكمل من داخل العراق، حماس رجلين من أهم أهل الحكم، مهمة (برجينسكي) و(الملك حسين) و(الحسن الثاني) و(السادات) و(شيوخ الخليج) لإشعال الحرب العراقية – الإيرانية. وقد ظهر فيما بعد أن أحدهما، وهو فاضل براك مدير الأمن العام، كان يعمل لصالح الموساد الإسرائيلي، وسنعود لقصته لاحقاً. أما المتحمس الآخر برزان

٨٣٢- المرجع السابق. ص١٧٨.

التكريتي فقد كتب يشجع أخيه على الحرب قائلاً: (بناء على المعلومات المتوفرة لنا، والتي تم تدقيقها في أكثر من مناسبة، فإن أي توتر سياسي أو عسكري مع إيران، سيضع تحت تصرفنا ملايين الرفاق من أبناء عربستان، الذين سيرفعون السلاح إلى جانبنا بكل صدق)[٨٣٣]. وقد حدث العكس تماماً في ميدان القتال. وانتقم النظام بقسوة وبعدم شعور بالمسؤولية من العربستانيين. ونهبت المدن العربستانية التي دخلها الجيش وخاصة مدينة المحمرة، حتى لم يجد أهلها بعد عودتهم إليها شيئاً. حتى الأبواب والشبابيك كانت قد نهبت. وانقلب النظام على الشباب العربستانيين الذين التحقوا به قبل الحرب، فأعدم بعضهم عام ١٩٨٢ وسجن آخرين مما أدى إلى هرب الكثيرين منهم، وعلى رأسهم كل من فاخر الزركاني نائب رئيس الجبهة العربية لتحرير الأحواز التي شكلها النظام، وعامر العسكر (أبو حكيم) أبرز وجوهها الاجتماعية، والذي كان يعمل ضابطاً في الجيش الكويتي قبل مجيئه إلى العراق.

٨٣٣- صحيفة القبس الكويتية. العدد (٩٤٣٩) في ١٩٩٩/٩/٢٨. نقلاً عن طالب الحسن. المرجع السابق. ص٨٥.

٢- الطاحونة:
قادسية صدام

(إن بعض الانتصارات
أشد عاراً من الهزائم)
لينين

في وقت كان فيه الرئيس الأميركي كارتر ومساعدوه، ورئيس وزراء العدو بيغن ووزراؤه، عاجزون لا يعرفون ماذا يصنعون في وجهها، كان صدام حسين وحده مستعداً - بسبب لا مبالاته بالدماء وعدم تفكيره بالنتائج - أن يشن الحرب على الثورة الإيرانية. والذي لا أدري كيف كان يفكر وهو يقوم (بإخبار مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي بأنه يفكر في نهاية سريعة منتصرة للحرب)[٨٣٤].

المثير للحيرة، ان صدام، وبعد أسبوع من وقف الحرب العراقية -الإيرانية في آب ١٩٨٨، وبالرغم من دروس ومآسي ثمان سنوات من الحرب، أطلق عملية حمقاء سماها بالراصد كان يمكن أن تفجر الموقف ثانية مع إيران، إذ قامت منظمة مجاهدي خلق الإيرانية المعارضة (باندفاع عميق وسريع من منفذ خانقين نحو مدينة طهران الإيرانية للاستيلاء على الحكم بإسناد محدود من القوات المسلحة العراقية)[٨٣٥]. وبعد ساعات

٨٣٤- جرهارد كونسلمان. المرجع السابق. ص٢١٦.
٨٣٥- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص١١٨.

من بدء العملية طوقت قوات الحرس الثوري المهاجمين وأبادت أغلبهم. ومجدداً وبعد أشهر من ذلك حرك العراق يوم وفاة الإمام الخميني قواته على الحدود. إن هاتين الحادثتين تفسران جزئياً استمرار الحرب لثمان سنوات والذي كان بلا شك خطأ استراتيجياً فادحاً وقاتلاً.

وقفزاً على تسلسل الاحداث فان سؤالاً يطرح نفسه: (إذا كان صدام قد أعطى إيران الدرس الأول بعدم الوثوق به وباتفاقاته.. أليس من السذاجة والغباء أن يقرر تهريب أحدث الطائرات المقاتلة إليها؟) [٨٣٦] بعد غزوه الكويت، كما يقول مدير استخباراته.

وقد تصور صدام وهو يقدم خدماته للغرب، وأيضا وهو يتلقى رد إسرائيل بالإيجاب على تبليغ الأردن لها بأن العراق سيرسل طائراته إلى الأردن، لحمايتها من الغارات الإيرانية التي بدأت بكثافة فجر اليوم التالي لبدء الحرب، بان إسرائيل لن تهاجم المفاعل النووي العراقي، رغم سيل المعلومات المتواترة عن تدريبات إسرائيلية مكثفة لضربه، والتي قتل خلالها ابن رئيس الأركان الإسرائيلي آنذاك رافائيل إتيان. وهكذا أزاح حائط الدفاع الجوي عن العراق كله باتجاه الشرق أي باتجاه إيران. فجاءت الطائرات الإسرائيلية وبكل سهولة فضربت المفاعل - ظهيرة السابع من حزيران ١٩٨١ - وعادت عبر الأردن. وكان تصور العراق أنه هجوم إيراني، حتى أعلنت إسرائيل عن العملية بنفسها.

ان إسرائيل هي المستفيد الأول من هذه الحرب التي كانت (لتحويل المجهود العربي والاهتمام من الصراع العربي - الإسرائيلي إلى صراع آخر يتم فيه ضرب القوة الإيرانية بالقوة العراقية) [٨٣٧]. كما ان الحرب أعطت للصهيونية حججاً تدعم ادعاءها بأن هذا

٨٣٦- المرجع السابق. ص١٢٤.

٨٣٧- المرجع السابق. ص٣٦٤.

الشرق يعج بالصراعات القومية والدينية والمذهبية والسياسية، وأن الصراع العربي - الصهيوني واحد من هذه الصراعات وليس الصراع الأساسي أو الوحيد، وبالتالي فإن إسرائيل ليست هي المشكلة.

أما الحديث الساذج بأن العراق خرج من الحرب بأكبر قوات مسلحة في المنطقة، أو بثالث أو رابع أو خامس جيش في العالم، وبتصنيع عسكري متقدم.. الخ. فإن حرب الكويت وسنوات الحصار قد عرت هذه المبالغات. بل وفيما يتعلق بالصناعات المدنية (ظهر أن صناعتنا حتى من علب الكبريت، لا تكفي لسد خمس الحاجة المحلية)[٨٣٨] وسأعود لمناقشة هذا الأمر في فصل قادم.

لقد جرت الحرب العراقية - الإيرانية بأساليب الحرب العالمية الثانية، بل وأحياناً بأساليب الحرب العالمية الأولى، فلم يخرج العراق من الحرب بخبرات متطورة تؤهله للصراع مع جيش حديث كجيش العدو. يقول اللواء وفيق السامرائي مدير الاستخبارات العسكرية: (ونظراً للحصار العسكري وامتناع الغرب وغالبية دول الشرق عن بيع إيران ما تحتاجه من معدات القتال، ولتدهور وضع الجيش النظامي من جراء التصفيات الواسعة التي أعقبت سقوط الشاه، جرى التعويل على القوات غير النظامية المؤلفة من الحرس الثوري وقوات البسيج (التعبئة) واللجان الثورية التي أبلت بلاء كبيراً طيلة الحرب باستخدام الأسلحة الفردية.. أما استخدامهم للقوات المدرعة والآلية فكان متخلفاً إلى حد كبير، ونتج هذا عن مجموعة من العوامل من بينها قدم الدبابات وعدم صيانتها.. أما قواتنا فقد اعتمدت على قدرة نارية هائلة وتعويض مستمر وفوري عن معدات القتال التي تدمرت خلال المعارك. بيد أن المشكلة الكبرى نجمت عن اللجوء إلى جعل الدبابة مدفعاً في النهار وعبئاً على وحدات المشاة ليلاً.. ولم تستثمر القوة النارية وقدرة الحركة

٨٣٨- المرجع السابق. ص٢٠٠.

بصورة صحيحة حتى نيسان (أبريل) ١٩٨٨، كما لم تجر عمليات مشتركة بين القوات المدرعة وطيران الجيش)[٨٣٩].

وعن القوات الجوية يقول السامرائي: (أما على المستوى التدريبي فلم تكن الحرب الجوية مع إيران ذات قيمة أساسية لأن إمكاناتها الجوية محدودة، وكانت الكفاءة القتالية الليلية في مهاجمة الأهداف الأرضية من قبل طيارينا متدنية أو معدومة)[٨٤٠].

وقد شكلت الحكومة الأميركية دائرة في وزارة الخارجية برئاسة السفير ريتشارد فيربانكس للحيلولة دون وصول السلاح للثورة الإيرانية. فيما افتتحت وكالة المخابرات الأميركية مكتباً لها في بغداد. يقول وفيق السامرائي: (لا أعتقد أنهم خدموا دولة بالمعلومات كما خدمونا وحتى بالمقارنة مع ما قدموه لإسرائيل)[٨٤١]. حيث (وقفت المخابرات المركزية الأميركية في الخط المتقدم اعتباراً من آخر مايس ١٩٨٢ إذ تلقينا منها معلومات مستحصلة من الوسائل الفنية والبشرية. واطلعت على صور ملتقطة بالأقمار الصناعية لأهداف سوقية أو تعبوية إيرانية، ولوصف دقتها فإن من السهولة مشاهدة الجنود الذين يتدربون في معسكرات التدريب الإيرانية ونميز من أخطأ المسير بين أفراد حظيرته ونشاهد تخالف اليدين والرجلين. وعندما نتابع معامل الأسمنت نعرف عدد الأكياس المحملة في إحدى مراحل التحميل لسيارة حمل متوقفة لهذا الغرض)[٨٤٢].

(ووصل الأمر في المساعدات الخارجية للعراق بأن جاء مبعوث من الحكومة الفرنسية إبان حكم الرئيس فاليري جيسكار ديستان وقابل وزير الدفاع عدنان خير الله مخبراً إياه

٨٣٩- المرجع السابق. ص١٥٤.

٨٤٠- المرجع السابق. ص٣٠٤.

٨٤١- المرجع السابق. ص١٢٩.

٨٤٢- المرجع السابق. ص١٢٧-١٢٨.

أن فرنسا تدرس بصورة جدية إمكانية تزويد العراق بقنبلة ذرية تعبوية، يمكن إلقاؤها على هدف محدد لإرغام إيران على وقف الحرب)[٨٤٣].

وإذ (واشنطن أبلغت العراق اعتذاراً رسمياً مع إعلامه بفصل الموظف المتسبب في إذاعة تعليق انتقد العراق بشدة حول حقوق الإنسان والحريات)[٨٤٤]، شن الغرب وحلفاؤه حملة منظمة لتشويه الثورة الإسلامية وتخريب علاقاتها الخارجية والاستفادة من الأخطاء والفوضى التي رافقت سنواتها الأولى.

والغريب أن موضوعاً أساسياً كان في هذه الحملة، هو تسريب معلومات باستمرار عن علاقة تسليحية بين إيران وإسرائيل. وعندما بدأت إيران بضرب ناقلات النفط الكويتية والسعودية بعد ١٣ مايس (مايو) ١٩٨٤، وكمثال على هذه الحملة صرح رجل أميركا في النفط العربي، وصديق إسرائيل أحمد زكي يماني قائلاً: (نحن لا نطلب أن تتدخل أميركا في الحرب العراقية - الإيرانية.. بل نريد من أميركا أن تحث حلفاءها كإسرائيل وتايوان على وقف تصدير السلاح إلى إيران).

وقطعت الإذاعة البريطانية باللغة العربية نشرتها الإخبارية ذات مرة، لتذيع نبأ جاءها للتو، وكأن انقلاباً عسكرياً في أحد بلدان العالم الثالث قد وقع أو حرباً قد اندلعت أو زعيماً بارزاً قد مات. وإذا بالخبر يقول: (إن القائم بالأعمال الإيراني في لندن رجائي خراساني، قبض عليه متلبساً بسرقة معطف في إحدى محلات لندن الكبرى!).

وعندما كان السيد علي خامنئي - وكان وقتها رئيساً للجمهورية - يلقي خطابه في مؤتمر عدم الانحياز في زيمبابوي سنة ١٩٨٥،قطعت الكهرباء فانقطع الصوت. وفي الأمم المتحدة، ورغم إجراءات الحراسة المشددة، دخل أحد رجال مجاهدي خلق

٨٤٣- المرجع السابق. ص١٣٠-١٣١.

٨٤٤- سعد البزاز. حرب تلد أخرى. عمان ١٩٩٢. ص١٥٩.

الإيرانية المعارضة، ومزق الأوراق التي كان يلقي منها وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي خطابه أمام الهيئة العامة للأمم المتحدة. وقد جرى ذلك أمام عدسات التلفزيون التي كانت تبث جلسة الهيئة العامة مباشرة.

حتى الشيخ الجليل حاكم الشارقة الدكتور سلطان القاسمي والذي كان الوحيد بين أمراء الخليج المتعاطف مع الثورة الإسلامية، وجد حراسه عام ١٩٨٦ قنبلة في قصره قد أعدت لاغتياله. وفي التحقيق اعترف شاب سوداني يعمل في القصر بأن المخابرات الإيرانية قد كلفته بوضعها. وبدا الأمر غريباً وعجيباً، ولكن يبدو أنه قد رُتب من طرف ثالث للوقيعة بين الثورة والرجل، أو للتخلص من هذا الأمير الوطني المثقف. وقد فهم الرجل الرسالة جيداً ونأى بنفسه بعيداً، وعندما دعته السعودية لأداء فريضة الحج، وجدها - وهو العاقل المجرب وقد طال الجفاء مع السعودية - مناسبة ليجنب إمارته الصغيرة هزات هي في غنى عنها فأجاب الدعوة شاكراً.

وطبعت في السعودية والعراق والأردن العشرات والعشرات من كتب ومقالات - قديمة وحديثة - تتناول عقائد الشيعة وتشكك في إيمان الفرس، وتحدث بعضها بأن الخميني يشكك في القرآن أو الرسول أو ينسب لآل البيت ما ينسبه الغلاة لهم عادة. بل ووصل الأمر أن بعض هذه الكتب والمقالات حملت على أهل البيت أنفسهم وشككت في مناقبهم.

والمضحك أن إذاعة بغداد - وفي سنة ١٩٨٧- أخذت تذيع بيانات صادرة عن شخصيات وهيئات دينية مزعومة تهاجم المهدي المنتظر. وكأن المهدي عضواً في مجلس قيادة الثورة قد انشق أو ضابطاً قد تآمر.

وكما قام غوبلز وزير دعاية هتلر بإنتاج فيلم - في بداية ١٩٤٥- عن انتصار بروسيا على نابليون كلف ٩٠ مليون مارك والكثير من الجهود، أنتج صدام فيلماً عن القادسية، كان رديئاً من الناحية الفنية، ويضج بالشوفينية والعنصرية، فكان بعيداً تماماً عن روح القادسية وقيمها.

لقد نفذوا جيداً مخطط مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي برجينسكي للعمل

السري ضد الثورة الإسلامية وتأثيراتها في محيطها (والذي بدأ يتفاعل مع نداءاتها[٨٤٥]. وهكذا أعيدت الحياة لفتاوى قديمة وصدرت فتاوى جديدة تكفر الشيعة وتبيح دماءهم. وانطلقت خطب الجمعة - حيث الخطباء موظفون في الدولة ويأتمرون بأمرها - تردد ما يردده الحكام. وبالإضافة إلى المذبحة الكبرى في العراق والتي سنتحدث عنها في الفصل القادم، تصاعد الاضطهاد ضد شيعة الخليج، والذين ولإرهابهم نزعت جنسيات أفراد منهم في الكويت، كما أعدم آخرون في السعودية، وتصاعدت الحملة ضدهم في البحرين. وانفجرت أيضا حملة من الاغتيالات والتفجيرات ضد شيعة باكستان. وكانت قمة المأساة، المجزرة البشعة في الحج عام ١٩٨٧ والتي شارك فيها رجال أمن عراقيون وأردنيون وسعوديون، إذ حاصروا الحجاج الإيرانيين وحجاج شيعة آخرين من العراق ولبنان والخليج، وذبحوا المئات منهم من الرجال والنساء والأطفال، بينما اختفت آثار آخرين منهم نهائياً. وتزامن ذلك مع تصاعد التدخل الأميركي في الحرب العراقية - الإيرانية ومع إسقاط القوات الأميركية لطائرة مدنية إيرانية في الخليج راح ضحيتها ٢٧٠ شخصاً.

كان العزاء يأتي من مكان آخر، حيث استطاعت الثورة الإسلامية أن ترد الصاع صاعين، وأن تطيح برؤوس المئات من الجنود الأميركيين والفرنسيين والإسرائيليين وأن تهزمهم جميعاً. فرغم الحرب العراقية الإيرانية، كان أبناء لبنان من طلبة العلوم الإسلامية في قم، والذين تشبعوا بثقافتها الاستشهادية، يعودون إلى بلادهم لبنان، ويتجهون الى سوح القتال مباشرة ليقاتلوا إسرائيل، ولتبدأ انطلاقة (حزب الله) الذي أنزل أول هزيمة بالعدو في التاريخ. ففي ١٩٨٢/١١/١١ والذي أصبحت ذكراه يوماً للشهيد قام (أحمد قصير) بتفجير مقر الحاكم العسكري الصهيوني في صور وقتل ٧٥ جندياً إسرائيلياً. وقد علق على ذلك الجنرال أمنون شاحاك رئيس مخابرات العدو

٨٤٥- هيكل. المفاوضات السرية (مرجع سابق) الكتاب الثاني. ص٤٤٠.

العسكرية آنذاك قائلاً: (أصبح الجنود الإسرائيليون في لبنان أكياس ملاكمة بين يدي حزب الله).

إن قم والتي سمتها حماقات صدام التي لا تعرف حدوداً ولا تميز لوناً بوكر الأفاعي، كانت شوكة في عين النفوذ الصهيوني في إيران الشاه يوم كان نمرودي مسؤول الموساد في إيران (يشبه في تأثيره تأثير نائب الشاه)[٨٤٦]، وقد قيل عنه (ولا شك أنه كان جهاز موساد كاملاً. وكانت معرفته بخفايا الحكومة الإيرانية والجيش الإيراني مذهلة)[٨٤٧]. فاستطاعت قم أن تخرج إيران من ذلك النفوذ بل وتضعها في مواجهته.

وكانت قم أيضا قلعة اللغة العربية وحارسة أبجديتها في إيران. فقد (عمل «رضا خان» على إعادة كتابة التاريخ الإيراني للتقليل من أهمية الفترة الإسلامية.. وبدلاً من ذلك عمد إلى تفخيم الماضي ما قبل الإسلامي.. وهناك تشويه آخر قام به النظام بدأه رضا خان عام ١٩٣٦، ذلك هو محاولة تطهير اللغة الفارسية من الكلمات الأجنبية - وخاصة اللغة العربية والتركية -.. ولكن الفشل كان نصيب هذه السياسة بشكل عام)[٨٤٨].

وفي دمشق وعندما كان علي أكبر محتشمي سفيراً لإيران، والذي كان يردد (لقد نذرت نفسي ومالي وأهلي من أجل الشعب الفلسطيني.. نحن نحيا بعشق الشعب الفلسطيني)، انفجر عليه طرد ملغوم فقطع يده اليمنى وجزءاً من يده اليسرى. وقد ظهر أن الموساد هي التي كانت وراء العملية بسبب دوره العظيم في دعم المقاومة في لبنان وفلسطين.

٨٤٦- نكديمون. المرجع السابق. ص٢١٢.

٨٤٧- المرجع السابق. ص١٣٣.

٨٤٨- فريد هوليداي. مقدمات الثورة في إيران (مرجع سابق) ص٨٤-٨٥ (بتصرف).

بالعودة إلى الحرب العراقية - الإيرانية، فقد تحول الجيش العراقي الذي كان أملاً ووعداً إلى أقذر مهمة في تاريخه، وصارت وطنية ضباطه تقاس بمدى وحشيتهم ولا أخلاقيتهم، ليس مع العدو «المزعوم» فحسب بل مع رفاق السلاح من (الضباط) و(الجنود) المساكين. ويجب أن نتحدث عن هذا الموضوع بكل صراحة حتى لا نفخر نحن العراقيين - بعد الآن - بالقتلة ولا نسكت عن جرائم القتل.

فما أنْ تشتد المعارك مع إيران، حتى تنتشر فرق الإعدام خلف الجبهة لتأكل الجنود المساكين المتراجعين - عندما تحل الهزيمة - من خط النار. وقد اشتهر بعض القادة بأنهم فاقوا الآخرين في عدد ضحاياهم من الجنود. ومن هؤلاء هشام صباح الفخري، وعبد الواحد شنان آل رباط، وماهر عبد الرشيد التكريتي، وصابر الدوري وغيرهم فقائمة الجلادين طويلة جداً وفيها تفاصيل بشعة ومؤلمة.

وعن تلك الاعدامات البشعة يروي اللواء وفيق السامرائي قائلاً: (وعلى مقربة من الحافة الأمامية شمال الفاو صادفنا العشرات من الجنود في المنطقة متراجعين بصورة غير منتظمة إلى الخلف فوقع بين أفراد الحماية خمسة منهم. وبعد أسئلة سريعة طلب الفريق هشام (صباح الفخري) من أفراد الحماية إعدامهم.. فتأخرت عنه وقلت لأفراد الحماية: (لا تعدموهم)! قالوا: (سيدي الفريق يعدمنا) قلت: (لا، أنا مسؤول عن النتائج).. ولما شاهد الفريق الجنود الخمسة واقفين سأل الحماية: (لماذا لم تعدموهم حتى الآن؟) فأجبت عنهم: (إن هؤلاء أبرياء وليسوا وحدهم الذين هربوا وإن إعدامهم لا يغير من الموقف بشيء..)[٨٤٩].

وعندما تتراجع أية وحدة عسكرية حتى لضرورات المعركة، أو عندما لا تصل إلى الهدف المرسوم لها، كان يجري إعدام قادتها بأمر مباشر من صدام. فمثلاً عندما

٨٤٩- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص٩١-٩٢.

قامت إيران (بعمليات بيت المقدس) واستعادت المحمرة عام ١٩٨٢ (واضطر المئات من الجنود والضباط إلى إلقاء أنفسهم في شط العرب.. فغرق وقتل العديد منهم وسط النهر.. عجل بإعدام قائد الفيلق اللواء الركن صلاح القاضي وقائد الفرقة المدرعة الثالثة العميد الركن جواد أسعد اشتيتة والعميد نزار النقشبندي والعقيد عبد الهادي من لواء المشاه ٤١٢)[٨٥٠].

ويروي وفيق السامرائي أيضا قائلاً: (وفي يوليو / تموز ١٩٨٣ قامت القوات الإيرانية بهجوم في قاطع زرباطية.. ووصل صدام إلى قاطع زرباطية سائلا عن أسباب عدم فتح الحصار عن الفوج، فأجابه قائد الفيلق: (لقد دفعنا بفوجين من لواء المشاة ٤٨ ولم يتمكنا من فك الطوق) فأمر على الفور ودون تدقيق أو تحقيق بإعدام آمري الفوجين وهما برتبة مقدم ركن واعتبارهما جبناء (ثم اعتبرا بعد أربعة أشهر من الشهداء).. وطلب صدام دفع لواء المشاة ٣٨ بقيادة العميد الركن برهان خليل.. وفشل اللواء في تحقيق المهمة.. وجلب العميد الركن برهان خليل للتحقيق من قبل اللواء الركن حسين رشيد التكريتي.. واللواء الركن ماهر عبد الرشيد.. والد زوجة قصي ابن صدام. وقد شاهدته يبكي ويمسح دموعه ويقول: (قبل سنتين أعطيتموني رتبتين لشجاعتي والآن تحققون معي بتهمة التخاذل والجبن) وعلى أية حال، فلم يكن برهان أحسن حظاً من سابقيه فقد نفذ فيه حكم الإعدام)[٨٥١].

بهذه الوسائل وأمثالها، والتي لم يظهر من تفاصيلها الا القليل جداً، أدار صدام قادسيته وحمى كرسيه. ولا أستطيع أن أقول أنه انتصر، لأن كل ما تحقق هو أبعد ما يكون عن أي نصر، فبعد حرب طاحنة لمدة ثمان سنوات أعلن صدام عام ١٩٩٠ الإقرار باتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥- والتي سبق أن مزقها - قائلاً في رسالة شهيرة للرئيس

٨٥٠- المرجع السابق. ص٨١.

٨٥١- المرجع السابق. ص٨٦.

رفسنجاني: (وهذا كل ما أردتموه يا سيادة الأخ الرئيس)[٨٥٢]. وهكذا انتهت الحرب كما تمناها كيسنجر حين قال: (انها أول حرب في التاريخ.. نتمنى أن يخرج الطرفان كلاهما مهزوم)[٨٥٣].

وقد أعدم عشرات الآلاف من الهاربين والمتخلفين من الخدمة العسكرية ونكل بعوائلهم. وفي عام ١٩٨٥ زار صدام سجناً للهاربين من الخدمة العسكرية، يضم أكثر من ثلاثة آلاف شخص، فأبلغهم بالعفو عنهم في خطاب بثه التلفزيون. ولكن وزير الدفاع عدنان خير الله نبهه بعيد ذلك إلى أن هذا العفو سيشجع الآخرين على الهروب من الجيش، فأصدر أوامره على الفور بإعدامهم جميعاً. وحينما كان أهلهم - بعدما شاهدوه بالتلفزيون - في انتظار مجيئهم، جاءتهم جثثهم بعد يومين من ذلك.

وقد أعدم صدام الكثيرين من الضباط والجنود بقسوة - في سني الحرب الأولى - من الذين رفضوا الحرب أو أبدوا تململاً منها أو الذين وشوا بهم رفاقهم. ويجب التوضيح أن الذين رفضوا الحرب وكذلك الذين تحمسوا لها كانوا من الشيعة والسنة معاً. وقد تراجع الرفض بين الضباط السنة مع استمرار الحرب وتكثف الصورة الطائفية لجانبيها.

ومع تصاعد الحرب انتشرت وبسرية شديدة الرشى في الجيش. وكان الأغنياء من الجنود يدفعون للضباط، وبصورة أقل لضباط الصف، رواتب شهرية عالية أو يهدونهم سيارات أو بيوتاً أو حلياً ذهبية أو أشياء قيمة اخرى، لقاء منحهم إجازات قبل اشتداد المعارك أو إبقائهم في المؤخرة. وعندما انتهت الحرب كان هناك الآلاف من الضباط الذين أثروا منها. وكان القادة قد أصبحوا أثرياء جداً. وربما شعر بعضهم بالغضب

٨٥٢- المرجع السابق. ص٢٦٦.

٨٥٣- المرجع السابق. ص١٦٨.

عندما سمعوا بوقف إطلاق النار.

وقد أغدق صدام الهدايا والمنح والأموال على الضباط والقادة من سيارات وبيوت ومزارع وساعات ثمينة.. وغيرها. وحتى ضباط الصف منحوا سيارات وبيوتاً وأموالاً. أما ضحايا الحرب من القتلى، فقد منح لكل عائلة من عوائلهم بيت وسيارة وهدية مالية كبيرة وراتب يتصاعد بمرور السنين وامتيازات أخرى. وبالنسبة للنفوس الوضيعة - وهي قليلة في هذا الشأن بالضرورة - كانت هذه الهدايا كافية لتمسح جراحها. وقد شاعت قصص صحيحة وغير صحيحة عن فرحة أناس كهؤلاء بمثل هذه الهدايا.

وأعرف شخصاً حاول أحدهم استفزاز وضاعته، فقال له: إنه سمع صوت ابنه أسيراً من إذاعة إيران. فرد عليه بحزم وكأنه خاف أن تؤخذ منه الهدايا بأنه رأى جثة ابنه وهو متأكد من وفاته. باختصار شديد كانت الناس تتهامس بأن صدام كان يشتري أرواح أبنائهم بهذه الهدايا.

وبحثاً عن المغانم، وبسبب روح الكراهية التي أشاعها صدام داخل الجيش، وبحكم التنافس بين أبناء المهنة الواحدة، انتشرت الوشايات داخل الجيش خاصة بين الضباط والقادة. وبينما كان أبناء العشيرة الحاكمة يقضون لياليهم في أحضان أجمل البغايا المحلية والمستوردة، كان الضباط والقادة يطحنون بعضهم بعضاً في وشايات ومزايدات ومنافسات حامية راح ضحيتها كثيرون[٨٥٤].

ان أفضل تصوير لما جرى في الحرب العراقية - الإيرانية ما كتبه اللواء وفيق السامرائي نصاً: (أما في نظام كنظام صدام حسين فلا يستطيع القادة العسكريون إعطاء آراء مخالفة له، لأن ذلك يعني موتاً محققاً قريباً بحبّة سم أو بقدح ليمون أو شاي يدس السم فيه، أو اغتيال علني أو اعتقال بتهمة التآمر والتجسس، أو توجه إليه تهمة

٨٥٤- راجع مثلاً. وفيق السامرائي. ص٨٦، ٨٠-٩٣، ٩٠، ٨٨-١٠٣، ٩٧، ٩٤-١٠٤، ٢٥٩، ٢٢٩.

الخيانة العظمى لينفذ فيه حكم الإعدام ويطلب من ذويه ثمن الطلقات التي أعدم بها، وأجور حفر القبر الذي دفن فيه، ولا يعرف مكانه) (٨٥٥).

❖ ❖ ❖

كانت الحرب بالنسبة للمثقفين محنة ما بعدها من محنة، فأية محنة عندما تنشرخ روح الإنسان بين الثورة الأمل وبين الوطن الذي زج به الطاغية في الحرب ليعود بعد ثمان سنوات من الدم والدمار وليشير (إلى احتمال سعي القوى التي كانت لها يد في الحرب التي وقعت بين البلدين إلى إعادة تجديدها) (٨٥٦). ويعلق على طريقة تفكير صدام مدير استخباراته قائلا: (ولو كان قائداً آخر بدلاً من صدام.. لما انطلت عليه أوهام أو سذاجة أو ألاعيب الآخرين) (٨٥٧).

كان قلب المرء مرة يحتضن الوطن الذي جرته الحماقة والجنون إلى الهاوية. والى خدمة (المشروع الأميركي - الصهيوني) في المنطقة، وقد قال صدام للسفيرة الأميركية كلاسبي - في لقائه بها في ١٩٩٠/٧/٢٥ - مذكراً بخدماته لهم: (أنا أجزم لو أن الإيرانيين اندفعوا في المنطقة، لما استطاعت الجيوش الأميركية أن تصدوهم وأن توقفهم الا باستخدام القنابل النووية) (٨٥٨).

ومرة يحتضن الثورة المعتدى عليها، والتي كانت تجسد الحلم والأمل في مواجهة (المشروع الصهيوني) بعد أن فتحت زيارة السادات للقدس أبواب المنطقة أمامه.

٨٥٥- المرجع السابق. ص٧٧.

٨٥٦- المرجع السابق. ص١٦٧.

٨٥٧- المرجع السابق. ص٢٥٩.

٨٥٨- سعد البزاز. المرجع السابق. ص١٦٩.

كان هناك من حسم أمره مع الثورة دون أن يبالي بشيء آخر، وكان هناك الذين حسموا أمرهم مع الطاغية دون أن يلتفتوا إلى شيء. وظل الذين يفكرون قبل أن يقرروا، وكان القرار في كل الأحوال مراً وصعباً بل ومستحيلاً. دون أن يعني هذا - للحظة - المساواة بين من حملوا دماءهم على أكفهم وهم يقفون مع الثورة، وهم بالضرورة أصحاب عقيدة وقضية، وبين من اختاروا الوقوف مع المغامرة والقتل والتعذيب والنهب واللاعقلانية.

أما من يحاول تغطية انتهازيته أو جرائمه أو طائفيته بشعارات وطنية أو قومية فإن محاولته بائسة، لأن المعركة لم تكن يوماً معركة وطن أو أمة. والذين أشعلوا الحرب هم الذين خانوا الوطن والأمة باختلاقهم عدواً مزعوماً وبتحالفهم مع أعداء الأمة، وبنقلهم الصراع مع العدو الصهيوني إلى حرب على الجمهورية الإسلامية الوليدة، وباستباحتهم دماء شعبهم، ثم من هم رموز الوطن؟ هل هم صدام وبرزان وعلي مجيد وحسين كامل وعبد حمود وفاضل براك؟

لقد حقق (نادي المتآمرين) أقصى ما يريده من الحرب العراقية -الإيرانية. فقد دمرت الحرب البلدين اللذين خرجا من الحرب مثقلين بالديون، وباقتصاديات متعثرة، وبمشاكل اقتصادية واجتماعية وسكانية متزايدة. كما خسر البلدان فرصة ارتفاع أسعار النفط التي جاءت بموارد مالية هائلة.

وكان من الممكن للثورة الإسلامية أن تجترح المعجزات وان تحقق إنجازات اقتصادية كبرى وقفزات هائلة، فقد كانت هناك صور مدهشة عن الطاعة الدينية الحماسية للعلماء في وسط الجماهير، كما بدا ذلك واضحاً في ساحات المعارك. ولكن الحرب اخرت التنمية في إيران، ووضعت العراقيل في طريقها، وهذا ما تريده المؤامرة - مؤامرة الحرب - بالضبط.

وكانت خسائر البلدين البشرية في أطول حرب في القرن العشرين كبيرة جداً.. جداً،

إذ كانت خسائر العراق (حوالي المليون شخص بين قتيل وجريح، نسبة عالية منهم من المعوقين وتجاوزت نسبة القتلى الثلث)[٨٥٩]. وليس بين الضحايا إصبع لصدام أو لآل صدام أو لمنطقة صدام رغم أنها (قادسية صدام).

أما خسائر إيران وحسب الرئيس رفسنجاني فهي (٤٢٠) ألف قتيل، وهناك أضعاف هذا العدد من الجرحى والمعوقين. ومن بين كل آثار الحرب تبدو محنة المعوقين وهم كثر هي الأكثر مأساوية.

وهناك مأساة الأسرى الذين عانوا من طول المدة والاضطهاد والتنكيل، فعند وقف إطلاق النار في ١٩٨٨/٨/٨ كان عدد الأسرى الإيرانيين ومعظمهم تم أسره في السنوات الأخيرة من الحرب حوالي ٤٠ ألف أسير. أما عدد الأسرى العراقيين فحوالي ٧٠ ألف أسير معظمهم تم أسره في السنوات الأولى وتحديداً عام ١٩٨٢. وبالنسبة للطرفين كانت معاناة الأسرى تأتي في الغالب من بعض زملائهم الذين بدلوا ولاءاتهم في الأسر، أي الناس الموالين لهذا النظام أو ذاك وادعوا هناك في الأسر أنهم من المعارضين.

لقد انضم حوالي عشرين ألفاً من الأسرى العراقيين إلى صفوف المعارضة الإسلامية. وكان قسم كبير منهم يعبر بذلك عن ولائه الحقيقي، وقد قاتل بعضهم ضد النظام العراقي، فمنهم من قتل أو جرح أو أسر. وأطلقت عليهم تسمية (التوابين) تيمناً بأولئك الذين ندموا - كما ذكرنا سابقاً - على مشاركتهم في قتال الإمام الحسين وثاروا للأخذ بثأره سنة ٦٤هـ.

ان الذين اندسوا مع التوابين - وقد أشرنا بأنهم نقلوا البندقية من كتف إلى آخر - كانوا - بحكم استعدادهم النفسي لأية مهمة دنيئة - هم الذين يديرون معسكرات الأسرى، وارتكب بعضهم أعمال تعذيب وتنكيل بالأسرى. وكان الذين ظلوا في الأسر

٨٥٩- وفيق السامرائي. المرجع السابق. ص١١٥.

على ولائهم لنظام صدام كثراً، وكانوا يحاولون تخويف الأسرى الآخرين بالانتقام من عوائلهم عند العودة، حيث شكل بعضهم تنظيماً حزبياً في الأسر، فتم عزلهم في سجن خاص غلبت عليه تسمية (سجن البعثيين).

كان الأسر مراً وثقيلاً خاصة بعد أن انتهت الحرب، وبعد أن توفي الإمام الخميني، الذي ساءت كثير من الأمور هنا وهناك بعده، فقد كان يبعث من يراقب أوضاع الأسرى وكمية الأكل ونوعيته. فالكثير من الأسرى قد أصيبوا بأمراض القلب والسكري والضغط وبعضهم بأمراض عقلية أو نفسية وحاول كثيرون منهم الانتحار.

من جانب آخر، لقد فهم أغلب الناس الذين تحمسوا للثورة الإسلامية الأحداث بعقلية البسطاء وعواطفهم، فكان تصورهم – في البداية – ان الثورة الإسلامية ستنتصر خلال شهر من الحرب وأن صدام سيهرب.. إلى آخره.. ولما لم يحدث هذا حتى بعد سنين، انقلب الحب سخطاً، واعتبروا أن الثورة – حتى وان لم تكن الأمور كذلك – قد ورطتهم، ومن جانب آخر فقد دفع عشرات الآلاف من هؤلاء المتحمسين حياتهم ثمن هذه المشاعر الطيبة البريئة، ولم يكن صدام حكيماً ومقدراً للمسؤولية، فكانت الاعدامات والتصفيات الوجه الآخر لمأساة العراق، وهو موضوع الفصل القادم.

الفصل التاسع

شعلة البعث

(كم من الجرائم ارتكبت لمجرد أن
مرتكبيها لم يتحملوا كونهم على خطأ)
البير كامو

بدءاً، منذ أن بدأ صدام الاعتقالات العشوائية الشاملة بعد أسابيع قليلة من انتصار الثورة الإسلامية. ثم أصدر قانونه الشهير في ٣١ آذار ١٩٨٠ بإعدام كل من ينتمي لحزب الدعوة الإسلامية أو يعمل لتحقيق أهدافه (تحت واجهات أو مسميات أخرى). وهو القانون الذي وضع كل شيعي تعتقله الدولة تحت رحمة المقصلة. كنت أتصور وربما تملك الجميع هذا التصور، بأن صدام سيكتفي بإعدام أفراد قليلين وسيطلق سراح الآخرين بعد أن يعتقد بأن الأمر قد استتب له تماماً. ولكن للأسف جاءت الأحداث لتخيب ظن الجميع.

وقد خلقت هذه المذبحة شرخاً طائفياً في المجتمع العراقي لأول مرة. فعندما يذبح هذا العدد الهائل من الضحايا من طائفة معينة، ويكون الجلاد من طائفة أخرى، لا تستطيع كل الشعارات الوطنية أو القومية أن تخفي وجه الجلاد الطائفي الكالح. ويصبح الحديث عن عدم وجود مذبحة طائفية سخيفاً وأخرقاً.

فعدم شعور صدام بالمسؤولية، وحماقته التي ليس لها نظير. كل ذلك افقده الرؤية بأن إعدام هذه الأعداد الكبيرة ومن كل المناطق الشيعية، سيخلق - بالضرورة - من أقرباء وأصدقاء الضحايا (حزباً) معادياً لا يحتاج إلى تنظيم أو قيادة أو برنامج، وان هذا الحزب سيتحرك في أول فرصة سانحة. وهذا ما يفسر - ببساطة - ما حدث فيما

بعد في عام ١٩٩١ من انتفاضة.

وعندما وقعت الانتفاضة، لم يستفد صدام من درس الثمانينات -كما هو شأنه مع كل التجارب الأخرى - فارتكب جرائم أكثر بشاعة وشمولية ضد المناطق الشيعية، ويبدو أن (القتل العشوائي) سلاح يستخدمه صدام عن قصد لإرهاب القريب والبعيد، وهو غير مستعد للتخلي عن هذا السلاح أبداً. وكان عليه - خاصة وأن سياساته الخرقاء هي المسؤولة عن ردة فعل مواطنيه في انتفاضة عام ١٩٩١- ان يستعمل التسامح مع شعبه إلى أقصى الحدود، لا سيما أن القوات الأميركية كانت لا تزال على شواطئ الفرات.

الملاحظ بوضوح أن الغرب المنافق - وكعادته عندما لا تكون له مصلحة في ذلك - سكت تماماً عن مذابح الثمانينات، وسكت عن عمليات التهجير البشعة، وعن استخدام الأسلحة الكيمياوية ضد المناطق الكردية.

لم يكن حجم المذبحة - كما أظن - معروفاً لدى الرأي العام العربي وأظنه لا يزال كذلك وقد سمعت من مسؤول عربي كبير - مختص بالملف العراقي - بأنه كان لا ينقل كل المعلومات التي تصله من العراق إلى (القيادة العليا) في بلاده، حتى لا يُتهم بالمبالغة أو تُتهم مصادره بعدم الدقة. باختصار شديد، ان ما حدث في العراق يفوق تصور أي إنسان، وبالتالي من الصعب أن يصدق المرء أن كل هذا قد حصل فعلاً.

والغريب أن الأستاذ هيكل - والذي تعلمنا السياسة على يديه - يقول وكأنه يبرر المذبحة: (أحست الحكومة العراقية حتماً أنه يتم تحريض الجماعة الشيعية ضدها. واتخذت تدابير حازمة لحماية الدولة من التمزق. ورحل إلى إيران الشيعة الذين يعيشون في المناطق الحساسة على الحدود المجاورة. وقد لاقى نفس المصير عدد من قادة الشيعة من أماكن أخرى في البلاد)[٨٦٠]. وربما قد صحح هيكل وجهة نظره فيما بعد، إذ أثبتت الأحداث اللاحقة بأن الدولة العراقية - بسبب سياسات صدام الخرقاء لا بسبب تحريض

٨٦٠- هيكل. مدافع آية الله (مرجع سابق). ص٢٦٨.

الجماعة الشيعية - قد أصبحت على حافة التمزق فعلاً.

إن الكلام الدائم بأن (إيران تحرك أنصارها في بعض أوساط الشيعة في الجنوب[٨٦١]، تهمة تلاحق الشيعة باستمرار لإرهابهم. فالأنظمة الطائفية لا تعترف باضطهادها لأبناء شعبها، فتنسب أي رد فعل أو تململ من سياستها إلى التآمر الخارجي. فمثلاً، وفي (١/ تموز/١٩٦٤)، تحدث صبحي عبد الحميد وزير الخارجية آنذاك في مقابلة تلفزيونية - كما مر بنا - عن مؤامرة أجنبية قائلاً: (وسوف يخبرون السنة شيئاً ويخبرون الشيعة شيئاً آخر ولذلك يجعلون الناس يكرهون بعضهم البعض)[٨٦٢]. ولكنه في استقالته - في ٣٠ حزيران ١٩٦٥- اعترف باتباع السلطة سياسة فرق تسد وتعميق الروح الطائفية[٨٦٣].

وكمثال آخر له دلالته على هذا الإرهاب الطائفي، أن الشرطة داهمت في النجف في ١٣ كانون الثاني ١٩٤٣ بناية (مطبعة القادسية)، حيث تلتقي مجموعة قومية، كانت تتدارس الأوضاع في البلاد العربية وتحاول الاتصال بقوميين آخرين في سوريا. وكانت التهمة الجاهزة هي (الطائفية) والعمل لحساب جهة أجنبية! ولا أدري من هي الجهة الأجنبية المقصودة؟ هل هي سوريا التي حاول المتهمون الاتصال بالقوميين فيها؟ أم إيران التي يتهم الطائفيون مواطنيهم الشيعة بالولاء لها؟ وقد صادرت الشرطة المطبعة وأعداد مجلة القادسية التي كانت تصدر عنها وحكمت على صاحبها (محمد رضا الحساني) الذي كان يتزعم المجموعة بالحبس لمدة سنتين والإقامة الجبرية لسنتين أخريين[٨٦٤].

٨٦١- أمين هويدي. كنت سفيراً في العراق (مرجع سابق). ص٢٣٨.

٨٦٢- د. حامد البياتي. شيعة العراق بين الطائفية والشبهات (مرجع سابق). ص١٠٧.

٨٦٣- هويدي. المرجع السابق. ص٢٥٠.

٨٦٤- مقدام عبد الحسن باقر الفياض. تأريخ النجف السياسي ١٩٤١-١٩٥٨. (رسالة ماجستير غير منشورة أو أنها تحت الطبع) ٢٠٠٠م. ص٢٦-٢٧.

ورغم أن (الإنسان الحديث له عدة هويات)، لكن من يقرأ تاريخ العراق لن يجد حادثة واحدة - وان كانت بسيطة - تدل على الولاء الشيعي لإيران حتى قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩. وأي كلام بأن (الطائفة الشيعية ليست مخلصة في ولائها للعراق وإنما هي مزدوجة الولاء وولاؤها مقسم بين إيران الشيعي والعراق العربي)[٨٦٥] يدل على جهل فاضح بشيعة العراق وبتاريخ إيران الحديث معاً. إذ إن الحكم في إيران - منذ سنة ١٩٢٨ على الأقل - كان بالنسبة للشيعة حكماً معادياً للإسلام، وقد تطرقنا لملامح من جهاد العلماء في إيران ضد الحكم الإيراني في الفصل السابق، والذي كانت المرجعية الدينية في العراق هي التي تقوده وتوجهه على الأقل بالنسبة لثورة التنباك عام ١٨٩٠ ومعركة الدستور عام ١٩٠٥. خلاصة القول ان الحماس الشيعي بدأ مع الثورة الإسلامية وللثورة الإسلامية. وأشدد هنا على الحماس لا الولاء، فالحماس يكون من المساند والولاء يكون من التابع.

ان النجف في العراق وليس أي مكان آخر هي التي تمثل الزعامة الروحية لشيعة العالم. وقد حاول صدام إضعاف المكانة الدينية للنجف من خلال التضييق على المرجعية الدينية واضطهاد طلبة العلوم الدينية القادمين من مختلف البلدان الإسلامية للدراسة فيها، ثم تصاعدت الحملة ضد النجف كما سنأتي على ذلك لاحقاً.

إن حماس الشيعة في كل العالم، ومنهم شيعة العراق، للثورة الإسلامية، لا يحتاج إلى كثير من التفسير أو التبرير. فعندما يكون هدف الثورة كما يقول الإمام الخميني: (هو الإسلام وتحقيق استقلال البلاد وطرد إسرائيل وتحقيق اتحاد الدول الإسلامية)، يكون التأييد لها تأييداً للإسلام، كما أنه تأييد لأحد مراجع الدين الذي يعرفونه جيداً، والكثير منهم قد كانوا يشاهدونه يومياً في النجف، وربما سأله بعضهم عن هذه المسألة الدينية أو تلك، كما أن بعض طلبة العلوم الدينية قد تتلمذوا على يديه.

٨٦٥- جلال السيد. حزب البعث العربي. بيروت ١٩٧٣. ص١٩٥.

بعد رحيل الإمام أصبح هذا الحماس مشروطاً ومتأنياً بل ومترداً. فهو مشروط باستمرار توجهات إيران الإسلامية. ومتأنياً لأن الشيعة العرب لا يريدون الانفصال عن عمقهم العربي. ومترداً لأنهم يخشون ألاعيب السياسة والتي لم تعرف طريقها يوماً إلى عقل الإمام، والذي وصفه رئيس تحرير صحيفة (ايندكان) الإيرانية يوم عودته إلى طهران قبل انتصار الثورة الإسلامية قائلاً: (الخميني رجل لا وليس رجل نعم. انه رجل ثورة وليس رجل دولة).

وقد انقلب كثيرون على حماسهم بل وولائهم للثورة الإسلامية. فأكثر الناس تطرفاً في الولاء للثورة هم أكثر الناس انقلاباً عليها فيما بعد، حتى انهم صاروا يشككون في كل شيء فيها. وهكذا كل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده كما يقول المثل الشائع.

فبالإضافة إلى أن صدام - بحربه واعداماته وكل سياساته - قد عقّد الأمور كثيراً، فان طول (المحنة) العراقية وتراكماتها، واضطرار ملايين المواطنين للهجرة من العراق، والذين لن يجدوا - بالضرورة - بلداً يحتضنهم، خاصة أن ظروف إيران الاقتصادية قد ساءت كثيراً، والتي اخذت تعاني من بطالة متزايدة تمثل نسبة كبيرة من يدها العاملة. ثم أن الثورة وهي تتحول إلى دولة ستتخفف من الكثير من مبدئيتها. وتلك هي ضرورات الواقع وأحكامه. كل ذلك ساهم في قلب ولاءات تعلمت أن تحكم على القضايا الكبرى من خلال قضاياها الشخصية.

وبالنسبة للحالمين، وهم الذين يغلبون قناعاتهم على مصالحهم، ولا يؤمنون بأن هناك مسافة - بالضرورة - بين الحلم والواقع، فلن يحصدوا الا الخيبة والمرارة. فالمبدئي دائماً هو أسير أحلامه، بينما الحاكم غالباً هو أسير الواقع بظروفه وتفاصيله وتراكماته. ثم انه ولدرجة ما فان (المثال وهم لأنه سجن لعود الحياة الطري) كما قالت كاتبة فيتنامية مشهورة ذات مرة. وعندما يذهب المبدئي إلى التجربة التي كان يعشقها، سيجد أمامه - وقد سبقوه إليها - الانتهازيين والمندسين، والذين اتخذوا من السياسة مهنة، بل وحولوها إلى أحط مهنة، وهناك أيضاً الجهلة، والذين التحقوا بالتجربة لهذا السبب أو ذاك، أو الذين وجدوا أنفسهم - بمحض الصدفة - في المعمعة. وعادة أن هؤلاء، هم الاكثر قدرة

على ركوب التيار، وتصدر الصفوف، وعلى الحالم عندئذ أن يتواءم مع (الواقع) بدرجة ما، وإلا فقد يجد نفسه في السجن أو المصحة النفسية أو المستشفى، وسيعاني الكثير. هكذا هي السياسة في العالم الثالث، وخاصة في ظل الأنظمة الثورية.

❖ ❖ ❖

عندما جاء انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ كان الإسلاميون في العراق يتوزعون بين (الإخوان المسلمين) و(حزب التحرير) للسنة، و(حزب الدعوة) للشيعة، وهذا رغم ادعاءات كل تلك الأحزاب بأنها أحزاب إسلامية غير طائفية. وقد انتظم الإسلاميون الشيعة في الحزبين الأولين ثم انتقل أكثرهم إلى حزب الدعوة الإسلامية بعد تأسيسه في نهاية الخمسينات، وأصبحوا من قادة وكوادر الدعوة فيما بعد، ومن أبرز هؤلاء الشيخ عارف البصري ومحمد هادي السبيتي وعبد الغني الشمري والذين كانوا في حزب التحرير وخرجوا مع آخرين من الشيعة والسنة ومنهم الشيخ عبد العزيز البدري بعد أن اختلفوا مع قيادة التحرير.

وعموماً فإن الخلاف بين الإخوان والتحرير السنيين، والخلاف بين الدعوة ومجموعات شيعية أخرى هو أكثر بكثير من أي خلاف بين الإخوان والدعوة مثلاً. ولنتحدث الآن عن تلك الحركات:

١ - الإخوان المسلمون:

تأسست جماعة الإخوان في مصر على يد الشيخ حسن البنا عام ١٩٢٨ كحركة إسلامية سنية كما تنص المادة الأولى من نظامها الداخلي.

وانتشرت الجماعة في العراق قبيل الحرب العالمية الثانية[٨٦٦]. وكان انتشارها

٨٦٦- مجيد خدوري. العراق الجمهوري (مرجع سابق). ص١٩٦.

في البداية في مدينة الموصل ومنها انتشرت في مناطق العراق الأخرى. وقد عملت في البداية تحت واجهة (جمعية الأخوة الإسلامية) - كما يبدو - والتي لم توافق الحكومة على تأسيسها عام ١٩٤٧، ثم عادت وسمحت لها عام ١٩٤٩، (واستمرت بمزاولة عملها حتى عام ١٩٥٤ عندما ألغت الحكومة الأحزاب والجمعيات)[٨٦٧]، فاستمروا بمزاولة نشاطهم سراً.

وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، (ناصر هذا الحزب في بادئ الأمر الزعيم قاسم وأيده، إلا أنه ما لبث أن تخلى عنه حين لحظ ميوله الشيوعية)[٨٦٨]. وفي عام ١٩٦٠ شكل الإخوان (الحزب الإسلامي العراقي) والذي حصل على إجازة من القضاء بعد أن رفضت الحكومة إجازته[٨٦٩]. و(قدم الحزب الإسلامي العراقي اسم المجتهد الأكبر للطائفة الشيعية السيد محسن الحكيم، بوصفه راعي الحزب)[٨٧٠]. ثم (وبسبب تزايد النقد الذي كان الحزب الإسلامي يوجهه إلى الحكومة سحبت وزارة الداخلية في سنة ١٩٦١ الإجازة منه، كما ألقي القبض على زعماء الحزب)[٨٧١].

وقد أيدوا - ككل القوى الدينية - انقلاب ٨ شباط ثم اختلفوا مع حكم البعث. وبعد صدور القوانين الاشتراكية - في ١٤ تموز ١٩٦٤ - اختلفوا مع عبد السلام عارف. وأصدر الشيخ عبد العزيز البدري - الذي انسحب من حزب التحرير وانضم إلى الإخوان - كتابه الشهير (حكم الإسلام في الاشتراكية) والذي اعتبر فيه ان الاشتراكية بكل أسمائها وأنواعها محرمة في الإسلام. وعندما جاء المفكر القومي نديم البيطار

٨٦٧- عبد الجبار حسن الجبوري. الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي. (مرجع سابق). ص١٩٩-٢٠٠.

٨٦٨- خدوري. المرجع السابق. ص١٩٦.

٨٦٩- ليث عبد الحسين الزبيدي. المرجع السابق. ص٢٤٨.

٨٧٠- خدوري. المرجع السابق. ص١٩٦.

٨٧١- المرجع السابق. ص١٩٧.

إلى بغداد في حزيران ١٩٦٨ ليلقي محاضرة في جمعية العلوم السياسية، وبسبب آرائه العلمانية، قاد الشيخ البدري هجوماً على الفندق الذي يقيم فيه، ففر الرجل بجلده وغادر العراق على الفور.

وفي عام ١٩٦٧ انقسموا إلى ثلاثة اتجاهات[٨٧٢]: الأول، يطالب بقيام ثورة على نظام الرئيس عبد الرحمن عارف وإقامة حكومة إسلامية. ومن أبرز رموزه العميد محمد فرج السامرائي، والشيخ عبد العزيز البدري، عبد الغني شندالة، صالح عبد الله سرية، الشيخ مأمون كشمولة. وباستثناء صالح عبد الله سرية والذي سنعود للحديث عنه بعد قليل، فقد تمت تصفية الآخرين وتصفية هذا الجناح عموماً بعد انقلاب ١٧ تموز. إذ قتلوا الشيخ البدري في السجن عام ١٩٦٩ بعد أن عذبوه بوحشية، وكان البدري قد ألقى سلسلة من الخطب هاجم فيها النظام الجديد، وخاصة قراره بإطلاق سراح السجناء الشيوعيين. وأعدموا السامرائي وشندالة في المؤامرة المزعومة سنة ١٩٧٠. أما كشمولة فقد قتلوه في كانون الأول ١٩٧٠[٨٧٣].

(ورفض الاتجاه الثاني الإقدام على أية مغامرة من هذا القبيل وطالب بالاستمرار في النهج الفكري القائم). ومن أبرز أقطابه الدكتور عبد الكريم زيدان والذي كان مرشداً للإخوان. وقد عين وزيراً للأوقاف في وزارة عبد الرزاق النايف - يوم انقلاب ١٧ تموز - والتي استمرت أقل من اسبوعين.

(وآثر أصحاب الاتجاه الثالث حياة التصوف والعرفان والانكفاء على الذات، بعيداً عن هموم العمل). وأبرز أصحاب هذا الاتجاه تحسين عبد القادر الفخري.

أما قصة صالح عبد الله سرية وهي جديرة بالاهتمام، فقد ولد في يافا، ولجأت عائلته إلى العراق بعد النكبة. وحصل على الماجستير من جامعة بغداد في التربية بتقدير جيد

٨٧٢- راجع السعيد. نواطير الغرب (مرجع سابق). ص٢٤٦-٢٤٧.

٨٧٣- حسن العلوي. عبد الكريم قاسم رؤية بعد العشرين. لندن ١٩٨٣. ص٦٩.

جداً عام ١٩٦٧، وكان بحثه للماجستير هو (تطوير التعليم الصناعي في العراق[٨٧٤]، وحصل بعدها على الدكتوراه.

قاد عملية اغتيال صدام[٨٧٥] – في يوم ٣١ آب ١٩٧١ – في مدينة الطب ببغداد، حيث كان صدام يذهب يومياً إلى هناك ليتعالج فيزيائياً من آلام ظهر مزمنة، ولكن النظام اعتقل المشاركين بالعملية ومعهم العشرات من تنظيم الإخوان وعذبهم بشدة ثم أعدمهم، إلا سرية إذ استطاع النجاة من الاعتقال والهرب خارج العراق.

استقر صالح سرية في مصر، وارتبط بعمل في جامعة الدول العربية. وفي عام ١٩٧٦ (شن الهجوم على الكلية الفنية العسكرية أثناء اجتماع هناك لبعض القيادات السياسية المصرية التي كانت تستمع إلى خطبة يلقيها السادات وكانت الخطة تقتضي باعتقال السادات أو قتله وقلب نظام الحكم. اعتقل والعديد من أنصاره وأعدم فيما بعد. إلا أن حركته كانت الحركة التي نشأ منها تنظيم الجهاد وما زال الإسلاميون يطلقون عليها تنظيم الجهاد الأولى)[٨٧٦]. ومن الواضح أن عملية الكلية الفنية كانت حمقاء ولكنها جريئة وشجاعة أيضاً. وللأسف لم تظهر حتى الآن دراسة متكاملة عن صالح سرية، فهو رجل غير عادي.

وبعد عملية مدينة الطب، جمد الإخوان نشاطهم في العراق. وقد ساند التنظيم العالمي للإخوان الثورة الإسلامية في إيران، وأرسلوا وفداً كبيراً منهم إلى باريس ثم إلى طهران لمقابلة الإمام الخميني والإعراب له عن تأييد الثورة. وظلت العلاقة بينهما حسنة رغم خلافات كثيرة نشأت بينهما فيما بعد، ويبدو أن الخلافات تمحورت حول ثلاثة نقاط أساسية، وهي النص في الدستور الإيراني على أن المذهب الرسمي للدولة هو المذهب

٨٧٤- طبعت ببغداد عام ١٩٦٩.

٨٧٥- راجع برزان التكريتي. المرجع السابق. ص٣١-٤٣.

٨٧٦- جريدة السفير العدد (٦٢٥١) في ١٩٩٢/٨/٦.

الشيعي[٨٧٧]، واضطهاد تنظيم الإخوان في إيران، واستمرار الحرب العراقية – الإيرانية.

ويلف الغموض موقف تيار الإخوان داخل العراق خلال الثمانينات. وقد أصدرت أجهزة الأمن أوامر –يعود تاريخها إلى عام ١٩٨٣ أو ما قبل ذلك بقليل– إلى فروعها بعدم ضرب تنظيمات الإخوان والتحرير والاكتفاء باختراقها ومراقبتها[٨٧٨]. وكشهادة شخصية ربما هناك ما يثبت عكسها كان هناك القليل جداً منهم في سجن أبي غريب والذي امتلأ باتجاهات كثيرة، وحتى (حركة التوحيد) بزعامة الشيخ إبراهيم المشهداني، والتي تدعو للأخوة والاحترام بين الشيعة والسنة، لم تسلم من التنكيل بها رغم أنها حركة غير سياسية، وقد حكم على شيخها الشاب آنذاك وجماعته بالحبس لمدة (٥) سنوات لكل واحد منهم.

ونشط بعض الإخوان في نهاية الثمانينات ولكن السلطة قمعتهم. وعموماً فانهم – منذ عملية مدينة الطب – لم يحاولوا الاصطدام بالسلطة، الأمر الذي يثير بعض الاستغراب والتساؤل، لأن الإخوان لم يتعودوا الانزواء والسكون أبداً.

٢- حزب التحرير الإسلامي:

أسس الشيخ تقي الدين النبهاني حزب التحرير الإسلامي في القدس عام ١٩٥٢. ويدعو الحزب إلى إحياء الخلافة الإسلامية وتطبيق الإسلام في جميع مرافق الحياة. ولكنه ينتهج الأساليب السلمية للوصول إلى أهدافه.

وامتد الحزب إلى العراق بعد تأسيسه مباشرة[٨٧٩]. (وكان الطلبة والأساتذة

٨٧٧– يبدو أن الإخوان قد نسوا أن المادة الأولى من نظامهم الداخلي تنص على أنهم حركة إسلامية سنية (راجع عن ذلك ناجي علوش. الثورة والجماهير).

٨٧٨– صلاح الخرسان. حزب الدعوة الإسلامية. دمشق ١٩٩٩. ص٣٥٥.

٨٧٩– السعيد. المرجع السابق. ص٢٤٨.

الأردنيون والفلسطينيون هم الذين شكلوا فرع الحزب في العراق)[٨٨٠]. وقد عمل مؤسس الحزب في الخمسينات موظفاً في مدينة البصرة وارتبط بعلاقات حميمة مع كثير من العراقيين.

ورفضت الحكومة - عام ١٩٥٤- أكثر من طلب لإجازته رسمياً في العراق. (واثر ذلك أصدر الحزب بياناً أوضح فيه ملابسات القضية، وهاجم بشدة المعاهدة العراقية - البريطانية حول النفط عام ١٩٥٥، كما هاجم حلف بغداد. وقد وزع هذا البيان في وقت واحد في الموصل والبصرة وبغداد والناصرية ودمشق والقدس وعمان. وكان يوم توزيعه هو الجمعة للاستفادة من تجمع المسلمين للصلاة. ونتيجة لذلك اعتقلت السلطات العراقية الأشخاص الموقعين على الطلب وبعد محاكمتهم، أصدرت المحكمة حكمها بتغريم كل فرد مبلغاً قدره «١٥٠» ديناراً)[٨٨١].

وكان بين الموقعين على الطلب، محمد هادي عبد الله السبيتي[٨٨٢]، الشخص الآخر المثير للاهتمام والأكثر فاعلية في تاريخ الحركة الإسلامية في العراق إلى جانب صالح سرية، مع الفارق بينهما، فالسبيتي قائد حزبي من طراز رفيع، أما سرية فهو منظم جريء للمجموعات القتالية.

وقد أصبح السبيتي - اللبناني الأصل والعراقي المولد والجنسية وحفيد عبد الحسين شرف الدين أحد أبرز علماء الشيعة - فيما بعد القائد الأبرز لحزب الدعوة الإسلامية[٨٨٣]، ويجب الإشارة هنا بأنه لم يكن للدعوة قائد رسمي في أي يوم من

٨٨٠- حسن شبر. العمل الحزبي في العراق ١٩٠٨-١٩٥٨. بيروت ١٩٨٩. ص٢٥٣.

٨٨١- المرجع السابق. ص٢٥٤.

٨٨٢- عبد الجبار حسن الجبوري. المرجع السابق. ص٢٠٠-٢٠١ (وقد سمى السبيتي بالسبتي).

٨٨٣- راجع صلاح الخرسان. المرجع السابق. ص١٢١، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٩، ٢١٦، ٢٣١، ٣٧٠، ٤٠٣-٤٠٤، ٤٢٣ وغيرها.

الأيام، إنما لها (قيادة جماعية) غير معلنة، ولم يكن السبيتي على وفاق مع الكثير من الذين جاؤوا إلى الحزب من (الحوزة الدينية) وأبرزهم السيد مرتضى العسكري. والذين كانوا بدورهم يغمزون توجهاته اللامذهبية وتبنيه لطريق (إسلام بلا مذاهب) ويعزون ذلك إلى تأثير ماضيه في الإخوان والتحرير.

وفي الحملة الشاملة على حزب الدعوة عام ١٩٧٢، اكتشفت السلطة لأول مرة بأن السبيتي هو رأس الدعوة وقائدها، فاقتحمت داره - وكان حينها يشغل وظيفة رئيس المهندسين في كهرباء بغداد - ولكنه كان قد سافر إلى لبنان. وبعد أن علم بالخبر أقام هناك لمدة عام، ثم أقام في الأردن بعد أن عين مديراً لمركز الطاقة الحرارية في عمان. ومن هناك أخذ يقود تنظيم الدعوة في العراق.

ولسوء الحظ أنه أقام في الأردن أكثر مما يجب، فاعتقلته المخابرات الأردنية في ١٩٨١/٥/٩، عندما كان على وشك أن يغادرها بعد أن استشعر بالخطر وبعد أن وصلته تحذيرات كثيرة. وبالرغم من محاولات عدة جهات عراقية ولبنانية وأردنية لمنع تسليمه إلى العراق، فقد سلم - كما يبدو في شهر آب - بناء على طلب من صدام شخصياً، حيث اختفت آثاره في العراق تماماً.

وبالعودة إلى حزب التحرير فان عبد الكريم قاسم لم يرخص له[٨٨٤]. واعتقل عدد من قادته ومنهم المهندس محمد هادي السبيتي[٨٨٥]. وقد (عانى الحزب من انسحاب العديد من أعضائه البارزين في الستينات كالشيخ عبد العزيز البدري وإبراهيم مكي وصالح سرية وعبد الغني شكر الشمري)[٨٨٦].

وبعد انقلاب ١٧ تموز (وجهت إلى تنظيمات حزب التحرير في العراق خلال الفترة

٨٨٤- الزبيدي. المرجع السابق. ص٢٤١ و٢٤٨.

٨٨٥- الخرسان. المرجع السابق. ص٤١.

٨٨٦- السعيد. المرجع السابق. ص٢٤٨.

١٩٧٣-١٩٨٣ ضربات شديدة ومتتالية أدت إلى شل وتدهور نشاطه في العراق)[٨٨٧].

وقد أصدر النظام عام ١٩٨٣ أمراً لأجهزة أمنه - كما ذكرنا سابقاً - بعدم ضرب تنظيمات الإخوان والتحرير والاكتفاء باختراقها ومراقبتها. لأنه كان متفرغاً تماماً لتصفية حزب الدعوة الإسلامية إذ كان لا يشعر بأي خطر من غيره آنذاك. وكان ذلك سبباً مضافاً يُعطي الحملة الشرسة على حزب الدعوة طابعها الطائفي. ويستتبع ذلك ما كان يثير الانتباه ويتهامس به الناس من قبيل أن جوامع الشيعة فارغة وتخاف الناس من دخولها، وأن جوامع السنة مملوءة ولا يخشى أحد من دخولها.

❖ ❖ ❖

تأسس حزب الدعوة الإسلامية في تشرين الأول ١٩٥٧[٨٨٨]، أو أن هذا التاريخ شهد أول اجتماع على طريق تأسيس الحزب. وقد سمعت من الدكتور طالب الرفاعي - أحد المؤسسين - بأن الحزب قد تأسس عام ١٩٥٩[٨٨٩]، ويشاركه آخرون هذا الرأي. ولم يكن للدعوة اسم محدد عند انطلاقتها، وان تسميتها بالدعوة الإسلامية كانت بعد عامين من تأسيسها[٨٩٠]. و(يعتبر حزب الدعوة الإسلامية امتداداً تأريخياً لجماعة العلماء.. وهي الجماعة التي تأسست في العام ١٩٥٩ بزعامة المرجع الديني الشيخ مرتضى آل ياسين[٨٩١]. ويتخذ حزب الدعوة من يوم المولد النبوي حسب التقويم الشيعي (١٧ ربيع

٨٨٧- الخرسان. المرجع السابق. ص٥١٥.

٨٨٨- لقاء مع حسن شبر (أحد المؤسسين) في دمشق في ٢٠٠٢/٤/٢٤.

٨٨٩- راجع أيضا فائق عبد الكريم. عبد الصاحب دخيل سيرة قائد وتاريخ مرحلة. بيروت ٢٠٠١. ص١٦٠-١٦٢.

٨٩٠- صلاح الخرسان. المرجع السابق. ص١٣٢.

٨٩١- عبد الحسين الحسيني. بحث عن حزب الدعوة نشر على الإنترنت في ملتقى الحجاز الثقافي (أيلول ٢٠٠٢). (www.hijaznet.net)

الأول) عيداً سنوياً له.

ويبدو أن العدوان الثلاثي على مصر، والمجزرة التي شهدتها النجف خلال الاحتجاجات عليه والتي راح ضحيتها العشرات [٨٩٢]. قد لعبت الدور الكبير في تحفيز (النشاط السياسي) في النجف حيث نشأ حزب الدعوة، أو أن المبادرة لتأسيسه قد جاءت من هناك.

ومنذ بداية تأسيسها توجهت الدعوة لكسب طلبة العلوم الدينية في النجف وعلماء الدين المنتشرين في المدن العراقية. وكان هؤلاء نواته الأولى لكسب الجماهير، كما توجهت إلى الناشطين إسلامياً والطلبة والمتعلمين. ولم تعدم الدعوة - منذ البداية - أوساطاً في (الحوزة الدينية) حاربتها على أنها (حركة وهابية) أو أزهرية [٨٩٣]، أي أنها موالية للجامع الأزهر أو تريد جعل الحوزة تابعة للأزهر. وستظل تهم مماثلة تثار كلما وقع خلاف مع الدعوة لهذا السبب أو ذاك.

إلا أن الدعوة - ومنذ البداية أيضاً - حظيت بثقة الاوساط الدينية الشيعية، فانتشرت بسرعة في مناطق كثيرة، وضمت كثيرين من ذوي المكانة الدينية والاجتماعية الصاعدة. اذ رغم الطابع السري الشديد الذي تحيط به الدعوة نفسها ولا زالت كذلك، كان معروفاً أن نخبة من العلماء كانوا بين مؤسسي الدعوة، وعلى رأسهم السيد محمد باقر الصدر، وكان من العلماء المبرزين عند التأسيس، وقد أصبح بعد عقد من ذلك أحد كبار مراجع الشيعة. وكذلك السيد مهدي الحكيم وهو (صاحب الفكرة ومروجها وهو الذي طرحها على الشهيد الإمام الصدر) [٨٩٤]. و(لولا الشهيد الصدر (رض) ونشاط السيد مهدي الحكيم (رض) لما استقام عود الدعوة الإسلامية آنذاك) كما يقول صالح الأديب أحد

٨٩٢- لقاء مع حسن شبر سبقت الإشارة له، وايضاً الخرسان. المرجع السابق. ص٤٧.

٨٩٣- حسن شبر. مقابلة سبق ذكرها.

٨٩٤- فائق عبد الكريم. المرجع السابق. ص١٥٧.

المؤسسين[٨٩٥].

وكانت أهداف حزب الدعوة في بداية تأسيسه هي كسب الجماهير وتثقيفها إسلامياً. أي أنه لم يطرح - في البداية - مسألة استلام السلطة ولا التصدي لها ومقاومتها. فكان موقفه هذا تكتيكاً سياسياً بارعاً ساعده مع ما امتاز به من سرية شديدة، على بناء نفسه بهدوء وقوة، والانتشار في معظم المناطق العراقية خلال العقد الأول من تاريخه.

وتقسم الدعوة عملها للوصول إلى الهدف النهائي وهو إقامة الحكومة الإسلامية إلى أربعة مراحل[٨٩٦] وهي: الثقافية - السياسية -الثورية - إقامة الحكومة الإسلامية بطريق نيابي دون استبعاد الوسائل الأخرى التي قد تتوفر فرصتها. والدخول في أية مرحلة تالية لا يلغي المرحلة التي قبلها. فالمرحلة الثقافية أو الفكرية هي عملية توعية وتثقيف مستمرة. ولكن قبل الدخول إلى المرحلة السياسية يتحاشى الحزب الصِدام مع السلطة وانتقادها، ولا يمارس أي نشاط علني، بل ولا يعلن عن وجوده. ومن الناحية التاريخية، فإن حزب الدعوة قد تجاوز هذه المرحلة عام ١٩٧٩ إلى غيرها، وقد أثار هذا الانتقال الكثير من الجدل داخل الحزب.

أما المرحلة السياسية، فتبدأ بنقد السلطة القائمة وإبراز أخطائها وانحرافاتها، دون النزول إلى الشارع والصدام مع السلطة والذي هو أسلوب المرحلة الثورية أي الثالثة.

أخذت بعد انقلاب ١٧ تموز أوساط الحكم في العراق وصحف موالية له في بيروت تتحدث عن (حزب فاطمي) في العراق. وبالعودة إلى وثائق التاريخ المعاصر للعراق يبدو أن أول من استعملت هذه التسمية وبكراهية أحياناً هي السفارة البريطانية ببغداد[٨٩٧]، والتي وصفتهم بالقول: (إن الفاطميين ببساطة هم شباب شيعة مصممون على كسر

٨٩٥- الصادق العهد. إصدار حزب الدعوة الإسلامية. ١٩٩٩ (مكان الطبع مغفل). ص٥٣.

٨٩٦- حسن شبر. المقابلة التي سبق ذكرها.

٨٩٧- راجع د.حامد البياتي. المرجع السابق. ص٢٤٠-٢٤١.

التشتت بالأفكار والتفرق في العمل والتي طبعت كثيراً العمل الشيعي السياسي في الماضي)[٨٩٨]. والملاحظ ان الدعوة لم تبدأ نشاطها السياسي بعد عندما كتبت السفارة البريطانية هذا[٨٩٩].

وفي عام ١٩٧١ قدمت الدعوة أحد أبرز رجالها المؤسسين - عبد الصاحب دخيل - أول شهيد لها، ولولا صموده الأسطوري لتعرضت الدعوة لضربة قاصمة[٩٠٠]. وقد انتهى عبد الصاحب دخيل في حوض يحتوي على حامض النتريك بأمر من ناظم كزار مدير الأمن العام[٩٠١].

وابتداءً من عام ١٩٧٢، تعرضت الدعوة لضربات ساحقة، وانكشفت الكثير من قياداتها وتشكيلاتها. وفي عام ١٩٧٤، تم تنفيذ حكم الإعدام بخمسة من قيادات حزب الدعوة، وهي أول مجموعة للدعوة تحكم بالإعدام، وكان بينها ثلاثة من علماء الدين، لتكون (المرة الأولى من نوعها التي يتم فيها إعدام علماء دين في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية)[٩٠٢]. وكان على رأسهم الشيخ عارف البصري - العقائدي الصلب والمحبوب - والذي تولى قيادة الدعوة بعد أن بقي السبيتي خارج العراق.

وقد أعادت الدعوة - بالرغم من كل تلك الضربات - نشاطها بسرعة وقوة، بينما كان تصور النظام - وبما عرف عنه من قصر نظر - بأنه لن تقوم لها قائمة.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية، عاد التنسيق مع السيد الصدر بعد الكثير من التباعد[٩٠٣]، منذ أن تفرغ للمرجعية، إذ حاول أن يبعد عن نفسه أية مسحة حزبية كما

٨٩٨- المرجع السابق. ص١١٧.

٨٩٩- راجع عن وجهة نظر أخرى عن التسمية، الصادق العهد (مرجع سابق). ص١٠٩.

٩٠٠- المرجع السابق. ص٦-٧ وأيضا حاشية ص٧.

٩٠١- فائق عبد الكريم. المرجع السابق. ص٢٠٩ وما بعدها.

٩٠٢- الخرسان. المرجع السابق. ص١٩١.

٩٠٣- المرجع السابق. ص٢٦٢.

تقتضي تقاليد المرجعية، وليفوت على السلطة أيضاً فرصة التنكيل بالحوزة العلمية. ومن جانب آخر كان السبيتي يرى (أن العمل السياسي والحزبي يحتاج إلى اختصاص، وأن الحوزويين رغم تضلعهم بعلوم الشريعة.. لا يملكون هذا التخصص)[٩٠٤]. وهذا الرأي دقيق جداً فقد (كان الحزب يواجه نقطة ضعف مؤثرة.. هي أن نفوذ رجال الدين في قيادته كان كبيراً ومؤثراً.. وهم الذين لا يمتلكون خبرة في قيادة عمل سياسي سري.. فكيف والحال في ظل الظروف الشرسة والمعقدة التي فرضها نظام البعث على حزب الدعوة)[٩٠٥].

وخلافاً لرأي قادة الدعوة الكبار (الآصفي، السبيتي) والذين لا يريدون حرق المراحل التي تقوم عليها استراتيجية الدعوة، وكانوا يتحفظون حتى على مسألة الانتقال إلى المرحلة السياسية[٩٠٦]. كان السيد الصدر يرى (أننا إذا لم نبدأ بمواجهة البعث فإنه سيبدأ بمواجهتنا)[٩٠٧] وعندما طُرح على لجان المناطق التنظيمية تعليمات استعداداً للمواجهة (اعترض معظمها على عدم وجود إمكانية لوضع كل ما ورد فيها موضع التطبيق)[٩٠٨]. ورغم ذلك فإن الدعوة وجدت نفسها بفعل (تداعيات الثورة الإسلامية في إيران وبتحرك السيد الصدر دون أن يكون لها غير هامش محدود من القدرة على التأثير بمجريات الأحداث)[٩٠٩]. باختصار شديد لقد زُج بالدعوة في صراع لم تكن مستعدة له. وعندما أدركت الدعوة في نهاية عام ١٩٨٠ بأنها قد استعجلت[٩١٠]، كان

٩٠٤- المرجع السابق. ص١٣٧-١٣٨.
٩٠٥- عبد الحسين الحسيني. بحث سبقت الإشارة له.
٩٠٦- الخرسان. المرجع السابق. ص٢٦٣-٢٦٤.
٩٠٧- المرجع السابق. ص٢٦٣.
٩٠٨- المرجع السابق. ص٢٦٩.
٩٠٩- المرجع السابق. ص٢٦٩-٢٧٠.
٩١٠- حسن شبر. مقابلة سبق ذكرها.

الأوان قد فات تماماً.

ثم جاءت الأخطاء المميتة، كمظاهرات البيعة، ثم مظاهرات الاحتجاج على اعتقال السيد الصدر، والتي لم تتخذ المعارضة أسوأ منها أبداً. فإن ما يريده أي نظام فاش - في مثل تلك الظروف - هو أن تخرج المعارضة السرية من مخابئها ليقوم بتصفيتها. وهذا ما فعلته الدعوة تماماً. إذ توجهت (وفود من مختلف أنحاء العراق إلى مقر الإمام السيد الصدر في مدينة النجف الأشرف باسم وفود البيعة) [٩١١]. وكانت السلطة تراقب وتصور وتدقق وأيضاً تسجل أسماء المشاركين بوفود البيعة وأرقام سياراتهم.

وعندما اعتقل السيد الصدر - وبناء على أمر سابق منه[٩١٢] - خرجت مظاهرات عدة في ١٩٧٩/٦/١٢، في بغداد في مناطق الثورة والكاظمية، والنعمانية بمحافظة واسط، وقضاء الخالص، وقرى جيزان الجول وجديدة الشط بمحافظة ديالى، وفي النجف والكوفة، والسماوة والرميثة، والفهود والرفاعي بالناصرية، وبعض مناطق البصرة. وسقطت ضحايا من قتلى وجرحى. وكانت المظاهرات أشبه بجزر منعزلة استطاعت السلطة أن تسيطر عليها بسرعة فائقة.

كان هناك (استنساخ مأساوي)[٩١٣] للتجربة الإيرانية. فقد تم حرق المراحل ورفع الحزب شعار إسقاط النظام وبنفس النموذج الإيراني، بل وتصور - بتأثير النجاحات المذهلة للإمام الخميني في إيران - ان ثورة مماثلة ستنتصر في العراق[٩١٤]. ويبدو ان الحزب لم يكن مهيأ للمفاجأة الإيرانية، ففقد القدرة على التصرف المتوازن والمناسب مع مستجداتها، رغم ما يبدو في هذا الرأي من ترف فكري أو من ادعاء حكمة بأثر رجعي

٩١١- الخرسان. المرجع السابق. ص٢٧٧.

٩١٢- المرجع السابق. ص٢٨١ وما بعدها.

٩١٣- فالح عبد الجبار. المادية والفكر الديني المعاصر. ص١٧١.

٩١٤- حسن شبر. مقابلة سبق ذكرها.

ونحن نتحدث عن تلك الفترة المعقدة والدامية. ولكن مما لا شك فيه أن الدعوة كانت تعاني من قصور في فهم طبيعة النظام الفاشية وظروف العراق المختلفة كلية عن ظروف إيران الشاه.

وبعد فشل المظاهرات تحول الحزب إلى العمل المسلح، أي إلى الخيار الأسوأ، لأنه لم يكن مهيأ للعمل المسلح ولم تكن ظروف العراق تسمح به، اضافة الى أن الحزب قد خسر خلال الفترة القصيرة الماضية الكثير من تنظيماته وقدراته. ولم تكن هناك - وقد توجه الحزب نحو خيار العمل المسلح على عجل - دقة في الأسلوب أو في اختيار الأهداف.

إنها مأساة تاريخية تتكرر باستمرار، حيث يثور (الشيعة) في وجه دول قوية، وفي عز قوتها، فتسحقهم سحقاً. وهكذا جرى إعدام السيد الصدر، وشقيقته بنت الهدى، في ١٩٨٠/٤/٨، لتبلغ المأساة العراقية ذروتها.

عموماً، لم يحدث - ولا مرة واحدة في التاريخ - أن سقط نظام فاشي على يد معارضته الداخلية. ولذلك عول الكثيرون من المعارضين - في السنوات الأولى - على الحرب العراقية الإيرانية لإسقاط النظام الفاشي في العراق. ولكن حزب الدعوة ارتكب هنا خطأ آخر، إذ لم ييأس من المراهنة على تلك الحرب حتى اللحظة الأخيرة منها[٩١٥]. وكان يفترض به أن يكون الأكثر معرفة بسير الأحداث وتطوراتها في العراق. زد على ذلك أنه كان واضحاً أن القوى الدولية قد دخلت بكل ثقلها لمنع أي تطورات استراتيجية في تلك الحرب بعد معارك البصرة. فالحرب قد تحددت نتائجها - منذ منتصف عام ١٩٨٢ - نهائياً.

ولقد عانت قيادة الدعوة - وهي تخوض صراعاً مريراً مع النظام العراقي - من الإبعاد والتشكيك في إيران. (لقد كان حزب الدعوة مندفعاً بروح عقائدية صرفة في تأييد الثورة وبلدها ومرجعيتها.. لكن إيران وقد استعادت الدولة كما أسلفت هيبتها تعاملت مع حزب

٩١٥- حسن شبر. مقابلة سبق ذكرها.

الدعوة الإسلامية بطريقة الإملاء والاحتواء وفرض مصالحها ومتطلباتها.. فان امتنع حزب الدعوة عليها.. شجعت العديد من الانشقاقات والانقسامات في صفوفه)[٩١٦].

وقد سُلمت إذاعة الثورة الإيرانية باللغة العربية إلى فريق مناوئ لحزب الدعوة، فعانت الدعوة مما كانت تبثه الإذاعة، ومما اعتبرته محاولات لكشفها أمام أجهزة الأمن العراقي. إذ أذاعت أكثر من مرة أخباراً عن مظاهرة، أو عملية كان حزب الدعوة يخطط لها. وعموماً كانت هناك فوضى إعلامية إلى جانب الفوضى السياسية ساعدت النظام العراقي في مهمته لتصفية حزب الدعوة.

ويمكن القول أن الدعوة لم تكن محظية بالثورة الإسلامية أبداً. وربما تحسنت الأمور قليلاً بعد إعدام مهدي الهاشمي مسؤول حركات التحرر عام ١٩٨٦، وعزل الشيخ منتظري وخطه المعادي لحزب الدعوة. والجدير ذكره أن موقف حزب الدعوة من إيران يُذكّر، بموقف حزب البعث في العراق - في عهد عبد الكريم قاسم - من الجمهورية العربية المتحدة، والذي كان يحاول جاهداً الحيلولة دون ظهور خلافه معها علناً، وكان يتحاشى نقدها أمام الآخرين.

كانت هناك أسباب كثيرة ومتنوعة للانفجار الذي حدث في العراق عام ١٩٧٩. ولو اختصرناها في عنوان واحد لكان حماقة النظام وفاشيته وعدم احترامه لأي اعتبارات دينية أو اجتماعية أو سياسية.

وقد استطاع النظام بخبث ودهاء أن يلعب على المعادلة الطائفية. ثم كان لاندلاع الحرب العراقية - الإيرانية أثره في فرز المواقع الطائفية بين السلطة والمعارضة، وزاد

٩١٦- عبد الحسين الحسيني. بحث سبقت الإشارة إليه.

استمرار الحرب ذلك الفرز تكثفاً. دون أن ننسى دور النظام القديم للتقاسم غير العادل للوظائف والامتيازات في هذا الفرز. وفي الحقيقة فإن هذا هو أصل الموضوع، إذ إن مراكز القرار في الدولة وجميع المناصب العليا هي حكر على طائفة معينة. وكذلك فإن أغلبية ضباط الجيش والأمن والشرطة، ومسؤولي الحزب والدولة هم أيضاً منها.

من جانب آخر، أعاد انقلاب ١٧ تموز إلى الذاكرة ما جرى من أعمال قتل وتعذيب واغتصاب بعد انقلاب شباط ١٩٦٣، فقد شن النظام منذ البداية حملة واسعة من الاعتقالات والاغتيالات التي شملت الجميع يميناً ويساراً، فالانقلاب جاء بشباب قليلي التعليم والخبرة، ولم يكونوا بالإضافة لما عرف عنهم من جرائم عام ١٩٦٣، من ذوي السمعة الطيبة أبداً. وقد زادتهم السلطة غطرسة وطيشاً.

كان الأمن أي الشرطة السياسية التي يقودها ناظم كزار، ومكتب العلاقات العامة أي المخابرات والتي يقودها صدام حسين، يعاملون مواطنيهم - عرباً وغير عرب، سنة وشيعة، مثقفين وغير مثقفين، سياسيين وغير سياسيين، مجرمين وأبرياء، أعياناً وعامة - كأقنان بل وكأعداء.

ولم يكن هناك شيء يفسر هذا أو يبرره، سوى أنهم يعبرون بذلك عن حقدهم الدفين على مجتمع كانوا يعتقدون أنه حرمهم من مزاياه، أو أنه عاملهم بغير احترام. ولم يتغير الحال حتى بعد أن توطد النظام، وحتى بعد أن استحوذوا على كل شيء.

لقد كانت أحاديث المجتمع في السنوات الأولى من الانقلاب تدور حول أساليب التعذيب والقتل، وما يجري في قصر النهاية، والذي كان قصراً لملك العراق فحولوه إلى مسلخ بشري. وكان الناس يتهامسون عن هذه الجثة أو تلك والتي وجدت هنا أو هناك.

وحتى بعد أن حطم النظام الحياة السياسية في البلد، فقد استمر في قتل وتعذيب معارضيه، فلاذ الناس بالصمت وقد تعودوا على الحال، أو أنهم يئسوا من الخلاص، لكن كراهيتهم للنظام واحتقارهم له كانت قد تجذرت في اعماقهم.

ومما زاد الأمور سوءاً، وفي مجتمع محافظ جداً، وقبل أن يفتحوا مدرسة جديدة أو يبنوا مستشفى أو يشقوا طريقاً - ونحن نتحدث الان عن اواخر الستينات واوائل

السبعينات - افتتحوا في المدن الصغيرة -والتي تكون عادة محافظة جداً - خمارات وأكثروا من إقامة حفلات للغجر.

وكان الأمر بالنسبة لمركز ديني هام للشيعة والسنة على السواء كسامراء، يعتبر عدواناً على المشاعر الدينية. ولكن أبناء سامراء في قيادة الحزب كعبد الخالق السامرائي وعبد الله سلوم السامرائي وعلي عليان تداركوا الأمر فوراً ومنعوا تلك الأمور. وكذلك أغلق عبد الأمير الناجي القيادي في (مكتب العلاقات العامة) خمارة بلد في اليوم التالي لافتتاحها. بينما لم تجد مدن الجنوب من يتبنى شكاوى أهلها، بل أن مدينة بقدسية وأهمية (كربلاء) لم يكن حالها مختلفاً عن مدن منسية في جنوب العراق، فافتتحوا الكثير من الخمارات على ضفاف بحيرة الرزازة الواقعة عند أطراف المدينة. وصارت الناس تتناقل يومياً قصصا» حقيقية وخيالية عن (المفاسد) التي تنتهك حرمة مدينة الحسين.

وترافق ذلك مع إجراءات لم يسبق لها مثيل في العراق كإلغاء الأذان وصلاة الجمعة والبرامج الدينية. ومما له دلالته، ورغم الطابع السني للشعائر الدينية التي تقدمها الإذاعة، فان ردة الفعل كانت واحدة عند التيار الإسلامي وعلماء النجف والرأي العام الشعبي الذين اعتبروا إلغائها عدواناً على الدين، وقد طالبت المرجعية الدينية في النجف باستمرار بإعادة بث هذه الشعائر.

وبدؤا الحرب على المرجعية الدينية في النجف فجأة باتهام السيد مهدي الحكيم بالجاسوسية، وكانوا يقصدون النيل من والده السيد الحكيم. وكان على النظام أن يحترم المرجعيات الدينية للسنة والشيعة وأن يتعامل معها بصبر وحكمة. وبعيداً عن أية معلومات غير دقيقة شاعت فيما بعد، فان السيد الحكيم الأب لم يكن يفكر بتهديد النظام أبداً، وكان - في كل مرة يحدثونه فيها عن تجاوزات النظام - يذكر بالخطر الشيوعي وبالفراغ الذي سيحصل أمام هذا الخطر عند إزاحة البعث، فهؤلاء البعثيون - ولا زلنا مع وجهة نظر السيد الحكيم - غير ملحدين ويؤمنون بالشهادتين. وسواء كانت وجهة النظر هذه دقيقة أم لا، فان وجهات النظر الأخرى لم تعطِ نتائج أفضل. إذ ان

قسوة النظام والاعيبه فاجأت الجميع وسحقتهم، وفاجأت حتى قوى منظمة ومدعومة وتمتلك الكثير من الخبرة والإمكانيات كالحزب الشيوعي.

وفتقت الحرب على المرجعية الجروح الطائفية. فالحكومات المتتالية في بغداد تحاول دائماً الحد من نفوذ العلماء الشيعة، وفي الوقت نفسه لا تعامل مواطنيها بالمساواة، مما يؤدي إلى مزيد من التلاحم بين العلماء والمواطنين الشيعة، ومفاقمة الشعور بالاضطهاد الطائفي في آن معاً.

وأضعفت الحرب على المرجعية – وما بدا حرباً على الشيعة عام ١٩٦٩– العراق كثيراً والذي يعاني أصلاً من مشكلة كردية مزمنة، فتشجع الشاه المتربص بالعراق والطامع بأراضيه، فطالب بنصف شط العرب، بل وسيطر فعلياً على هذا النصف. وسيقوم صدام – بعد ست سنوات – ويمنح هذه السيطرة اعترافاً قانونياً من العراق في اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ وستكون هذه الاتفاقية عنواناً للحرب ضد الثورة الإسلامية، ثم يعود صدام وفي رسالة شهيرة وغير متوقعة إلى الرئيس الإيراني، فيعطي ثانية ما أعطاه للشاه.. على أية حال، كانت مفارقة جارحة لمشاعر المواطن العراقي، ان يبدو النظام قاسياً ووحشياً مع مواطنيه وضعيفاً وجباناً مع الشاه الأميركي.

ثم كان مقتل الشيخ عبد العزيز البدري – أول عالم دين تقتله الحكومة في تاريخ الدولة العراقية – تحت التعذيب وهو من أكبر علماء العراق. وتعتبره الحركة الإسلامية السنية والشيعية أول شهيد لها. كان مقتل الشيخ البدري سبباً كافياً لوحده لطلاق الحركة الإسلامية مع النظام نهائياً.

وكان التهجير عام ١٩٧١ وعام ١٩٨٠. ولا نقصد به تسفير الأيدي العاملة الإيرانية التي جاءت إلى العراق قبل عام أو ثلاثة أو أكثر. وإنما تهجير الذين مضى على وجودهم في العراق مائة سنة أو أكثر، ولا يعرفون غير العراق وطناً والعربية لغة والعروبة هوية. وسأعود إلى موضوع التهجير كله بعد قليل.

وبدأ النظام منذ عامه الأول الحرب على الشعائر الحسينية، ودون أن يميز بين ما يمكن منعه وما لا يمكن منعه، وما هو مقبول دينياً وما هو غير مقبول. فكان مستهجناً

لجماهير الشعب وعلماء الدين أن يفرض صدام الاحتفال بسلسلة طويلة من المناسبات المتعلقة بشخصه وحكمه كزيارته لهذه المحافظة أو تلك، وبعيد ميلاده، وبمحاولة اغتيال الزعيم قاسم وغيرها. حيث فرض على المواطنين أن يحتفلوا بهذه المناسبات، وأن يضعوا الزينة على أبوابهم، وأن يدفعوا لمدارس أبنائهم أو لبلدية مناطقهم لإقامة الاحتفالات. بينما يمنع - تحت طائلة الموت أو السجن - الاحتفاء بذكرى الإمام الحسين بن علي.

كان استمرار الاعدامات جرحاً نازفاً في الضمير العراقي. وكان لإعدام الشيخ عارف البصري وجماعته رنة حزن مختلفة، وبدا إعدامه - رغم مكانته الدينية والوساطات المتعددة - واحدة من الاستعراضات الخرقاء للقوة والتي حفلت بها سيرة صدام في الحكم.

وقبل هذا وبعد هذا، فإن سياسات النظام، وما اعتبره المواطنون من خيانات متكررة للقضية الفلسطينية، وفشله في إقامة تنمية حقيقية، وفساد الحكم ونهب الأموال العامة، وإقامة سلطة عشائرية فوق سلطة الحزب والدولة. كل هذا كان يغلي في الوجدان العراقي. ثم جاء موقفه من الثورة الإسلامية، ليكون اللحظة التي فشل صدام في اقتناصها لتصحيح علاقته بمواطنيه وإلقاء وزر كل الأخطاء والخطايا السابقة على البكر وزمرته، والصبر على أية ردود أفعال اختزنها الوجدان العراقي.

ورغم كل الإشارات المتوالية عن التململ الجماهيري من حكمه وسياساته، ورغم كل الإشارات - كبيرها وصغيرها - عن تصاعد إحساس مواطنيه بالاضطهاد الطائفي، وكان آخرها - آنذاك - مظاهرات النجف في شباط ١٩٧٧. فقد مضى صدام في سياسته الحمقاء غير ملتفت إلى شيء، وكان أشدها افتضاحاً، تزايد الطابع العشائري لحكم يدعي أنه قومي واشتراكي، ولا يكف عن وصم معارضيه بالرجعية والتخلف.

كان النظام قوياً ولم يكن يواجه - في الحقيقة - أية مخاطر داخلية جدية، وكان ولاء الجيش له محسوماً تماماً، وكذلك ولاء أجهزة الدولة وقوى الأمن الداخلي، وكان الحزب قوياً ومتراصاً. ولكن صدام وفي نيسان ١٩٨٠، وبعد ان أصبحت أعمال المعارضة مجرد حوادث فردية محدودة وطائشة. في هذه اللحظة بعينها، قرر أن يطلق العنان لأكبر حملة

دموية في تاريخ العراق منذ سقوط بغداد على أيدي المغول عام ١٢٥٨، وأن يهجر الكثير من العوائل العراقية ويلقي بهم على الحدود. وهكذا تلاحقت الكوارث.

❖ ❖ ❖

عندما صدر قانون الجنسية عام ١٩٢٤، خيّر المواطنين بين الجنسية العراقية الجديدة وبين جنسياتهم القديمة العثمانية والإيرانية. وكانت الفرصة مفتوحة أمام حملة الجنسية الإيرانية للحصول على الجنسية العراقية حتى كانون الثاني عام ١٩٢٨[٩١٧]. والذين كان عددهم يتراوح بين (٦٥،٠٠٠) و (٨٠،٠٠٠) ألفاً[٩١٨]، وذكر كاتب آخر - نقلاً عن إحصائيات بريطانية تقريبية لعام ١٩١٩- بأن نسبتهم حوالي ٥٪ من شيعة العراق التي قدرت نسبتهم تلك الإحصائيات بـ ٥٣٪ من مجموع السكان، وعدلت هذه الأرقام في عام ١٩٣٢ فأصبحت نسبتهم زهاء ٥٦٪ [٩١٩]. إذ (أن عدد الفرس في العراق في عشية إقامة النظام الملكي سجل في إحصاء ١٩١٩ البريطاني على أنه ثمانون ألف فارسي) [٩٢٠]. وفي جدول بطاطو التقريبي عن سكان العراق لسنة ١٩٤٨ والذي استثنى منه رجال القبائل الرحل المقدر عددهم بـ (١٧٠،٠٠٠) نسمة، ذكر أن عدد «الفارسيين الشيعة» هو ٥٢،٠٠٠ أي ما نسبته ١,٢٪ وأن عدد الأكراد الشيعة الفيلية هو ٣٠،٠٠٠ نسمة أي ما نسبته ٠,٦٪ والذين تعتبرهم الحكومة العراقية أيضاً من التبعية الإيرانية.

وقد استفاد قسم كبير من حملة الجنسية الإيرانية من قانون ١٩٢٤، وكُتب في جنسياتهم العراقية بأن جنسيتهم السابقة هي الجنسية الإيرانية، فسُموا عند تهجيرهم

٩١٧-إسحاق نقاش. المرجع السابق. ص١٣٧-١٣٨.

٩١٨-عبد الرزاق الحسني. تاريخ الوزارات العراقية (مرجع سابق). الجزء الثالث. ص٩٢.

٩١٩- إسحاق نقاش. المرجع السابق. ص٢٣.

٩٢٠- المرجع السابق. ص١٣٦.

عام ١٩٧٩ وما بعده بالتبعية الإيرانية. وسنعود لموضوعهم بعد قليل.

أما القسم الآخر، وربما كان الأكبر رغم أنه لا توجد إحصاءات معروفة عن ذلك، فقد وقعوا تحت تأثير دعاية الحكومة الإيرانية آنذاك، والتي بذلت قصارى جهدها لمنع (حملة الجنسية الإيرانية) من التجنس بالجنسية العراقية. وكان تيمور طاش وزير البلاط الإيراني الشهير قد كشف (أن حكومته عاقدة العزم على اجتذاب أكثر مما يمكن أن تجتذبه من مواطنيها في العراق للعودة إلى إيران[٩٢١]. وأوضح أن إيران قليلة السكان ولا تستطيع أن تتحمل فقدان أي مواطن من مواطنيها. واصدر البرلمان الإيراني قانون طوارئ يخصص ١٠٠ ألف قران لإنفاقها في العراق في عام ١٩٢٨ على إجراء إحصاء للسكان الفرس وتزويدهم بجوازات إيرانية. وذكر لاحقاً في تقرير عام ١٩٢٩ أن عدداً كبيراً من الفرس عادوا إلى إيران واستقروا في خوزستان) [٩٢٢].

كانت هناك أسباب أخرى ولعلها أكثر أهمية وراء احجام حملة الجنسية الإيرانية عن التجنس بالجنسية العراقية، فقد كان لدى الناس في العراق خوف متأصل من أية حكومة وبالتالي من أي إحصاء أو وثيقة رسمية. وهو خوف ورثوه من أيام السلطة العثمانية وسياستها التعسفية، وما تفرضه على الناس من ضرائب باهظة، وسوقها الناس إلى الخدمة العسكرية حيث اختفت آثار أغلبهم. فكان الإيرانيون في العراق ومعهم عرب كثيرون استطاعوا الحصول على الجنسية الإيرانية، بمنجاة من تلك السلطة وتعسفها. وقد خشوا بعد قيام الحكومة العراقية أن يخسروا الحماية التي تعودوا عليها، والتي كانت بدون ثمن، فلا تجنيد إجبارياً في الجيش الإيراني ولا رسوم يدفعونها لإيران ولا أي شيء آخر. خاصة وأن كيان العراق لا زال غضاً حديثاً، وكان الجهل يسود الناس الذين يعيشون

٩٢١- انظر في مقابل هذا ما يقوله براك مدير الأمن الدموي: (ان مثل هؤلاء الإيرانيين الذين دخلوا العراق بتخطيط مباشر من إيران..) تحالفات الأضداد. بغداد ١٩٨٩. ص٩٨-٩٩

٩٢٢- إسحاق نقاش. المرجع السابق. ص١٤١.

في محلية ضيقة جداً ولا يدرون - أصلاً - بما كان يجري حولهم. وحتى في السبعينات والثمانينات، كان هناك الكثير من سكان الريف والمدن الصغيرة، الذين لم يستصدروا جنسياتهم.

زد على ذلك سبب أساسي وهو أن التخلص من الخدمة العسكرية، في ظل حكومة لا تمثل شعبها ولا تساوي بينهم، وفي ظل جيش قام على التقاليد العثمانية ويعامل جنوده كعبيد، وفي ظل أمية منتشرة ووعي متخلف، كان ولا زال أمنية أي مواطن في العراق.

وبعد سنوات قليلة بدا فيها الكيان العراقي وقد أصبح مستقراً ونهائياً، وبعد أن تتالى صدور القوانين[٩٢٣] التي تمنع الأجانب من ممارسة مهن وأعمال معينة، ومن العمل في الوظائف الحكومية، ومن العمل في خدمة الأضرحة المقدسة، أحس حاملو الجنسية الإيرانية الذين لم يحاولوا الاستفادة من قانون الجنسية لعام ١٩٢٤، أنهم قد ضيعوا فرصة العمر. وقد حرصت الحكومات المتعاقبة في العراق أن لا تتكرر هذه الفرصة، ما خلا حالات نادرة لأفراد قلائل.

وفي عام ١٩٧١، وعلى طريقة صدام بقطع العقدة بدلاً من حلها، أمر النظام بتهجيرهم، بعد أن سكنوا العراق عشرات أو مئات السنين. وقد دفع الذين هجروا عام ١٩٧١ ثمن خطأ آبائهم أو أجدادهم الذين لم يحاولوا الاستفادة من قانون عام ١٩٢٤، إذا كان ثمة خطأ فعلاً.. كما دفعوا ثمن حقد وطائفية وانحطاط الحكومات المتعاقبة خاصة نظام ١٧ تموز.

وكان على الحكومة العراقية أن تتعامل مع هذا الموضوع بحكمة وبروح طيبة وأن تصدر قانوناً بتجنيسهم أو تبقي - على الأقل - الوضع على حاله للأسباب التالية:

أولاً: أن هؤلاء سكنوا العراق منذ عشرات السنين أو مئات السنين. والجيل - الذي هُجّر - لا يعرف وطناً غير العراق. فقد ولدوا وعاشوا وعملوا وتزوجوا فيه. ان الكثير من

٩٢٣- المرجع السابق. ص١٣٧-١٣٨.

العراقيين المقيمين هناك حصلوا في الثمانينات والتسعينات على الجنسية السويدية بعد أربع أو خمس سنوات، وعلى الجنسية الأسترالية بعد سنتين، وعلى الجنسية البريطانية بعد سبع سنوات.. الخ. فمن العار أن يحرم هؤلاء الذين عاشوا في العراق حتى قبل قيام الدولة العراقية من الجنسية العراقية. وقد كان هناك قانون في العراق يمنح الإنسان المولود في العراق وخلال سنة من بلوغه سن الثامنة عشرة الحق في تقديم طلب إلى وزير الداخلية للموافقة على منحه الجنسية، وفي سنة ١٩٦٤ ألغي هذا الحق في العراق بموجب تعديل قانون الجنسية، رغم (أنها جنسية من الدرجة الثانية وهو مواطن من الدرجة نفسها ويحرم من كثير من الحقوق) (٩٢٤).

ثانياً: ان لهم أقرباء وأصهار وزوجات وأحفاد من العراقيين. وإذا كانت السلطة لا تحترم حق (أولئك) فإن عليها أن تحترم حق (هـؤلاء). فانتزاعهم وإلقاءهم على الحدود لم يكن أمراً سهلاً أو عابراً، فقد ترك في النفوس جروحاً عميقة. فلم يكن من السهل أبداً أن يخبرك كثيرون بأن جدهم أو خالهم أو أهل أزواجهم قد سفروا إلى إيران.

ثالثاً: وبعيداً عن الهوس الطائفي، فإن هؤلاء لم يشكلوا خطراً في يوم من الأيام على البلاد. بل أنهم اندمجوا تماماً في المجتمع العراقي وخدموه كما أنهم استفادوا منه. وكانوا يعتزون بالعروبة ويركزون على الانتماء إليها. أما انهم - كما يقول جهاز الأمن الطائفي - كانوا يشجعون الظواهر الطائفية والشعائر الحسينية، فهذه تهمة تلاحق الشيعة عرباً وغير عرب باستمرار وقد ناقشناها كثيراً. (ان السلطة لم تجعل من طقوس الأقليات الدينية كالصابئة واليزيدية والأرمن والكلدان وحتى طقوس أصحاب الطرق الصوفية التي انتشرت مؤخراً في العراق عملاً طائفياً موجهاً ضد أحد. فلماذا تعتبر

٩٢٤- هادي الحسيني. الجنسية العراقية منذ العشرينات. الثقافة الجديدة. العدد ٢٧٠. حزيران- تموز ١٩٩٦. ص٦١.

الطقوس الشيعية عملاً طائفياً)[٩٢٥]؟

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل أن مشاكل العراق قد انتهت بعد عمليات التهجير، أم أن عمليات التهجير كانت سبباً من أسباب تفجيرها؟

وكان النظام قد اصدر قانوناً بإعادة الجنسية لأي يهودي عراقي يعود من فلسطين ويتنازل عن جنسيته الإسرائيلية. وهو ما يدعو إلى السخرية. كما اصدر عام ١٩٦٩ قانوناً بإعادة الجنسية للمار شمعون ورفاقه الذين اتهمتهم الحكومة العراقية عام ١٩٣٣ بالخيانة. بينما يشكك النظام باستمرار بولاء العراقيين ممن يسميهم بـ (التبعية الإيرانية). وقد ربط كبير جلادي النظام فاضل البراك بين نشاط الجالية الإيرانية والطائفة اليهودية[٩٢٦]، وهي دعوى سخيفة ربما تجد جذورها في الفكرة الخرافية التي تدعي بأن (التشيع) هو من صنع يهودي اسمه (عبد الله بن سبأ).

إنها (العقدة الإيرانية) والتي اتهمها بقوة بالعمل في خدمة المشروع الصهيوني. فهناك محاولات دائمة أن يحل كل من: القتال مع الأكراد (العراق)، والحرب بين المسلمين والمسيحيين (الحرب اللبنانية)، والصراع الفارسي - العربي (الحرب العراقية - الإيرانية) محل الصراع العربي - الصهيوني، ليصبح هذا الصراع نزاعاً فلسطينياً - إسرائيلياً كما يجري الحديث الآن. وليستفرد العدو بالشعب الفلسطيني، ثم يسيطر على المنطقة ويصبح سيدها. وقد ورد على لسان مدير الموساد في رواية العملية (هبرون): (وفي ربع القرن الأخير حاولنا شغل العرب بأعداء آخرين غيرنا، وظهر أن ذلك في إمكاننا)[٩٢٧]. والخطير أن تتغطى محاولات كهذه بشعارات قومية عربية. ويبدو أن التغطي بالقومية العربية، له أيضاً هدف آخر، فكما قال شاندل: (من أجل تخريب مبدأ

٩٢٥- العلوي. الشيعة والدولة القومية (مرجع سابق). ص٢٦٦.

٩٢٦- راجع المدارس اليهودية والإيرانية في العراق. بغداد ١٩٨٥.

٩٢٧- هيكل. العملية هبرون. صحيفة السفير. العدد ٨٩١٢ في ٢٠٠١/٥/٣١. ص١٥.

لا تهاجمه بقوة بل دافع عنه بشكل ضعيف).

ألقى نظام البعث في حملتي تهجير ما يساوي عدد سكان قطر والبحرين على الحدود. وسيبقى من العار أن ينفى محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الأكبر، ومرآة التاريخ العراقي الحديث، والذي تجنس حوالي عام ١٩٢٧[٩٢٨]. أو يُنفى رائد القصة العراقية، الأديب والكاتب المميز جعفر الخليلي. لقد دفن الاول في دمشق فيما دفن الثاني في الإمارات. وهناك الكثير من الشعراء والأدباء والكتاب وعلماء الدين والسياسيين الذين جرى تهجيرهم من العراق لمجرد أنهم من الشيعة. وقد وصل الأمر حداً من التفاهة، أن أصدر صدام قراراً عام ١٩٧٩ بإبدال اسم شارع أبي نواس - لأنه فارسي الاصل - بتسمية أخرى ولكن القرار لم يحالفه النجاح فظل اسم الشارع كما هو.

وفي عام ١٩٨٠ وما بعده، كانت حملة التهجير الأكثر بشاعة. إذ انتزع صدام الجنسية من العراقيين الذين كانت جنسيتهم قبل تأسيس الدولة العراقية هي الجنسية الإيرانية، رغم أن آباءهم وأجدادهم قد حصلوا عليها قبل نصف قرن بموجب قانون الجنسية لعام ١٩٢٤ الذي مر ذكره. ثم ألقى بهم على الحدود بطريقة مأساوية وأمر بفتح النار على من يحاول العودة منهم[٩٢٩]. وصادر - خلافاً لحملة التهجير الأولى عام ١٩٧١- كل أموالهم وأشيائهم الشخصية. والأبشع من ذلك أنه احتجز أبناءهم الشباب[٩٣٠]، والذين اختفت آثارهم بعد ذلك نهائياً.

ثم أصدر قراراً أكثر عاراً من قراره السابق، فقد قضى قرار مجلس قيادة الثورة المرقم ٤٧٤ والصادر في ١٩٨١/٤/١٥، بمنح الزوج العراقي المتزوج من امرأة من التبعية

٩٢٨- راجع عبد الكريم الأزري. مشكلة الحكم في العراق (مرجع سابق) ص٢١٠-٢١١.

٩٢٩- عن بشاعة التهجير راجع رائعة فائق محمد حسين (الأيام العشرة) والتي أتمنى على كل قارئ قراءتها.

٩٣٠- المركز الإسلامي للأبحاث السياسية. جرائم صدام. طهران ١٩٨٣. ص٢٩-٣١.

الإيرانية (أي العراقية التي كانت جنسية عائلتها السابقة الإيرانية) مبلغ قدره أربعة آلاف دينار إذا كان عسكرياً، وألفان وخمسمائة ديناراً إذا كان مدنياً، في حالة طلاق زوجته والتي يتم تسفيرها - بعد ذلك - إلى خارج العراق[٩٣١].

واستولى رجال الأمن والمخابرات على غالبية أموال وعقارات «المهجرين». وكان بعض ذلك مكافأة لهم من الدولة، ولكن القسم الأكبر منه استولوا عليه بطرق غير شرعية. فقد أصبح تاجراً كبيراً ضابط صف اسمه رفعت رشيد الجواري، والذي جاء من عائلة ريفية معدمة، وكان العمل في نقل المحاصيل الزراعية على ظهره بأجرة يومية هو مصدر دخله الوحيد، عندما يتوفر هذا العمل. وذلك قبل أن ينتسب كشرطي في جهاز الأمن بعد انقلاب ١٧ تموز، وقد رُقي إلى درجة أعلى بعد أن قتل شاباً إسلامياً من مدينة كربلاء يدعى أزهر الطيار وأمام أسرته حين حاول الهرب إلى بيت الجيران. وعاد النظام وأعدم يحيى والد أزهر الطيار بعد سنة من ذلك. ويبدو أن دور هذا الجلاد الدموي كان غطاء كافياً، ليستولي على الكثير من أموال المهجرين في كربلاء وبغداد والكاظمية بصورة غير شرعية، وليصبح واحداً من التجار بعد استقالته من جهاز الأمن.

وقد برر صدام نهب أموال المهجرين بمنطق يليق بقرصان لا برجل دولة، إذ قال بأنهم جاءونا حفاة وعليهم أن يخرجوا حفاة، وللمرء أن يتصور الأمور لو أن الدول الغربية أخذت بهذه النظرية الصدامية - بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ - وطردت الجاليات العربية والإسلامية واستولت على أموالهم.

❖ ❖ ❖

ان الذين خططوا وقادوا المذبحة التي بدأت عام ١٩٧٩ كانوا ثلاثة وهم: صدام حسين وبرزان التكريتي وفاضل براك التكريتي. ولا يعني هذا أبداً أن أحداً من هؤلاء

٩٣١- المرجع السابق. ص٣٢-٣٣.

كان يشارك صداماً سلطته المطلقة، ولكن صداماً نفسه قد منحهما صلاحيات مطلقة لاعتقال وإعدام أي شخص، أو بالأحرى - وأشعر هنا بالقرف وأنا أتحدث عن طائفية النظام - أي شيعي. ولم يكن قد برز دور حسين كامل بعد، والذي كان - آنذاك - حارساً شخصياً لصدام برتبة جندي، قبل أن يمنحه - بعد أن زوجه ابنته الكبرى عام ١٩٨٣- رتبة فريق ركن ويعينه مديراً للأمن الخاص والذي استحدث عام ١٩٨٤ وأصبح جهازاً فوق كل الأجهزة.

ألحق صدام عام ١٩٧٩ جهازي الأمن والمخابرات بمكتب رئيس الجمهورية مباشرة، لتصبح أعمال القتل والتعذيب تحت إشرافه الشخصي، والتي ظل يشارك فيها حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية. وقد قام - في حالات كثيرة - بالتحقيق مع ضحاياه وإطلاق النار عليهم. ففي جبهة القتال مع إيران وخاصة عند الهزائم أو عندما تفشل وحدة عسكرية في الوصول إلى الهدف المحدد لها، كان يؤتى بقادة الوحدات العسكرية إليه - وبحضور القادة الآخرين - فيوجه إليهم سؤالاً أو سؤالين بصيغة التعنيف، وقبل أن يأتي الجواب من الضحية عادة، يكون - وبما عُرف عنه من دقة في التصويب - قد أطلق رصاص مسدسه عليه.

وبعد أن فشلت محاولة اغتياله في الدجيل عام ١٩٨٢، اتخذ صدام - على الفور - من بناية مشروع ١٤ رمضان الزراعي المجاور مقراً له، وأخذ يستجوب بنفسه الأشخاص الذين يُلقى القبض عليهم في الدجيل. وعندما سأل شاباً منهم قائلاً: كيف قبضوا عليك؟ أجاب الشاب وبكل براءة: سيدي أنا صائم وجئت من الكلية ببغداد، وقد قبضوا علي في الشارع وأنا عائد إلى أهلي، وقد أكد أحد رجال الحماية الحاضرين ذلك. فضحك صدام وقال له: ان عمك الخميني أيضاً صائم وهو يحاربنا، ثم وفي لحظة نادرة في مثل هذا الموقف أمر صدام بإخلاء سبيله. وقد قتل هذا الشاب فيما بعد في الحرب العراقية - الإيرانية.

وشارك برزان التكريتي في المذبحة حتى عام ١٩٨٣. وبرزان هذا كان صدام قد اصطحبه كحارس شخصي له ليلة انقلاب ١٧ تموز ولم يكن عمره قد تجاوز السابعة عشرة أو ربما أقل من ذلك. وأصبح بعد الانقلاب أحد جلادي مكتب العلاقات العامة،

ثم عين في عام ١٩٧٢ وهو ابن العشرين ولم يحصل على أي قدر من التعليم العالي نائباً للمدير حيث تغير اسم مكتب العلاقات إلى المخابرات العامة.

وارتكب برزان في مطلع السبعينات جريمة ستبدو - رغم بشاعتها - بسيطة إزاء ما ارتكبه هو وأقرباء السلطة الآخرين من جرائم فيما بعد. فقد كان ذاهباً كعادة بعض الريفيين إلى بيوت للغجر تقع على أطراف مدينة بغداد. ولكنه - وقد كان مخموراً جداً - دخل إلى بيت مجاور يعود لأحد الفلاحين، وقد جن الفلاح وركض يدافع عن بيته وهو يرى هذا القادم الغريب الذي لا يعرفه، والذي يتكلم بألفاظ بذيئة ويشير بيديه إلى زوجة الرجل، فضربه بعصا أو أنه حاول أن يضربه فسحب برزان مسدسه وأطلق النار فصرع الفلاح المسكين في الحال، وفر بسيارته.

وأرسل صدام مبلغاً كبيراً إلى أهل الضحية الذين رفضوا استلامه، فاستدعاهم إلى مكتبه، وكانت الغطرسة لم تتلبسه تماماً بعد، وكان أيضا حذراً من ترك قصة كهذه سلاحاً بيد أعدائه الكثر في قيادة الحزب وعلى رأسهم عبد الخالق السامرائي. فاسترضاهم بطريقته الريفية الملازمة لشخصيته قائلاً: (إذا كنا في الحكم فلن تتمكنوا منا، وإذا وقع انقلاب فان الناس ستقطعنا إرباً قبل أن تصلوا لنا، فالأفضل أن تأخذوا المال وقد زدته لكم). فأخذوا المال وانصرفوا.

وقد عرف عن برزان أنه لا يقل عن أخيه بطشاً وقسوة، فأخذ - بعد عام ١٩٧٩- يتسابق مع فاضل براك مدير الأمن العام في القبض على الضحايا الشيعة والتنكيل بهم وقتلهم. فعندما قُتل أحد ضباطه وهو يقتحم بيتاً في الكاظمية لأحد المطلوبين، ذهب إلى والده ليعزيه وقال له - وهو يخرج قائمة أسماء من جيبه - إننا سنعدم اليوم مائة وخمسين من حزب الدعوة انتقاماً لابنك.

وإذا كان هناك سبب للمقارنة، فان برزان - ورغم الحملة الدموية التي قامت بها مخابراته - لم يستطع أن يتفوق على فاضل براك في عدد ضحاياه. ربما لأن مديرية الأمن - بحكم اختصاصها بالأمن الداخلي - تمتلك عدداً أكثر بكثير من الفروع داخل العراق، كما أن فاضل براك كان يفوق برزان خبثاً ودهاءً.

المفارقة أن شخصاً دموياً لم يعرف الرحمة أبداً كبرزان، وعندما توفيت زوجته التي زغردت ذات مرة عندما علمت بأن ولدهم البكر -الذي لم يكن قد تجاوز السابعة - قد شارك في إطلاق النار على المتهمين بالمؤامرة المزعومة عام ١٩٧٩[٩٣٢]. كتب يقول عنها: (علمت الكبار والصغار على الخوف من رب العالمين وعلى التقوى وحب الآخرين). ثم يقول: (الله يرحمك ومن خلال رحمته يدخل الرحمة في القلوب الظالمة التي نسيت الله[٩٣٣]. وأحسب أنه كان يقصد في الفقرة الأخيرة صداماً وأولاده.

وقد شاركت أيضاً مديرية الاستخبارات العسكرية في المجزرة بحصد رؤوس أكثر من عشرة آلاف ضحية[٩٣٤]. وعموماً فحتى داخل الفرع الواحد من فروع الأمن والمخابرات والاستخبارات، كان الجلادون يتسابقون ويتفاخرون في حصد أكبر عدد من الضحايا. باختصار شديد كانوا وبحقد أعمى يحاولون قتل أكبر عدد من الضحايا.

أما الجلاد الآخر فاضل براك، فقد محت همجيته وساديته صورة ناظم كزار من ذاكرة الناس، إذ تفوق على كزار في عدد الضحايا وفي الانتقام من ذويهم. والمثير للانتباه - ومهمة هذا الكتاب أن يناقش الأمور بصراحة - أن أبناء المدرسة الطائفية الحاكمة - وحتى الخارجين منها - يتحدثون عن براك باحترام[٩٣٥]. وان بدا طبيعياً أن يدافع عنه زميل له في أجهزة المخابرات كوفيق السامرائي، متهم هو الآخر - كما تقول الشائعات - بالعمل مع المخابرات الأميركية منذ ذهب ليتدرب هناك في منتصف السبعينات، أو عندما كان مسؤولاً عن التنسيق مع مكتب المخابرات الأميركية ببغداد منذ عام ١٩٨٢ كما تقول شائعات أخرى. ومن المؤكد من بين كل هذه الشائعات أنه عمل معهم بعد هروبه مباشرة إلى شمال العراق في منتصف التسعينات ولو لفترة قصيرة. ويدّعي

٩٣٢- طالب الحسن، حكومة القرية. ص٩٧.

٩٣٣- المرجع السابق. ص١٠٠.

٩٣٤- حسب ما نقله أكثر من شخص عن مدير الاستخبارات وفيق السامرائي.

٩٣٥- انظر مثلاً السامرائي. حطام البوابة الشرقية. ص١٩٢-١٩٣.

وفيق - والذي كان مديراً للاستخبارات في بلد كعراق صدام - أنه لم يشترك في أعمال القتل والتعذيب وكأنه كان مديراً لشركة تبغ أو حبوب!!.

وإذا كان صدام لا يمكن أن يتهم أبداً بالحكمة وإذا كان برزان طائشاً. فقد أخذ فاضل براك بدفع الأمور إلى أسوأ نهاياتها.

وكان مدعاة للاستغراب والتساؤل، قيام براك بإعدام حتى المتعاونين مع الأمن، والنادمين، والمعترفين، والذين انتزعت منهم اعترافات غير معقولة ولا يوجد أدنى دليل على صحتها، والعدميين الذين لم يكن لهم في أي يوم من الأيام أي ولاء أو انتماء، وكذلك الذين هم من أسر موالية للنظام، أو أنهم شخصياً كانوا دائماً موالين للنظام، وكان يبدو الأمر كما لو أنه قتل من أجل القتل.

فحين كتب شاب غر وببراءة - في الدفتر الخاص بالاتحاد الوطني للطلبة التابع للدولة - شعارات تقول (تسقط أمريكا.. تسقط إسرائيل.. يسقط صدام.. عاش الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية) وبعد أن استكتبوا الطلبة للتعرف على من كتب الشعارات من خلال خطه، ألقي القبض عليه، وبعد تعذيب شديد لعدة أيام في الأمن العامة، جاؤوا برؤوف حسن الذي لا يتجاوز عمره السادسة عشرة، ورغم أنهم تأكدوا أن لا صلة له بأية جهة سياسية سوى حزب البعث الحاكم. ربطوه بالحبال على عمود لكرة السلة في ثانوية دمشق العربية -مدرسته - بالدورة ببغداد، وجاءوا بزملائه طلبة صفه، وقد وزعوا عليهم البنادق، كما جيء ببعض الكوادر الحزبية ليشاركوا أيضاً بإطلاق النار على الضحية.

كانت حفلة إعدام كبرى صباح يوم ١٩٨١/٦/١٥، وكان فاضل براك قائد هذه الحفلة، والذي تقدم من رؤوف - وكالعادة في كل عملية إعدام بالعراق - وقال له: (رؤوف أنت ستموت، هل عندك شيء تقوله). فرد عليه الشاب المراهق بدون اكتراث رغم هول الموقف، وبكل شجاعة، قائلاً: (ليس عندي شيء.. وأنا بريء). ثم أصدر براك أمره بإطلاق النار على رؤوف الذي لاذ بالصمت وهو يستقبل رصاص زملائه وأعدائه.

كنت لسوء الحظ قريباً من الجريمة، فقد ذهبت في منتصف ذلك النهار القاتم

لزيارة صديق، كان يسكن بجوار المدرسة التي كانت ساحة لإعدام رؤوف قبل ساعتين. وأيضاً لسوء الحظ، فقد جمعني السجن مع أحد كوادر الحزب الحاكم، ولما سألته - ذات مرة - إذا ما شارك يوماً في عملية إعدام، أجابني بعد تردد وقد بدا على ملامحه الألم والقرف قائلاً: (نعم مرة واحدة.. فقد شاركت في إعدام شاب اسمه رؤوف حسن..) وقص عليّ بقية القصة التي كنت أعرفها. ولكنه برر مشاركته بأن فاضل براك ومسلم الجبوري (رئيس محكمة الثورة وكان مسؤوله الحزبي المباشر) وضعا اسمه على قائمة (القتلة) ليختبروا ولاءه للحزب، ولو أنه رفض المشاركة لأعدموه مع الضحية.

أما عن نهاية البراك فيقول وفيق السامرائي: (وفي منتصف عام ١٩٨٩، تم القبض على شخص يدعى صباح الخياط، وهو عراقي كان مقيماً في ألمانيا الغربية، وكان يتردد على ملحقيتنا العسكرية في بون، وذات مرة تبرع للملحقية بمبلغ مائة ألف مارك غربي، وفي وقت لم تكن الملحقية بحاجة إلى المال.. وظهر لاحقاً أن صباح الخياط الذي تربطه علاقة قديمة مع فاضل براك يعمل في التجسس ضد العراق)[٩٣٦].

و(كان كافياً أن يرفع الضابط محمد الدليمي، الذي كان مسؤولاً عن قسم ألمانيا في مكافحة التجسس مذكرة إلى مسؤوله الأعلى سبعاوي يثير فيها الشك من علاقات د. صباح الخياط مع البراك. الأمر الذي استوجب مراقبة شديدة ومتابعات دقيقة وصلت إلى اعتقال البراك عام ١٩٩٠ والتحقيق معه عن علاقاته وارتباطاته والمعلومات التي وصلت إلى قوات التحالف عن إحداثيات المواقع العسكرية والأمنية)[٩٣٧].

ويبدو أن البراك قد جُند فعلاً في خدمة الموساد، شأنه شأن رئيس استازي (مخابرات ألمانيا الديمقراطية) والذي ظهر فيما بعد أنه كان عميلاً للموساد، وكما هو حال اثنين من الملحقين العسكريين الكوبيين في منطقة الشرق الأوسط - وللمفارقة - واللذين ظهر

٩٣٦- السامرائي. المرجع السابق. ص١٩٣.

٩٣٧- صحيفة القبس الكويتية العدد (٩٤٤٧) في ١٩٩٩/١٠/٦. نقلاً عن الحسن. المرجع السابق. ص٦٢.

فيما بعد أنهما يعملان لصالح الموساد وقد جندا الكثيرين له.

وأخيراً (وقد حضر صدام مجلساً في العوجة جمع فيه أقاربه، واقتيد فاضل البراك إلى جانب من المجلس - منهار القوى متهالك البنية نتيجة السجن والتعذيب - وقال لهم صدام: ما جزاء الذين يخونون كهذا غير الإعدام؟ ولم يكن فاضل في وضع يساعده حتى على النطق.. واقتيد خارج المكان ليعدم!) [٩٣٨]. هكذا تماماً كما كان يفعل مع ضحاياه.

لقد ابتدع فاضل براك والذي رأينا قبل قليل كيف كانت نهايته - يوم كان مديراً للأمن - ومساعده الشهير في المذبحة سعدون صبري القيسي صنوفاً شتى للتعذيب، (ومنها ما يسمى بـ «شعلة البعث» وهي عبارة عن تكبيل المتهم بسلاسل مربوطة بالحائط ثم يصب على المتهم البنزين ويتم إحراقه حياً أمام سجناء آخرين لغرض بث الخوف والذعر في نفوسهم وحملهم على الاعتراف) [٩٣٩].

أشرك صدام - عمداً - أوسع عدد من مسؤولي الحزب والدولة في (المذبحة الكبرى). وقد ساهم فيها جميع الضباط والأفراد في الأمن والمخابرات والاستخبارات، كما أمر صدام أن يشارك فيها كل أعضاء الحزب من عضو قيادة شعبة فما فوق. وهذا يعني أن وزراء وسفراء ومدراء عامين ورؤساء تحرير صحف وأدباء وقضاة وغيرهم قد شاركوا بحملات الإعدام. وقد شاهدت بعيني في العراق قائمة بإعدام مائة وخمسين ضحية، وقد وقع عليها سعدي مهدي صالح التكريتي عضو القيادة القطرية ورئيس المجلس الوطني (البرلمان الصدامي) والمسؤول عن محافظة بغداد. حيث خول صدام لكل محافظة عضواً

٩٣٨- السامرائي. المرجع السابق. ص١٩٣.

٩٣٩- علي طالب. هؤلاء هم قتلة الشعب. العميد سعدون صبري الحديثي. جريدة الموقف العدد ١٩٧ في ١٠ حزيران ١٩٩٩. ص٢.

في القيادة القطرية لإصدار أحكام الإعدام الخاصة بها. ويتقدم المحافظون والقيادة المحلية للحزب ومدراء الأجهزة الأمنية والعسكرية، الصفوف في تنفيذ أحكام الإعدام بالضحايا. أما الصفوف الأخرى فتتكون من رجال الأمن والحزبيين الذين صدرت قوائم بأسمائهم للمشاركة في حملات الإعدام.

ويبدو أن أهم ما تسرب من أوساط السلطة عن المذبحة حتى الآن -ولو أنه قليل جداً - جاء من اللواء وفيق السامرائي مدير الاستخبارات والذي يروي ما نصه: (ويؤكد صدام على شمول ضباط الأجهزة الأمنية والاستخبارية بتنفيذ هذه الاعدامات، فقد روى لي ضابط ركن في الاستخبارات أنه استدعي في العام ١٩٨٣، من قبل ضابط أمن المديرية، الذي طلب منه الذهاب مع مجموعة من الضباط برفقته إلى مديرية الأمن العامة، ومن هناك تحركوا سوية إلى منطقة صحراوية قرب بحيرة الثرثار وبعد أن ترجلوا من السيارة شاهدوا حفرة كبيرة تمت تهيئتها بواسطة إحدى الشفلات (وحدة حفر هندسية) ووزعت على الضباط بنادق كلاشينكوف، وبعد دقائق وصلت سيارة باص سعة أربعين شخصاً، أنزل منها عدد من الأشخاص، وهم معصوبو العيون وأيديهم مكبلة إلى الخلف، واقتاد الحرس هؤلاء المعتقلين من العسكريين إلى أسفل الحفرة، وهم لا يعلمون ماذا سيحل بهم، وبعد أن ترك الحراس الحفرة، باشر الضباط بإطلاق النار على المعتقلين من الأعلى وإبادتهم، وبعد ذلك تم ردم الحفرة بالتراب من قبل (الشفل)، وقد سألت الضابط: ماذا كان شعورك. فقال: «ليس هناك من حل سوى أن أنفذ مرغماً، الا أنني ناشدت ربي أني بريء مما يفعلون») (٩٤٠).

ويروي اللواء وفيق أيضا: (وفي ذات مرة من العام ١٩٨١ استدعاني مدير الاستخبارات إلى غرفة القيادة الرئيسية قائلاً: يا وفيق، ان أمن المديرية يشكون من أنك الوحيد بين ضباط الاستخبارات الذي لم يذهب للمشاركة في الاعدامات، قلت له: وهل هذه مهمتي؟.

٩٤٠- السامرائي. المرجع السابق. ص١٩٤.

وكنت مطمئناً إليه ولاشمئزازه من هذه المواقف، قال: إنها توجيهات الرئيس فاذهب صورياً، خصوصاً وان الضباط المطلوب حضورهم هذه المرة أكثر من المطلوب إعدامهم، فذهبت، وكان عدد الذين يراد إعدامهم خمسة أشخاص من العسكريين المعادين لصدام، وعدد الضباط الحاضرين أكثر من خمسة، فقال لي ضابط الأمن: سيدي أنت شاهد الحال فقط، كي لا يقال أنك لم تذهب، وبقيت متفرجاً هذه المرة على ضابط الأمن العام يحمل مسدساً مزوداً بكاتم صوت يعطيه تباعاً للضباط المنفذين، ليطلق كل منهم إطلاقة واحدة على رأس واحد من المطلوب إعدامهم.. وهكذا أردي خمسة قتلى، وتجدر الإشارة إلى أن أحد الضباط الذين أطلقوا النار أعدم هو الآخر بعد أربع سنوات وقد سمعت في تلك الواقعة أحد الذين يجري إعدامهم يقول: «والله العظيم لا أعرف شيئاً» لكن من يسمع)[٩٤١].

وقد اشتهر غازي لفته الديراوي المعلم السابق ومحافظ كربلاء حتى عام ١٩٩١ – على سبيل المثال – من بين كل المحافظين، بأنه ساهم بإعدام عدد من الضحايا أكثر من أي محافظ آخر. وكان لكل منطقة ولكل دائرة أمنية ولكل وحدة عسكرية، عدد ممن يشتهرون بأنهم الأكثر حماساً من غيرهم في المشاركة بحملات الإعدام، فمثلاً كان هناك معلم في مدينة كربلاء، يتبرع دائماً بالمشاركة في أية عملية إعدام، وللمصادفة السيئة كنت اختفي في بيت مقابل لبيت هذا المعلم، وكانت زوجتاه يتحدثن للجيران وبفخر في كل مرة يساهم فيها بحملة إعدام عن عدد ضحاياه.

❖ ❖ ❖

ويبدو أن لحظة الوفاء قد حانت.. ففي تلك الأيام السوداء.. ورغم حملات التهجير والإبادة وانتشار صور الانحطاط، ورغم حالة الخوف الرهيبة، كانت هناك صور إنسانية

٩٤١- المرجع السابق. ص١٩٤-١٩٥.

رائعة ونبيلة، و كانت هذه الصور قليلة او نادرة، وكلما كانت اشجع وانبل كانت وبطبائع الاشياء اندر واقل.. وأريد أن أتحدث عن واحدة من هذه الصور النادرة، والتي تبدو في مثل ظروف العراق صورة ملائكية.

وكما هي العادة، لم تأتِ هذه المواقف من المزايدين، أو الذين يخوّنون الآخرين، أو المتخمين بالتنظير والتهريج.. فالدعي لا يمكن أن يكون نبيلاً وشجاعاً.. ولكنها تأتي دائماً من أناس طيبين لا يعرفون اللف والدوران، ثم أنهم يدركون تماماً الثمن الذي سيدفعون. فقد أصدر النظام سلسلة طويلة من قرارات مرعبة بحق أقرباء المحكومين بالإعدام أو المطلوبين لأجهزة الأمن[٩٤٢]. وفي سحق للمشاعر الإنسانية، صدر قرار بفصل ثلاث مدرسات، قمن بتعزية زميلة لهن في نفس المدرسة بإعدام ولديها[٩٤٣]. ويعرف أي عراقي أن النظام لن يكتفي بهذه العقوبة وسيظل يلاحق المدرسات الثلاث طويلاً.

واتخذ النظام من أقرباء (المطلوبين) رهائن، والذي قضى الكثير منهم سنوات وسنوات في السجن. فعائلة أحد الهاربين خارج العراق كانت قد وضعت في غرفة صغيرة، وكانت علبة الصفيح داخل الغرفة هي المرحاض الوحيد لهم والذي كان استعماله معاناة كبرى لعائلة ريفية محافظة تتكون من أم وأبناء وبنات في سن المراهقة. وفي هذه الغرفة الحقيرة مات أحد أبناء تلك العائلة اثر نوبة قلبية، وبعد سنة من وفاة ابنهم نقلوا إلى سجن آخر في الصحراء على بعد مئات الكيلومترات من مدينتهم، ولم يطلق سراحهم الا بعد عدة سنوات.

وقد سلم وبجبن وخسة كثيرون أقرباء أو أصدقاء لهم مطلوبين لأجهزة الأمن. فمثلاً سلم معلم من الحلة شقيقاً له كان مطلوباً لأجهزة الأمن، وبدلاً من التصرف بحكمة

٩٤٢- المركز الإسلامي للأبحاث السياسية. جرائم صدام. ص٤٥-٤٨.

٩٤٣- المرجع السابق. ص٣٦-٣٧.

وإطلاق سراح شقيقه فقد اعدموه، ثم عمموا على جميع المدارس كتاب شكر للمعلم الجبان على فعلته الخسيسة.

وكان لنا زميل في كلية الحقوق اختفى عن الأنظار لأنه ملاحق من الأمن، فراقبوا تلفون صديق حميم له كان أيضاً زميلنا في الكلية، وبعد يومين اتصل الملاحق بصديقه من تلفون في الشارع، فجاءوا إلى صديقه وطلبوا منه- تحت التهديد - ان يدعوه عندما يتصل به ثانية إلى بيته للغداء، وأبلغوه أن تلفونه مراقب وأن عليه أن ينفذ أوامرهم بحذافيرها وإلا سيكون مصيره الإعدام. وعندما اتصل به المُلاحق ثانية دعاه للغداء في اليوم التالي. وفي الوقت المحدد كان يقف بالقرب من البيت بائع فاكهة متجول بملابس رثة، وكان يقف بالقرب منه شخصان كانا يتظاهران بأنهما يشتريان الفاكهة منه، وكانت هناك عدة بنادق قد تم إخفاؤها داخل عربة الفاكهة. وما ان وصل الضحية وهمَّ بكبس زر الجرس، حتى انقض عليه الثلاثة، وتوقفت في الحال سيارة أجرة، كانت تقل ثلاثة أشخاص كانوا جميعاً من الأمن أيضاً. وكان هناك أيضا الكثيرون من رجال الأمن المتخفين منتشرين بالقرب من البيت، واقتادوا الضحية الذي اختفت آثاره نهائياً.

في مثل هذه الظروف، كان هناك صديق قديم لنا - وقد باعدت الأيام بيننا - جاء فجأة لزيارتي في السجن، وعندما انتهت الزيارة قال لي: (ان بيتي جاهز لاستقبالك إذا خرجت من السجن، وأنا جاهز لكل شيء). وقبل أن يأخذني الكلام، فإن قصتي لا تذكر إزاء محن أشد واجهها الكثيرون في عراق صدام.

وبعد أيام من خروجي من السجن، اضطررت للاختفاء ولهذا الاضطرار قصة لم يحن الوقت للحديث عنها، وواجهت وأنا أتنقل متخفياً الكثير من المرارة بل والمهانة، فقد أوصد القريب والبعيد أبوابه في وجهي، وهناك قصص مؤلمة لا زالت ترن في ذاكرتي عن البيوت التي التجأت إليها. فأحدها كنت ضيفاً ثقيلاً جداً على ربة المنزل التي خوفها أهلها من خطر وجودي، والتجأت إلى منزل آخر، فأعطاني صاحبه إشارة بأنه لا يستطيع استقبالي لأكثر من أسبوع. وعندما ذهبت إلى بيت رجل كان لا ينفك عن الحديث عن شجاعته وبطولته، وجدته أجبن من على وجه الأرض، وأخذ ينقل إلي كل يوم ومن وحي

جبنه أخباراً مختلقة، فمرة يخبرني أن الأمن حاصروا المنطقة، ومرة أخرى يخبرني أن الأمن يسألون عن شخص يختفي هنا في هذه المدينة.

ورفض كثيرون مساعدتي في الهرب إلى خارج العراق، بل وتنكروا لي تماماً، والمفارقة أن واحداً من هؤلاء والذي رفض حتى زيارتي، التحق بالمعارضة بعد الانتفاضة، فأخذ يزايد على الجميع ويشتم الجميع ولا يكف عن الحديث عن بطولاته ونضالاته. الا أن الحادثة التي تركت جرحاً في وجداني، هي أن شخصاً تربطنا وإياه علاقة حميمة جداً، تظاهر أنه يريد مساعدتي دون أن أطلب منه ذلك، ووعدني بأنه سيأتيني غداً بوثائق مزورة لاستعملها عند الانتقال إلى مكان آخر، الا أنه لم يأتِ. وكانت الشائعات تقول، بأن المنطقة التي كنت فيها، ستخضع للتفتيش الدوري كما جرت العادة. ومرت ساعات عصيبة لم أكن أعرف كيف أتصرف خلالها، وفي اللحظة الحاسمة ودون اتفاق، جاء لزيارتي أحد أقاربنا والذي لم يخذلنا أبداً، وأخذني بسيارته إلى منطقة أخرى، وكانت مجازفة خطيرة، إذ كدنا نقع ضحية حاجز متنقل للجيش الشعبي، لولا اكتشافنا له قبل مسافة مناسبة بحيث لم نلفت انتباه أحد.

إذ ذاك تذكرت صديقنا القديم الذي زارني في السجن، فذهبت إليه وكان خياري الأخير، فوجدت فيه أباً وأخاً وصديقاً وحبيباً. وكان في كل يوم جديد – وهذه صفة خاصة ببعض الناس النادرين – يزداد كرماً ووداً وطيباً. والى جانب ذلك كان شجاعاً جداً، ولم أر في حياتي أشجع منه قط. واليوم وأنا أتذكر تلك السنوات الأربع التي قضيتها في بيت الشيخ محمد حسن البزوني(٩٤٤)، ورغم بشاعة الخوف، أشعر أنها لا تخلو من روعة، فالحياة مع الناس النبلاء تبقى دائماً رائعة.

❖ ❖ ❖

٩٤٤- والده الشيخ محسن البزوني من علماء الدين المرموقين (توفي عام ١٩٩٦). أما هو فكان يعمل في تجارة قطع السيارات المستعملة. ويقيم حالياً في الولايات المتحدة الأميركية في ولاية أريزونا.

كانت سنوات الثمانينات سنوات رهيبة، خاصة السنوات ٨٠، ٨١، ٨٢، ١٩٨٣. فالكثير من الطلاب والموظفين أو غيرهم من الناس الذين يخرجون إلى أعمالهم، كانوا يختطفون من الشارع وتختفي آثارهم نهائياً. وكان البعض الآخر، يُعتقل في بيته، أمام عائلته، والذين يجب ألا يحركوا ساكناً، وإلا فإنهم سيُعتقلون أيضا. وقبل أن يقتحم رجال الأمن البيت، فإنهم يقومون بمحاصرة الشارع وتطويق منافذه، ثم يضعون سلماً وينزل بعضهم على سطح البيت، ويقوم الآخرون بطرق الباب، والذي ما أن يفتح حتى يتوزعون على غرف البيت وممراته. وإذا امتنع أهل المنزل عن فتح بابه، فانهم سيخلعون الباب بسرعة.

وإذا ما توقعوا حدوث أية مقاومة، فانهم سيتخذون إجراءات أشد صرامة، كتطويق المنطقة إضافة للشارع، واستخدام قوات خاصة من الأمن تسمى (قوة الطوارئ) والذين يقومون بإنزال فوق سطوح البيوت المجاورة والمقابلة قبل اقتحام بيت المطلوب. وعادة - وقبل اقتحامه - يوضع البيت تحت المراقبة الشديدة لبضعة أيام، كما أنهم يحرصون بشدة على مفاجأة سكانه عند اقتحامه. وما لم تقع مواجهة مسلحة - وهو أمر نادر جداً - فانهم أيضا حريصون على سرية العملية، بحيث تتم حتى بدون علم الجيران.

وعندما تكون لدى أجهزة الأمن معلومات - وبغض النظر عن دقتها - بأن المطلوب هو من أعضاء حزب الدعوة، فانهم يعتقلون العائلة أيضاً. وتبقى بعض عناصر الأمن في البيت لعدة أيام، لاعتقال كل من يأتي إلى البيت. وقد ذهب أبرياء كثر قادتهم المصادفة أو الحظ العاثر إلى هذا الموقف. فمثلاً أرسلت إحدى السيدات ابنها مع شيء من الطعام قد طبخته إلى صديقة لها، فاصطحب الابن معه ابن الجيران إلى بيت صديقة أمه، والذين كانوا قد اقتحموه للتو، واعتقلوا العائلة كلها مع ابنها المتهم بالانتماء إلى حزب الدعوة. وبقي - كالعادة - بعض أفراد الأمن في البيت. فلما طُرق الباب، قبضوا على الابن المسكين وصديقه، واختفت آثارهما، ويبدو أنهم اعتبروا أن الطبق كان لمجرد التمويه، ولم يقتنعوا بالقصة الحقيقية. ولما يئست من عودته - وأتكلم هنا عن عائلة

تربطنا معها علاقة حميمة[٩٤٥] - أرسلت الأم ابن الجيران الآخر والذي لم يرجع هو الآخر، واختفت آثاره أيضا.

والحقيقة، ان من الصعب القول إذا ما كان جلادو الأمن مقتنعين فعلاً بصحة اعترافات ضحاياهم، أو أنهم كانوا يدركون أنها منتزعة بالتعذيب، وأن لكل إنسان قدرة احتمال معينة. إنهم كانوا يخاطبون ضحاياهم بالقول بأن كثيرين قبلكم تظاهروا بالبراءة ثم اعترفوا بالحقيقة.

ويبدو أن الذين خططوا للمجزرة كانوا يدركون الحقيقة. إذ (أرادت السلطة العراقية أن تقطع الطريق على إمكانية تكرار التجربة الإيرانية في العراق.. فكانت واحدة من وسائلها وإجراءاتها الوقائية.. تصفية أي معارض على قاعدة المعارض الفعلي.. والجمهور المعارض الفعلي.. والمعارض المحتمل.. والجمهور المعارض المحتمل.. حسب خطة أسمتها «خطة السلامة الوطنية» وراح ضحيتها مئات الآلاف من العراقيين)[٩٤٦]، فكانت أبشع مجزرة طائفية.

وكان التعذيب قاسياً جداً لانتزاع اعترافات عن العلاقة بحزب الدعوة أو بإيران. وفي مديرية الأمن العامة وحدها كان يموت تحت التعذيب عدة أشخاص يومياً. والى جانب اعترافات قليلة جداً لأعضاء حقيقيين في حزب الدعوة، كانت الأغلبية مضطرة للإدلاء باعترافات منتزعة، إذ يعترف الضحية - تحت الإكراه - على أشخاص آخرين، وعندما يؤتى بالضحايا الجدد يتعرضون لنفس الامتحان وهكذا دواليك.

واستخدم الجلادون إلى جانب البطش والتعذيب، أساليب ترغيب وخديعة، ومن هذه الأساليب استخدام مجموعة من (المعترفين) من أعضاء حزب الدعوة للإيقاع بضحاياهم. وكانوا يسمون هذه المجموعة بلجنة المساعي الحميدة، والتي غررت بالكثير

٩٤٥- تقيم حالياً هذه العائلة في هولندا. وهي عائلة التاجر المعروف عبد الرزاق الأحمدي.

٩٤٦- عبد الحسين الحسيني. بحث سبقت الإشارة إليه.

من الضحايا، الذين وعُدوا بالحصول على المعاملة الطيبة ثم يطلق سراحهم بعد فترة قصيرة، بموجب عفو عام (مزعوم) عن كل نادم. وباستثناء واحد من اللجنة كان يتجسس عليها، بل وكتب تقريراً لهم يطلب فيه اعتقال والده الذي ادعى أنه كان ينتقد الحكومة، ولم يأخذ مسؤولو الأمن بهذا التقرير ولكنه كان كافياً ليعطيهم صورة عن دناءة الرجل فأطلقوا سراحه. وحكموا على اثنين منها بالسجن المؤبد، ونفذ الإعدام بالآخرين ومنهم شقيق لفاضل الزركاني مدير أمن البصرة وأحد جلادي النظام المعروفين ويقال أنه أعدم بطلب من شقيقه.

وربما كان للأفكار السخيفة التي يحملها النظام وجلادوه عن (الشيعة) دور كبير في حجم المجزرة. خاصة فيما يتعلق بالتقية إذ كما يقول المثل الأميركي: (عدم معرفة الشيء هي التي تولد العنصرية). فهم يعتقدون بأن الشيعة مخادعون ويظهرون غير ما يبطنون. بل وكمثال على طريقة تفكيرهم - وقد واجهونا جميعاً بذلك خلال التحقيق - فإنهم يرددون أن الشيعة يبيحون اللواطة.. إلى آخره.

وكانت محنة لا تطاق لعلماء دين كبار ولمثقفين، أن يحاججهم بهذه العقلية بائع سجائر سابق في سينما الأعظمية، والذي كان يعيش متشرداً ومنبوذاً، وأصبح الآن ثالث أهم ضابط في الأمن العامة بعد فاضل براك وسعدون صبري القيسي، وبالتالي فان بيده مصير عشرات الآلاف من السجناء. انه (عادل إبراهيم الأعظمي) واسمه الأمني (الرائد عامر). والذي ينام في الأمن العامة وهو عادة لا ينام الا قليلاً، ويتناول وجباته الثلاث أثناء عمليات التعذيب فلم يكن لديه الوقت ليتناول طعامه في مكان آخر. وكان يجلس وراء طاولة في غرفة التعذيب ليتناول طعامه حيث يصدر أوامره لمساعديه بالاستمرار في التعذيب. وهنا أروي مشاهداتي الشخصية كأحد الضحايا. ويموت بين يديه يومياً عدة اشخاص من التعذيب حيث يوضع من يموت في غرفة مجاورة، وينقلونه في ساعة متأخرة جداً من الليل محمولاً ببطانية ليُلقى به في أماكن نائية خارج بغداد. الجدير بالذكر هنا أن الجلادين حريصون جداً على حياة الضحية إذا اعتقدوا أن لديه معلومات ثمينة.

وبعد أن قتل بائع السجائر ذو الطفولة المشوهة ما لا يمكنني تقديره بدقة ولكنني أعتقد بأن عشرات الآلاف قد قضوا على يديه أو بإشرافه أو بسبب الاعترافات التي انتزعها منهم. تزوج عام ١٩٨٣. وفي عام ١٩٨٦ استدرجه شخصان كانت تربطه بهما علاقة تجارية، وقتلاه وقطعا جسده أشلاء ودفناه في مزرعته التي منحتها له الحكومة في أطراف بغداد. وكان دافعهما كما يبدو الانتقام لضحاياه وقد كان يكثر الحديث أمامهما عما فعله بهم فحقدا عليه وقتلاه. وللأسف أن أحدهما - وبعد عام من الحادث - وقد اعتقل لسبب آخر اعترف تحت التعذيب على قتلهم الجلاد ودلهم على بقايا جثته.

❖ ❖ ❖

كان لكل دائرة أمنية ولكل ضابط أساليب تعذيب خاصة بهم، فمثلاً كانت مديرية أمن النجف تلجأ إلى كسر اليدين. أما مديرية المخابرات فكانت تستعمل وسائل آلية في التعذيب، وكان كريم الياسري مدير أمن الكرخ (٨٠-١٩٨٦) يعمد إلى إحراق ضحاياه بإشعال كحول معطل (اسبيرتو) يصبه على صدورهم فيشتعل لثوان معدودة. ثم أن التعذيب وتصاعده يتحدد على أساس أهمية الضحية وتصوراتهم عنه.

وفي الشعبة الخامسة بالأمن العامة، يربط المتهم طيلة فترة التحقيق كالشاة بسلسلة إلى حلقة مثبتة بأنبوب على الأرض، وتكون على مسافة من حلقة أخرى يربط بها سجين آخر. ويمتد الأنبوب على طول ممر قسم التحقيق. ويجلس الضحية على الأرض في النهار حيث لا يسمح له بالنوم خلاله، ويعطى بطانية بالية كفراش وغطاء وبدون مخدة ليلاً، ولا يسمح للضحية بالكلام أبداً، وقد بقي بعضهم أكثر من سنة على هذه الحال، ويكون الطعام قليلاً جداً ولكنه يبدو مقبولاً ومتنوعاً في مثل هذه الظروف.

وكان الذهاب إلى المرحاض عذاباً حقيقياً، إذ يؤخذ السجناء بالضرب والركل فرداً فرداً إليه مرتين يومياً فقط، دون أن يسمح لهم برفع قطعة القماش التي تغطي عيونهم، او يفتحوا لهم الجامعة. ولا يسمح للسجناء - ما داموا تحت التحقيق - بالاستحمام أبداً.

ويجب القول هنا أن السجين – كلما يمضي الوقت – يصبح أكثر تكيفاً مع ظروف كهذه وأقدر على التعامل معها.

أما التعذيب فيبدأ بتعرية المتهم من كل ملابسه حتى الداخلية منها، ثم يعلق بربط يديه بسلك يتدلى من السقف. وبالنسبة للمرأة – ففي المراحل الأولى من التحقيق والتي قد تكون ساعات أو أيام – تترك بملابسها الداخلية فقط، أي بما يغطي الصدر والأعضاء التناسلية. وفي المراحل التالية – خاصة إذا ما تصوروا أن الضحية تخفي معلومات مهمة – تجرد من ملابسها الداخلية وتهدد بالاغتصاب. ثم تغتصب بممارسة جنسية غير كاملة، ما خلا حالات نادرة كانت فيها الممارسة كاملة، وقد اغتصب بعض الرجال أيضا. ولكن الكثير من السجناء، ادخل قضيب من الحديد على شكل عضو ذكري، ومغلف بالمطاط، بعد أن يُطلى بالزيت أو بمادة مشابهة في مؤخرتهم. وفي مثل هذه الحالات يصبح السجين ولأشهر غير قادر على السيطرة على مؤخرته.

يكون تعليق الضحية من يديه المربوطتين إلى الخلف، ويتصاعد التعذيب من العصا الكهربائية الموخزة، إلى الضرب المبرح، إلى الصدمات الكهربائية المتصاعدة، والتي يكاد المرء أن يتقيأ أحشاءه بسببها، ثم يفقد وعيه، فيُنزل إلى الأرض، ويستعملون مواد منشطة لإعادته إلى وعيه. وفي اللحظة التي يفتح فيها الضحية عينيه، يبدأ الضرب على قدميه، بعد أن يرفعوها إلى أعلى بعصا، وإذا ما أغمي على الضحية – في هذه المرة – يسحبونه إلى خارج غرفة التحقيق، ويبدأ دور ضحية أخرى.

وبعد أيام متتالية من التعذيب المتصاعد كإطفاء أعقاب السجائر في مناطق مختلفة من الجسم والوجه ونتف اللحية والشارب وشد شعر الرأس وإحراق أماكن مختلفة من الجسم بالولاعة بالاضافة إلى الضرب المبرح والصدمات الكهربائية وغيرها. يجري ربط الضحية إلى سلسلة معدنية تتدلى من الحائط، فيظل واقفاً على قدميه وعارياً لعدة أيام. وكانت هذه الطريقة تسمى بالعلّاقة نسبة إلى علاقة الملابس. ولا تفتح السلسلة الا عند الطعام أو عند الذهاب إلى المرحاض فقط. ويتعرض الضحية – طيلة فترة العلّاقة – إلى الضرب والشتائم. ولن أنسى أن فتاة كانت معلقة بملابسها الداخلية بهذه الطريقة

بالقرب مني. وذات مرة جاءها ضابط التحقيق وضربها على وجهها وقال لها: (اعترفي حفاظاً على شرفك)، فأجابته - وهي في أشد حالات الإعياء - بكلمة غير مفهومة ربما كانت (أنا بريئة).

وحسب رواية سجين آخر يدعي أنها حصلت معه، فقد وضعوا في قضيبه بعد أيام من التعليق قضيباً رفيعاً من الزجاج جعله يعاني من آلام مبرحة، ولا أستبعد أن ذلك قد حصل معه أو مع آخرين، فقد كان هناك مسلخ بشري استخدموا فيه ما يخطر على البال وما لا يخطر على البال. ان السجين وبعد أن يفقد الوعي في العلاقة حتى لا تنفع معه أية محاولة لإعادته للوعي تفك يديه من العلاقة حيث يستسلم للنوم.

وبعد أن يستيقظ الضحية، وبعد تعذيب متكرر لعدة أيام، يعلق الضحية في غرفة التحقيق ليلاً حتى اليوم التالي، أي لأكثر من ثمان ساعات، ولا يُسمح له خلالها بالصراخ أبداً. وإذا ما صرخ فان الشرطي الموكّل به - وقد ذهب الجلادون إلى النوم - سيضربه فيضطر الضحية للسكوت والعض على جراحه كما يقال. وبهذه الطريقة من التعذيب كان يقضي أكبر عدد من الضحايا الذين يموتون عند التحقيق.

بعد هذه التجربة التي لا يتجاوزها الا القليلون جداً وإذا كانت المعلومات التي لديهم حول الضحية ليست خطيرة، أو ان من اعترف عليه كان قد تراجع عن اعترافاته، فانهم يتركون الضحية، وينقلونه إلى سجن أفضل حيث تترك عيونه بدون غطاء ويديه بدون جامعة، ويرسل بعدها إلى محكمة الثورة الصورية ليحكم بالسجن (٥) أو (٧) سنوات بتهمة التحريض على الطائفية.

وفي الحالات الأخرى، يُؤتى بعائلة الضحية، ويتم إدخالها عليه إلى غرفة التحقيق، لإضعاف معنوياته، وعندما يعتقدون أن لدى الضحية معلومات مهمة، تُعرى أمامه شيئاً فشيئاً زوجته أو أخته أو أمه أو ابنته، ويهدد باغتصابها، ويجري تمثيل ذلك أمامه على مراحل، ويستمرون في تعذيب مثل هذا الرجل حتى الموت.

أما عندما يريدون من المعتقل اعترافات سريعة فانهم يبدؤون بتعذيبه من آخر مرحلة تحدثنا عنها.

ويؤخذ بعض الضحايا ليشاهدوا عملية (شعلة البعث)، أو عمليات إعدام ضحايا آخرين. حتى الذين أدلوا باعترافاتهم، كان يتم إحضارهم ليشاهدوا هذه العمليات لإرهابهم للإدلاء باعترافات أخرى، وهناك طرق أخرى كالتهديد بالحيوانات المفترسة والثعابين، وتمثيل عملية إعدام وهمية على الضحية. فضلاً عن طرق تعذيب كثيرة قد يتفتق ذهن الجلاد عنها، كوضع الضحية عارياً تحت أنبوب مطاطي يحترق، فتتساقط بقاياه المحترقة والتي تلتصق عادة بالجسم على جسم الضحية وكوضع الضحية في قبو يكون ارتفاعه أقل من طول الإنسان الاعتيادي ويملأ إلى نصفه بالماء، فلا يستطيع الضحية الجلوس أو الوقوف.

ولأن لكل إنسان قدرة احتمال معينة، فان هناك من يعترف من اللحظة الأولى، وأحياناً قبل أن يبدأ التحقيق معه. وهناك من يعترف بعد يوم أو يومين أو بعد أسبوع أو أكثر، وهناك – وفي حالات نادرة جداً – من اعترف بعد ستة أشهر. وكانت أكثر الوسائل وهناً لصمود السجناء، ودفعهم للاعتراف، هو إحضار عوائلهم والتهديد بالاعتداء عليهم.

ولكن هناك صور بطولية كثيرة للصمود حتى الموت. وأريد هنا أن أتحدث عن صورتين للصمود في تلك الأيام الحالكة. الأولى، تجسدت في السيد علاء الدين الحكيم، والذي صمد إلى النهاية صموداً بطولياً. والذي كان أيضاً رائعاً في حنوه على رفاقه السجناء، وفي تصليب موقفهم. وقد أعدم وستة عشر آخرين من عائلة الحكيم ودون تهمة محددة انتقاماً من السيد محمد باقر الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية.

أما الصورة الأخرى، فلم تكن صورة للصمود فحسب، بل كانت أيضاً أروع صورة للتحدي، وقد تجسدت في المحامي عبد العظيم نعمة شبيب العمر، وهو من عشيرة البو صالح في الناصرية، ومن كوادر حزب الدعوة الأوائل، ومن المسجونين سابقاً عام ١٩٧٢ وكان عضو لجنة تنظيم الناصرية عند اعتقاله عام ١٩٨٢. وقد صمد صموداً عجيباً، رغم أن هناك اعترافات كثيرة عليه.

ففي إحدى الليالي الشتوية الحالكة، في منتصف كانون الثاني ١٩٨٢، وكان عبد العظيم مربوطاً في الممر الرهيب لتحقيق الشعبة الخامسة. وعلى بعد مترين أو ثلاثة

منه، كان هناك ثلاثة أشخاص مربوطين كشأن بقية السجناء في جزء من هذا الممر لوحدهم، وهم: كاتب هذه السطور، وفي مقابله السيد علاء الدين الحكيم، وعلى مسافة منه، العميد عدنان ضابط الاستخبارات السابق، والذي كلفته الحكومة العراقية بنقل أسلحة في بداية الثورة الإسلامية إلى العشائر العربية في عربستان. ولكن هذه الأسلحة عادت وتسربت إلى العراق. فقُبض عليه، وقد برر الأمور بأنه سلم الأسلحة كما طُلب منه. أما كيف وقعت الأسلحة في يد الحكومة الإيرانية فهو لا يعلم عن ذلك شيئاً. وكان العميد عدنان يحظى بمعاملة أفضل من غيره بتوصية من صديقه عدنان خير الله وزير الدفاع، إذ يسمح له بالتدخين، وبالذهاب إلى دورة المياه أكثر من غيره. وكانت لديه أكثر من بطانية. وطيلة الفترة التي كنت فيها لم يتعرض لأي تعذيب.

في تلك الليلة، وبينما كان صبي سينما الأعظمية يغادر غرفة التحقيق - ويبدو أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل - كان عبد العظيم قد أزاح قطعة القماش المربوطة على عينيه. فالتفت الصبي إليه، وقال كلاماً لم أعد أتذكره بالضبط، ولكنه كان يشير إلى الصور غير المحتشمة (المرتبة) لعلماء دين ومعارضين إسلاميين. والتي تُعرض في التحقيق على الضحايا، غامزاً الشيعة - وأنا هنا أحاول أن أصور الأمور في تلك الأماكن الحقيرة مهما كانت تفاهتها - بإباحة اللواطة. فرد عبد العظيم قائلاً: هذه الصور كذب. اللواطة حرام عند الشيعة وعند السنة، وبنص القرآن الكريم. هذا الكلام عيب.

وتدخل عالم دين معروف حكم عليه بالإعدام فيما بعد، بعد أن استأذن الصبي، وكان مربوطاً بالقرب من عبد العظيم. ويبدو أنه أراد أن يخفف من حدة الحديث، ولكن عبد العظيم رد عليه بقوة وأسكته. كان الصبي مأخوذاً برد عبد العظيم، إذ لم يكن يتصور أن يتحداه أحد في شعبته الإرهابية كما كان يسميها، فأراد أن يحول الحوار إلى اتجاه آخر.

فقال: أنتم عملاء.

فرد عليه عبد العظيم: أنت العميل.. أنتم مرتزقة تعذبون الناس براتب.. أنتم عملاء لأمريكا.. نحن أبرياء مظلومين.

فقال الصبي: أنتم عملاء لإيران.

فرد عليه: السيد (ويقصد السيد الخميني) ثار من أجل الإسلام والقرآن. هذه الثورة لو لم تكن إسلامية فهي لا تساوي عندي شيئاً.

فقال الصبي: أنتم فرس.

فرد عبد العظيم: أنا بدوي من بني مالك.. وأنت تركي من بقايا العثمانيين.. أنا الذي يجب أن أقبلك في العراق.

عند ذلك طلب الصبي (العصا)، إذ أسقط في يده وحار كيف يتصرف مع عبد العظيم الذي مرغ أنفه في الوحل، رغم أنه كان يحاول أن يتظاهر بالتماسك أمام مرؤوسيه وأمام ضحاياه. أما عبد العظيم فقد قال: إلى متى الذل.. أنت ابن امرأة وأنا ابن امرأة.

ثم بدأ الصبي يضرب البطل بكل ما أوتي من قوة. وكنت أسمع كما كان غيري يسمع وقع كل ضربة، حتى كأن ناراً كانت تتوهج منها. ولكن عبد العظيم لم يصرخ، ولم يتأوه، ولم يتحرك، ولم ينبس ببنت شفة، فقد كان كالجبل الأشم. وكانت لحظات بدا فيها الموت وكأنه يحوم على رؤوس الأشهاد. وبعد ضربات وضربات. ألقى الصبي العصا على الأرض وولى خائباً.

وفي الأيام التالية قام الصبي بتعذيب عبد العظيم أشد تعذيب، ثم أخذوه محطماً إلى مستشفى الأمن. وبعدها أرسلوه إلى محكمة الثورة. وعندما حُكم بالإعدام أو قبل صدور الحكم، بصق على الجلاد مسلم الجبوري رئيس المحكمة.

❖ ❖ ❖

ان البحث عن ارقام دقيقة لضحايا المذبحة، تبدو مهمة مستحيلة. وذلك بسبب الستار الكثيف من السرية، والخوف الرهيب، بالإضافة إلى أن جهات متعددة من النظام شاركت بالمذبحة وبأساليب متنوعة. إذ كان هناك من يُرسل إلى المحكمة فيُحكم بالإعدام، ومن يموت خلال التعذيب، ومن يُقتل هنا أو هناك، ومن يدفن حياً.

(وتستخدم الأجهزة الأمنية وسائل مختلفة لتصفية المعارضين السياسيين، منها

ربط قنابل موقوته بسيارة الهدف، أو باستخدام السموم مثل الثاليوم سيئ الصيت، الذي يمكن استخدام جرعة قليلة منه في قدح من الشاي أو القهوة أو البيبسي كولا لقتل الهدف، ولا يترك أثراً في الطعم أو الرائحة. كما أن هناك جرعات تعطى على شكل كبسولة أو حبة دواء تؤدي إلى إصابة الهدف بالسرطان بعد فترة قصيرة وتطلق عليها تسمية المواد المسرطنة، وسموم سريعة تؤدي إلى توقف القلب وما إلى ذلك من الوسائل الإجرامية)[٩٤٧].

وهناك لغز لم أجد له حلاً، ففي الثمانينات وعندما تضيق سجون (الأمن العامة) بنزلائها - وهي دائماً كانت مزدحمة - كانوا يأخذون أعداداً كبيرة من السجناء الذين انتهى التحقيق معهم. وكان يُقال -وقتها - بأنهم يُنقلون إلى سجون أخرى في المحافظات حتى يحين يوم محاكمتهم. وكانت التسمية المتداولة بين السجناء لهذه الأعداد المنقولة هي (الوجبات). ولكن هذه الوجبات - وهنا اللغز - اختفت آثارها تماماً، باستثناء الوجبة التي نُقلت إلى سجن مديرية أمن تكريت.

ويبدو أنهم لقوا نفس مصير زملاء آخرين لهم، ففي يوم ٨ شباط ١٩٨٢ - وربما احتفالاً بذكرى انقلاب ١٩٦٣ الدموي - وقد ضاقت سجون الأمن العامة جداً، سحبوا سبعمائة سجيناً من الذين انتهى التحقيق معهم، وأعدموهم في الأمن العامة، في قاعات معدة لهذا الغرض ومغلفة (بالفلين) حتى لا يُسمع صوت الرصاص في الخارج. وكان من بين ضحايا ذلك اليوم المشؤوم، مزهر الطحان، أشهر دكتور للعلاج الفيزيائي في العراق، والذي قُبض عليه عندما كان عائداً قبل أربعة أشهر من أوروبا. وكان شاب من مدينة الثورة قد اعترف بأنه هرّب شقيق مزهر الطحان، المطلوب للأمن - والذي كان متخفياً في بيت شقيقه - إلى خارج العراق. ولم ينف الدكتور مزهر أن أخاه كان فعلاً في بيته. وكانت هذه التهمة كافية لإعدامه.

٩٤٧- السامرائي. المرجع السابق. ص٢٠٧.

ان القول بأن فلاناً قد اختفت آثاره، يعني ببساطة أن جثته لم تسلم لأهله، إذ ألقيت جثث أغلب الضحايا في العراء في مناطق مختلفة من العراق، كالخالص والشنافية والناصرية وحول مدينة الثورة وغيرها. ويبدو أن الهدف من ذلك، كان إرهاب المواطنين، وربما أيضا الانتقام من الضحايا.

كما لجأ النظام إلى دفن الكثير من ضحاياه أحياء. ففي عام ١٩٨٣ - مثلا - عُزل في المعتقل الموجود على أطراف الصحراء بمنطقة السماوة، الرجال ومعهم الأطفال - الذين تزيد أعمارهم على سبع سنوات - عن عوائلهم من أهالي بلد. حيث أخذوهم ودفنوهم أحياء، وقد أشرف على هذه العملية، خير الله حمادي عبد التكريتي، ضابط أمن بلد آنذاك ومدير الشرطة العام فيما بعد. أما عوائلهم فقد أطلقوا سراحها عام ١٩٨٦.

ويبدو أن عام ١٩٨٣ كان عام دفن الضحايا أحياء، فقد جرى هذا مع ضحايا كثيرين، من بينهم عوائل كردية كاملة برجالها ونسائها وأطفالها والتي دفنت أيضاً في صحراء السماوة.

الفصل العاشر

اللعب مع الكبار

(الجملة الثورية بدون قوة تحميها خيانة)

اليكسي كوسيجين

في نهاية عام ١٩٧٨، ومع تصاعد الثورة الإسلامية في إيران، استغرب الصحفي اللبناني الكبير وليد الحسيني وفي افتتاحية شهيرة في مجلته الكفاح العربي البيروتية، من إقحام الكويت – الإمارة الصغيرة والغنية والوادعة– نفسها في (الحدث الإيراني). وتساءل عن الدافع وراء رحلات ولي العهد سعد العبد الله الكثيرة في المنطقة. وناشد الحسيني أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد، الذي عرف بالحكمة والتعقل، أن يعيد للسياسة الكويتية رشدها.

لقد تخلت حكومة الكويت لأول مرة عن الحكمة التي عرفت بها، والتي جعلتها – دائماً – خارج محاور المنطقة وخلافاتها، فحتى عندما وقع صراع بمستوى (حرب اليمن) في الستينات فإنها نأت بنفسها عنه، وظلت على علاقة جيدة بجميع أطرافه. اما الان فقد زجت نفسها في الحدث الإيراني، فأخذت تغرق يوماً بعد آخر في مستنقع الحرب العراقية –الإيرانية. وكانت تفجيرات عام ١٩٨٣ ومحاولة اغتيال أمير البلاد، أول النُذر بأن الكويت ذهبت بعيداً، أكثر من قدرتها، وأكثر من طاقتها، وقبل هذا وبعد هذا أكثر من ضروراتها. ولكن الكويت – بعد التفجيرات – وإن خففت من علنية دورها الا أن التراجع بدا لها مستحيلاً، فالحرب اخذت تقترب من أبوابها شيئاً فشيئاً، أو على الأقل – هكذا – بدا المشهد في تلك الأعوام.

وكان شعور الناس في العراق - وقد زجوا في حرب ليست هي حربهم - أن نادياً إقليمياً هو الذي رماهم في أتون هذه المحرقة، وأن الكويت هي أحد أركان هذا النادي، بل وبدت أكثر أعضاء هذا النادي حماساً. يضاف إلى ذلك، تعاونها ضد (المعارضة العراقية) وتسليمها الكثيرين منهم للأمن العراقي.

لقد كانت الكويت الملجأ الأمين للهاربين من العراق، كلما احتدم الصراع السياسي فيه، فقد هرب إليها الشيوعيون في العهد الملكي، وهرب إليها البعثيون في العهد الجمهوري، وهرب إليها الإسلاميون في العهد البعثي، ولم تُخدش هذه الصورة حتى عندما اغتيل وزير الدفاع السابق حردان التكريتي في قلب الكويت. أما الآن فإن الكويت أصبحت وكأنها - المحافظة التاسعة عشرة - حيث تعتقل المخابرات العراقية فيها من تشاء، وتأخذ إلى العراق من تشاء. وتحولت السفارة العراقية إلى (مديرية أمن) مخيفة.

وطالت الحرب وتعقدت، وتصاعدت نفقاتها، ولما توقفت شعر صدام أنه وُرط في الحرب فعلاً، وأن العراق تحمل نفقات الحرب ودماءها معاً. وكانوا قد تعهدوا له، أو هكذا فهم الأمور، فمنهم المال ومن العراق الرجال. ولم يكن مقبولاً عنده، أن يخرج العراق من الحرب محملاً بالديون للكويت، وهم شركاؤه فيها، وقد قدم العراق ما قدم من ضحايا كثيرة تساوي أكثر من ثلثي مواطني الكويت.

وللمرة الثانية، تتخلى الكويت عن حكمتها، ولم تفعل ما فعلته السعودية، وتعفي العراق من ديونه لها بسبب الحرب، والبالغة ١٦ مليار دولار، وقد طلب منها العراق ذلك سنة ١٩٨٩[٩٤٨]. بل (سجلت على العراق كـ «دين» أيضاً كميات النفط التي باعتها الكويت لحساب العراق من منطقة الخفجي)[٩٤٩] أي من المنطقة المحايدة - والتي مرت الإشارة

٩٤٨- جريمة غزو العراق للكويت أحداث ووثائق. إعداد المركز الإعلامي الكويتي. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٩٩١ ص٥٠٧.

٩٤٩- المرجع السابق. ص٥٠٧.

إليها في فصل سابق – وكان العراق يعتبرها هبة من الكويت للمجهود الحربي ضد إيران.

وراحت الكويت تساوم العراق بأن تكون الديون مقابل تخطيط الحدود، وكان موقفاً يخلو من الذكاء السياسي ومن الكياسة تماماً. وتوترت العلاقات بين البلدين، وتصاعد التوتر، وتصاعدت معه الضغوط العراقية. وكان على الكويت أن تدرك أن اللعب مع الكبار له ثمن. وأن الدخول في معمعة كالحرب العراقية – الإيرانية له ذيول وله امتدادات. وأن استعداءها العراق على إيران – أو هكذا أراد صدام أن يصور الأمور وحكومة الكويت ليست بريئة مهما كانت روايتها للأحداث – كان يوجب عليها أن تدفع حصتها من نفقات الحرب رغم أنه ليس للدم ثمن، وأي مال يساوي ضحايا العراق؟

ثم أن جانب آخر، فان الحرب العراقية – الإيرانية عندما توقفت، كانت فاتورتها قد تضاعفت عشرات المرات على أي رقم كان مقدراً لها يوم انطلاقتها. وبالتالي كان على الكويت أن تدفع نصيبها من هذه الفاتورة، حتى وإن كانت قد دفعت ودفعت. وصار العراق يرى لنفسه حقوقاً كثيرة بأعناقهم، فليس من المقبول أن يكون بطلهم وحاميهم في الحرب والدماء والدمار، وأن يمنون عليه حين تلقي الحرب أوزارها، ويتركونه وحده ليعاني مآسيها. وحين تكلم مسؤول كويتي كفهد الأحمد عن خلاف يتعلق بالرياضة، قائلاً بأن العراق نسي فضل الكويت كان رد الصحف العراقية على تصريحاته أن كل نقطة دم عراقية هي أغلى من كل أموال النفط، وأنهم (وكانت تقصد الكويتيين) لم يلبسوا عقالاً لولا الجندي العراقي.. إلى آخره، وكان فهد الأحمد من أكثر المتحمسين للحرب العراقية – الإيرانية، فعندما تشتد معاركها كان يسارع بالحضور إلى بغداد وأحياناً قريباً من جبهة القتال ليعبر عن تأييده للعراق. وقد قتل الأحمد فيما بعد، ويوم غزو الكويت، على يد الجيش العراقي.

وجاءت الخطوة الأكثر حماقة من حكومة الكويت، عندما باعت – لتتخلص من الضغوط العراقية – ديونها عليه إلى شركة أميركية. ونتحدث – هنا – عن تسلسل الأحداث كما هي في ظاهرها. وإلا فقد كان هناك من يدرس ويخطط، ويتابع ويراقب.. وينصح ويحرض.. ففي المنطقة خطوط حمر، والكبار لن ينتظروا حتى تنتهك هذه الخطوط،

والعراق وهو يطلب اليوم إعفاءه من الديون.. فسيطلب غداً تعويضات ومساعدات.. وسيجعل من الكويت محفظته الخلفية، يأخذ منها ما يشاء متى يشاء، ويصبح من الناحية العملية، خمس نفط العالم (هو نفط العراق والكويت) تحت هيمنته. وستمتد هذه الهيمنة -بالضرورة - إلى الخليج كله، وستمتد إلى أجزاء أخرى من المنطقة.

وكان هناك ما لا يقل عن هذا الأمر أهمية، فالكم الهائل من السلاح العراقي، وخاصة ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل أصبح يقلق إسرائيل، ثم أن ما عرف عن صدام من وحشية ظهرت بأبشع صورها في الحرب، وما عرف عنه من مغامرة وقصر نظر، فضلاً عن استخدامه الأسلحة الكيمياوية ضد أبناء شعبه الأكراد، كانت أسباباً مضافة، جعلتهم يعتقدون - وقد انتهت مهمة الرجل - أن من غير الذكاء أن يتركوه وشأنه، وقد يفاجئهم يوماً بما لا يتوقعون أو بما لا يريدون.

إن الحرب الباردة قد انتهت، والشيوعية قد اندحرت، وإيران قد حُجّمت. باختصار شديد: إن مهمة صدام - بالنسبة للغرب - قد انتهت، وليس بالضرورة أن يستحضر القارئ هنا صورة العميل التقليدي، وبالنسبة لهم كان يجب أن يرحل أو كمرحلة أولى أن يحجم، لقد بدأ رحيل رجال نادي (الديكتاتوريات) واحداً بعد الآخر، والذين أصبحوا عبئاً كريهاً بعد انتهاء الحرب الباردة.

كان أول الراحلين الجنرال نورييغا، الذي جاءت به المخابرات الأميركية إلى حكم بنما، وعندما تحول إلى تاجر مخدرات زحفت عليه القوات الأميركية وألقت القبض عليه - في كانون الثاني ١٩٩٠- حيث أودع أحد السجون الأميركية. وكان نورييغا قد وزع السلاح على الشعب ليقاتل القوات الأميركية الغازية، إلا أن أحداً لم يقاتل أبداً، بل ما ان سقط حكمه حتى نهبت الجماهير قصوره. وحاكم العراق وهو يصطدم مع حلفائه السابقين، بدا وكأنه (نورييغا) العراقي.

هكذا كانت أزمة الكويت فخاً للإيقاع بصدام حسين، وستستمر أكثر من عشر سنوات ملفاً مفتوحاً، وقد أخذ اسمه الحقيقي (الملف العراقي). لقد تأجلت الإطاحة بصدام

حسين كل تلك السنين، لأن تطورات المنطقة محسوبة بدقة، ولأن كل خيوطها ترتبط ببؤرة مركزية، هناك غرباً أي غرب العراق حيث الصراع العربي -الصهيوني.

❖ ❖ ❖

كان العراق يريد من الكويت أن تعفيه من ديونه، وتمنحه عشرة مليارات من الدولارات، وتؤجره جزيرة بوبيان التي تشكل خمس مساحة الكويت، كثمن عما يسميه دفاعه عن الخليج. وفي ٢٥ حزيران ١٩٩٠ زار سعدون حمادي الكويت، وطلب منها عشرة مليارات، فقال له الأمير لا نستطيع أن نعطي ذلك، وأمر بدفع نصف مليار إلى العراق. من جانب آخر فإن الكويت تخشى تأجير أي جزء من أرضها للعراق الذي تعتبره طامعاً بأراضيها، وبالتالي فهو لن يعيد لها شيئاً.

ولما باعت الكويت ديونها على العراق، اعتبر صدام هذا تحدياً له وتجرؤاً عليه، وهو الذي يملك جيشاً جراراً. وبدأ العراق يتهم حكومتي الكويت والإمارات بتنفيذ (عملية مدبرة لإغراق سوق النفط بمزيد من الإنتاج خارج حصتهما المقررة في الأوبك.. وقد أدت هذه السياسة المدبرة إلى تدهور أسعار النفط تدهوراً خطيراً)[٩٥٠]. وكان صدام قد تحدث في ٣٠ مايس١٩٩٠ عن إغراق السوق بالنفط وتخفيض الأسعار وعن (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق).

كان ابتزازاً أحمقاً أن تعطي دولة عضو في الأوبك لنفسها الحق في محاسبة دول أوبك الأخرى.. ولو أن هناك سابقة مشابهة لها، إذ هاجم إعلام شاه إيران - في السبعينات - السعودية بتهمة محاولة تخفيض أسعار النفط آنذاك. أما إضافة العراق للإمارات، فيبدو أن له علاقة برفض الإمارات أيضاً لطلب العراق بإعفائه من الديون التي قدمتها

٩٥٠- المرجع السابق. ص٥٠٢.

له خلال الحرب[٩٥١].

ثم اهتدى العراق إلى تهمة أخرى وجدها أكثر منطقية من الأولى، فقرر أن يتمسك بها بقوة، فالكويت - حسب التهمة الجديدة - (نصبت منذ عام ١٩٨٠ وخاصة في ظروف الحرب منشآت نفطية على الجزء الجنوبي من حقل الرميلة العراقي وصارت تسحب النفط منه)[٩٥٢]. واعتبر العراق أن (قيمة النفط الذي سحبته الكويت من حقل الرميلة فقط.. وفقاً للأسعار المتحققة بين ١٩٨٠-١٩٩٠ «٢٤٠٠ مليون دولار»)[٩٥٣]. ويمكن تقدير حصة العراق من حقل الرميلة بما يساوي ٢٥٪ منه، وهو يشكل عام ١٩٩٠ ما نسبته ٢-٥٪ من إنتاج العراق من النفط. ويحتاج الجانب العراقي إلى عمليات فنية لسحب النفط من هذا الحقل بخلاف الجانب الكويتي، حيث يكون النفط قريباً من سطح الأرض[٩٥٤].

وفي خطابه يوم ١٧ تموز ١٩٩٠ تحدث صدام قائلاً: (أصحاب السوء هم الذين يتحملون وحدهم أمام الله وأمام الأمة نتائج سيئاتهم التي أظهروا من مخزونها ما لم نعرفه عنهم من قبل أو كنا نمني النفس بما هو غير هذا)[٩٥٥]. وكان واضحاً أن العراق يصعد من تهديداته، وكان واضحاً أيضا ماذا يعني القول من دولة مدججة بالسلاح: (إن مثل هذا التصرف هو بمثابة عدوان عسكري)[٩٥٦]، كما ورد في رسالة وزير الخارجية طارق عزيز المؤرخة في ١٥ تموز ١٩٩٠ إلى جامعة الدول العربية. وبلغ التهديد ذروته في رسالة أخرى لطارق عزيز مؤرخة في ٢١ تموز ١٩٩٠ إذ يقول فيها: (نقول لحكومة

٩٥١- المرجع السابق. ص٥٠٧.

٩٥٢- المرجع السابق. ص٥٠٧.

٩٥٣- المرجع السابق. ص٥٠٥.

٩٥٤- مصدر من وزارة النفط العراقية طلب عدم ذكر اسمه.

٩٥٥- جريمة غزو الكويت (مرجع سابق) ص٥١٢.

٩٥٦- المرجع السابق. ص٥٠٦.

الكويت ان الذي يتآمر على الأمة العربية ويهدد مصالحها الجوهرية في الصميم لن يحميه الأجنبي)[٩٥٧]. وحين اجتمع وفدا البلدين بجدة في ١٩٩٠/٧/٣١ كانت الأمور قد وصلت إلى لحظة الانفجار، إذ رفضت الكويت طلبات العراق، وعجزت السعودية عن التوفيق بينهما، أو انها كانت ترى أن العراق غير محق في طلباته فلم تتدخل بما فيه الكفاية لإصلاح ذات البين. أما العراق فكان قد أكمل استعداداته لاجتياح الكويت، وانتظر لأربع وعشرين ساعة حتى تنتهي مراسم يوم عاشوراء الذي حل في اليوم التالي لاجتماعات جدة أي في الأول من آب.

إن الكلام عن الطريقة التي يفكر بها صدام وهو يتخذ قراراً استراتيجياً كاحتلال الكويت، والكلام عن آلية القرار في القيادة العراقية، يبدو بعد كل الذي قلناه عن صدام ونظامه غير ذي معنى. ولكن لاستكمال الصورة في ذهن القارئ، أشير هنا إلى الحلقة العليا من قيادة الدولة، التي أبلغها قراره أو أشركها فيه. وتضم طارق عزيز، والذي يجيد مجاراة صدام وتسويق قراراته. أما الآخرون فهم حسين كامل، علي حسن مجيد، طه الجزراوي، عزت الدوري. وجميعهم - قبل أن يصبحوا أعضاء في مجلس قيادة الثورة - كانوا ضباطا للصف إلا الأخير فقد كان بائعاً للثلج،. وهم أميون تماماً إلى الحد الذي يثير السخرية، وهكذا اتخذ ما سمي بقرار تحرير الكويت. اما أكثر الأفكار جموحاً فكانت تعتقد بأن العراق سيحتل فقط المناطق المتنازع عليها وجزيرتي وربا وبوبيان.

لعنة الكويت:

أصبحت الكويت لعنة، فما أن يطالب بها حاكم عراقي إلا وتكون نهايته مأساوية. فعندما صوت (عشرة أعضاء من مجموع أربعة عشر عضواً في المجلس التأسيسي الكويتي في كانون الأول ١٩٣٨ من أجل الانضمام إلى العراق فأعلن أمير الكويت حل المجلس في

٩٥٧- المرجع السابق. ص٥١٤.

٢١ كانون الأول ١٩٣٨)[٩٥٨]، اتجه ملك العراق غازي (إلى التفكير بضرورة التدخل العسكري في الكويت)[٩٥٩]، ولكنه مات بعد حوالي ثلاثة أشهر من ذلك في حادث سيارة غامض[٩٦٠]. وكان شيخ الكويت قد أصدر حكماً بالإعدام على بعض معارضيه، وعندما خرجت مظاهرات تطالب بالوحدة مع العراق وترفع العلم العراقي ولافتات كتب عليها (الكويت جزء من العراق)، اعتقل العناصر البارزة ونفى عدداً منهم ومنع الاستماع إلى إذاعة قصر الزهور بالقوة[٩٦١].

وكان الشيخ أحمد الجابر قد وقع أول اتفاقية للتنقيب عن النفط عام ١٩٣٤، حيث ستصبح فكرة ضم الكويت إلى العراق - بعد أقل من عقد عندما يتفجر النفط على أرض الكويت - شيئاً من الماضي وإلى الأبد.

وطالب الزعيم عبد الكريم قاسم في ٢٥ حزيران ١٩٦١ بالكويت، والتي نالت استقلالها قبل ذلك بأيام في ١٩ حزيران، وأعلن أن الكويت قضاء تابع للواء (محافظة) البصرة، وبأنه عين شيخ الكويت قائمقاماً له. ودون الالتفات لأية روايات ظهرت فيما بعد، كالرواية الساذجة[٩٦٢] التي تقول بأن قائد الفرقة الأولى (تلقى أمراً عسكرياً من عبد الكريم قاسم باحتلال الكويت، لكنه لم ينفذ الأمر بناء على فتوى صدرت له من السيد محسن الحكيم)[٩٦٣]. (ومع أن عبد الكريم قاسم لم يحرك قطعة عسكرية،

٩٥٨- د.لطفي جعفر فرج. الملك غازي. بغداد ١٩٨٧. ص٢٢٣.

٩٥٩- المرجع السابق. ص٢٢٤.

٩٦٠- المرجع السابق. ص٢٦٨ وما بعدها.

٩٦١- راجع المرجع السابق. ص٢٢٣.

٩٦٢- أنظر في مقابلها. العميد خليل إبراهيم حسين. سقوط عبد الكريم قاسم. موسوعة ١٤ تموز. الجزء الخامس. بغداد ١٩٨٩. ص٢٥٥-٢٥٩.

٩٦٣- حسن العلوي. أسوار الطين. بيروت ١٩٩٥. ص٩٧.

ولم يتخذ أي تدابير لتنفيذ ما أعلنه فإن السفير البريطاني أرسل ملحقه العسكري، بعد أن فشل هو في مواجهة عبد الكريم قاسم أو وزير الخارجية، لتبليغ الحكومة العراقية إنذاراً بريطانياً بأن على العراق أن لا ينسى أحداث سنة ١٩٤١، وأن الإنكليز جادون فيما يقولون، وأنها هي الحرب)[٩٦٤].

كان الكويتيون يقولون (إن الحجج التي يرددها العراق بمطالبته بالضم وهي أن الكويت كانت تابعة عملياً للعراق لا يؤيدها الواقع العملي.. (ثم) ألم تكن الاحساء والقطيف ونجد وقطر مناطق ادراية تابعة لولاية البصرة؟ لماذا لم يطالب العراق بهذه المناطق الادراية)[٩٦٥]. وبعد أقل من عامين قُتل الزعيم عبد الكريم قاسم في ٩ شباط ١٩٦٣، وألقيت جثته في نهر دجلة واختفت آثارها.

وفي عام ١٩٩٠، كان صدام أول حاكم عراقي يجتاح الكويت، إن اللعنة هذه المرة ستصيب كل شيء في المنطقة، وسيصبح مستقبل العراق - نفسه - على كف عفريت.

إن لعنة الكويت تعني شيئاً واحداً، كان على صدام أن يعرفه جيداً، فعندما بلغت التهديدات العراقية ذروتها، فإن صباح الأحمد وزير خارجية الكويت، والوحيد بين القيادة الكويتية الذي كان يفهم - كما يبدو - لعبة القوى، أو لعبة الأمم الجارية على شواطئ الخليج، قال: (ليأتي صدام ويحتل الكويت، وستأتي أميركا وتطرده). وصباح الأحمد هذا، قد قال - وبنزق - للرئيس حافظ الأسد، في مؤتمر القمة العربية في عمان في تشرين الثاني ١٩٨٧: (هل أن القدس عربية، والبصرة غير عربية) أي أنه كان يغمز على الموقف السوري في الحرب العراقية -الإيرانية، والتي لعب الأحمد فيها دوراً خطيراً. ولم يرد عليه الرئيس الأسد لحظتها.

٩٦٤- خليل إبراهيم حسين. المرجع السابق. ص٢٥٣ وراجع أيضاً ص٢٥٤ (الحاشية).
٩٦٥- المرجع السابق. ص٢٧٨-٢٧٩.

اللعبة الأميركية:

تدور أحداث فيلم (الدفاع الأفضل) - الذي ظهر عام ١٩٨٤- حول قيام الجيش العراقي بمهاجمة الكويت، التي تستدعي بدورها قوات أميركية لمواجهة القوات العراقية. وقد جرى تصوير الفيلم في فلسطين المحتلة (إسرائيل). المفارقة أن الدكتور جاك شاهين، وفي مقالته - في مجلة العربي الكويتية عام ١٩٨٨- تحت عنوان (العربي.. كما تراه هوليوود) علق على الفيلم بقوله: (إن أي شخص يعرف ولو قدراً ضئيلاً من المعلومات عن الوطن العربي لا يمكن أن يظهر القوات العراقية وهي تصب حممها على الكويت، فالكويت والعراق قطران عربيان جاران، كما أن الكويت لم تطلب أبداً مساعدة القوات الأميركية لمواجهة قوات عربية حليفة)[٩٦٦].

وقد بدأت القوات الأميركية بالتدريب على مواجهة (هجوم عراقي) مفترض على الكويت منذ عام ١٩٧٣[٩٦٧]. أي بعد الهجوم العراقي على الموقع العسكري للكويت في (الصامتة) في ٢٠ آذار ١٩٧٣، والذي أسفر عن مقتل خمسة جنود كويتيين وعراقي واحد[٩٦٨].

لقد احتاجت أميركا إلى الكثير من الخدع والمناورات والتكتيكات، للإيقاع عام ١٩٦٧ بالرئيس جمال عبد الناصر ومعه الأمة العربية، في فخ هزيمة حزيران، أما مع صدام، فلم تكن في أي يوم من الأيام بحاجة إلى سلسلة طويلة من الخدع. إذ كان استدراجه إلى الفخ سهلاً، وكانت - في هذه المرة - السفيرة الأميركية ببغداد أبريل كلاسبي هي مخلب القط، والتي ربما لم تكن تدرك هي نفسها طبيعة الدور الذي تقوم به.

٩٦٦- مجلة العربي (الكويتية) العدد ٣٥٣ أبريل ١٩٨٨ ص١١٠.
٩٦٧- أحمد زكي اليماني. مقابلة مع تلفزيون الجزيرة. برنامج بلا حدود. في ١٩٩٩/٤/٢٤.
٩٦٨- الدكتور مجيد خدوري. العراق الاشتراكي (مرجع سابق) ص٢٥٥.

وكانت كلاسبي قد خدمت سابقاً في الكويت وسوريا ومصر وبريطانيا، وهي تجيد العربية. وقد نُقلت بعد (أزمة الكويت) إلى قسم الشؤون الأفريقية، وحتى عام ٢٠٠٠ كانت قنصلاً عاماً للولايات المتحدة في جنوب أفريقيا. وهي ممنوعة رسمياً من الإدلاء بأي حديث للإعلام عن (أزمة الكويت) رغم ما قدمته لها الصحافة من عروض مغرية[٩٦٩].

لم تكن لدى كلاسبي - وقد تصاعدت أزمة الكويت - أية تعليمات حول ما تقوله للعراق، وتدعي بأنها قالت لصدام عند اجتماعها به في ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٩٠ بأن لا رأي لبلادها في خلاف الحدود مع العراق، وأن أميركا لا تريد أن تختلف مع العراق، كما أنها ملزمة بأمن الكويت[٩٧٠]. وفي رواية أخرى أنها قالت (لا نرغب في الدخول في تفاصيل الخلاف). وقد قال لها صدام في الاجتماع: (ان العراق يتفهم حرص أميركا على ضمان تدفق النفط إليها وبأسعار متوازنة وانه يستطيع أن يضمن ذلك لأميركا[٩٧١].

وفي ٢٩ تموز غادرت كلاسبي العراق في إجازة، وفي اليوم التالي حذرت أميركا الكويت بأن القوات العراقية قد اتخذت وضعاً هجومياً، وبالإضافة لسماح الإدارة الأميركية لكلاسبي - وخلافاً للعادة في مثل هذه الأحوال - بمغادرة العراق في إجازة، فإنها سلمت السفير العراقي في واشنطن نزار حمدون في ٢٨ تموز - وكجزء من عملية الاستدراج إلى الفخ كما يبدو - جواباً ودياً من الرئيس جورج بوش حول العلاقات الأميركية - العراقية، وذلك بدلاً من أن توجه أي إنذار أو تحذير - سري أو علني - للعراق ألا يهاجم الكويت، كما فعلت بريطانيا عام ١٩٦١. وكان أي إنذار أميركي كافياً للحيلولة دون وقوع هذه

٩٦٩- ادوارد بيك سفير أميركا السابق في العراق وموريتانيا. مقابلة مع الجزيرة. برنامج بلا حدود في ٢٠٠٠/٨/٢.

٩٧٠-المصدر السابق نفسه.

٩٧١- سعد البزاز. حرب تلد أخرى. ص١٤٩.

المأساة التي ستبدأ في الثاني من آب[٩٧٢]. (ولا يتلكأ الادميرال ستانس فيلد تيرنر الذي كان مديراً لـد (سي. آي. إيه) في ذلك الوقت عن الاعتراف بأن إدارته كانت تعلم بالغزو قبل وقوعه)[٩٧٣].

لقد مضت اللعبة الأميركية في طريقها المرسوم، وبلع صدام الطعم. ولم يستفد من تجاربه السابقة وتصور - مرة أخرى - أنه قادر على أن يلعب مع الكبار، وأنه بمجرد أن يلوح لأميركا بالنفط فستتركه يسيطر على خمس نفط العالم، ويتحكم بالخليج الذي يضم ٦٥٪ من احتياطي النفط العالمي، والذي من المحتمل أن تشكل صادراته - عام ٢٠٠٨- نصف صادرات النفط العالمي[٩٧٤].

عندما بدأ الهجوم العراقي، طلبت الكويت - خلال ساعة - مساعدة سرية من الولايات المتحدة. وكان الجواب أن المساعدة لا يمكن أن تكون سرية، وأنه لا توجد قوات قريبة. وبعد نصف ساعة طلبت الكويت أية مساعدة ولا يهم أن تكون علنية، فكان الجواب أنه قد فات الأوان.

وبعد احتلال الكويت - وفي يوم ٨/٦ - استدعى صدام القائم بالأعمال الأميركي جوزيف ويلسن، وقدم عرضاً أقوى، وكان العرض هذه المرة أن يكون شرطي الخليج مقابل قبول أميركا بسيطرته على الكويت، اي أنه لا يريد أن يدرك أنهم وقفوا معه في حرب الثماني سنوات، لأن إيران الثورة كانت تشكل خطراً أكبر[٩٧٥]. أما وقد انتهت تلك

٩٧٢- بالإضافة إلى المصادر الأخرى، تعتمد روايتنا التالية للأحداث على عدة مقابلات تلفزيونية مع الذين شاركوا في صناعة الأحداث خاصة في برنامج (حرب الخليج) إنتاج وإخراج هولي اوليت والذي بثه تلفزيون (MBC) في ٢-٩ آب ٢٠٠٠.

٩٧٣- جين ادوارد سمث. حرب جورج بوش. ص٥٧ نقلاً عن حسن العلوي. أسوار الطين. ص١٩٢.

٩٧٤- مجلة العربي الكويتية. النفط الكويتي.. من كارثة الدمار إلى الانطلاق بثقة. العدد٥٠١ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ ص٤٠.

٩٧٥- ادوارد بيك. المقابلة السابقة الذكر.

المهمة، فإنه أصبح هو الخطر الأكبر.

وبترتيب من أميركا ذهب وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل ليقدم ٤ أو ٥ مليارات من الدولارات، كهبة إلى الاتحاد السوفييتي لشراء موقفه. وقد ادعت السعودية فيما بعد أنها اشترطت إنفاقها على الجمهوريات ذات الأغلبية الإسلامية. وبطلب من أميركا أيضاً، منحت الكويت تركيا ٣ مليارات من الدولارات، كتعويض لها عن إغلاق أنبوب النفط العراقي. وهكذا توزعت المليارات العربية هنا وهناك، وكان ما قدم إلى روسيا وتركيا والصين فقط يساوي العشرة مليارات التي طلبها العراق.

طريق الموت:

عشية الحرب التي ستنطلق بعد منتصف ليلة ١٧ كانون الثاني، صرح جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركي: (سنعيد العراق إلى القرون الوسطى)، وعلقت صحيفة بريطانية: (ان الغرب يسلح الدكتاتوريين ثم يقصف شعوبهم). وقد صادف احتلال الكويت تحول تكنولوجي خطير في تسليح الجيش الأميركي، والذي استخدم استخداماً واسعاً في الحرب التي اعتبرت قصة نجاح رائعة للتكنولوجيا الأميركية. ولأول مرة لم تعد الأولوية للاتحاد السوفييتي في المراقبة والتجسس من قبل أميركا.

وقد شهدت هذه الحرب انقلاباً مخابراتياً استراتيجياً، إذ وضعت المخابرات المركزية موضع التطبيق شعارها الشهير الذي يقول: (لابد أن نعرف كل شيء.. وإذا عرفنا، حينئذ ننتصر). وفوجئ العراقيون عندما سلم جندي ألماني يشتغل في وزارة الدفاع الألمانية، وثائق أميركية للملحق العسكري العراقي، وكانت بينها وثيقة تبين معرفة الأميركيين الدقيقة بمواقع الصواريخ العراقية.

ويرى الأميركيون أن أعمال الخداع والتشويش والتنصت والتجسس من الجو كانت فعالة تماما، وكان للأقمار الصناعية الدور الأخطر في ذلك، ولعبت طائرات التجسس (جستاند) و(بي-٥٢) دوراً خطيراً - وإن أخفقت أحياناً - حتى أنها كانت تراقب بسهولة حركة السيارات في قوافل الإمداد وخطوط التراجع وقد تعطلت الرادارات العراقية تماماً

بفعل التشويش قبل بدء الحرب بثلاثة أيام. وكان قادة الوحدات الجوية يتصلون بمقر وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة مباشرة يومياً للتنسيق وتبادل المعلومات، وقد ادعى العسكريون الأمريكيون - كعادتهم دائماً - أن المعلومات التي جاءتهم من المخابرات المركزية لم يكن لها دور فاصل. الجدير بالذكر انه في هذه الحرب وخلافاً لحرب فيتنام، تقرر عدم تدخل البيت الأبيض والبنتاغون في العمليات اليومية، لإعطاء الفرصة للقادة الميدانيين ليديروا الحرب بخبرتهم العسكرية.

مثلت هذه الحرب نقلة نوعية في استخدام الطيران في حسم الحروب، وسُميت الحملة الجوية بالرعد الفوري، والتي كانت أخطر حملة جوية منذ الحرب العالمية الثانية، إذ كانت مطراً من فولاذ فعلاً كما وصفت فيما بعد. كانت الأهداف الجوية وحسب الأولوية هي مراكز القيادة والاتصالات ثم الصناعات العسكرية ثم البنية التحتية فوحدات الجيش وباختصار كان هدف الحملة الجوية هو: (تدمير كل ما هو ثمين وعزيز بالنسبة للشعب العراقي) كما قال جنرال في القوات الجوية الأميركية. وبعد ساعتين أو ثلاثة من بدء الهجوم، تأكد الحلفاء بأن النصر قد حسم لهم. فرغم أن قواعد صواريخ سام المحيطة ببغداد كانت سبعة أضعاف ما كان حول (هانوي)، إلا أنه كان من الواضح أن العراق يواجه بأسلحة متخلفة أحدث تكنولوجيا في العالم.

واتخذ صدام خلال الحرب سلسلة من القرارات الغريبة والمرتبكة. وكان أغرب قرار له هو إرسال ١٤٠ طائرة مدنية وعسكرية إلى إيران دون إبلاغها. فكان الطيار عندما يدخل السماء الإيرانية يقول لهم: (يا أصدقاء أنا قادم). كما أطلق أربعين صاروخاً على إسرائيل، من نوع سكود، وهو صاروخ سوفييتي مطور عن صاروخ ألماني طالما دمر لندن في الحرب العالمية الثانية، وكان مداه الأصلي ١٨٠ كم. أما مدى النسخة العراقية (المطورة) فهو ٨٠٠ كم. وقد قتل سبعة إسرائيليين بهذه الصواريخ، وكان مجموع الإصابات الإسرائيلية مائة بين قتيل وجريح.

لم تكن صواريخ (باتريوت) الاسرائيلية المضادة فعالة في التصدي لصواريخ سكود العراقية، كما فشلت مئات الطلعات الجوية الأميركية والتي قدرت بين ١٥٠٠-٢٥٠٠ طلعة

في ضرب أية منصة متحركة لإطلاق الصواريخ، ووضع العراق منصات صواريخ مزيفة كثيرة خدعت الأمريكان فضربوها، وقد تهيأت طائرات إسرائيلية لقصف العراق ولكن أميركا منعت ذلك، وأبلغت إسرائيل أميركا بأن صواريخها النووية من نوع (أريحا) جاهزة وأنها مركبة على منصاتها. لقد كانت صواريخ (سكود) - رغم اخفاقاتها الكثيرة - النجاح العراقي الوحيد في المعركة، ولكن (لم تحقق عشرات الصواريخ التي أطلقت على إسرائيل لأغراض دعائية سخيفة أية نتائج تذكر، سوى تعويض إسرائيل ببلايين الدولارات من دول مختلفة) كما يقول احد مسؤولي نظام صدام سابقاً[٩٧٦].

ورغم أن الحرب قد أعادت الثقة بالقوات الأميركية وخاصة الجوية منها، بعد هزيمة فيتنام، إلا أن ٥٠٪ من القنابل التي أسقطت على العراق وقعت على بعد أقدام من أهدافها، حتى القنابل الذكية التي كانت طائرات (ستيلث) أي الشبح مجهزة بها، لم تكن ذكية إلا بنسبة ٤٠٪. فقد أسقطوا على العراق ٨٨،٥٠٠ طن من القنابل والقذائف الصاروخية، وبحسب ما نشره الصحفي المشهور (توم ووكر) في النيويورك تايمز في ١٩٩١/٣/٢٠، فان ٧٠٪ منها سقط على أهداف مدنية، و٢٣٪ على أرض خالية بعيداً عن أية أهداف عسكرية أو مدنية، و٧٪ منها فقط قد أصابت أهدافها.

كان اليورانيوم المنضب أو المستنفد أخطر أسلحة الحرب التي استخدمت - في أول استخدام له في التاريخ - ضد العراق، وهو من فضلات المفاعلات النووية والتي يكلف إتلافها مليارات الدولارات، فصبوا منها ٣٥٠ طناً على العراق أي ٣٠ ضعفاً مما ألقي على يوغسلافيا فيما بعد، ويعتبر من أسلحة الدمار الشامل، إذ رغم أنه ضعيف الفعالية قبل الانفجار إلا أنه أكثر فاعلية من الأسلحة الكيمياوية، فهو مادة مشعة ومن أشد السموم فتكاً بالكائنات الحية، ويبقى في البيئة لوقت طويل، وهذا ما يفسر المعدلات العالية للإصابة بالسرطان والولادات المشوهة في العراق بعد الحرب، خاصة في منطقة

٩٧٦- السامرائي. المرجع السابق. ص٣٠٣.

البصرة، حيث جرت معارك برية، استخدمت فيها قذائف دبابات محشوة باليورانيوم المنضب، والتي تكون فعالة جداً ضد المدرعات. وقد دفن الاميركان والبريطانيون معداتهم الملوثة - بعد الانتهاء من الحرب - في السعودية.

إن معلوماتنا عن اليورانيوم المنضب يسيرة جداً، لأن السلطات الأميركية والبريطانية تلاحق وتهدد كل من يحاول التحدث عن الامر من موظفيها، وتحرمه من وظيفته، وحسب برنامج تلفزيوني موثق، فإن الأمر يصل حد الضرب والاعتداء على الممتلكات وسرقتها والتهديد بالاغتيال وإطلاق النار[٩٧٧]. وقبل الحرب فإن الأمريكان والبريطانيين لم يبلغوا ضباطهم وجنودهم عن نيتهم باستخدام اليورانيوم المنضب. وقد عانى ثلث الجيش الأميركي من مشاكل صحية بعد حرب الخليج والتي سميت بأعراض حرب الخليج.

ورفض الأمريكان عرضا عراقياً في ١٩٩١/٢/٢١ - عن طريق الاتحاد السوفييتي - بالانسحاب من الكويت. ولكن العراق بدأ الانسحاب فعلاً في ٢٤ شباط تحت أشد الظروف سوءاً، حيث أطلقت الصحافة الأميركية على خط انسحاب القوات العراقية من الكويت (طريق الموت).

وأصبحت الكويت تحت السيطرة الكاملة لقوات التحالف الدولي يوم ٢٦ شباط. وأعلن صدام في مساء تلك الليلة بأن الجيش العراقي قد انسحب من الكويت، ولكن الرئيس الأميركي رفض كل ما جاء في الخطاب، لأن صدام لم يعلن قبوله بقرارات مجلس الأمن[٩٧٨]. وكان الهدف الحقيقي لاستمرار الحرب ليومين آخرين، هو استكمال مهمة تدمير ثلثي القوة العراقية، والتي كانت أميركا تعتبرها كما قال جيمس بيكر يوم ٢٦

٩٧٧- يسري فودة. برنامج سري للغاية. عاصفة اليورانيوم. الجزء الأول. تلفزيون الجزيرة. في ٢٠٠٠/١٠/٢.

٩٧٨- جريمة غزو العراق للكويت. (مرجع سابق) ص٤٩٤.

شباط بأنها (لا تتناسب مع حجم العراق)[٩٧٩].

وبعد إعلان العراق لقبوله لجميع قرارات مجلس الأمن المتعلقة بالأزمة، أعلن الرئيس الأميركي – في منتصف ليلة ٢٨ شباط – وقف إطلاق النار، وذلك بعد ١٠٠ ساعة على العمليات البرية، وبعد ٦ أسابيع من عاصفة الصحراء.

وكان عدد من القادة الأمريكان قد طلبوا أن تستمر الحرب ٢٤ ساعة أخرى، ولما رفض الرئيس الأميركي اقترحوا أن تستمر ١٢ ساعة، ولما رفض طلبوا ٨ ساعات. وكان الرئيس الأميركي جورج بوش خائفاً لأن العراق كيان هش، وقد يتحول إلى لبنان ثانية، وقد تسيطر إيران على الجزء الشيعي منه. ورفض بوش اقتراح السعودية إحضار الضباط العراقيين إلى حاملة طائرات أميركية، كما جرى مع اليابان ليوقعوا على الاستسلام. إذ كان بوش يريد وقفاً لإطلاق النار وليس استسلاماً رسمياً، فاقترح صفوان. ورفض بوش أيضاً اقتراحاً بحضور صدام، لأنه خاف ألا يحضر، وبالتالي يضطر الاميركان للاستمرار في الحرب التي لا يريدون لها أن تستمر أكثر من ذلك. لقد كانت حرب الخليج الثانية أعظم نصر حققته أميركا منذ الحرب العالمية الثانية. وبموجب القانون الدولي فإن البلد الذي يوقع على اتفاق لوقف إطلاق النار، ولا يوقع استسلاماً هو بلد ذو سيادة، له أن يقبل أي قرار، وله أن يرفضه، لكن وقف إطلاق النار لا يعني أن الحرب قد انتهت رسمياً.

أحرق العراق – قبل أن ينسحب من الكويت – (١١٦٤) بئراً نفطياً، أي (٨, ٩١٪) من مجموع الآبار المنتجة ذلك الوقت[٩٨٠]. وغطت السحب السوداء سماء الكويت حتى اظلم نهارها، وأغرقت البحيرات النفطية المتسربة من آبار النفط المخربة ٦٪ من مساحتها. وقد قُدرت خسائر الكويت النفطية من تكاليف إصلاح وإيرادات ضائعة ونفط مهدور بـ (٧٥)

٩٧٩- المرجع السابق. ص٤٩٣.

٩٨٠- مجلة العربي الكويتية. النفط الكويتي.. من كارثة الدمار إلى الانطلاق بثقة. العدد ٥٠١ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ ص٤٠و٤٢.

مليار دولار[٩٨١]. كانت أكثر التوقعات تفاؤلاً لإطفاء الحرائق تتوقع من ٣-٥ سنوات، ولكن تم إطفائها في أقل من تلك المدة بكثير، وبلغت نفقات إطفاء حرائق آبار النفط ٩٥٢ مليون دولار[٩٨٢]. وفي ٦ تشرين الثاني ١٩٩١ تم إطفاء آخر بئر مشتعلة في الكويت. في مقابل ذلك ترتب على العراق تعويضات لشركة نفط الكويت مقدارها ١٦ مليار دولار.

أسرى الكويت:

عندما ضم هتلر النمسا لألمانيا، في ١٩٣٨/٣/١٤، حظي ذلك بتأييد ٩٩٪ من النمساويين، والذين كان تأييدهم للضم حماسياً وصاخباً. أما صدام فعندما ذهب ليحرر الكويت ويحقق الوحدة العربية، لم يجد حتى فرّاشاً كويتياً في استقباله. وحتى أعضاء (حزب البعث) في الكويت من الكويتيين، ومن العرب الآخرين، رفضوا التعاون معه، فهرب بعضهم وقامت مخابراته باعتقال البعض الآخر والذين اختفت آثارهم منذ ذلك الوقت، وهم يشكلون أكثر (الأسرى) الذين لا زالت تطالب الكويت بهم.

وأرسل الدكتور أحمد الخطيب - الذي كان يُقضّي الصيف في لندن عام ١٩٩٠- المرحوم سامي المنيس أحد أبرز رجال المجموعة القومية اليسارية المعروفة في الكويت، إلى السفير العراقي في لندن، في اليوم التالي للهجوم على الكويت، عارضا تعاونه مع العراق على أساس إقامة دولة اتحادية بين العراق والكويت، وأن تكون للكويت حكومتها التي تدير شؤونها باستقلال تام، ووعدهم السفير العراقي بالرد عليهم بسرعة بعد الاتصال برئيسه صدام. ولكن الرد لم يأت أبداً[٩٨٣]. ويبدو أن صدام - وقد سيطر

٩٨١- المرجع السابق. ص٤٤.

٩٨٢- المرجع السابق. ص٤٢.

٩٨٣- عن الخطيب مباشرة، رواها هاني الفكيكي لوالدي بحضور الدكتور مصطفى جمال الدين وشقيقي محمد الحسيني وحضوري، في كانون الثاني ١٩٩١، في بيتنا بدمشق.

على الكويت سيطرة تامة – ركبه الغرور كالعادة، فلم يلتفت لعرض بهذا المستوى من رجل بأهمية أحمد الخطيب، أو أن حظ الخطيب كان حسناً، فلم يتورط في هذه الأزمة، وهو الذي لم تكن علاقته بالنظام العراقي جيدة يوماً ما.

ونهب آل صدام، ورجال الأمن والمخابرات، والحزب والجيش الشعبي، وكثيرون من الجيش، ومعهم بعض العمال العرب والأجانب، كل شيء في الكويت. وبينما جرى إعدام هذا الضابط أو هذا الجندي كالعادة بتهمة النهب. كانت المنهوبات الثمينة من حصة عدي وحسين كامل وأرشد ياسين وعلي حسن مجيد، أما المنهوبات الأخرى التي جاءت إلى العراق فكانت من حصة أبناء العشيرة الحاكمة الآخرين، وكأن العراق الذي استحوذوا على كل شيء فيه لم يعد يكفيهم.

❖ ❖ ❖

إن الشريحة المسماة بـ (البدون) أي (بدون جنسية) عانوا كثيراً من حرمانهم من الجنسية الكويتية، رغم أن كثيرين منهم، أو أن أغلبهم كان يستحقها تماماً، حيث مضى على وجود عوائلهم في الكويت الكثير، وقد ولدوا فيها ولا يعرفون غيرها وطناً، كما أن أغلبهم قد خدم في الجيش الكويتي أو الشرطة الكويتية أو دوائر الدولة الأخرى.

وقد عاملتهم الحكومة الكويتية – على الدوام – معاملة غير كريمة، فعندما يأتي أحد من البدون إلى أحد المستشفيات الحكومية، لا يسمح له بالمعالجة – حتى لو كانت حالته خطيرة – ما لم يدفع مبلغاً مالياً كضمان لتغطية نفقات المعالجة. وكان أي واحد من البدون عرضة دائماً للإبعاد من الكويت، حتى لو كان متزوجاً من كويتية، والتي يحق لها في مثل هذه الحالة الاحتفاظ بالأطفال، بغض النظر عن رغبة الأب المبعد.

وقد أنشأت الحكومة الكويتية سجناً خاصاً للإبعاد. وفي عام ١٩٨٩ وأنا أهرب من العراق، وقعت أسيراً بيد الشرطة الكويتية، بعد أن قَتَلت الشخصين الذين قاما بتهريبي، أما أنا فقد كانت إصابتي غير بليغة، وبقيت في سجن الإبعاد لأكثر من شهرين، بعد ستة

أشهر قضيتها في سجن آخر وقبلها عدة أيام في مستشفى الجهراء. وكشهادة للتاريخ، فإن سجن الإبعاد وصمة عار في جبين حكومة الكويت إلى الأبد. إذ يعاني السجناء فيه من قلة الأكل، وسوء المعاملة، والحرمان من مقابلة ذويهم، ومنعهم من الاحتفاظ بحاجاتهم الشخصية من ملابس وكتب وصور العائلة وغير ذلك. ويحرمون من كل شيء، حتى أنهم ولأشهر لا يذوقون اللحم أو الفاكهة أو الحلويات. فطبق الطعام اليومي ظهراً ومساء هو الرز والعدس على الطريقة الهندية وبكميات قليلة. ويبدو أن كل ذلك كان مقصوداً لإجبار الذين ولدوا في الكويت من (البدون) على الرحيل منها.

وقد شاهدت في سجن الإبعاد مآسي الكثيرين ممن حرموا من زوجاتهم وأولادهم، حيث مضى على بعضهم - وفي الظروف البائسة التي ذكرناها - سنوات عديدة. وكان يدير السجن ضابط كويتي كان والده عبداً لآل الصباح يدعى (ماجد سلطان) والذي كان يعامل سجناءه بقسوة حتى أنه أمر مرة - وأمام كل السجناء - بتجريد رجل مسن - كان قد لاسنه - من جميع ملابسه حتى الداخلية منها ثم أخذ يضربه بعصا حتى أغمي عليه، وأظن أن قسوته هذه هي التي أهلته عند رؤسائه لهذه المهمة الحقيرة.

وشهد سجن الإبعاد[٩٨٤] العشرات من عمليات إبعاد معارضين عراقيين بالقوة إلى العراق، حيث يجري هناك إعدامهم بعد التحقيق معهم، فأبعدوا مثلاً الملازم أول أحمد صالح الجبوري من محافظة الأنبار، والضابط السابق في الحرس الجمهوري، رغم أنه كشف لهم عن هويته وأخبرهم أن له شقيقاً قد أعدم في العراق. وقد أعدم هناك هو الآخر وعلى الفور. كانت كل عملية إبعاد لعراقي معارض مأساة مروعة، إذ حاول الكثيرون منهم الانتحار أو إلحاق الأذى بأنفسهم، لثني الحكومة الكويتية عن إبعادهم إلى العراق، ولكن الحكومة الكويتية لم تكن تعير ذلك اهتماماً.

وقد شهدتُ في تشرين الثاني ١٩٨٩ آخر عملية إبعاد، إذ أن الحكومة العراقية - وكانت

٩٨٤- لقد كتب المؤلف مذكرة إلى منظمة العفو الدولية عام ١٩٩٠ بذلك.

على وشك أن تغير أعداءها وأصدقاءها - اعتبرت أن الحكومة الكويتية تخطط لإفراغ الكويت من العراقيين، فقررت ألا تتسلم أي مبعد - بعد الآن - من الكويت. وهكذا عادت آخر مجموعة مبعدة كان بينها أحد شباب الدعوة الشجعان جداً والذي -فجأة - انقلبت تلك الأيام السيئة بالنسبة له سعداً، ففي اليوم التالي لإعادتهم من الحدود العراقية، وافق القنصل الإيراني في الكويت - العراقي الأصل والسيئ جداً - على منحه وآخرين جوازات سفر إيرانية مؤقتة ليسافروا إلى إيران، بعد أن كان يرفض ذلك.

❖ ❖ ❖

كان عدد الفلسطينيين في الكويت عام ١٩٩٠ حوالي ٤٣٠ ألفاً، وكانت ظروف غالبيتهم تتشابه مع ظروف البدون، وعندما غزا صدام الكويت، زج ببعض الفلسطينيين والبدون في الأحداث، زد على ذلك موقف القيادة الفلسطينية المساند للخطوة الصدامية والذي ألحق أفدح الأضرار بوضع الفلسطينيين في الكويت.

وكان على القيادة الفلسطينية من أجل هؤلاء الفلسطينيين، ومن أجل قدسية القضية الفلسطينية، أن تنأى بنفسها عن مغامرات كهذه، بل وكان يجب ألا تكون يوماً ما طرفاً في خلافات المنطقة ومناوراتها ومحاورها وصراعاتها، ولكنها يبدو ككل القيادات العربية لم تستفد من تجاربها لا في الحرب اللبنانية، ولا عندما زجت بنفسها فيما بعد في الحرب العراقية - الإيرانية. فقد بدت غريبة (نصيحة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية (ياسر عرفات) الذي قال له (أي لصدام): ان النفط الإيراني يتركز في منطقة مسجد سليمان، وان احتلال منابع النفط سيؤدي إلى إرغام إيران على الاستسلام أو التوقف عن الاستمرار في الحرب)[٩٨٥]. وسيبدو غريباً فيما بعد الدور (غير المنطقي) لبعض

٩٨٥- راجع السامرائي. المرجع السابق. ص٦٢.

مكاتب منظمة التحرير في أكثر من عاصمة، في تقديم خدمات «للمخابرات العراقية»، إذ أوصلت هذه المكاتب أموالاً ورسائل إلى جهات من المعارضة العراقية. كما سيبدو غريباً وبنفس الدرجة لو ساندت منظمة التحرير المعارضة العراقية أو أية معارضة أخرى، وهو دور لعبته في السبعينات والثمانينات هنا وهناك.

ومما له دلالته على طريقة تفكيرها، ان غالبية القيادة الفلسطينية كانت ترى (أن واشنطن لن تغامر بفتح ملف العداء مع بغداد، بعدما ساندتها في الحرب العراقية - الإيرانية) [٩٨٦]. وظل الرئيس ياسر عرفات حتى اندلاع الحرب يردد: (لا حرب.. لا حرب، وإذا وقعت فسيكون العراق فيتنام ثانية، بل أفدح منها) [٩٨٧]. وللمرء أن يتصور بعد ذلك كيف يتخذ عرفات قراراته وكيف وقع على اتفاقيات أوسلو.

بعد انسحاب الجيش العراقي، كان الكثير من الجنود العراقيين الذين لم يستطيعوا اللحاق بالوحدات المنسحبة، أو أنهم هربوا من ساحات الحرب وظلوا طريقهم، وايضاً الكثير من البدون والفلسطينيين الذين تعاطفوا مع الجيش العراقي، أو الذين لم يتحوطوا ويلزموا بيوتهم، هدفاً لعمليات حرق وقتل وتعذيب، قام بها أبناء الأسرة الحاكمة والأسر النافذة. وهناك معلومات تقول بأن أحمد فهد الأحمد، وزير الإعلام فيما بعد، هو الذي كان على رأس هذه المجاميع. وقد اشتكى السفير الأميركي بالكويت نفسه لولي العهد من ذلك، فأمر ولي العهد بإحضار أولئك الأبناء وهددهم بالإعدام إن عادوا إلى ذلك. وليس هناك رقم دقيق لعدد ضحايا هذه المجازر، ولكن التقديرات تدور بين خمسة آلاف وعشرين ألف ضحية. وقد رحل أغلب الفلسطينيين بعد ذلك عن الكويت، ولم يبق منهم سوى أقل من ٣٠ ألفاً.

٩٨٦- صحيفة الرأي العام الكويتية. عدد ٣ تشرين الثاني ١٩٩٩. مقابلة مع نايف حواتمة. نقلاً عن الملف العراقي- العدد ٩٦ كانون الأول ١٩٩٩. ص٥٩.

٩٨٧- المصدر السابق نفسه.

نتائج الحرب:

عندما انتهت حرب الكويت، صرح السفير السعودي الخطير لدى الولايات المتحدة (بندر بن سلطان) قائلاً: (إن الحرب أنهت أسطورة العروبة). وكانت هذه هي أخطر نتائج الحرب وأمرّها. فقد كانت الحرب فاصلاً بين زمنين، زمن عربي دفنته المغامرات والمؤامرات في رمال الكويت، وزمن صهيوني لا ندري كم سيطول. وفي ٣٠ أكتوبر تشرين الاول ١٩٩١ افتتح مؤتمر مدريد للسلام ليحقق مهمة واحدة، إذ لأول مرة يتاح لإسرائيل أن تفاوض العرب كل العرب مباشرة.

وفي ظل هذه الروح الجديدة التي خيمت على دنيا العرب، خاطب الرئيس حسني مبارك القوات المصرية العائدة من حرب الكويت قائلا: (لقد كنتم لها أقداماً وشجاعة.. وإن كل أسرة مصرية تفتخر بما أنجزتموه). وبدلاً من اعمال الحكمة المشهورة (العاقل من اكتفى بغيره) فقد دخلت القوات المصرية - منذ اللحظات الأولى للحرب البرية - المعركة مباشرة[٩٨٨]. إذ يبدو أن الجميع في أزمة الكويت نسوا دروس التاريخ وضرورات الجغرافيا.

لقد توعد صدام أن يحرق إسرائيل، فأحرق بدلاً من ذلك العراق والكويت معاً. وقد جاء في رواية العملية (هبرون) على لسان رئيس الوزراء الإسرائيلي ما نصه: (في استطاعتنا إذا رفع ديكتاتور عربي رأسه أن نمحو بلده بالكامل من الخريطة ويكون رئيس الولايات المتحدة هو الذي يقوم بالمهمة ويتحمل نتائجها نيابة عنا)[٩٨٩].

وأراد النظام اللعب مع القوى الكبرى، وكأن العراق قد أصبح دولة كبرى، فدفع ثمن اللعب مع الكبار. وكانت أم الهزائم بكل المقاييس فسماها صدام كعادته بأم المعارك، وقال قبل الحرب: (لقد أمسكنا بخيوط الشمس ولن نفلتها أبداً)[٩٩٠]، وكان يقصد

٩٨٨- راجع العميد الركن نجيب الصالحي. الزلزال. لندن ١٩٩٨. ص٦٢-٦٤.

٩٨٩- هيكل. صحيفة السفير. العدد (٨٩١٢) في ٢٠٠١/٥/٣١.

٩٩٠- السامرائي. المرجع السابق. ص١٩٨.

الصناعات العسكرية وما شابه، وفي ٣ نيسان ١٩٩١ أصدر مجلس الأمن قراراً بتدمير أسلحة الدمار الشامل في العراق، فأفلت خيوط الشمس. وفرضوا عليه تعويضات باهضة، سيضطر العراق لربع قرن قادم، أن يجوع ليعطي غيره، زد على ذلك أقساط الديون وخدماتها، وهي أيضاً عالية جداً.

وكان يطالب بامتداد حقل الرميلة النفطي في الكويت، بل وأخذ كل الكويت، فجاء قرار الأمم المتحدة بتخطيط الحدود، ليجعل من ميناء أم قصر العراقي برلين العراق، شمالها للعراق وجنوبها للكويت، وهناك معلومات تقول بأن لدى الحكومة الكويتية قراراً بإعادة هذه الزيادة إلى العراق، وتوقيع اتفاقية حدود نهائية إذا تغير النظام. وقد انسحبت الحكومة الكويتية فعلاً من مدينة أم قصر أو بالأحرى من الجزء الجنوبي المخصص لها.

كانت مساحة الكويت - قبل الغزو - ١٦،٥٠٠كم٢، فأصبحت بعد أم المعارك ١٧،٨١٨كم٢. وكانت مساحة العراق ٤٣٨،٤٦٦ كم٢، فأصبحت بعد الذي أعطاه صدام كرهاً أو طوعاً ٤٣٥،٠٥٢ كم٢، وبذلك يكون العراق قد خسر من أراضيه - وباتفاقيات دولية لا يجوز نقضها - لإيران والسعودية والكويت والأردن، ما يساوي أربعة أضعاف مساحة دولة البحرين[٩٩١]. وهكذا أفلت صدام خيوط الشمس والأرض معاً.

الانتفاضة:

عبر طريق الموت عاد الجنود هاربين من الكويت، وأغلبهم نجا - بالكاد - من موت محقق. كانوا حفاة، جياعاً، شبه عراة، خائري القوى، ومهانين، وكان بعضهم قد جرح في الحرب. وكانوا لا يرون سبباً لكل هذا، فبالأمس خرجوا من طاحونة الحرب العراقية -

---

٩٩١- هناك عدة أرقام متداولة لمساحة العراق، وعلى الدولة العراقية أن تعلن رسمياً الرقم الحقيقي لمساحتها.

الإيرانية، وقد قضى بعضهم في الخدمة العسكرية أكثر من عشر سنوات، واليوم زج بهم في مغامرة ضد حلفاء الأمس. هناك في صحراء الكويت، حيث تركوا وحدهم في مواجهة قدرهم، وحيث ظلت جثث رفاقهم على كثبان الرمال، ونزف جرحاهم دون أن يسعفهم أحد. وكانوا يعلمون وقد عادوا لتوهم من خنادق الموت، أن اصبعاً لآل صدام لم يخدش في هذه الحرب، كما لم يخدش لهم إصبع في الحرب التي قبلها.

وعندما وصل بعضهم - فجر يوم ٢ آذار ١٩٩١- إلى ساحة سعد بالبصرة، كان أحد الجنود (وعندما أصبح وجهاً لوجه أمام «تماثيل صدام» في «ساحة سعد» لم يعد الا أن يعبر علناً عما في داخله ودواخل أولئك الجنود الذين غصت بهم الساحة من مشاعر الإحباط واليأس من جهة والرغبة في إنقاذ الوطن الجريح من جهة أخرى، ولم يكن أمامه الا أن يطلق وابلاً من رصاصه على صورة الشخص الذي اعتبره بكل وجدانه المسؤول الأول..) [٩٩٢].

وهكذا انطلقت الانتفاضة التي عمت العراق شمالاً وجنوباً ما خلا محافظات معينة، حيث يفسر الشرخ الطائفي الذي صنعه صدام بين أبناء الشعب الواحد، والقومية الواحدة، والدين الواحد، عدم اشتراكها في الانتفاضة[٩٩٣]. ولم يرتكب الأهالي أية مجازر في الانتفاضة ما خلا حالات إعدام محدودة لبعض الجلادين.

وقد نهبت اغلب ممتلكات الحكومة، ويتهم رجال الانتفاضة عملاء السلطة بالقيام بأعمال النهب، على أي حال، ان «ثقافة النهب» التي أشاعها النظام، وتحدثنا عنها مراراً، أصبحت سلوكاً اجتماعياً مألوفاً، يقول انجلز: (إنك لا تستطيع أن تطالب شعباً مشرداً أن يتصرف بتهذيب).

كانت الانتفاضة تفتقر إلى الوعي والتنظيم والقيادة وكل ما تحتاجه أي حركة من

٩٩٢- الصالحي. المرجع السابق. ص١٠٦.

٩٩٣- راجع المرجع السابق. ص٢٥١، ٢٥٣، ٤٠٣، وغيرها.

أسباب النجاح، وعانت حتى من انعدام المؤن والإمـدادات. ولم يكن النظام بحاجة الا لبضعة أيام، ليلتقط أنفاسه، ويجهز عليها تماماً. فانتصارها كان مستحيلاً وستقمع كأي فورة جماهيرية بسرعة.

ويبدو أن الأمريكان كانوا يتمنون انقلاباً عسكرياً من داخل النظام يُبقي على المعادلة الطائفية الحاكمة في العراق، لا انتفاضة شعبية، خاصة وأنها مع كل يوم يمضي تبدو انتفاضة شيعية، فسمحوا للنظام باستخدام طيران الجيش في الجنوب وكانوا قد منعوا ذلك قبلاً. وتركوه يقمع الانتفاضة بكل وحشية. ونحن هنا بصدد مسألة داخلية لا يجوز لأميركا التدخل فيها، ولكن الموقف الأميركي من الانتفاضة يفضح زيف المواقف الأميركية اللاحقة وادعاءاتها الكاذبة. ويفضح أيضاً الهدف البعيد الذي تريده السياسة الأميركية بمنع تحليق طائرات القوة الجوية - فيما بعد - جنوب خط العرض ٣٦. إذ يبدو أن الهدف النهائي لهم في العراق، هو (التأسيس) لدولة عراقية بأقاليم ثلاثة. والتي مهدت سياسة صدام المسرح أمامها جيداً، ولا أظن أن الكثير من (المعارضين) سيترددون في قبول هذا المشروع.

واتبع النظام في قمعه للانتفاضة سياسة الأرض المحروقة والتصفيات الجماعية والعشوائية، وتحولت بعض المدن إلى خرائب. ولم تسلم حتى مراقد الأئمة والمساجد. فكان النظام يقصف كل شيء ويقتل كل شيء. وفاق عدد الضحايا في هذه المرة ضحايا مذابح الثمانينات وأية مجزرة أخرى، وشارك كل الذين فاتهم أن يشاركوا في مذابح الثمانينات من أهل النظام في هذه المذبحة.

وجاهر رأس النظام ومعه صحافته ومسؤولوه و(أئمة جوامعه) في الهجوم على الشيعة وأبناء الجنوب وعروبتهم، وكتب على الدبابات (لا شيعة بعد اليوم)، وأطلقوا النار حتى على ضريح الحسين بن علي أقدس مكان عند الشيعة بعد المساجد الثلاثة (المسجد الحرام، والنبوي، والأقصى). وكان الذبح يتم على الهوية الطائفية.

يقول العميد الركن نجيب الصالحي: (روى لي ضابط ركن كان يعمل في مقر الفيلق المتواجد في مدينة العمارة.. «بأن قائد الفيلق أحمد إبراهيم حماش التكريتي، وبينما كنا

معه ومجموعة الحماية، نجتاز إحدى الطرق في مركز المدينة، شاهدنا طفلاً لا يتجاوز عمره ست سنوات يركض من حولنا سريعاً.. فقال حماش اقتلوه.. اقتلوه، وعندما قال له أحد الضباط: سيدي هذا طفل عمره ست سنوات وهو لا يحمل سلاحاً، أجابه «هذا من يكبر يصير غوغائي» (٩٩٤).

ويعلق الصالحي على تعيين حماش فيما بعد محافظاً فيقول: (كيف يصبح من يهم بقتل طفل محافظاً، أم أن الأطفال في جنوب العراق بدرجة من الخطورة على نظام الحكم العراقي تستدعي قتلهم..! قبل أن يرفضوا واقعهم المزري، صحيح أن الأجيال الجديدة من شباب العراق وفي الجنوب والفرات الأوسط بشكل خاص، سوف لن يقبلوا العيش كمواطنين من الدرجة الثانية والثالثة مثلما أجبر آباؤهم على قبول ذلك تحت ضغط القوة والترويض، وأنهم يقاومون التعسف والشعور بالدونية، ولكن هل يعني هذا قتلهم؟) (٩٩٥).

وكمثال على المذابح التي جرت فإن (هيئة تحقيقية قد شكلت في مقر الفيلق برئاسة عميد كان مدير شعبة في مديرية الاستخبارات، و بدأت الهيئة في التحقيق وأصدرت أحكام الإعدام التي شملت المئات من الشباب الذين تم القبض عليهم خلال عملية قمع الانتفاضة في العمارة وان جثثهم كانت تلقى على السواتر الترابية المحيطة بمقر الفيلق وكان الكثير منهم جنوداً عائدين من الكويت) (٩٩٦). والمؤلم أن (عوائل هؤلاء المعدومين ظلت تنتظر عودتهم، وبعد أن فقدوا الأمل في ذلك، اعتبروا مفقودين في الكويت «وربما حتى الآن لم تفقد عوائلهم الأمل في عودتهم!») (٩٩٧).

٩٩٤- المرجع السابق. ص٢٤٢-٢٤٣.

٩٩٥- المرجع السابق. ص٢٤٣ (حاشية).

٩٩٦- المرجع السابق. ص٢٤٤.

٩٩٧-المرجع السابق. ص٢٤٥.

ويقال أن هذا العميد – الذي حكم على الجنود المساكين بالإعدام – هو سعد العبيدي مدير الشعبة الرابعة عشر (شعبة الاستخبارات النفسية)، والتي تتشكل من ثلاثة أقسام هي المختبر النفسي والاستخبارات النفسية والبحوث النفسية. وتقول وثيقة منشورة عام ١٩٨٣ إن من اختصاصات هذه الشعبة: (إجراء تجارب حول استخدام العقاقير والخمور وتأثيرها على الأشخاص والجماعات) و(المساهمة في استنطاق الأسرى واللاجئين والهاربين خارج القطر من منتسبي الجيش العراقي) و(المساهمة في استنطاق الأسرى واللاجئين من الدول الأخرى أو المتمردين)[٩٩٨].. وغيرها. ويعرف أي عراقي ما معنى الاستنطاق وكيف يجري في (استخبارات صدام). وقد التحق سعد العبيدي بالمعارضة فيما بعد.

وقد أمر صدام بترك جثث الذين قتلوا خلال الانتفاضة أو الذين أعدموا ميدانياً في المدن بدون دفن، وفي مدينة كربلاء – وبقرار من أعلى كما يبدو – تركت الجثث لمدة أسبوع كامل، وقد نهشت الكلاب بعضها، ولم تسلم الجثث لذويها أبداً، إذ جمعتها البلدية، ويبدو أنهم دفنوا في مقابر جماعية. وقد حاول عامل مصري في مدينة كربلاء دفن رب عمله في حديقة بيته، أي بيت رب العمل، ويبدو أن هناك من اتصل بالأمن فجاءوا ونفذوا الإعدام بالعامل المسكين، والذي لم يكن قد دفن الجثة بعد.

٩٩٨- المركز الإسلامي للأبحاث السياسية. جرائم صدام (مصدر سابق) ص٢٦-٢٩.

الفصل الحادي عشر

الحصار: أين التنمية؟

(يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه)

الإمام علي

كانت (البروليتاريا الرثة) أو (حثالة البروليتاريا) هي القاعدة الاجتماعية التي جاءت منها واستندت إليها الفاشية التي حكمت العراق. وأحاول هنا التشديد على البعد المحلي لهذا المفهوم، لا على بعده الماركسي، إذ (يرى ماركس أن البروليتاريا الرثة هي نفايات المجتمع القديم ما قبل الرأسمالي، في عالم آخذ في التصنيع) حيث (يتعلق الأمر، بالنسبة لماركس، بالسوقة والدهماء في المدن الكبيرة)[٩٩٩]. ولماركس كتابات غنية ومهمة بهذا الشأن.

إن الطبيعة المشوهة للاقتصاد العراقي، والهجرة الريفية الكثيفة، أفرزت طبقة كبيرة وعريضة من (حثالة البروليتاريا التي يقال عنها أيضاً «الرعاع» وهم أناس بلا ملامح ثابتة لهم، ولا يمكن تحديد هوياتهم جيداً، هم في أسفل المجتمع، يمتازون بالفظاظة، والجمود العقلي نسبياً، ولكنهم أقوياء أيضاً، بسبب ظروفهم القاهرة والمخيفة[١٠٠٠].

٩٩٩- سامي ذبيان وآخرون. قاموس المصطلحات (مرجع سابق) ص٩٠.

١٠٠٠- إبراهيم محمود. حركية حثالة البروليتاريا في العالم الثالث. مجلة النهج. العدد ٣٢ / ١٩٩٠. ص٩٠. ويستخدم الكاتب تسمية (العائمين على السطح) أو (السفليين) مقابل (حثالة البروليتاريا) التي يعترض على استخدامها في العالم الثالث.

ويصف ماركس هؤلاء بالقول: (إن هذه الفئة التي تقدم اللصوص والمجرمين من كل نوع تتألف من عناصر تعيش من فتائت مائدة المجتمع، من أناس ليست لديهم مهن معينة[١٠٠١].

إن اغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة وقيادة الحزب بعد ١٧ تموز ١٩٦٨، وأغلبية المحافظين وكبار موظفي الدولة والوزراء، وأجهزة المخابرات والأمن والحزب، قد جاؤوا من هذه الطبقة، والتي سيطرت على الدولة والحزب والجيش تماماً مع تسلم صدام حسين لرئاسة الجمهورية عام ١٩٧٩. فقد أصبح مألوفاً في العراق بعد ١٧ تموز –على سبيل المثال – أن يكون بائع ثلج (عزت الدوري) وبائع كبة (محمد فاضل) وعامل بلدية (محمد عايش) وشقي (سعدون شاكر) وسائق سيارة (علي حسن مجيد) وضابط صف مسرح (طه الجزراوي) وعاطل عن العمل (حسين كامل) وعامل لرش المبيدات الكيميائية ضد الحشرات (عبد الباقي سعدون) أعضاء في قيادة الحزب والدولة.

(وليس تجلي هؤلاء السفليين وتمظهرهم بمظهر الرجال المحترمين.. إلا نذير الكارثة، كارثة انقلاب القيم، وجعل سافلها يحكم عاليها، ودالة صارخة على أن هذا المجتمع الذي يحويهم قد أصبح مجتمع لصوص، سفلة، بلا ضوابط، ولا مُثل، سوى ما يعتبره السفليون.. مثالاً يحتذى لهم، وكارثة وطنية كبرى وقومية كذلك. وتصبح دولة الشعب هنا، ودولة القانون الموضوع للشعب، شعب الدولة، والشعب للقانون، والقانون لدولة السفلة)[١٠٠٢].

إن هذا يفسر اجتماعياً وبدقة ما جرى بعد ١٧ تموز ١٩٦٨، ويفسر أيضاً كيف أخفق النظام في بناء تنمية حقيقية. فكان فشل التنمية في العراق، العنوان العريض لاندحار

١٠٠١– المرجع السابق. ص٩٠.

١٠٠٢– المرجع السابق. ص٩٩–١٠٠.

نظام متخلف دموي وبائس إلى جانب إخفاقه أيضا في المحافظة على وحدة العراق وسلامة أراضيه.

لقد أضاعوا على العراق فرصة ذهبية للتنمية. إذ كان يملك شروطاً مثالية في السبعينات للانطلاق في التنمية، وأهمها، عائدات مالية ضخمة ومتصاعدة بسبب الارتفاع المستمر في أسعار النفط، وعدد سكان قليل أو بالأحرى مناسب، وكوادر متعلمة هي أقل من حاجة العراق الفعلية، ولكنها كانت كافية لتساهم في (انطلاقة التنمية). وكانت الأجور غير مرتفعة بل ومتدنية، وهو ما يساهم في بداية التنمية على خفض كلفة الإنتاج، لأنها لا تلبث أن ترتفع، وعموماً كانت معدلات التضخم في العراق آنذاك مقبولة. وأيضا كان هناك استقرار نسبي جيد في العراق والمنطقة، وكانت هناك دول كثيرة كفرنسا تتنافس على كسب ود العراق ومستعدة أن تقدم الخبرة والمساعدة له، أضف إلى ذلك، فإن المنطقة كانت سوقاً واسعاً وبكراً، وبحاجة إلى الكثير من الإنشاءات والصناعات والخبرات. وتعطي كلفة النقل المنخفضة العراق ميزة تنافسية في وسط هذه السوق الغنية.

لقد أدى الحظر النفطي العربي، وتصاعد عائدات النفط، والمتاعب التي كان يعاني منها الاقتصاد الأوروبي، إلى تنافس الدول الصناعية في السبعينات على إقامة علاقات مزدهرة مع الدول النفطية. وقد حرصت فرنسا بقوة على تطوير علاقاتها بالعراق، حتى أنها – وخلافاً للمحظور الدولي والذي لم يكن آنذاك قد وصل إلى درجة التحريم – قد زودت العراق بمفاعل نووي متقدم. وعندما قام الموساد عام ١٩٧٩ بتفجير المفاعلات النووية في مارسيليا – قبل شحنها إلى العراق بساعات – وحتى لا يخسر الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان العقود النووية مع العراق، طلب من المصانع الفرنسية، إنتاج وقود للعراق مخصب بنسبة ٧٪ بدلاً من ٩٧٪ اسمه الكرميل، وتحوير المفاعلات النووية المصنعة بدلاً من تلك التي فجرت، لتعمل بهذا الوقود.

❖ ❖ ❖

ويقودنا تفجير المفاعلات النووية في فرنسا، إلى وقفة مع أداء المخابرات العراقية الخارجي. فالمثير للانتباه، أن العراق المصنف كدولة مخابرات رهيبة، أخفقت مخابراته إخفاقاً ذريعاً في صراعها مع الموساد والمخابرات الغربية. بل بدت أمامهما غبية ومتخلفة، وتفتقر إلى القدرة على التحليل والتنبؤ، ولكنها - وهذا المؤلم - كانت نشيطة ودقيقة وهي تلاحق مواطنيها.

إن أبناء (البروليتاريا الرثة)[١٠٠٣] المتخلفين، هم الذين هيمنوا على أجهزة المخابرات، لإقامة سلطتهم الدموية، ففشلوا في بناء مخابرات ذكية قادرة على حماية المصالح الوطنية.

وفضلاً عن الاختراقات المعادية التي وصلت حتى قيادات النظام كما هو الحال بالنسبة لفاضل براك مدير مخابرات النظام، فإن الأمثلة كثيرة على الاخفاقات، وأختار هنا مثالين على ذلك. اولهما، هو عملية اغتيال الدكتور يحيى المشد من قبل الموساد وبسهولة - في باريس في ١٣/٦/١٩٨٠- وكان يجب ألا يُترك الدكتور المشد أكبر علماء الذرة العرب وأحد أعمدة المشروع النووي العراقي بلا حماية، وهو يسافر إلى باريس في مهمة تتعلق بالمفاعل النووي العراقي، وكانت إسرائيل - كما ذكرنا قبل قليل - قد فجرت المفاعلات النووية العراقية قبل أشهر في مارسيليا، ناهيك عن المؤشرات القريبة والبعيدة على إمكانية وقوع مثل هذا الاغتيال. فكل مواطن عربي لابد أن يتذكر -حتى لو كانت ذاكرته ضعيفة - التهديدات والتفجيرات التي طالت العلماء الألمان الذين كانوا يحاولون مساعدة مصر في إنتاج صواريخ أرض-أرض في الستينات.

وقد تكرر هذا الخطأ ثانية بعد عشر سنوات، وبغباء شديد في قصة (المدفع العملاق) الشهيرة، مع ما يومئ له وجود مثل فاضل براك أو غيره على الخيانة. فإن الدكتور

١٠٠٣- ان استخدام تسمية (البروليتاريا الرثة) هنا بدلاً من (الرعاع) أو (الدهماء) رغم أنهما أدق، حتى لا يظن القارئ أني أقصد بهما الشتيمة.

جيرالد بول الذي (كان يوصف بأكبر عالم مدفعية في هذا القرن)[١٠٠٤]، والذي أقلقت الإسرائيليين علاقته ببرنامج الصواريخ العراقي[١٠٠٥]، أبلغ العراق بمخاوفه من سلسلة إنذارات تلقاها من الإسرائيليين، فكان الجواب من الضابط المسؤول بأن (أي طرف لا يقتل رجال الطرف الآخر لأن ذلك يؤدي فقط إلى الرد)[١٠٠٦]. ولكن الرجل قتل بعد أقل من شهرين من عودته من العراق في مدينة بروكسل بمسدس مزود بكاتم صوت في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٩٠. أما الرد من المخابرات العراقية فلم يأت أبداً.

❖ ❖ ❖

كان العراق يفتقر دائماً إلى قادة أذكياء ومثقفين ويملكون خيالاً خلاقاً، ليستثمروا إمكانياته ويصنعوا التنمية. فالحكم الملكي كان سيئاً، رغم المحاولات المتأخرة لإعادة الاعتبار إليه، والحديث غير الدقيق عن حسناته وإنجازاته. ان لا عقلانية ما بعد ١٤ تموز ١٩٥٨، وكوارث ما بعد ١٧ تموز ١٩٦٨، تبدو سبباً مقبولاً للحنين إلى العهد الملكي، ولكن الحنين إلى مرحلة شيء، والحديث عن إنجازاتها شيء آخر. فإنجازات أي مرحلة تقاس بظروفها وبإمكانياتها وبتوجهاتها.

لقد حكمت العراق في العهد الملكي - مع الإشارة إلى محاولات فيصل الأول المتأنية للتجديد والتي لم يكتب لها النجاح - طبقة قديمة متخلفة وفاسدة، عثمانية التفكير والسلوك، ولا تملك أية رؤية للتحديث، جاءت إلى الحكم على حراب الاحتلال البريطاني، وأقامت حكماً طائفياً مستبداً، أصبح مع الأيام معضلة العراق الأساسية وسبب كل مآسيه،

١٠٠٤- وليم لوثر. قصة المدفع العملاق. ترجمة فؤاد حطيط. باريس ١٩٩٢. ص٨.
١٠٠٥- المرجع السابق. ص٢٦١.
١٠٠٦- المرجع السابق. ص٢٦٤.

وسيفرخ هذا الحكم فيما بعد - بعد أن تنفصل عنه نهائياً الورقة الكردية - نظاماً فاشياً مأساوياً.

ان تسجيل الحسنات للحكم الملكي، على أساس مقارنته بالأنظمة الجمهورية ليس منصفاً، فهذه الأنظمة ما هي إلا صنيعة (تراكماته) ونتاج (إخفاقاته). إذ إن أبرز سمات ذلك الحكم هو الفساد وعدم الاستقرار السياسي[١٠٠٧]، فقد جرى حل جميع المجالس النيابية رغم مهازل انتخابها ولم يكمل مدته القانونية سوى واحد منها، وفرضت الأحكام العرفية ست عشرة مرة. ومُنعت الأحزاب السياسية من ممارسة نشاطها العلني. وكان الحكم يجهز باستمرار على الحياة المدنية، وعندما سقط الحكم الملكي في العراق كان عمر جريدة الأهرام المصرية ثمانين عاماً، بينما لم يكن يزيد عمر أية مطبوعة عراقية على السنتين. وقد نزع الحكم الملكي الجنسية عن بعض المعارضين وكان يتهم أي معارض أو مثقف وكل من يُبدي امتعاضاً من السلطة بالشيوعية.

زد على ذلك، أن الحكم الملكي سقط بعد ٣٨ سنة، ونسبة الأمية أكثر من ٨٠٪ والفقر والمرض يأكل أغنى بلد عربي آنذاك (أما معدل عمر الفرد في العراق فلا يتجاوز ٢٨-٣٠ سنة)[١٠٠٨].

وجاءت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وكان عبد الكريم قاسم عبارة عن شخصية عسكرية فارغة ذات نوايا طيبة، وقد وصفه كارانجيا الصحفي الهندي الشهير الذي كان مهتماً بالشؤون العربية بأنه عسكري قذف نفسه في السياسة. إن الذين يصنعون التنمية هم طراز مختلف، طراز يعيد إلى الشعوب ثقتها بنفسها.

وجاء الانقلاب البعثي الأول عام ١٩٦٣ فقتل اكثر من سبعة آلاف شخص خلال ثمانية أشهر بتهمة الشيوعية، ثم انفرد عبد السلام عارف بالحكم بعد انقلاب ١٨ تشرين

١٠٠٧- راجع الزبيدي. المرجع السابق. ص١٩ وما بعدها.

١٠٠٨- المرجع السابق. ص٢٩.

الثاني، فكان أحمقاً وفارغاً وكريهاً وكان عهده ثم عهد أخيه من بعده مليء بالمهازل السياسية[١٠٠٩].

كان عبد السلام - مثلاً - يستهزئ بطاهر يحيى ويعتبره أمياً، ولكنه اختاره رئيساً للوزراء لأنه لا يحتمل رجلاً مثقفاً. وخطب ذات مرة (فانتقد دول مثل بورما ومالي وسخر حتى من أسمائها)[١٠١٠]. وشكل عارف عبد الرزاق الضابط القومي المشهور وزارته الأولى في عهد عبد السلام عارف من زملائه على موائد القمار، لولا نصيحة صديق قريب منه[١٠١١].

ومات عبد السلام ففرضت (العصبيات المحلية) شقيقه عبد الرحمن رئيساً للجمهورية. والذي كان ساذجاً وضعيفاً ويفتقر إلى كل مؤهلات الرئاسة، وقد بلغ الحكم - في عهده - أسوأ أوضاعه. فكان إسماعيل خير الله وزير الخارجية، يمضي أكثر وقته في القصر الجمهوري يلعب الطاولة مع الرئيس[١٠١٢]، دون أن يحسب هو أو رئيسه حساباً لواجباتهما، ودون أن يحسبا شيئاً لشؤون البلد أو لأوضاع الجيش أو للخطر الصهيوني أو للمستقبل.

لقد ترك عبد الرحمن عارف أمور الجيش في يد الرائد عبد الرزاق النايف[١٠١٣]، وكان النايف يبدل سيارته يومياً ويقضي وقته في شوارع بغداد يتصيد الفتيات. المهمة

١٠٠٩- راجع عن عهد عبد السلام عارف مثلاً، هويدي. المرجع السابق. ص١٨٣، ١٨٨، ١٩١، ١٩٩، ٢٥٣، وغيرها.

١٠١٠- فرحان. المرجع السابق. ص١٦٩.

١٠١١- المرجع السابق. ص١٧٦ (حاشية).

١٠١٢- السعيد. نواطير الغرب (مرجع سابق). ص٢٦٧. وأيضاً عن حادثة مماثلة راجع فرحان. المرجع السابق. ص٢٢٣.

١٠١٣- عن الأوضاع في عهد عارف الثاني راجع فرحان. المرجع السابق. ص٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢ وغيرها،

التي واصلها بعده برزان التكريتي ثم عدي صدام.

(أما اللامبالاة فقد كانت الطابع العام لكبار المسؤولين، وكان تصرفهم في أغلب الأحيان مخزياً، وهكذا عرف الأهلون مع كل ما يتوقع من غضب أنه يوم نشوب حرب حزيران، قضى رئيس الأركان الجنرال مهدي حمودي طوال قبل الظهر في مكتب (إحدى شركات التأمين) للمراجعة بشأن تعويض مترتب على هذه الشركة لابنه الذي كان تعرض لحادث سيارة)[١٠١٤].

وكان رئيس الوزراء طاهر يحيى بذيء اللسان، ويشاع عنه إثراؤه الفاحش، وتورطه في صفقات مشبوهة، (إذ كان الاعتقاد سائداً بأن يحيى جمع ثروة من وراء الصفقات البترولية، ويقول البعض أن هذه الثروة تبلغ خمسة ملايين دينار عراقي «١٤ مليون دولار»)[١٠١٥].

الخلاصة أن حكام العراق أضاعوا فرصة طيبة وسانحة للتنمية. إذ إن الجهل والفساد واللامبالاة كانت صفات مشتركة للحكومات المتوالية على حكم العراق. فحكم الطائفة، أي طائفة، يعيد بالضرورة إنتاج نفسه من خلال أنظمة فاسدة مستبدة، ولن تتوقف هذه الدوامة إلا بالخروج من الصيغة التي أقامها الاحتلال البريطاني عام ١٩٢١، والتي كانت ولا زالت معضلة العراق.

❖ ❖ ❖

رغم أن التعليم في العراق – قبل عام ١٩٦٨– كان بحاجة كبيرة للتحديث والتطوير، إلا أنه أنتج كفاءات عالية في مختلف المجالات. اما بعد انقلاب ١٧ تموز فقد ساءت

١٠١٤– أريك رولو. جريدة اللوموند الفرنسية ١٩٦٨/١٠/٩. نقلاً عن السعيد. المرجع السابق. ص٢٦٧.

١٠١٥– جريدة الحياة البيروتية. العدد (٦٨٣٥) في ١٩٦٨/٧/٢٠ نقلاً عن السعيد. المرجع السابق. ص٢٦٦.

ظروف التعليم كثيراً في السنوات الاولى للانقلاب، حيث أحالوا على التقاعد الكثير من المعلمين و المدرسين و أساتذة الجامعات المتهمين بالانتماء لهذا التيار أو ذاك، أو نقلوهم إلى وظائف أخرى. وبسبب ذلك حدث نقص واضح في مختلف مراحل التعليم. كما استبدلوا مدراء المدارس وعمداء الكليات، الذين اختيروا غالباً من بين الأكفاء، بآخرين كان بعضهم قد تخرج للتو، ثم وفي السنوات التالية نقلوا من التعليم كل من رفض الانتماء لحزب البعث، وأصبح العمل في التعليم حكراً على البعثيين.

وقد أصبح ابتداء من عام ١٩٦٩، القبول في معاهد المعلمين والكليات التي تخرج المدرس ين (كلية التربية، كلية التربية الرياضية، أكاديمية الفنون) مقتصراً على البعثيين، وأدى ذلك إلى قبول طلاب بعثيين بمعدلات متدنية جداً، الأمر الذي انعكس بالتالي على مجمل عملية التعليم في البلد. والمثير للسخرية أنهم ألحقوا -بعد الثورة الإيرانية - الكليات الدينية بالكليات الخاصة بالبعثيين.

وبلغ افراغ التعليم الجامعي من الاساتذة الذين رفضوا الانتماء للحزب الحاكم ذروته، مع صعود صدام إلى المركز الأول في الدولة عام ١٩٧٩. فقد أطاحت الدهماء هذه المرة بالتعليم تماماً، كما أطاحت بالقضاء قبلاً، إذ أخرجت منه القضاة الذين رفضوا الانتماء للحزب، وأحلوا محلهم آخرين، كانت كفاءاتهم ونزاهتهم موضع تساؤل.

وبعد أن بدأت الحرب العراقية - الإيرانية، مُنح أبناء ضحاياها، عشر درجات تضاف إلى المعدل العام لخريجي الثانوية، أي ما مجموعه ستون درجة لمجموع المواد لكل واحد منهم، وأصبحت لهم الأفضلية في القبول بشكل عام. وكان النظام - ومنذ عام ١٩٦٨- قد منح الطلاب المتفرغين في التنظيم الطلابي، عشر درجات تضاف إلى المعدل العام لكل منهم.

وصدر قرار في عام ١٩٧٩ بقبول ضباط الأمن والمخابرات والجيش وكوادر الحزب في الجامعات بغض النظر عن المعدل وسنة التخرج، وقد كنا طلاباً في الجامعة في تلك المرحلة، ورأينا كيف ينجح هؤلاء. وقد سمعت مرة في حرم الكلية بالصدفة، رجل مخابرات يقول لزميله، ويبدو أنه جاء بأسئلة المادة المقررة لامتحان ذلك اليوم، بأنهم

يختطفون البشر فهل من المعقول أنهم لا يستطيعون سرقة الأسئلة؟

واستبدلوا مدرسي الجامعات الذين أحالوهم على التقاعد وبينهم أساطين علمية معروفة بضباط أمن ومخابرات وبحزبيين، حصلوا على شهادات الدراسات العليا كالماجستير والدكتوراه، والتي كانت حكراً على البعثيين في جميع فروعها العلمية والأدبية. إلا أن ثمة مسألة فرضت نفسها مع الأيام، وهي أن الضم الإجباري للطلبة إلى صفوف الحزب الحاكم، أدى إلى تحسن نسبي في مستوى الدراسات العليا، والتي لا يحبذ أبناء المسؤولين غالباً الاستمرار فيها، بخلاف الدراسة الجامعية الأولية، والتي كانوا يحرصون على نيل شهادتها بكل الطرق.

لقد ملأ ضجيج النظام الأسماع حول (محو الأمية)، والتي كانت تبلغ عام ١٩٧٠ حوالي ٧٥٪. الا إن مستوى القائمين على الحملة، وعدم وجود متابعة جدية لسير العملية كما هو شأن النظام في أي نشاط لا يتعلق بالأمن. وكذلك التعلم على طريقة «الرسم بالكلمات» لا تعلم الأبجدية التي اتبعت في محو الأمية. كل هذا أضاع الجهد والوقت والمال، فلم تأتِ حملة محو الأمية الا بنتائج محدودة جداً. فبعد عشر سنوات تقريباً من انقلاب ١٧ تموز ، تقول الإحصاءات الرسمية لعام ١٩٧٧ بأن نسبة الأمية ٥٣٪ [١٠١٦]. ولا يشمل هذا الإحصاء من هم دون العاشرة. أما حسب إحصائيات غير رسمية لعام ٢٠٠٢ – وبعد ٣٠ سنة من انقلاب ١٧ تموز – فإن نسبة الأمية هي ٤٠٪.

وقد تراجع التعليم في العراق بعد الحصار كثيراً، سواء من ناحية التسرب من التعليم، أو مستوى التعليم، أو حالات الغش في الامتحانات، أو النجاح برشوة وهو امر يحصل لأول مرة في تاريخ العراق، أو بتأثير اليأس من المستقبل. وقد صادفني أكثر من شاب قادم من العراق من سكان المدن الصغيرة وهو لا يقرأ ولا يكتب نهائياً. وتعاني كليات الطب

١٠١٦- الدكتور فاضل الأنصاري. مشكلة السكان (مرجع سابق). ص٣١٣ (جدول رقم ٦٣) وأيضاً ص ٣١١.

والهندسة والعلوم من نقص في الأجهزة والمواد العلمية والكتب والنشرات العلمية وفي عدد الأساتذة. أما مدارس الجنوب، حيث نُهبت أو دُمرت خلال الانتفاضة أو عند قمعها، فإن الطلاب يجلسون على الأرض خلال الحصة الدراسية، كما كان يفعل الطلاب في الكتاتيب خلال القرن التاسع عشر. ويبدو أن النظام يحاول الإبقاء على الوضع كما هو، انتقاماً من المحافظات الوسخة كما سماها خلال الانتفاضة.

الأخطر من ذلك، الهجرة الكثيفة للأدمغة العلمية من العراق، وهذا هو الهدف الأول من الحصار كما يبدو، فالقاعدة تقول ان من يهاجر من العلماء والأساتذة سوف لن يعود. والمؤلم إن عدد من هاجر من الاختصاصات النادرة ومن الأساتذة والعلماء المبرزين كبير وكبير جداً، حتى يمكن القول أن البلد قد أفرغ أو في سبيله للإفراغ من قدراته العلمية الفاعلة.

❖ ❖ ❖

يتندر الشعب العراقي باستمرار على طريقة النظام في تسمية الأشياء، حتى أصبح لكل مرحلة اسم يتكرر فيها، وقد شاع في منتصف السبعينات على ألسنة المسؤولين ما أسموه بالتنمية الانفجارية. ويبدو أن الدعاية والكذب وتسمية الأشياء بضدها هي أسلحة فاشية بامتياز لنظام ١٧ تموز.

لقد تراجعت الزراعة بعد انقلاب ١٧ تموز كثيراً رغم أن العراق بلد يملك ظروفاً مثالية للنمو الزراعي. فهو واحد من بلدان قليلة في العالم يملك نهرين عظيمين يمتدان من شماله إلى جنوبه. وتساوي الأرض الصالحة للزراعة فيه ٢٦٪ من مساحته[١٠١٧]، إلا أن ما يزرع منها وحسب تقديرات عام ١٩٩٧ هو أقل من ربع الأرض الصالحة

١٠١٧- الدكتور رشيد الظالمي. الزراعة في العراق. لندن ٢٠٠١. ص١٢٧.

للزراعة[١٠١٨]. وكمثال على إهمال الزراعة في العراق فإنها كانت بحاجة إلى سد على الفرات بالقرب من مدينة عانة، وكان السير وليم ويلكوكس والذي استدعته الحكومة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى أول من اقترح هذا السد، ولكن الحكومات المتعاقبة أهملت ذلك، رغم معاناة السكان من الفيضانات المتكررة والتي كان فيضان عام ١٩٦٨ آخرها، ورغم الحاجة المتزايدة لهذا السد، خاصة بعد إقامة كل من سوريا وتركيا سدوداً لها على نهر الفرات. وقد أنشئ هذا السد أخيراً في النصف الثاني من الثمانينات ولكن بعد أن تضاعفت كلفة إنشائه عشرة أضعاف الكلفة المقررة عام ١٩٦٨.

وتواجه الزراعة في العراق مشاكل حقيقية جعلت أمنه الغذائي في خطر، ناهيك عما أصاب البيئة نتيجة ذلك من أضرار. وفي مقدمة هذه المشاكل نقص المياه الكافية للزراعة بسبب السدود التركية، وارتفاع نسبة الملوحة في الأرض، والتعرية، وظاهرة التصحر. (لقد أدى تركز الأملاح المستمر، نتيجة للفيضان، أو الجفاف، أو لنظام السقي السائد إلى فقدان كثير من الأراضي الزراعية خصوبتها، وبالتالي إهمال زراعتها، إذ قدر أن مساحات واسعة تبلغ نحو ٦٠٪ من الأراضي القابلة للزراعة، أصبحت غير صالحة، بسبب ملوحة التربة)[١٠١٩]. وفي الثمانينات زادت تلك الأراضي المتضررة بالملوحة على ثلثي الأراضي الصالحة للزراعة[١٠٢٠]. (ولو جمعنا الأراضي المتضررة بالملوحة مع الأراضي التي أصابتها التعرية لوجدناها تشكل ٢٩٪ من مجموع أراضي العراق)[١٠٢١].

(إن ارتفاع نسبة الملوحة في الأرض لا يعني فقدان المزيد من الأراضي فحسب، بل يؤثر على إنتاجية الأرض الزراعية، فبتأثير الملوحة كان معدل العائد من الإنتاج الزراعي للفترة «١٩٩٥-١٩٩٧ هو ٠،٧٥ طن / هكتار، مقارنة بسورية حيث معدل العائد في تلك

١٠١٨- المرجع السابق. ص٢١١.

١٠١٩- الأنصاري. المرجع السابق. ص١٦٢-١٦٣.

١٠٢٠- الظالمي. المرجع السابق. ص٢٠٠.

١٠٢١- المرجع السابق. ص٢٠٠.

الفترة ١،٨ طن / هكتار، وتركيا ٢،١ طن / هكتار»)[١٠٢٢].

وألحقَ تجفيف الأهوار، أي المنخفضات المائية في جنوب العراق وتحويل مجرى نهر الفرات أفدح الأضرار بالزراعة والبيئة[١٠٢٣]. وقد جرى ذلك لأسباب أمنية بعد أن تحولت تلك الأهـوار خاصة هور الحمار - الـذي تبلغ مساحته ما يساوي ربع مساحة لبنان - إلى قاعدة للمعارضة الإسلامية. مما (ألحق ضرراً بليغاً بالثروة السمكية والطيور والنباتات ذات الخصائص المميزة كالبردي والقصب والضرورية لصناعة الورق وغيرها). كما أدى إلى هجرة مئات الآلاف من السكان، وقد هاجر بعضهم باتجاه إيران[١٠٢٤] خوفاً من بطش السلطة.

وبدلاً من إجراءات جذرية وشاملة للنهوض بالزراعة في العراق، كان هناك الكثير من القرارات العشوائية والمرتجلة التي ساهمت في تبديد الأموال العامة، وفي إضعاف الإنتاج الزراعي الضعيف أصلاً. فقد ضج الإعلام الرسمي عامي ١٩٦٩ و١٩٧٠ بالحديث عن مشروعي (الدواية) و(المغيشي) الزراعيين اللذين فشلا فشلاً ذريعاً، ولم يعد أحد يذكرهما أبداً.

وأصدر النظام - عام ١٩٧٧- قـراراً بمنح الفلاحين سيارات نقل صغيرة، أو ما سماها القرار الحكومي بالسيارات الإنتاجية، بأسعار مخفضة، لنقل حاصلاتهم، فترك الكثيرون العمل في الزراعة لأنها ذات مردود مالي أقل، واشتغلوا في النقل بسياراتهم الجديدة.

وأقام النظام مشروعاً لإسكان البدو في بادية السماوة، وهو الآخر فشل تماماً، لبعده

١٠٢٢- المرجع السابق. ص٢٠٠.

١٠٢٣- الدكتور مصطفى جمال الدين. محنة الأهوار والصمت العربي. الموسم. العدد الرابع عشر ١٩٩٣. (الصفحات غير مرقمة).

١٠٢٤- راجع الظالمي. المرجع السابق. ص١٩٦-١٩٧.

عن المياه ولوجوده في أرض صحراوية قاحلة. وقد حوله النظام - كما مر بنا - إلى سجن لمئات العائلات من بلد والدجيل والأكراد وغيرهم.

لقد عانت الزراعة مما أشرنا له كثيراً أي (ظاهرة إدارة مؤسسات اقتصادية هامة، زراعية وصناعية، من قبل أفراد وطواقم لا علاقة لهم بتخصصات تلك المؤسسات، أو نشاطاتها الإنتاجية، بل ويتمتعون بمستويات تعليمية منخفضة)[١٠٢٥]. إذ أصبح عزت الدوري وزيراً للزراعة وكان في السابعة والعشرين، وهو من طبقة الباعة الدنيا[١٠٢٦]، وكان بائع ثلج، ولم يتسنَ له سوى قدر محدود من التعليم، وقيل أنه لم يحصل على الشهادة الثانوية، وقيل أنه حصل عليها بقوة السلاح خلال فوضى عام ١٩٦٣.

وبعد انخفاض سعر النفط المفاجئ ليلة ١٩٨٦/١٢/٣٠، وفي وقت كان فيه العراق مستنزفاً بنفقات الحرب المتزايدة، بدأ صدام يتحدث علناً عن إخفاق الزراعة في العراق وعن ضرورة النهوض بها، وقد ذكر أرقاماً أظنها دقيقة، فقد ذكر بأن العراق يستورد سنوياً ما قيمته ٥٠ مليون دولار من معجون الطماطم والذي يأتي أغلبه من بلغاريا، وذكر ٣٠٠ مليون دولار لقيمة العلف الحيواني الذي يُستورد سنوياً. الخلاصة أن العراق كان يستورد ٧٠٪ من حاجياته الغذائية عندما زج به في أزمة الكويت.

وبفضل السياسات الغبية لنظام ١٧ تموز، أصبح العراق شأنه شأن مشيخات النفط، بلداً مما يسمى بـ (المستوردين للطعام) إذ (يوجد عدد معين من الأقطار التي ترعرع فيها الاقتصاد حوالي سلعة واحدة للتصدير كالنفط أو السكر والتي تكون معتادة على استيراد كل ما تستهلكه تقريباً..)[١٠٢٧].

١٠٢٥- المرجع السابق. ص٢١٤.

١٠٢٦- بطاطو. العراق (الكتاب الثالث). ص٤٦٥.

١٠٢٧- جوان روبنسون وجون إيتويل. مقدمة في علم الاقتصاد الحديث. ترجمة. د. فاضل عباس مهدي. بيروت ١٩٨٠. ص٤٣٦.

ولولا النفط لعانى العراق من المجاعة في السبعينات والثمانينات، الأمر الذي حصل بعد الحصار في التسعينات حتى عام ١٩٩٦. وقد خفف من وطأة ذلك وقتها، توزيع الدولة للمواد الغذائية مجاناً على المواطنين. وفي تقرير دولي فإن (الحصص المجهزة من الحكومة توفر فقط ٥٠٪ من احتياجات التغذية للفرد)[١٠٢٨]. وانخفضت حصة الفرد مما توزعه الدولة إلى النصف عام ١٩٩٤. وكان العراق على أبواب مجاعة حقيقية، حين صدر قرار مجلس الأمن المرقم ٩٨٦ في نيسان ١٩٩٥، والذي يسمح للعراق ببيع كميات من النفط، بما يعادل ملياري دولار خلال ستة أشهر قابلة للتجديد، تنفق عائداتها على استيراد المواد الغذائية والأدوية والاحتياجات الضرورية الأخرى، وتغطية نفقات نشاطات الأمم المتحدة في العراق أيضاً. وقد وقعت الحكومة العراقية والأمم المتحدة مذكرة تفاهم - عُرفت باتفاقية النفط مقابل الغذاء - بتاريخ ١٩٩٥/٥/٢٠ بهدف تنفيذ القرار رقم ٩٨٦ [١٠٢٩].

وتبلغ حصة العراق من عائدات النفط - بموجب اتفاق النفط مقابل الغذاء - بين ٤٥ و٥٥٪ أما الباقي فيذهب للتعويضات ولتغطية نفقات نشاطات الأمم المتحدة في العراق، وربما أن ١٣٪ منها كان مخصصاً للمنطقة الشمالية.

ويواجه العراق مشكلة مياه خطيرة، بسبب السياسة المائية التركية التعسفية، والتي استغلت الخلاف العراقي - السوري وانشغال العراق بالحرب مع إيران لتمضي

١٠٢٨- د. عباس النصراوي. الاقتصاد العراقي. ترجمة محمد سعيد عبد العزيز. بيروت. ١٩٩٥. ص٢١٥ (حاشية).

١٠٢٩- الظالمي. المرجع السابق. ص٢١٢.

في سياستها بعيداً. حتى أن الرئيس التركي الأسبق (توركوت أوزال) صرح وهو يفتتح أحد مراحل سد أتاتورك قائلاً: (إذا طالبنا جيراننا بالمياه فيصبح من حقنا عندها أن نطالبهم بما عندهم من النفط).

إن لهذه المشكلة عدة أوجه، أهمها ثلاثة، الأول: ان مستوى المياه في الأنهار الرئيسية قد انخفض إلى أكثر من ٥٠٪ [١٠٣٠] مما ألحق أضراراً فادحة بالزراعة والبيئة الريفية. والثاني: إن الأمم المتحدة تقدر احتياج الفرد من المياه سنوياً (١٠٠٠م٣)، وبالنسبة للعراق وحسب تقديرات العام ١٩٩٧ فانه (في عام ١٩٩٠ كان عدد سكان العراق يقدر ١٨ مليون نسمة وحصة الفرد من المياه كانت تقدر (٢٣٥٤م٣) في السنة، وستبلغ بسبب تدهور حالة المياه حصة الفرد من المياه حتى نهاية ٢٠٠٠ إلى (١٧١٨م٣) وفي عام ٢٠٢٥ عندما يكون عدد السكان ٤٦ مليوناً تقريباً ستكون حصة الفرد من المياه «٩٢٠م٣»[١٠٣١].

أما الوجه الثالث، فإن النقص في كميات المياه الواردة إلى العراق رفع من نسبة ملوحة مياه الأنهار، وبالتالي ملوحة التربة. خاصة بالنسبة لنهر الفرات، والذي يعاني إضافة لذلك من زيادة مياه البزل المعادة إلى النهر، وأيضاً من مروره بمناطق ملحية كمملحة السماوة، مما أدى إلى جعل مياهه (غير صالحة للري أو السقي)[١٠٣٢].

إن حل مشكلة المياه مع تركيا أصبح أكثر إلحاحاً ولكنه يحتاج إلى حكمة، وايضاً إلى صبر شديد. ثم ان استقراراً سياسياً في العراق وقيام نظام فيه يحظى بالدعم الشعبي، وازدهار الاقتصاد العراقي، وإقامة علاقات طيبة بين سوريا والعراق، واستقرار العلاقات بل وازدهارها مع إيران والدول الأخرى المحيطة بالعراق، وعودة العراق إلى مكانته العربية، سيخفف الكثير من غلواء تركيا في موضوع المياه. والتي يجب الربط

١٠٣٠- المرجع السابق. ص١٧٩.

١٠٣١- المرجع السابق. ص١٧٧-١٧٨.

١٠٣٢- المرجع السابق. ص٢٠١.

مستقبلاً بين تطوير العلاقات الاقتصادية معها وحل مشكلة المياه، حتى لو تطلب الأمر الاستغناء عن استخدام أنبوب النفط العراقي المار عبر الأراضي التركية، مع الحذر الشديد من تصعيد الموقف ومن ترك إسرائيل تستغل الأمور. وعموماً فإن عراقاً تجتمع فيه القوة والحكمة وبعيداً عن روح المغامرة سيكسب الكثير من احترام جيرانه.

❖ ❖ ❖

وواجهت الصناعة ظروفاً لا تقل سوءاً عن الزراعة بعد انقلاب ١٧ تموز. والمرء لا يمكنه التكهن بالعوامل التي جرى على أساسها اختيار ضابط صف أمي كطه الجزراوي وزيراً للصناعة. والذي بدا في السنوات اللاحقة بأنه قد يفهم في أي شيء إلا الصناعة. رغم أن كلاماً صاخباً له كان يدور في الإعلام العراقي عن الإنجازات الصناعية، وأن العراق على وشك البدء بالصناعات الاستثمارية. ويُقصد بها (صناعات الماكينات والمعدات والآلات والتجهيزات وكثير من صناعات وسائل النقل ومعداته)[١٠٣٣]. وادعى أيضاً بأن أول سيارة عراقية ١٠٠٪ ستنتج عام ١٩٨٥، والى آخره. ويقول اللواء وفيق السامرائي مدير الاستخبارات: (ان المصانع التي استنزفت بلايين الدولارات كانت أحلام يقظة، وتبين أننا أسوأ دولة في الإنتاج الصناعي على الإطلاق)[١٠٣٤].

وعانت الصناعة - رغم القروض والمخصصات التي رُصدت لها - من مشكلتين أساسيتين. الأولى سوء التخطيط وقصوره، والثانية مشكلة الإدارة الصناعية، والتي أضحت اختصاصاً مستقلاً ذا مجالات واسعة. ومن التكرار الممل، القول هنا بأن أميين وأنصاف أميين كانوا هم الذين يديرون المصانع، مع ما اشتهر به هؤلاء من افتقار

١٠٣٣- الدكتور أحمد الشافعي. اقتصاد وتخطيط الصناعة. دمشق ١٩٨٥. ص٩.

١٠٣٤- السامرائي. المرجع السابق. ص٢٥٣.

لطهارة اليد، فقد عين الشرطي الأمي لازم - والد ناظم كزار - مديراً لمعمل فتاح باشا الشهير، وبعد مؤامرة ابنه طُرد شر طردة من منصبه هذا.

إن أغلب معامل القطاع العام رغم احتكارها للأسواق الداخلية ومضي فترة طويلة على إنشاء بعضها، قد أصبحت خاسرة. وعقدت ندوة شهيرة عام ١٩٧٦ استمرت لعدة أيام حول انخفاض الإنتاجية برئاسة صدام الذي كان نائباً للرئيس. ولكن ما أنْ تحدث الدكتور ناجي الحداوي عن سوء الإدارة وعن تعيين ما نسميهم في هذا الكتاب بحثالة البروليتاريا في المناصب الإدارية، حتى قاطعه صدام بفظاظة وأسكته وقد أُعتقل الرجل في اليوم التالي، كما صدر قرار من مجلس قيادة الثورة بطرده من الجامعة، وانقطعت أخباره منذ ذلك اليوم.

وعندما بدأ الحصار كانت صناعات العراق - حتى الغذائية منها -صناعات تُستورد مكونات إنتاجها من الخارج. أما وقد فرض الحصار - الآن - فلم يعد بالإمكان استيراد هذه المكونات إلا عن طريق التهريب وبكلفة عالية، لذلك توقفت أغلب الصناعات.

وكأمثلة على تلك الصناعات، فقد كان يجري استيراد الجبن الفرنسي في حاويات كبيرة، وتقوم الصناعة العراقية بتعبئته في علب صغيرة تُطرح في الأسواق للاستهلاك، ويكتب عليها (صنع في العراق). أما السجائر العراقية - ومن بينها كانت أنواعاً جيدة تضاهي نكهة السجائر الأميركية - فقد كان تبغها يُستورد من الولايات المتحدة، وفلترها وورقها يستوردان من ألمانيا. وكانت علبة الدخان التي توضع فيها السجائر، تُصنع في قبرص. أما التبغ المحلي، فيطرح في الأسواق للاستهلاك المباشر، أو تُصنع منه سجائر رديئة.

حتى الألبان، كانت تستورد كمسحوق من هولندا بأكياس كبيرة كأكياس الإسمنت، ويُضاف إليه الماء في المصانع العراقية، ويعبأ في علب صغيرة ويُطرح للاستهلاك. وهكذا كل الصناعات الأخرى.

أن المشاكل الأساسية التي عانى منها الاقتصاد العراقي في السبعينات والثمانينات، والتي أدت إلى زيادة المستوردات، شأنه شأن اقتصاديات البلدان المتخلفة، (أهمها هي:

١- تزايد العمران المديني، المترافق بنقص في نمو الإنتاج الزراعي المعيشي، الأمر الذي يفرض زيادة المستوردات من المنتجات الغذائية الأساسية (قمح، رز، الخ).

٢- تزايد النفقات الإدارية، التي لا تتناسب مع إمكانيات الاقتصاد المحلي.

٣- التعديلات الطارئة على بنية توزيع الدخل و(أوربة..) أنماط الحياة والاستهلاك عند الفئات الاجتماعية المحظوظة (الآثار الدالة).

٤- عدم كفاية التطور الصناعي، وفقدان التوازن في البنية الاقتصادية..)[١٠٣٥].

وعندما بدأ الحصار انهارت الصناعة في العراق تماماً، يُستثنى من ذلك الصناعات الإنشائية، وهي صناعات تعتمد على مواد خام محلية ولا تحتاج إلى خبرة عالية. وعموماً، لو كانت هناك في العراق تنمية حقيقية في السبعينيات والثمانينيات، لكانت الآثار السلبية للحصار في التسعينيات أخف كثيراً.

إن الاقتصاد العراقي بعد الحصار، وخاصة قبل عام ١٩٩٦، أصبح يدور على عائدات (النفط) المهرب، عبر إيران أو الخليج أو الأردن، والتي تبلغ حوالي ٧٠٠-١٠٠٠ مليون دولار. ويبدو ان لدى النظام -أيضاً - رصيداً من العملات الصعبة مخصصاً للطوارئ، والذي بدأ يستخدمه الآن. إلا أن الكثير من الخدمات والنشاطات قد تعطلت، وأصبح مُرتب الموظف شهرياً لا يزيد عن دولارين. أما مسؤولو الحزب والدولة وقادة الجيش وكبار الضباط، وجميع ضباط المخابرات والأمن الخاص والحرس الجمهوري الخاص، فكانت لهم رواتب جيدة، بالإضافة إلى المخصصات والسيارات والبيوت المجانية، وهدايا النظام لهم من أموال وعقارات. زد على ذلك ما يحصل عليه الكثير منهم من رشى.

وأي نظام في العالم، يواجه مثل هذه الظروف، كان سينهار حتماً. إلا أن فاشية صدام وما يمتاز به من جرأة ونشاط، وأيضاً متابعته الدقيقة للمسائل المتعلقة بأمن النظام

١٠٣٥- د. سمير أمين. التطور اللامتكافئ. ترجمة برهان غليون. الطبعة الرابعة. بيروت ١٩٨٥. ص٢٠٠.

ومصيره. ولعلها أيضاً اللعبة الدولية، والتي كانت توجهاتها في تلك السنوات تقوم على مبدأ (أن صدام ضعيف خير من عراق قوي). أي أنها كانت تحاول إضعاف النظام ولكنها قد تتدخل في الوقت المناسب لمنع انهياره. كل ذلك جعل الأمور في العراق تستمر بقدر ما.

❖ ❖ ❖

كانت الصناعات العسكرية مهزلة أخرى إلى جانب الصناعات المدنية، خاصة أن النظام أراد فيما بعد أن يواجه بهذه الصناعات البدائية أكثر صناعات الحرب تقدماً كالصناعات الأميركية والإسرائيلية.

وثمة حقيقة أهملها العرب كثيراً، فأي بلد لا يصنع سلاحه هو بالضرورة ليس حراً في قراره، وتبقى خياراته محدودة. وقد أقامت إسرائيل صناعة عسكرية متقدمة وخطيرة، رغم أن مصانع السلاح الأميركي، وقبله الأوروبي - وخاصة الفرنسي - مفتوحة أمامها، للحصول على ما تريد من سلاح مجاناً أو بأسعار مناسبة، ولكن وكما ورد على لسان رئيس وزرائها: (ليس في مقدور بلد يحترم نفسه أن يعتمد على غيره - إلى الأبد)[١٠٣٦].

كان يجب على الدول العربية ومنها العراق، أن تبدأ مبكراً بخطوات مدروسة وجدية لبناء صناعة عسكرية، خاصة أن الظروف الدولية كانت تسمح بذلك. وللأسف أن تجربة مصر في الستينات تعثرت ثم توقفت. وأظن وقد أصبح العراق تحت الوصاية الدولية أو ما يشبه ذلك، بل ولا تختلف ظروف الدول العربية الأخرى عن ظروفه، وبسبب تغير الظروف الدولية والهيمنة الأميركية على العالم، فإن إقامة صناعة سلاح عربية تكاد تكون - في المستقبل المنظور - في حكم المستحيل.

١٠٣٦- هيكل. المؤامرة والسياسة والجريمة. السفير العدد (٨٩١٢) في ٢٠٠١/٥/٣١. ص١٦.

وقد بدأ العراق عام ١٩٨٢ وعلى عجل إقامة صناعات عسكرية. وكان يجب وصناعته العسكرية في طور التأسيس أن يتولى قيادتها رجل كفء ومثقف وذو خيال مبدع. ولكن - كالعادة - عُين على رأسها أحد أبناء (البروليتاريا الرثة) والتي لا أجد مناص في مثل هذه الحالات من استعمالها حتى وان تكررت كثيراً. فحسين كامل المسؤول عن الصناعات العسكرية - والذي لا يتجاوز تعليمه الابتدائية - كان يفتقر إلى كل ما تحتاجه صناعة عسكرية ناشئة من إبداع.

كان حسين كامل قاسياً، ولم يتردد أبداً في إنزال أقسى العقوبات بالمهندسين أو العمال، عندما يتصور أن هناك تقصيراً أو اهمالاً. ولقد سمعت من مصدر موثوق كان يعمل في الصناعات العسكرية، بأن حسين كامل أمر مرة حراسه باغتصاب مهندس لم ينجز عملاً كان قد أمر بإنجازه، وللمرء أن لا يصدق روايات كهذه لو أنها لا تتعلق بأشخاص من الدهماء قفزوا من قاع المجتمع إلى أعلى المناصب وأخطرها. وعلى أية حال، يبدو أن هذه الوحشية، ساعدت حسين كامل على أن ينجز بعض الأشياء.

وقد قدم الغرب - في الحرب العراقية الإيرانية - وبتمويل من دول الخليج، مساعدات كبيرة للعراق لإقامة صناعات كيمياوية واسعة[١٠٣٧]. حيث سُمح للنظام باستخدام الأسلحة الكيمياوية ضد إيران وضد شعبه فقط. ولكن في حرب الخليج الثانية وكما يقول مدير الاستخبارات اللواء السامرائي: (لم يستطع صدام حتى التلويح باستخدام الأسلحة الكيمياوية والجرثومية والتي يُعتبر التوسع فيها وفي القدرة النووية سبباً من أسباب حرب التدمير.. إن عدم قدرة صدام على استخدام الأسلحة الممنوعة سواء تجاه الحلفاء أو إسرائيل برغم هزيمته النكراء، أثبتت أنها عديمة الجدوى ولم تجلب لنا سوى الدمار ولا نرى فرصة لاستخدامها) [١٠٣٨].

١٠٣٧- السامرائي. المرجع السابق. ص٢٢٣.

١٠٣٨- المرجع السابق. ص٢٥٠.

إن الحرب في الكويت أثبتت أيضاً تخلف الصناعات العسكرية وعدم فعاليتها، إذ كان يجري تدمير السلاح العراقي من الجو أو البر أو البحر دون أن تصل قذيفة عراقية واحدة إلى العدو. ويبدو أن المهمة الوحيدة التي كان يصلح لها ذلك السلاح هو الحرب مع إيران.

أما صواريخ أرض - أرض فقد كان مجال الخطأ في الإصابة هو بين ٣-٥ كم، (وبذلك فقدت قيمتها الأساسية في الاستخدام لأغراض عسكرية حقيقية في المجالات التعبوية أو لضرب الأهداف النقطوية أو شبه النقطوية)[١٠٣٩]. أي أن صاروخاً كهذا لا يمكن أن يبقى في الخدمة في أية دولة متقدمة.

ولدي شك كبير بأنه في عام ١٩٩٠ كانت (البحوث النووية لم تعد بحاجة سوى لعام واحد أو أكثر قليلاً للتوصل إلى إنتاج قنبلة نووية عراقية)[١٠٤٠]، كما يقول أحد مسؤولي النظام.

الخلاصة، لقد أضاعوا على العراق فرصة (تصنيع عسكري) جدي ومتقدم، كما أضاعوا الفرص الأخرى، فبدلاً من تجربة حسين كامل البدائية، كان يجب إقامة تجربة أكثر جدية وأكثر وعياً. ومنذ بداية السبعينات على الأقل.

لقد دمرت الحروب مستقبل البلد، كما فشلت جميعها في تحقيق أي هدف. واعتبر كاتب عراقي ان ٨٥٪ من أيام حكم صدام كانت حروباً، الأمر الذي يفوق طاقة أي مجتمع، و(إذا كانت القدرة الاقتصادية غير قادرة على تحمل الأعباء العسكرية تنهار الإمبراطوريات) كما يقول بول كيندي.

١٠٣٩- المرجع السابق. ص ٣٠٢.

١٠٤٠- المرجع السابق. ص١٩٩.

ولا نملك أرقاماً دقيقة، عن خسائر هذه الحروب. أما تقدير خسائر إيران والعراق في حرب الثماني سنوات بـ (٣٥٠) مليار دولار، وتقدير خسائر حرب الخليج الثانية بحوالي (٤٥٠ مليار) دولار[١٠٤١]، ورغم أنها أكثر التقديرات تواضعاً، ورغم أن الرقم الأول يبدو مقبولاً، فإنها تبدو لي أرقام مضخمة، لأنها تتضمن من بين أشياء أخرى قيمة ما لم يتم تصديره من النفط بسبب ظروف الحرب. واعتقد إن بقاء النفط العربي في مكامنه أكثر جدوى لشعوب المنطقة من تصديره. فقد اصطحب الملك فهد بن عبد العزيز معه – صيف سنة ٢٠٠٢ – إلى منتجع (ماربيا) الأسباني، حاشية من خمسة آلاف شخص، و٥٠ سيارة ليموزين و٦٠٠ سيارة مرسيدس، وكان معدل نفقاته اليومية – وكل هذه المعلومات حسب صحيفة «لوموند» الفرنسية في ٢٠٠٢/٨/٢٧ والتي نشرتها كخبر رئيسي على صفحتها الأولى – حوالي ٣٠ مليون دولار. في حين أن الديون على السعودية لا تقل عن ربع ترليون.

ولم يعلن نظام صدام عن خسائره، وهناك افتراض دائم بأن النظام غير صادق في ما يعلنه من أرقام وبيانات حول الكثير من القضايا. فمثلاً، وفي ندوة سرية لكوادر وزارة النفط العراقية سنة ٢٠٠٠، طلب وزير النفط عامر رشيد منهم، أن يبالغوا في الحديث عن اكتشافات العراق النفطية، وأن يتحدثوا عن وجود نفط في المنطقة الوسطى، لأن ذلك يرفع من مكانة العراق الدولية والاقتصادية[١٠٤٢]. وربما كان ذلك يتعلق أيضاً بما يبيت للعراق طائفياً، وحتى تبدو المنطقة الوسطى كالمنطقتين الأخريين غنية أيضاً بالنفط.

إن العراق يملك ١٠٪ من الاحتياطي العالمي للنفط أو أكثر. ولكن نفط العراق كان دائماً وبالاً عليه. وكان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء لا يكف عن الترديد: (ان نفط العراق سيحرق العراق). ومهما كان خيال الشيخ واسعاً، فلا أظن أنه كان يتوقع ما

١٠٤١- راجع حسن العلوي. أسوار الطين (مرجع سابق). ص٢٢٠.

١٠٤٢- مصدر طلب عدم ذكر اسمه.

جرى في الثمانينات والتسعينات من حروب وكوارث ومجازر.

وقد اعترف طارق عزيز – في رسالة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية مؤرخة في ١٥ تموز ١٩٩٠–[١٠٤٣] بأن قيمة التجهيزات العسكرية التي اشتراها العراق في الحرب مع إيران كانت ١٠٢ مليار دولار، فضلاً عن النفقات الأخرى العسكرية والمدنية والتي بلغت معدلات عالية. وادعى أيضاً بأن العراق خسر جراء انخفاض صادراته النفطية خلال الحرب ما يقدر بـ (١٠٦) مليار دولار. وإذا افترضنا أن هذه الأرقام صحيحة، فإني لا أعتبر الرقم الأخير خسارة، حتى إذا لم يكن ذلك مقبولاً لدى الدراسات الاقتصادية الأكاديمية. إذ إن بقاء نفط العراق في مكامنه – وكما أشرنا إلى مثل ذلك قبل قليل – أفضل من هدره في الحروب والمؤامرات وتغطية نفقات العشيرة الحاكمة والحزب والمخابرات.. وغير ذلك.

❖ ❖ ❖

ان مستقبل العراق سيتحدد وفق الأداء الاقتصادي لحكوماته بعد صدام. وسيحتاج العراق رجلاً ذكياً ومثقفاً وذا خيال سياسي رائع بمستوى (ادناور) مستشار ألمانيا الغربية الشهير، والذي استطاع أن يحولها من بلد مُحتل، مُهان، مُخرب، ومُستنزف بالتعويضات إلى بلد أصبح فيما بعد القوة الاقتصادية الثالثة في العالم. وبما يتعلق باليابان وألمانيا (لم يكن مسموحاً للأمم المهزومة بأن تعيد بناء تسليحها في أول الأمر، فصار بإمكانها وضع جميع استثماراتها وكل مشاعرها الوطنية في حملة من أجل التطور الاقتصادي)[١٠٤٤]. وذلك بمساعدة القروض والمعونات الأميركية، وهو ما لن يتوفر

١٠٤٣– جريمة غزو العراق للكويت (مرجع سابق). ص٥٠٧.

١٠٤٤– جوان روبنسون وجون إيتويل. المرجع السابق. ص٣٩٩.

للعراق لسبب بسيط وجوهري، فهم لن يساعدوا أي بلد عربي لبناء اقتصاد متين يمكنه من الوقوف بوجه إسرائيل.

لم يكن (أديناور) رجل شعارات، إذ كان سياسياً واقعياً وطموحاً في آن معاً. فلم يشغل نفسه بالحديث عن ضم الجزء الشرقي من ألمانيا، والذي كانت تحتله روسيا، الا ان كل مواطن ألماني شرقي، أصبح حلمه وهو يرى إنجازات أديناور الانضمام إلى (ألمانيا الاتحادية)، وهو ما تحقق فعلاً بعد وفاة أديناور بعقدين ونصف تقريباً.

❖ ❖ ❖

إن العراق لم يعان من أي حرب دخلها كما عانى من الحصار الجائر وغير المبرر المفروض عليه، والذي يُراد به تحقيق ما لم تستطع الحروب تحقيقه، وقد قال عنه كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة - في ٢٠٠٠/١١/١٢ - للصحفيين عندما كان يشارك في مؤتمر القمة الإسلامي في قطر: (إني أشارككم بأن ما يجري في العراق هو معضلة أخلاقية).

واستقالت ممثلة (برنامج الغذاء العالمي) في بغداد - الألمانية بوتابور غهارت - بعد ساعات على قبول تنحي منسق النشاطات الإنسانية في العراق هانز فون سبونيك في ٢٠٠٠/٢/١٦. وبررت استقالتها بالاعتراض على قرار مجلس الأمن رقم ٢١٢٨٤ الذي يربط تعليق الحظر الاقتصادي بتعاون العراق مع لجنة مراقبة التسلح (إنموفيك).

لقد أجهز الحصار على اقتصاد العراق المستنزف أصلاً، بسوء التخطيط، وسوء الإدارة، والحروب المتتالية، ونهب الممتلكات العامة أيام الانتفاضة، وسياسة الأرض المحروقة لتدمير مناطقها، أي مناطق الانتفاضة.

وبالنسبة لتأثيرات الحروب المباشرة على الاقتصاد العراقي وبنيته التحتية، فإن الحرب العراقية - الإيرانية قد دارت على الأرض الإيرانية في البداية، ثم ظلت تدور على الحدود بين البلدين، وباستثناء أهداف قليلة جداً جرى إصلاحها مباشرة، لم تستطع

الطائرات أو الصواريخ الإيرانية الوصول إلى أهداف مهمة. لكن (الحرب العراقية -الإيرانية استنزفت احتياطياته من العملات الأجنبية البالغة (٣٥) بليون دولار، كما عرضته لديون أجنبية ضخمة)[١٠٤٥].

اما الحرب الأميركية على العراق والتي بدأت في ١٧ كانون الثاني ١٩٩١، ولا زالت مستمرة، فإن الطائرات الأميركية ضربت أهدافاً مهمة وكثيرة، ولكن مما خفف من الخسائر سحب الآلات والتجهيزات من المصانع والمنشآت العراقية ووضعها في أماكن آمنة مثل البيوت أو المدارس أو الشوارع، ثم أن الطائرات الأميركية كانت تضرب أهدافها من ارتفاعات عالية جداً تفادياً للدفاعات الجوية العراقية. ولذلك كما يقول وفيق السامرائي: (من أكثر من مائة ألف طلعة تمكنا من إسقاط حوالي (٨٠) طائرة أي طائرة واحدة من كل (١٣٠٠) طلعة)[١٠٤٦].

لقد انهار التعليم بتأثير الحصار. وتراجعت الخدمات الصحية من مصاف الدول المتقدمة إلى خرائب العالم الثالث. فقد تطورت الخدمات الصحية خلال الحرب مع إيران تطوراً كبيراً، بسبب كثرة الجرحى وما يتطلبه ذلك من توفير للعناية والعلاج، وبسبب ضخامة المساعدات الخليجية للمؤسسات الصحية العراقية. أما بعد الحصار فقد أصبحت المستشفيات العراقية تفتقر حتى إلى مادة التخدير، وأصبح قلع الأسنان يتم بدون تخدير، وكذلك العمليات الصغرى. وتعطلت الكثير من الأجهزة الطبية، وشحت الأدوية، واختفت خدمات صحية كثيرة. فمات الكثيرون ممن يعانون من القصور الكلوي، وظهرت من جديد - في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين - حالات كوليرا، وانتشر شلل الأطفال.

١٠٤٥- د. النصراوي. المرجع السابق. ص٢٠١.

١٠٤٦- السامرائي. المرجع السابق. ص٢٩٩ (اعتقد ان عدد الطائرات الامريكية، التي تم اسقاطها في العراق، اقل من العدد المذكور اعلاه بكثير).

لقد أعادوا العراق فعلاً إلى القرون الوسطى، وعندما قيل لوزيرة الخارجية الأميركية أولبرايت - في ١٩٩٦/٥/١٢- بأن هناك مليون طفل قد مات في العراق، فهل هناك ما يستحق هذا الثمن؟ أجابت بكل برود: (إننا نعتقد أن هناك ما يستحق هذا الثمن).

❖ ❖ ❖

في مقدمة المشاكل التي سيعاني منها العراق اقتصادياً واجتماعياً، هي الزيادة العالية في المواليد. وكان صدام قد طلب - خلال الحرب العراقية - الإيرانية - أن تلد كل عراقية خمسة أولاد. ومنع وسائل منع الحمل، وحمّل الأطباء مسؤولية موت أي مولود. فأصبح العراق في الثمانينات يضاهي الدول المتقدمة في قلة وفاة المواليد الجدد.

ومعدل نمو السكان في العراق والبالغ ٢،٨٪ سنوياً[١٠٤٧]، أو ٣،٣٪ حسب مصدر آخر[١٠٤٨]، هو من أعلى المعدلات في العالم. ورغم أن هذه الأرقام سابقة لعام ١٩٨٠، فلا أظن أن أشياء كثيرة قد تغيرت بالنسبة للنمو السكاني. فقد تضاعف عدد السكان في العراق خلال ربع قرن، بين عام ١٩٧٧ وعام٢٠٠٢، إذ كان عدد سكان العراق ١٢ مليوناً عام ١٩٧٧، أما عام ٢٠٠٢ فهو يقدر بين ٢٣-٢٥ مليون نسمة. وإذا بقي معدل الزيادة كما هو، فإن عدد سكان العراق سيصبح عام ٢٠٢٥ حوالي ٤٦ مليوناً.

وتعاني أغلب دول العالم الثالث من هذه المشكلة، إذ تأكل الزيادة السكانية النمو السنوي في الناتج القومي في بلدان تعاني أصلاً من تراجع معدلات النمو الاقتصادي، ومن نقص في الموارد. من جانب آخر، فإن تحديد النسل لا يعني أبداً أن نتائجه على نمو الدخل القومي ستكون فورية ومباشرة. بل أن هناك من يعتقد أنه (لا تتعدى هذه الزيادة

١٠٤٧- النصراوي. المرجع السابق. ص٢٠٤.

١٠٤٨- الأنصاري. المرجع السابق. ص٦٨.

بعد ٢٥ سنة من انخفاض الخصوبة تلك التي تتحقق في متوسط دخل الفرد والتي قد تنجم عن رفع معدل الناتج القومي من ٧٪ إلى ٧،٧٪ فقط)[١٠٤٩]. ولكن (ليس هناك خلاف على أن هذا «الانفجار السكاني» يتحول إلى عامل ضغط شديد على الموارد[١٠٥٠].

ولمواجهة الزيادة العالية في السكان يجب أن يكون هناك تحديد للنسل في العراق وقد مر بنا كيف أن الفرد في العراق – ومن بين مشاكل أخرى – سيواجه نقصاً في حصته من المياه. الا إن هذه الدعوة ستواجه العديد من الاعتراضات الدينية والاجتماعية. وسنسمع مجدداً الحديث بأن العراق – في زمن هارون الرشيد – كان أكثر من خمسين مليوناً، وأن الديك إذا صاح في البصرة يُسمع في بغداد كناية عن اتصال العمران وكثرة السكان.

ان المشاكل الاقتصادية الأساسية التي ستواجه العراق في المستقبل هي: الديون والتعويضات، والتضخم المفرط وانهيار العملة، وكلفة إعادة البناء[١٠٥١]. وسأنحي جانبا الأرقام الفلكية التي يذكرها بعض الباحثين، لانه لا توجد اصلا أرقام دقيقة عن الديون أو التعويضات أو إعادة البناء.

فهناك خلاف حول حجم ديون العراق. إذ (اعتبرت الحكومة العراقية الأرصدة المستلمة من بلدان الخليج خلال الحرب مع إيران منحاً. وأوضحت الحكومة موقفها هنا جلياً للأمم المتحدة، عندما أعلنت (أن إجمالي ديون والتزامات العراق الخارجية) يبلغ كما هي في ١٣ ديسمبر ١٩٩٠ بما يعادل (٤٢،١) بليون دولار)[١٠٥٢]. ويعلق أحد الاقتصاديين على ذلك بالقول: (حتى إذا تم القبول بالرقم المنخفض هذا، فستبلغ الالتزامات الفعلية عند رغبة تسديد هذا الدين خلال (٥) سنوات بما يعادل (٧٥،١)

١٠٤٩– د. عارف دليلة. بحث في الاقتصاد السياسي. بيروت. ١٩٨٧. ص١٢٥–١٢٦.

١٠٥٠– المرجع السابق. ص١٢٦.

١٠٥١– النصراوي. المرجع السابق. ص١٩٣ وما بعدها.

١٠٥٢– المرجع السابق. ص٢٠١.

بليون دولار)[١٠٥٣].

وهناك تقديرات بأن ديون العراق حتى نهاية عام ١٩٩٠ كانت ٨٦ بليون دولار، منها (٣٥) بليون دولار للحكومات والبنوك الغربية، (١١) بليون دولار للاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية، (٤٠) بليون دولار للدول العربية[١٠٥٤]. ويبدو أن الرقم الأخير يتضمن أيضاً دين العراق للسعودية والذي تنازلت عنه الأخيرة. فالخلاف يقتصر على دين العراق للكويت والإمارات العربية.

أما التعويضات[١٠٥٥]، ففي حالة الكويت فإنها تُقدر بما يعادل (١٠٠) بليون دولار. وأيضاً هناك حالة إيران، والتي قدر تقرير مجلس الأمن الدولي عام ١٩٩١ خسائرها - خلال الحرب العراقية - الإيرانية والتي اعتبر العراق مسؤولاً عن اندلاعها - بما يعادل (٩٧) بليون دولار. وتلتزم إيران الصمت حول المطالبة بأية تعويضات من العراق وأظن أنها مستعدة أن تتناسى الموضوع خاصة عندما يتغير النظام، وتقوم علاقة جيدة بين البلدين.

وقد بلغ حتى عام ٢٠٠١ (إجمالي التعويضات المدفوعة ١٣،٧ مليار دولار بما في ذلك نحو ٤،١ مليار دولار لهذا العام (٢٠٠١). ومن بين دفعة مقدارها ٨٩٢،٧٩ مليون دولار، تلقت شركات ووزارات كويتية ٧٩٧،٧ مليون دولار)[١٠٥٦].

ان ديون العراق من حربه مع إيران، والتعويضات المقررة في حالة الكويت، سوف تستنزف ميزانية العراق لربع قرن قادم على الأقل. أما التضخم المفرط وانهيار العملة، فإنه - ودون أن ننسى الديون والتعويضات - سيتحدد وفق الأداء الاقتصادي القادم

١٠٥٣- المرجع السابق. ص٢٠١.

١٠٥٤- المرجع السابق. ص٢٠١.

١٠٥٥- المرجع السابق. ص١٩٥.

١٠٥٦- صحيفة السفير اللبنانية. العدد (٩٠٥٧) في ٢٠٠١/١١/١٦.

والاستقرار السياسي. وللأرجنتين تجربة رائعة في خفض التضخم أيام حكم الرئيس كارلوس منعم، حيث تم تخفيض معدل التضخم من ٥٠٠٠٪ إلى معدلات عادية جداً. ولكن قد لا يعود الدينار إلى سعر صرفه القديم قبل اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية، وليس هناك ضرورة اقتصادية تحتم هذه العودة.

وتُذكر باستمرار أرقام عالية عن إعادة البناء، والتي تستند أغلبها على تقديرات مبالغ بها (لقيمة البنية التحتية المدمرة)[١٠٥٧]. وعموماً لسوء الحظ (أن مستقبل الاقتصاد العراقي يبدو، في الحقيقة، قاسياً)[١٠٥٨].

أخيراً إذا كانت (السياسة رؤية كاملة فيها اقتصاد قوي، ومجتمع متماسك، وهوية محددة، ومطلب مشروع، وتهديد محتمل)[١٠٥٩]. فإلى أين انتهى المطاف بالعراق وبالمنطقة كلها، على يد صدام؟ أليس على حافة الهاوية؟

١٠٥٧- راجع النصراوي. المرجع السابق. ص١٩٥.

١٠٥٨- المرجع السابق. ص٢١٢.

١٠٥٩- هيكل. المؤامرة والسياسة والجريمة. جريدة السفير. العدد (٨٩١٢) في ٢٠٠١/٥/٣١. ص١٧.

الخاتمة

ما هي آفاق المستقبل؟

ان التنبؤ بمستقبل العراق مهمة صعبة، وأحياناً تبدو وكأنها مستحيلة. فقد تعقد الملف العراقي كثيراً، وامتدت به السنين أطول مما يجب، وتداخلت فيه الخطوط والألوان.

ويبدو العراق - الآن - أمام ثلاثة احتمالات، هي الانقلاب العسكري والعدوان الأميركي واستمرار النظام الحالي.

وأعتقد أن كل من يعرف طبيعة النظام الفاشي في العراق، لابد أن يستبعد إمكانية وقوع انقلاب عسكري، وإن بدا حلاً مناسباً لإنقاذ العراق من حافة الهاوية، باعتباره أهون الشرين أو أهون الشرور، دون أن ننسى أن الكثير من قادة الجيش قد ساهموا في مأساة العراق، على الأقل كمنفذين لأوامر النظام. ولكن ما العمل؟ وقد ضاقت الخيارات أمام شعبنا. ولا أظن أن (الانقلاب العسكري) سيبقى مناسباً، إذا ما جاء في مرحلة تالية من هجوم عسكري أميركي، إذ سيكون العراق - في هذه الحالة - أمام خيار جاء به الهجوم، وليس أمام انقلاب عسكري (داخلي).

وإذا كان النظام قوياً وشرساً أمام المعارضة، فإنه في وجه أي هجوم أميركي محتمل سيبدو خائر القوى ومهلهلاً، وسينهار أسرع مما انهارت به حكومة طالبان في أفغانستان، ولن يدافع عنه أحد، فهو نظام انتهى عمره الافتراضي - على الأقل - منذ أزمة الكويت. وفي العقد الأخير، وبدلاً من تصحيح مسيرته وتجديد نفسه، كان يبدد أوراقه ويعزل نفسه. والعراقيون لن يأسفوا عليه، وسيرددون كالعادة (ان أميركا جاءت به، وأميركا أطاحت به)، وهو تصور يسكن وعي العراقيين بقوة.

أما اللعب بالورقة الطائفية، والتي أمدت بعمره، فقد استهلكت وضعف تأثيرها، وفرط النظام نفسه بها. فقد تفاعلت أزمة النظام حتى امتدت إلى داخل العشيرة الحاكمة، بل والى داخل بيت صدام نفسه، وهو الرئيس الوحيد في القرن الواحد والعشرين الذي لديه

أحفاد قد قتل آبائهم.

ان الإدارة الأميركية بتأثير جموح رهيب للقوة وبتغيرات هائلة في التخطيط الاستراتيجي، وهي تتحول من سياسة الردع والاحتواء تجاه أعدائها إلى سياسة الإجراءات الوقائية، أو الاستباقية، والى اعتماد سياسة خارجية تدخلية وصِدامية تسميها (سياسة أميركية دولية خاصة)، تجد في العراق هدفاً سهلاً ومغرياً لتفتتح به عصراً جديداً من العلاقات الدولية، يعود بالعالم إلى القرن التاسع عشر، عندما كانت الدول الكبرى، تحدد الهدف ثم تبحث عن السبب أو تختلق الذريعة.

الا ان السيطرة على العراق، تبقى مهمة غير سهلة أمام القوات الأميركية حتى إذا كانت أميركا قادرة - اليوم - على كبح الدول المجاورة من أن تمد لها اصبعاً في العراق.

فهناك (القوى الإسلامية) التقليدية والثورية، الشيعية والسنية، والقادرة أن تكرر في العراق ما حدث (للقوات الأميركية) في لبنان عام ١٩٨٣. والكلام هنا عن مرحلة ما بعد صدام، حيث تنوي القوات الأميركية البقاء لفترة أطول.

ثم هناك آثار عقدين من الحروب والحصار، اجتماعياً وسياسياً، كانتشار السلاح، والمجموعات المسلحة، وانفلات الأوضاع الأمنية، والتعود على القتل والقتال. فضلاً عن ثلاثة عقود من الفاشية والقتل والتعذيب، وما سينجم عن ذلك من ثأر وانتقام واقتتال.

وقبل هذا وبعد هذا، فان سقوط صدام، سيعيد ترتيب (الأولويات) عند الشعب العراقي، وستصبح مسألة الاحتلال، قضيته الأولى، خاصة في ظل أوضاع اقتصادية لن تتحسن لعقود، ومع ما تفرزه السياسة الأميركية في المنطقة من ردود أفعال.

إن أميركا - وكعادة أية قوة كبرى - لن تمكّن الشعوب من حكم نفسها وتقرير مصيرها. فهي تحاول التفكير نيابة عنها، وتشكيل مصيرها كما تراه هي لا كما تطمح إليه الشعوب. فالقوى الكبرى لا تحترم البتة مصالح الشعوب النامية وإرادتها.

وقد قالت اولبرايت مرة: (ان الحصار لن يرفع حتى لو التزم العراق بالقرارات الدولية ولو جاء نظام آخر فسنتفاوض على ذلك. ولكن ليس هناك رؤية واضحة لرفع الحصار). ولجيمس بيكر تصريح مماثل.

وسيدفع العراق - أياً كانت حكومته - ثمناً كبيراً في مقابل رفع الحصار ووقف

الغارات الجوية، وقبوله ثانية في المجتمع الدولي. ومن بين ذلك، إقامة فيدرالية عراقية بثلاثة أقاليم. وإقامة ديمقراطية مشابهة لديمقراطية أفغانستان ما بعد طالبان، أي ديمقراطية (البيعة)، فهناك مرشح واحد للسلطة، تأتي به أميركا ولو من وراء ستار، وعلى الآخرين أن يبايعوا.

ولكن سيكون أهم الشروط، هو خروج العراق نهائياً من الصراع العربي - الصهيوني، والاعتراف بكيان العدو، وتوقيع اتفاقية إنهاء الحرب معه.

ان الهدف الصهيوني كان دائماً الاستفراد بالشعب الفلسطيني، وكانت الخطوة الأولى، هي فصل العالم الإسلامي عن الصراع، فاعترفت تركيا بإسرائيل عام ١٩٤٩، ولحقت بها إيران في آذار ١٩٥٠، وتغلغل النفوذ الصهيوني في البلدين آنذاك، كما لم يتغلغل في أي مكان آخر.

واحتاج العمل على فصل الوطن العربي عن القضية الفلسطينية إلى الكثير من الوقت والحروب والمؤامرات والمناورات. واستطاعت إسرائيل أن تحقق عدة اختراقات هنا وهناك، في كردستان العراق، ومع الملك حسين، والحسن الثاني ملك المغرب، والرئيس بورقيبة في تونس، وفي حرب اليمن، وفي الحرب الأهلية اللبنانية. ثم توالت الانهيارات العربية: زيارة السادات، والحرب على الثورة الإيرانية، ثم غزو الكويت، والحصار على العراق. وفي عام ١٩٩١ كانت المحادثات المباشرة. وفي عام ١٩٩٢ كانت اتفاقية وادي عربة. وفي عام ١٩٩٣ كانت اتفاقية أوسلو، ثم انفرط الوضع العربي.

وعندما يرفرف العلم الإسرائيلي في بغداد، تكون المؤامرة قد وصلت إلى ذروتها، وقد تحقق ما قاله رابين: (إذا كان حزب الليكود يعمل من أجل إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، فأنا أعمل من أجل إسرائيل العظمى من المحيط إلى الخليج).

عند ذلك، سيكون هناك الكثيرون، ممن ينسون جرائم النظام ويتذكرون بطولاته الزائفة، هذا هو التاريخ أحياناً، خاصة أن نظام صدام كان يضع فلسطين واجهة يتغطى بها، دون أن يهمه الإساءة إليها، ودون أن يتردد في تحميلها حماقاته وأخطائه وجرائمه. فقد كتب على دباباته وهو يهاجم ثورة إيران: (من عبادان إلى فلسطين)، وكتب ايضاً عليها وهو يهاجم الكويت: (من الكويت إلى فلسطين). ولما خسر كل أوراقه في التسعينات

صعد من شعاراته عن فلسطين والإسلام والأمة العربية.

وتتكون (المجاميع) المتحمسة للمشروع الأميركي في العراق، من بقايا (الطبقة القديمة) التي أطاحت بها ثورة ١٩٥٨، والتي عادت مع أزمة الكويت إلى النشاط السياسي بقوة. وأيضاً من المنشقين على النظام، أي الذين جاءوا إلى المعارضة من الحزب الحاكم وقد انقلبوا عليه تماماً. وجاء بعضهم من آلته القمعية كنزار الخزرجي ووفيق السامرائي وسعد العبيدي. وهناك ايضاً (المتساقطون) من الحركات السياسية، وسيتكاثرون قبيل (اللحظة الحاسمة) وبعدها.

ويجب ألا ننسى المشروع الطائفي الجديد الذي دعا إليه (الملك حسين)، والذي قد تحاول الإدارة الأميركية فرضه على العراق، لتشتيت وحدته الوطنية، ولاشغال قواه بأمور داخلية عن مواجهتها. فأميركا باتخاذها خط العرض (٣٢°) كما لو كان حداً للجنوب، مع وجود دولة كردية فعلية في الشمال، إنما كانت ترسم كيانات دولة عراقية جديدة، فالتقسيم النهائي مستبعد حالياً، ولكن إقامة فيدرالية عراقية، أي دولة عاجزة سياسياً واقتصادياً بحكم ظروف العراق الحالية ولحاجة أي فيدرالية إلى فترة مناسبة لتتقوى وتترسخ، يبدو هدفاً محتملاً للحرب الأميركية القادمة.

هناك مسألة يجب الوقوف عندها طويلاً، وهو أن انفراط دول العالم الثالث بعد انهيار (أنظمتها الفاشية) يبقى احتمالاً قائماً. وتمثل الصومال أقرب مثال لانهيار بلد بسقوط نظامه الفاشي. على أية حال، فإن الأشهر القليلة القادمة ستكون حاسمة بالنسبة لمستقبل العراق، بل ولمستقبل المنطقة، سواء وقعت الحرب أو لم تقع، رغم أنها أوشكت أن تكون على الأبواب.

❖ ❖ ❖

كل ما أتمناه أن مستقبلاً أفضل ينتظر العراق، وأن لا تكون هذه الرؤية التشاؤمية التي طبعت هذه الخاتمة دقيقة أبداً.

مراجع الكتاب

١- إبراهيم، باقر. صفحات من النضال (على طريق التصحيح والتجديد والوحدة). دار الكنوز الأدبية. بيروت. ١٩٩٧.

٢- ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، مصر الطبعة الثانية، ١٩٦٥. ج١،ج٦،ج٧.

٣- ابن الأثير. الكامل في التاريخ. صححه وعلق عليه الشيخ عبد الوهاب النجار. ج٧، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

٤- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. المشروع السياسي، النظام الداخلي. الناشر دار الدليل، ١٩٩٥.

٥- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. الساحة التركمانية. ١٩٩٧.

٦- الاتحاد الإسلامي لتركمان العراق. الشهداء التركمان. ج١. الناشر دار الدليل للصحافة والنشر، ١٩٩٩.

٧- الأزري، عبد الكريم. مشكلة الحكم في العراق.

٨- د.اسكندر، أمير. صدام حسين مناضلاً ومفكراً وانساناً. فرنسا ١٩٨٠.

٩- إسماعيل، فائز. بدايات حزب البعث في العراق. دمشق ١٩٩٧.

١٠- الأمين، السيد محسن. أعيان الشيعة. حققه وأخرجه حسن الأمين. المجلد الأول. بيروت، ١٩٨٦.

١١- أمين، سمير. التطور اللامتكافئ، دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية. ترجمة برهان غليون. دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥.

١٢- الأمير، عدنان. بقية الصوت، حسن العلوي.. الإجابات المؤجلة. الناشر دار الزوراء، قبرص، ٢٠٠٠.

١٣- د. الأنصاري، فاضل. مشكلة السكان (نموذج القطر العراقي). منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠.

١٤- براك، فاضل. تحالفات الأضداد. الدار العربية، بغداد، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩.
١٥- البزاز. عبد الرحمن. العراق من الاحتلال حتى الاستقلال. دار البراق، لندن، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧.
١٦- البزاز، سعد. حرب تلد أخرى. الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية، ١٩٩٢.
١٧- بصري، مير. أعلام الكرد. رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩١.
١٨- بصري، مير. أعلام التركمان والأدب التركي في العراق الحديث. دار الوراق للنشر، لندن، ١٩٩٧.
١٩- بطاطو. حنا. العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. ترجمة عفيف الرزاز. الكتاب الأول. الناشر مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٠.
٢٠- بطاطو، حنا. العراق، الكتاب الثالث، الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار. ترجمة عفيف الرزاز. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٢.
٢١- حزب البعث العربي الاشتراكي. نضال البعث في القطر العراقي ١٩٥٨-١٩٦٣. ج٧، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.
٢٢- حزب البعث العربي الاشتراكي. نضال البعث. ج٩، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.
٢٣- حزب البعث العربي الاشتراكي. التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٤.
٢٤- حزب البعث العربي الاشتراكي. التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٢.
٢٥- حزب البعث العربي الاشتراكي. العزاوي شهادة وقضية. منشورات مكتب الدعاية والنشر والإعلام في القيادة القومية، دمشق ١٩٧٧.
٢٦- حزب البعث العربي الاشتراكي. شهداء ومواقف وأحداث في مسيرة الحزب. مؤسسة صوت الرافدين للنشر.
٢٧- بنك المعلومات العراقي. الإثارات الطائفية في العراق. ١٩٩٩.

٢٨-د. البياتي، حامد. شيعة العراق بين الطائفية والشبهات في الوثائق السرية البريطانية ١٩٦٣-١٩٦٦. دراسات وثائقية (٣). لندن ١٩٩٧.
٢٩- التكريتي، برزان. محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين. الطبعة الثانية. بغداد. ١٩٨٢.
٣٠- الجادرجي، كامل. مذكرات كامل الجاردجي وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي. دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠.
٣١- الجاردجي، كامل. من أوراق كامل الجادرجي. دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١.
٣٢- الجادرجي، رفعت. صورة أب (الحياة اليومية في دار السياسي كامل الجادرجي). مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٥.
٣٣- الجبوري، عبد الجبار حسن. الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨-١٩٥٨. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧.
٣٤- الجزائري، سعيد. المخابرات والعالم. ج١. منشورات مكتبة النوري، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦.
٣٥- الجواهري، محمد مهدي. ذكرياتي. ج٢. الناشر دار الرافدين، دمشق، ١٩٩١.
٣٦- جوان روبنسون وجون إيتويل. مقدمة في علم الاقتصاد الحديث. تعريب د.فاضل عباس مهدي. دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠.
٣٧- الحاج، عزيز. القضية الكردية في العشرينات. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
٣٨- الحسن، حمزة. الشيعة في المملكة العربية السعودية. الناشر مؤسسة البقيع لإحياء التراث، ١٩٩٣، جزءان.
٣٩- الحسن، طالب. حكومة القرية، فصول من سلطة النازحين من ريف تكريت. ج١. دار أور للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢.
٤٠- الحسن، طالب. سيرة تابع ذليل (١) عزت الدوري. منشورات دار الموقف.
٤١- الحسن، طالب. سيرة تابع ذليل (٢) طه الجزراوي الهزيل المنفوخ. منشورات دار الموقف، دمشق، ٢٠٠٠.
٤٢- حسن، داخل السيد. من لا يحضره الخطيب. ج٢. مؤسسة البلاغ، بيروت، ١٩٩١.

٤٣- الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية. عشرة أجزاء. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة السابعة، ١٩٨٨.

٤٤- د. حسين، طه. الفتنة الكبرى-٢- علي بن أبي طالب وبنوه. المجموعة الكاملة،المجلد الرابع، الشركة العالمية للكتب، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٦.

٤٥- حسين، العميد المتقاعد خليل إبراهيم. ثورة الشواف في الموصل ١٩٥٩، الجزء الأول، الصراعات بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. منشورات مكتبة بشار، بغداد، ١٩٨٧.

٤٦- حسين، العميد المتقاعد خليل إبراهيم. موسوعة ١٤ تموز (٥) سقوط عبد الكريم قاسم. الناشر مكتبة بشار، بغداد، ١٩٨٩.

٤٧- الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية. مهنتي كملك. ترجمة غالب عارف طوقان.

٤٨- حسين، صدام. نظرة في الدين والتراث. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨.

٤٩- الحسيني، محمد. الإمام الشهيد محمد باقر الصدر (دراسة في سيرته ومنهجيته). دار الفرات، بيروت، ١٩٨٩.

٥٠- الحكومة العراقية، المنحرفون. الناشر الهلال للنشر والتوزيع، لندن، الطبعة الثانية، ١٩٩٥.

٥١- الحلي، المحقق. شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام. شرحه وعلق عليه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب. ج١. دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٨.

٥٢- خدوري، مجيد. عرب معاصرون، أدوار القادة في السياسة. الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣.

٥٣- د. خدوري، مجيد. العراق الجمهوري. الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤.

٥٤- د. خدوري. مجيد. العراق الاشتراكي. الدار المتحدة للنشر. بيروت، ١٩٨٥.

٥٥- الخرسان، صلاح. حزب الدعوة الإسلامية حقائق ووثائق. المؤسسة العربية للدراسات والبحوث الاستراتيجية، دمشق، ١٩٩٩.

٥٦- الخرسان، صلاح. التيارات السياسية في كردستان العراق،قراءة في ملف الحركات والأحزاب الكردية في العراق ١٩٤٦-٢٠٠١. مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١.

٥٧- الخطيب، محب الدين. الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية. الطبعة العاشرة ١٤١٠هـ.
٥٨- الخليل، سمير. جمهورية الخوف، عراق صدام. دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩١.
٥٩- الخليلي، جعفر. الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ. منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٧٩.
٦٠- الخليلي، جعفر. هكذا عرفتهم. ج١، المجلد الأول. منشورات الشريف الرضي. قم.
٦١- الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، من منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى، طهران.
٦٢- خيري، زكي. وسعاد خيري. دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي. المجلد الأول.١٩٨٤.
٦٣- دكلة، صالح مهدي. من الذاكرة (سيرة حياة). دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٠.
٦٤- د. دليلة، عارف. بحث في الاقتصاد السياسي. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
٦٥- د. دميرجي، فاضل. ماضي وحاضر أتراك العراق. دار الطباعة لمؤسسة التاريخ التركي، أنقرة،١٩٩١.
٦٦- د. الدوري، عبد العزيز. الجذور التاريخية للشعوبية. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠.
٦٧- الحزب الديمقراطي الكردستاني (اللجنة التحضيرية). تقييم مسيرة الثورة وانهيارها والدروس والعبر المستخلصة منها. ١٩٧٧.
٦٨- ذبيان، سامي (وآخرون). قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. رياض الريس للكتب والنشر. لندن. ١٩٩٠.
٦٩- راندل، جوناثان. أمة في شقاق (دروب كردستان كما سلكتها). دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٧.
٧٠- الراوي، إبراهيم. ذكريات من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث. دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٩.
٧١- الركابي، فؤاد. الحل الأوحد. دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة، ١٩٦٣.
٧٢- الزبيدي، ليث عبد الحسين. ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق. منشورات مكتبة اليقظة

العربية، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨١.
٧٣- الزعبي، محمود. البينات في الرد على أباطيل المراجعات. ج١، ١٩٨٦.
٧٤- الزيدي، احمد. أزمة القيادة في العراق. دار الرافد. لندن، ١٩٩٣.
٧٥- السامرائي، وفيق. حطام البوابة الشرقية. إصدار شركة دار القبس للصحافة والنشر، الكويت، ١٩٩٧.
٧٦- السعيد، حسن. نواطير الغرب. مؤسسة الوحدة للدراسات والتوثيق، بيروت، ١٩٩٢.
٧٧- د. سعيد، علي كريم. عراق ٨ شباط ١٩٦٣ من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، مراجعات في ذاكرة طالب شبيب. دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٩.
٧٨- السهيل، سهيل. الإرهاب في العراق. دمشق.
٧٩- السويدي، توفيق. وجوه عراقية عبر التاريخ. رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧.
٨٠- السيد، جلال. حزب البعث العربي. دار النهار للنشر. بيروت، ١٩٧٣.
٨١- سيل، باتريك. أبو نضال بندقية للإيجار. مراجعة وتقديم أحمد رائف. الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٢.
٨٢- الفريق الشاذلي، سعد الدين. حرب أكتوبر. دار الكرمل، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤.
٨٣- د. الشافعي، محمود أحمد. اقتصاد وتخطيط الصناعة. الناشر جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٥.
٨٤- الشاهرودي، نور الدين. الحسين (ع) والحسينيون. مكتب عماد للطبع والنشر، طهران، ١٩٩٩.
٨٥- شبر، حسن. العمل الحزبي في العراق ١٩٠٨-١٩٥٨. دار التراث العربي، بيروت، ١٩٨٩.
٨٦- د. شريعتي، علي. التشيع العلوي والتشيع الصفوي. ترجمة حيدر مجيد. الناشر دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ٢٠٠٠.
٨٧- د. شكري، عزيز. ود. فؤاد ديب. القضية الفلسطينية والمشاكل المعاصرة (بعض الملامح القانونية). الناشر جامعة دمشق. الطبعة الرابعة، دمشق ١٩٩٠.
٨٨- الصالح، خالد علي. على طريق النوايا الطيبة. رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ٢٠٠٠.
٨٩- الصادق العهد، صفحات من حياة الداعية المؤسس الأستاذ الحاج (محمد صالح

الأديب). ١٩٩٩.
٩٠- الصالحي، العميد الركن نجيب. الزلزال. الناشر مؤسسة الرافد. لندن، ١٩٩٨.
٩١- الصباغ، العقيد الركن صلاح الدين. فرسان العروبة في العراق. الناشر الشباب العربي.
٩٢- الصراف، أحمد حامد. الشبك. بغداد، ١٩٥٤.
٩٣- الضابط، شاكر صابر، موجز تاريخ التركمان في العراق. ج١. بغداد. ١٩٦٠/١٩٦١.
٩٤- الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج٧. مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٩٣٩.
٩٥- د. الظالمي، رشيد. الزراعة في العراق. الناشر مؤسسة الرافد، لندن، ٢٠٠١.
٩٦- عبد الجبار، فالح. المادية والفكر الديني المعاصر، نظرية نقدية. الناشر مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي.
٩٧- عبد الكريم، فائق. عبد الصاحب دخيل، سيرة قائد وتاريخ مرحلة. الناشر دار العارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠١.
٩٨- د. عجينة، رحيم. الاختيار المتجدد (ذكريات شخصية وصفحات من مسيرة الحزب الشيوعي العراقي). دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٨.
٩٩- العزاوي، العميد جاسم كاظم. ثورة ١٤ تموز، أسرارها، أحداثها، رجالها، حتى نهاية عبد الكريم قاسم. شركة المعرفة للنشر والتوزيع المحدودة، بغداد، ١٩٩٠.
١٠٠- العلوي، حسن. عبد الكريم قاسم، رؤية بعد العشرين. منشورات دار الزوراء، لندن، ١٩٨٣.
١٠١- العلوي، حسن. الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤-١٩٩٠. دار الزوراء، لندن، الطبعة الثانية، ١٩٩٠.
١٠٢- العلوي، حسن. العراق دولة المنظمة السرية. الناشر الشركة السعودية للأبحاث والنشر.
١٠٣- العلوي، حسن. أسوار الطين، في عقدة الكويت وأيديولوجيا الضم.دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٥.
١٠٤- العمري، خيري أمين. حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث. منشورات مكتبة آفاق عربية، بغداد.
١٠٥- د. الغالي، كمال. مبادئ القانون الدستوري والنظم السياسية. نشر جامعة دمشق،

دمشق، ١٩٨٣.
١٠٦- د. غليون، برهان. المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات. دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩.
١٠٧- غنيمة، يوسف رزق الله. نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق. بغداد، ١٩٢٤.
١٠٨- فانس، سايروس. خيارات صعبة. المركز العربي للمعلومات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
١٠٩- فرحان، عبد الكريم. حصاد ثورة (مذكرات)، تجربة السلطة في العراق ١٩٥٨-١٩٦٨. دار البراق، لندن، ١٩٩٤.
١١٠- د. فرج، لطفي جعفر. الملك غازي ودوره في سياسة العراق في المجالين الداخلي والخارجي ١٩٣٣-١٩٣٩، مكتبة اليقظة العربية، بغداد، ١٩٨٧.
١١١- الفكيكي، هاني. أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي. رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣.
١١٢- فوزي، أحمد. عبد الكريم قاسم وساعاته الأخيرة. الدار العربية للطباعة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.
١١٣- الفياض، مقدام عبد الحسن باقر. تأريخ النجف السياسي ١٩٤١-١٩٥٨. بيروت، ٢٠٠١.
١١٤- الفيروز آبادي. القاموس المحيط. تحقيق مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
١١٥- كونسلمان، جيرهارد. سطوع نجم الشيعة. الثورة الإيرانية من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٩. ترجمة محمد أبو رحمة. مكتبة مدبولي. القاهرة، ١٩٩٢.
١١٦- لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان. قرارات تفضح انتهاكات حقوق الإنسان في العراق. ١٩٩٣.
١١٧- لوثر، وليم. قصة المدفع العملاق، انطلاقة حرب الخليج. ترجمة فؤاد حطيط. دار عالم ألفين، باريس، ١٩٩٢.
١١٨- مجموعة من الكتاب. إيران ١٩٠٠-١٩٨٠، الثورات المعاصرة، القوة السياسية والاجتماعية، دور الدين والعلماء، سياسة التسلح وسياسة التوكيل. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٠.

١١٩- مجموعة من الكتاب. دراسات في الفاشية. ترجمة جوزيف سماحة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
١٢٠- مردان، جمال مصطفى. انقلابات فاشلة في العراق. الناشر المكتبة الشرقية.
١٢١- المركز الإسلامي للأبحاث السياسية. جرائم صدام (عرض وثائقي). طهران، ١٩٨٣.
١٢٢- المركز الإعلامي الكويتي. جريمة غزو العراق للكويت، أحداث ووثائق. القاهرة، الطبعة الثانية.
١٢٣- مطر، فؤاد. صدام حسين، الرجل والقضية والمستقبل. دار القضايا-المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.
١٢٤- مطهري، مرتضى. الإسلام وإيران. ج١. ترجمة محمد هادي اليوسفي الغروي. الناشر منظمة الإعلام الإسلامي، إيران.
١٢٥- مطهري، مرتضى. الملحمة الحسينية. الناشر المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم، الطبعة الثانية، ١٩٩٠.
١٢٦- المفيد، الشيخ. تصحيح الاعتقاد. تحقيق حسين دركاهي. الناشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد. ١٤١٣هـ.
١٢٧- المقريزي. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. الناشر دار صادر، بيروت.
١٢٨- المنظمات الشعبية العراقية. حول انتهاكات النظام الفاشي العميل لحقوق الإنسان في العراق. مؤسسة (صوت الرافدين) للنشر ١٩٨٤.
١٢٩- د. النصراوي، عباس. الاقتصاد العراقي، بين دمار التنمية وتوقعات المستقبل ١٩٥٠-٢٠١٠. ترجمة محمد سعيد عبد العزيز. دار الكنوز الأدبية، بيروت.
١٣٠- د. نظمي، وميض جمال عمر. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
١٣١- النفيسي، عبد الله فهد. دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣.
١٣٢- نقاش، إسحاق. شيعة العراق. نشر المكتبة الحيدرية، قم، ١٩٩٨.

١٣٣- نكديمون، شلومو. الموساد في العراق ودول الجوار، انهيار الآمال الإسرائيلية والكردية. ترجمة بدر عقيلي. دار الجليل، عمان، ١٩٩٧.

١٣٤- هاردي، روجر. الجزيرة العربية بعد العاصفة. ترجمة حسين موسى. دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٤.

١٣٥- هوليداي، فريد. مقدمات الثورة في إيران. ترجمة مصطفى كركوتي. دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩.

١٣٦- هويدي، أمين. كنت سفيراً في العراق ١٩٦٣-١٩٦٥. دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٣.

١٣٧- هيكل، محمد حسنين. مدافع آية الله، قصة إيران والثورة. دار الشروق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.

١٣٨- هيكل، محمد حسنين. المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الثاني، عواصف الحرب وعواصف السلام. دار الشروق، الطبعة الخامسة، ١٩٩٦.

١٣٩- هيكل، محمد حسنين. كلام في السياسة، قضايا ورجال:وجهات نظر. المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، ٢٠٠٠.

١٤٠- وثائق الجبهة الكردستانية العراقية.

١٤١- د.الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. ج٢.دار كوفان للنشر، لندن، الطبعة الثانية، ١٩٩٢.

١٤٢- د. الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. ج٥، (حول ثورة العشرين)، القسم الأول، بغداد، ١٩٧٧. القسم الثاني، بغداد، ١٩٧٨.

١٤٣- د. الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. ج٦. بغداد. ١٩٧٦.

١٤٤- د. الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث.ملحق الجزء السادس (قصة الأشراف وابن سعود). بغداد، ١٩٨٠.

١٤٥- وزارة الدفاع، محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة. ج٢، ج٢٠. مطبعة الحكومة، بغداد.

١٤٦- ياغي، إسماعيل. حركة رشيد عالي الكيلاني. دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤.

المقالات والبحوث والمقابلات الصحفية:

١- البياتي، عباس. التركمان في العراق. مجلة الموسم. العدد العشرون، ١٩٩٤.

٢- حبي، الأب يوسف. قراءة في مستقبل مسيحية العراق. الملف العراقي، العدد (٥٦)، آب ١٩٩٦.

٣- الحسني، هادي. الجنسية العراقية منذ العشرينات. الثقافة الجديدة، العدد ٢٧٠، لشهري حزيران وتموز ١٩٩٦.

٤- الحسيني، جعفر. من تاريخ العراق المعاصر، الذين أذاعوا البيان الأول في الانقلابات. صحيفة الموقف. العددان (٨١) و(٨٢)، في ١٢ أيار ١٩٩٤ و ٢حزيران ١٩٩٤.

٥- الحسيني، عبد الحسين. بحث عن حزب الدعوة نشر على شبكة الانترنت (ملتقى الحجاز الثقافي).

٦- الحصونة، صاحب. مذكرات سجين، هكذا عشت مصرع وزير الدفاع العراقي الأسبق. جريدة (نداء الرافدين)، العدد ٢٤٧، ٢٣ آب ٢٠٠١.

٧-الحكيم، السيد محمد باقر. نظرية العمل السياسي عند الشهيد محمد باقر الصدر. المنهاج، العدد ١٧، ربيع ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٨- حواتمة، نايف. (مقابلة معه) جريدة الرأي العام الكويتية، عدد ٣ تشرين الثاني ١٩٩٩. نشرت في الملف العراقي، العدد ٩٦، كانون الأول - ديسمبر ١٩٩٦.

٩- الدجيلي، صفاء. صدى مقتل الحسين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي. مجلة الموسم، العدد الثاني عشر، ١٩٩١.

١٠- د. السامرائي، سعيد. حول المشكلة الطائفية في العراق. مجلة الموسم، العدد الرابع عشر، ١٩٩٣.

١١- شاكر، سعدون، يروي قصة الثورة، (مقابلة معه) مجلة ألف باء، العدد (٥١٢) ١٢ تموز ١٩٧٨.

١٢- د. شاهين، جاك. (العربي.. كما تراه هوليوود). مجلة العربي، العدد ٣٥٣، أبريل ١٩٨٨.

١٣- الشرقي، طالب علي. من تاريخ الشعائر الحسينية في النجف الأشرف (العراق). مجلة الموسم، العدد الثاني عشر، ١٩٩١.

١٤- صابر، ثائر. الصابئة المندائيون. مجلة الثقافة الجديدة، العدد ٢٠٢، تشرين الأول ١٩٩٨.

١٥- طالب، علي. هؤلاء هم قتلة الشعب،العميد سعدون صبري الحديثي. جريدة الموقف، العدد ١٩٧، ١٩٩٩/٦/١٠.

١٦- د. عثمان، محمود. (مقابلة معه). مجلة الوسط. العدد ٢٩٨ في ١٩٩٧/١٠/١٣، والعدد ٢٩٩ في ١٩٩٧/١٠/٢٠.

١٧- علي، شيخ. حول اليزيدية. مجلة الثقافة الجديدة. العدد ٢٠٥، كانون الثاني ١٩٨٩.

١٨- فحص، هاني. أفغانستان الوحدة والمصير. جريدة السفير، العدد ٩٠٣٦، ٢٠٠١/١٠/٢٣، ص١٩.

١٩- اللامي، علاء. وثائق المؤتمر الوطني السابع للحزب الشيوعي العراقي. جريدة السفير،العدد ٩٠٢٨، ٢٠٠١/١٠/١٣، ص١٩.

٢٠- ماذا حصل؟ ولماذا حصل الذي حصل؟ الحلقة الثانية، نقد الشعب العراقي، التأثير الطائفي الإيراني. جريدة الثورة (بغداد)، عدد ٤ نيسان ١٩٩١.

٢١- محمد، عزيز. (مقابلة معه). مجلة الوسط. العدد ٢٨٧، ١٩٩٧/٧/٢٨.

٢٢- محمود، إبراهيم. حركية حثالة البروليتاريا في العالم الثالث. مجلة النهج، العدد ٣٢، ١٩٩٠.

٢٣- النفط الكويتي.. من كارثة الدمار إلى الانطلاق بثقة. مجلة العربي، العدد ٥٠١، أغسطس/آب ٢٠٠٠.

٢٤- هيكل، محمد حسنين. سياحة صيف في الوثائق الإسرائيلية. جريدة السفير، العدد ٨٧١٨، ٢٠٠٠/٩/٣٠.

٢٥- هيكل، محمد حسنين. المؤامرة والسياسة والجريمة. جريدة السفير. العدد ٨٩١٢، ٢٠٠١/٥/٣١.

٢٦- هيكل، محمد حسين. (مقابلة معه). مجلة رزو اليوسف. العدد ٣٦٣٦، ١٦ فبراير ١٩٩٨.

٢٧- وردة، وليام. الآشوريون في العراق.. التاريخ والحاضر. مجلة دراسات عراقية، العدد التاسع، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٩.

٢٨- يونس، مسعود. (طائفة إسلامية) جديدة في لبنان. جريدة السفير، العدد ٩٠٦٩، ٢٠٠١/١٢/١.

المقابلات الشخصية:

١- فوزي الراوي. عدة مقابلات في دمشق.

٢- صادق جعفر الحاوي. دمشق، ١٩٩٨/٩/٥.

٣- وائل الهلالي. دمشق، ٢٠٠٠/٥/٦.

٤- عباس البياتي. دمشق. ٢٠٠٠/١٠/٢٤.

٥- لقاء مع مكتب دمشق للاتحاد الإسلامي للتركمان، ٢٠٠٢/٣/٧.

٦- حسن شبر. دمشق، ٢٠٠٢/٤/٢٤.

الصحف والمجلات:

١- ألف باء (بغداد).

٢- الثقافة الجديدة (المجلة الشهرية للحزب الشيوعي العراقي).

٣- دراسات عراقية (فصلية تصدر عن المركز العراقي للإعلام والدراسات).

٤- السفير (اللبنانية).

٥- العربي (الكويتية).

٦- المنهاج (فصلية إسلامية).

٧- الملف العراقي (شهرية يصدرها مركز دراسات العراق في لندن).

٨- الموقف (جريدة حزب الدعوة الإسلامية في دمشق).

٩- الموسم (فصلية تصدر عن أكاديمية الكوفة في هولندا).

١٠- نداء الرافدين (جريدة المجلس الأعلى في دمشق).

١١- النهج (تصدر عن مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي).

١٢- الوسط (لندن).

١٣- روز اليوسف (المصرية).

بالاضافة إلى عدد كبير من المقابلات والبرامج التلفزيونية والإذاعية.

سيرة المؤلف

اعتقالات ومؤلفات

ولد المؤلف والكاتب السياسي جعفر الحسيني سنة ١٩٥٨، نال درجة البكالوريوس في الحقوق سنة ١٩٩٦. اعتقل لأول مرّة، ولمدة شهر في سنة ١٩٧٧، اما اعتقاله الثاني فحصل في ١٠/ ١/ ١٩٨٢، وقد كان طالباً في كلية القانون والسياسة/ قسم القانون/ المرحلة الرابعة، حيث وضع في زنزانة انفرادية في مديرية الامن العامة لأكثر من سنة ونصف، ثم حُكم من قبل محكمة الثورة سيئة الصيت بالحبس لمدّة خمس سنوات.

بعد خروجه من السجن، صدر أمر باعتقاله، فاختفى ثلاث سنوات ونصف في دار صديقه الشيخ محمد حسن البزوني. بعدها هرب الى الكويت عبر الصحراء في يوم ١٥/ ٣/ ١٩٨٩، وهناك لاحقتهم شرطة الحدود، حيث قُتل المهربان اللذان رتّبا رحلته، وقُبض عليه جريحاً، وبعد معالجته في المستشفى، نقلوه الى السجن المركزي حيث مكث فيه ثمانية أشهر، حتى استقرت اقامته في سوريا منذ ٥/ ١١/ ١٩٨٩. يكتب في الشأن السياسي العراقي والعربي، نشر مقالاته في العديد من الصحف العراقية والعربية.

من مؤلفاته:

١- على حافة الهاوية (العراق ١٩٦٨-٢٠٠٢) طبع في لندن / كانون الاول ٢٠٠٢

٢- ثورة في العراق (العراق ١٩٥٨- ١٩٦٣) طبع مرتان.

٣- بين انقلابين (العراق١٩٦٣- ١٩٦٨) معد للطبع

٤- السقوط في الهاوية (العراق ٢٠٠٣-٢٠٠٧) معد للطبع.

٥- الحركات السياسية في العراق (١٩٥٨ - ١٩٦٨) معد للطبع.

الفهرس

الإهـداء ٥

المقدمة ٩

الفصل الأول: الانقلاب المشبوه ١٣

الفصل الثاني: رؤوس الانقلاب ٣٢

الفصل الثالث: تاريخ مسدس (مكتب العلاقات العامة) ٦٣

الفصل الرابع: الكذب سلاح الفاشية ١١٥

الفصل الخامس: الجبال الدامية ١٤٢

الفصل السادس: المعضلة الأساسية الطائفية ١٨٤

الفصل السابع: سنوات الهرير - الخلاف مع سوريا ٢٢٣

الفصل الثامن:

١- الزلزال ٢٥٦

٢- الطاحونة: قادسية صدام ٢٨٦

الفصل التاسع: شعلة البعث ٣٠٢

الفصل العاشر: اللعب مع الكبار ٣٥٥

الفصل الحادي عشر: الحصار: أين التنمية؟ ٣٨٣

الخاتمة: ما هي آفاق المستقبل؟ ٤١٣

مراجع الكتاب ٤١٨